

FIFA WORLD CUP
Qatar2022
16.12.2022

كيلي جيمس كلارك

نديم للترجمة

الله والدماغ

عقلانية الاعتقاد

ترجمه إلى العربية
محمد سيد سلامة

@ketab_n



ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية - ناشرون

كيلي جيمس كلارك

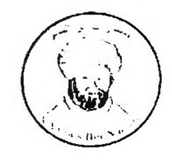
اللّٰه والدِّماغ

عقلانيَّة الاعتقاد

ترجمه إلى العربية

محمد سيد سلامة





اللّه والدّماغ

عقلانيّة الاعتقاد

العنوان الأصلي للكتاب

GOD AND THE BRAIN: THE RATIONALITY OF BELIEF
Kelly James Clark
Copyright © William B. Eerdmans Publishing Co., 2019

الله والدّماغ

عقلانيّة الاعتقاد

كيلي جيمس كلارك

الطبعة الأولى، 2022
عدد الصفحات: 335
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-614-466-141-3
الإيداع القانوني: السداسي الأول/2022

جميع الحقوق محفوظة

ابن النديم للنشر والتوزيع
وهــــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلـــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
خلوي: 28 28 69 3 961+
هاتف: 37 04 74 1 961+
ص.ب. 113/6058
الحمـراء، بيروت-لبنان
Email: rw.culture@yahoo.com
info@dar-rawafed.com
www.dar-rawafed.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي المؤلف ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

المحتويات

مقدمة المترجم

في علوم الإدراك وعلم الدين الإدراكي

من المفارقات أن العقل الذي أوصلنا إلى معرفة الكثير عن الكواكب والنجوم والمجرات، والعناصر وتركيبها الذري، ووظائف أعضاء الكائنات الحية وتركيبها الخلوي، لا يزال هو ذاته كيانًا غامضًا محيرًا يستعصي على حل تعقيدة وفك شفراته. ولطالما كان سؤال العقل البشري محط أنظار الفلاسفة والمفكرين: ما هو ذلك الشئ الذي نعقل به أنفسنا والعالم؟ ما طبيعته؟ ومن أين أتى؟ وكيف يعمل؟ ولماذا علينا أن نثق في أحكامه؟ ظلت هذه الأسئلة عصية على الظفر بجواب حاسم قاطع رغم مرور آلآلف السنين منذ أن بدأ الفلاسفة بحثهم في طبيعة العقل.

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تضاءل الاهتمام بدراسة العقل وطبيعته وتزايد الاهتمام بالتجربة والملاحظة. وظهرت النزعة السلوكية behaviorism في علم النفس -وهو العلم المختص بدراسة العقل والأفكار- متأثرة بالمناخ الفكري السائد حينئذ الذي يحصر مفهوم المعرفة فيما هو قابل للقياس والملاحظة والتحقق التجريبي. وقد سعت السلوكية إلى تطبيق المنهج العلمي التجريبي على مسائل علم النفس ونبذ الاشتغال بالغوامض واللامحسوس من الأمور، مثل: الشعور والحالات العقلية والإرادة والنوايا وغير ذلك مما لا ينتج علمًا بحسب السلوكية[1]. وأكدت السلوكية على أن تفسير السلوك البشري

---

(1) لعله من المفيد هنا التنبيه على أن النزعة السلوكية في علم النفس تختلف عن نظيرتها في الفلسفة. فالسلوكية الفلسفية philosophical behaviorism تعترف بالحالات العقلية، وتعتبرها نزوعات أو ميولاً تجاه سلوك معين في ظل ظروف معينة. فالسعادة مثلا يمكن اعتبارها ميلًا للابتسام أو الضحك. ومما يدعم هذه الفكرة وجود روابط قوية بين الحالات العقلية =

والحيواني ينحصر في معرفة المثيرات والاستجابات التي تحددهما البيئة المحيطة، وذلك مما يمكن ملاحظته وقياسه بل والتحكم فيه أحيانًا بخلاف الحالات العقلية، وبذلك فقط يمكن للدراسات النفسية أو السيكولوجية أن تكون "علمًا" قابلًا للملاحظة والقياس والتجربة والتنبؤ والتأطير. ولم يكد الفكر أن يلتقط أنفاسه من تجشم سؤال العقل حتى انبثقت الثورة الإدراكية في خمسينيات القرن الماضي، تلك الحركة الفكرية العلمية التي أزالت هيمنة النزعة السلوكية على الدراسات النفسية وأعادت الاعتبار مرة أخرى للكلام عن العقل والحالات العقلية (الشعور والرغبات والفكر والاستدلال والعزيمة، الخ).

الثورة الإدراكية The Cognitive Revolution

ظهرت الثورة الإدراكية كرد فعل لنتائج الدراسات التي أجراها عدد من العلماء المعارضين للنزعة السلوكية، والتي تناولت العقل من زوايا مختلفة، وبينت أن "البشر ليسوا ألواحًا فارغة من أي محتوى عقلي داخلي، بل إن العمليات الإدراكية موجودة وتؤثر على السلوك البشري"[2]. وترتب على ذلك أنه "لا يمكن بناء أي نظرية عقلية (إنسانية أو حيوانية) مقبولة دون افتراض حالات تمثيل داخلية[3] تتوسط المثير الحسي والاستجابة السلوكية، وهذه الحالات نظرية، ولا

= والسلوك. فكثير من الناس يبتسمون عندما يكونون سعداء أو يبكون عندما يكونون حزينين. ومع ذلك، لا يمكننا إثبات أي علاقة ضرورية سببية بين الحالة العقلية والسلوك. فقد لا يبكي "الرجل القوي" عندما يكون حزينًا خوفًا من أن يُنظر إليه على أنه ضعيف. وأما السلوكية النفسية فتتجاهل الحالات العقلية تمامًا، وينصب بحثها على القوانين التي تحكم العلاقة بين المنبهات والاستجابات وكيفية تشكيل الاستجابات من خلال التلاعب بالمحفزات مثل المكافآت والعقوبات. انظر:

Jay D. Friedenberg and Gordon W. Silverman, *Cognitive Science: An Introduction to the Study of Mind*, Second edition (Thousand Oaks, Calif: SAGE Publications, Inc, 2012), 26.

(2) Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion: Connecting Evolution, Brain, Cognition, and Culture* (New York: Routledge, 2021), 3.

(3) التمثيل العقلي هو صورة أو رمز أو كيان افتراضي في العقل يمثل شيئًا من الأشياء المدركة. وتتعدد صور التمثيلات العقلية لما لا حصر له ومن أشهر أمثلتها المفاهيم، الكلي =

يمكن اختزالها إلى تراكيب قابلة للملاحظة"[4]. وحول الأثر الذي أحدثته الثورة الإدراكية يقول نعوم تشومسكي: "شهد النصف الثاني من القرن الماضي تحقيقًا مكثفًا وغالبا ما كان مثمرًا غاية الإثمار حول الملكات الإدراكية البشرية وطبيعتها وطرق دخولها في الفعل والتفسير. وقد تبنى هذا التحقيق عمومًا الأطروحة التي تذهب إلى أن الأشياء العقلية، بل العقول، هي خصائص منبثقة للأدمغة. وذلك مع الاعتراف بأن هذه الانبثاقات تنتج عن مبادئ تتحكم في التفاعلات بين أحداث المستويات الدنيا - تلك المبادئ التي لا نفهمنا حتى الآن"[5].

وقد كان على رأس التخصصات التي خرجت منها نتائج الدراسات المعارضة للمدرسة السلوكية علم النفس واللغويات والرياضيات. ففي اللغويات مثلًا خرج نعوم تشومسكي بأدلة قوية على أن الآليات القائمة على المثيرات المحضة لا يمكنها أن تُعلم بمفردها بينة اللغة الطبيعية؛ فتعلم اللغة يستلزم على الأقل وجود بعض البنى التمثيلية الإدراكية الغريزية التي تحدد قواعد نحوية محتملة يتم اختيارها من خلال التعرض للبيانات اللغوية[6]. يقول تشومسكي: "نشأت القواعد النحوية

= منها والجزئي. فالأول، وهو الكلي، مثل الكتاب وهو مفهوم يصدق على كثيرين متفقين في الحقيقية ولا وجود له خارج العقل، والثاني مثل أحمد وهو مفهوم جزئي ينطبق على شخص واحد، ومن أمثلة التمثيلات العقلية القضايا (وهي تمثيلات معقدة تتكون من تمثيلات أبسط: المفاهيم الكلية والجزئية) وكذلك من أمثلة التمثيلات العقلية القواعد كقواعد المرور على سبيل المثال. وتتميز التمثيلات بخصائص: فهي ذات محتوى (معنى تمثله)، ولابد لها من حامل (إنسان)، وأن يكون بينها وبين ما تمثله علاقة ما، ومحتاجة إلى من يفسرها إما من خلال الشخص الحامل لها أو من خلال شخص آخر. وعلى الرغم من أن التمثيلات العقلية أحد أساسيات علم الإدراك فإنه لا يوجد إجماع حتى الآن عن ماهية التمثيلات وما عساها أن تكون. انظر:

Friedenberg and Silverman, 3, 18-19.
Gary R VandenBos and American Psychological Association, *APA dictionary of psychology*, 2015, 614.

(4) انظر:

Rick Grush, "Cognitive Science," in *The Blackwell Guide to the Philosophy of Science* (John Wiley & Sons, Ltd, 2002), 273, https://doi.org/10.1002/9780470756614.ch13.

(5) Noam Chomsky, *New Horizons in the Study of Language and Mind*, 1st edition (New York: Cambridge University Press, 2000), 1.

(6) Grush, "Cognitive Science," 274.

التوليدية في سياق ما يُسمى غالبًا "الثورة الإدراكية" في الخمسينيات، وكانت عاملاً مهمًا في تطوررها. وسواء كان مصطلح "ثورة" مناسبًا أم لا ، فقد كان هناك تغيير مهم في المنظور: ذلك أن الدراسات تحولت من دراسة السلوك ومنتجاته (كالنصوص) إلى دراسة الآليات الداخلية الداخلة في الفكر والفعل. فالمنظور الإدراكي لا يعتبر السلوك ومنتجاته موضوعًا للبحث والتحقيق، بل بيانات قد توفر أدلة حول الآليات الداخلية للعقل والطرق التي تعمل بها هذه الآليات لتنفيذ الأفعال وتفسير الخبرات. نعم، ستجد الخصائص والأنماط التي كانت محور الاهتمام في علم اللغويات البنيوية مكانها، لكن كظواهر يجب شرحها جنبًا إلى جنب مع غيرها من الظواهر التي لا حصر لها في ضوء الآليات الداخلية التي تولد التعبيرات. إنها مقاربة "عقلية"، ولكن بطريقة ينبغي أن تجعلها غير مثيرة للجدل. فهي تركز على "الجوانب العقلية للعالم" التي تقف بجوار جوانب العالم الميكانيكية والكيميائية والبصرية وغيرها، وتلتزم بدراسة كائن حقيقي في العالم الطبيعي - وهو الدماغ وحالاته ووظائفه - وهي بذلك تقود دراسة العقل نحو الإندماج مع العلوم البيولوجية في نهاية الأمر"[7]. لقد جعلت الثورة الإدراكية القول بأن السلوك المعقد يتحدد إلى حد كبير من خلال التمثيلات العقلية الداخلية = قولًا سائدًا، مؤذنة بميلاد علم جديد تشترك فيه تخصصات متعددة، ألا وهو علم أو علوم الإدراك.

علوم الإدراك Cognitive Science

ينظر علم الإدراك إلى العقل كمعالج للمعلومات بطريقة تشبه إلى حد ما نموذج جهاز الكمبيوتر الذي يقوم على ركنين أساسيين: الهارد وير (الدماغ) والسوفت وير (العقل). ويقوم جهاز الكمبيوتر بالعديد من مهام معالجة المعلومات: من حل المسائل الحسابية وتشخيص بعض الأمراض إلى لعب الشطرنج؛ حيث تدخل المعلومات إلى جهاز الكمبيوتر من خلال أجهزة الإدخال كجهاز الماسح

(7) Chomsky, *New Horizons in the Study of Language and Mind*, 5-6.

الضوئي أو لوحة المفاتيح، ثم تخزن بعد ذلك على القرص الصلب (الهارديسك) أو القرص المدمج (السي دي)، أو شرائح الذاكرة الصغيرة، ثم تعالج هذه المعلومات باستخدام برنامج متعددة كمعالج الصور (الفوتوشوب) أو معالج الكلمات (مايكروسوفت ورد)، ثم تظهر نتائج هذه المعالجة من خلال جهاز من أجهزة الإخراج (مثل: الشاشة أو الطابعة). "وبطريقة مماثلة، يمكننا أن نفكر في البشر وهم يؤدون مهام مماثلة، حيث تدخل المعلومات "المدخلات" إلى أذهاننا من خلال أجهزة الإدراك - السمع والبصر والشم والتذوق الخ لتخزن في ذاكرتنا وتعالج في شكل تفكير. ثم قد تكون أفكارنا بعد ذلك بمثابة "المخرجات"، كاللغة أو السلوك الجسدي. ولا شك أن هذا التشبيه بين العقل البشري وأجهزة الكمبيوتر يحتوي على مستوى عالٍ جدًا من التجريد. فالطريقة المادية الفعلية التي تُخزن بها البيانات على جهاز الكمبيوتر لا تشبه كثيرًا طريقة تكوين الذاكرة البشرية. ولكن يتميز كلا من النظامين بالحوسبة"[8]. وإذا كان لنا أن نستخدم هذا التشبيه فإن علم الإدراك يركز في المقام الأول على دراسة السوفت وير(العقل وتمثيلاته) أكثر من الهارد وير (الدماغ) الذي هو في الأساس موضوع دراسة علم الأعصاب.

علم الإدراك إذن هو العلم الذي يدرس التمثيلات العقلية mental representation وطبيعة معالجتها والنظم الفيزيقية الداعمة لهذه المعالجة بغرض فهم العديد من الظواهر الإنسانية مثل الذاكرة والتخيل واتخاذ القرار والتفكير العقلاني والعواطف واللغة والتعلم. ويتبين من هذا التعريف أن علم الإدراك يفترض في التمثيلات العقلية والمعالج لها (العقل) أنهما كيانان حقيقيان، وهو ما يتعارض مع المدرسة السلوكية التي ترفض افتراض أمور مثل الحالات الداخلية أو التمثيلات العقلية.

وتعدد الموضوعات التي يهتم بها علم الإدراك بتعدد مجالات عمل العقل البشري. فمنها، على سبيل المثال، **موضوعات الإدراك الحسي** وفيه يدرس كيف نستخدم حواسنا لتحديد الأنماط والكيانات في البيئة؟ كيف ندرك محتويات العالم؟

---

(8) Friedenberg and Silverman, *Cognitive Science*, 2-3.

وما مدى تأثير التاريخ الشخصي والسياق الثقافي على الإدراك؟ ومنها **موضوعات الذاكرة** وفيه يدرس كيف تبنى الذاكرة؟ وهل لدينا أنواع مختلفة منها؟ وكيف يمكننا وضع الأفكار والصور والأحداث وتسلسلها في الذاكرة؟ وكيف نسترجع المعلومات من الذاكرة ولماذا ننسى وهل من تقنيات لتحسين الذاكرة؟ **ومنها موضوعات صنع القرارات** وفيه يدرس: كيف نشكل الأحكام؟ وما هي استراتيجيات الفكر التي نستخدمها تلقائيًا لنقرر ما إذا كان أمرا ينطبق عليه حكم أم لا؟ كيف نقرر القيام بفعل ما في مقابل القيام بفعل آخر؟ وكيف ننسق بين قرارات متعددة لوضع خطط معقدة؟ **ومنها مسائل المفاهيم** وفيه يدرس كيف نصنف الأفكار؟ ومن أين تأتي المفاهيم؟ وكيف لمجموعة الأفكار أو الخبرات أن تصبح هياكل معرفية؟ كيف نشكل الصور النمطية ونفكر بها؟ وكيف يمكن للمفاهيم أن تؤثر على التواصل البشري أو الخيال؟ **ومنها مسائل الاستدلال** التي تتداخل مع مسائل المفاهيم وصناعة القرار وينفرد الاستدلال بتركيزه على التفكير الواعي والدقيق في الأفكار وحل المشاكل وفيه يدرس: كيف نتوصل إلى إجابات على الأسئلة؟ ومتى نكون قادرين على استخدام المنطق أو الاحتمال؟ **ومنها مسائل الخيال** القادر على تشكيل ما لا حصر له من أنواع الصور في عقولنا وفيه يدرس ما مدى دقة هذه التمثيلات العقلية؟ وكيف نستخدم هذه الصور في التفكير؟ وكيف يقارن نوع الخيال المبني على الصور بالخيال المبني على اللغة؟ وهل يمكن أن يحسن تكوين الصور التخيلية من قدرة الذاكرة أو حل المشاكل؟ **ومنها مسائل التواصل** وفيه يدرس كيف تكتسب اللغة في المراحل الأولى من الطفولة وكيف يختلف ذلك عن اكتساب لغة ثانية في مرحلة متأخرة من الحياة؟ وكيف نستخدم اللغة أو الإشارات أو تعبيرات الوجه لإيصال أفكارنا أو مشاعرنا للآخرين؟ كيف نفهم الرسائل التي يرسلها الآخرون لنا؟ كيف نكتسب اللغة بما فيها من قواعد نحوية ومفردات؟ وما هو الدور الذي تلعبه اللغَة في الفكر؟ وهل تؤثر اللغة على تشكيل المدرك الحسي والمفاهيمي؟

و يتداخل مع كل ما سبق مسائل تتعلق بالعواطف والمشاعر فقد يدرس علم الإدراك كيف تؤثر شدة العاطفة على الذاكرة أو الإدراك الحسي أو الانتباه؟ وما الدور الذي تلعبه العاطفة في التفكير وصناعة القرار؟ وهل في اللغة ما يمكنه أن

يغير مشاعرنا؟[9] ولا يهتم علم الإدراك بكل ما يتعلق بالسلوك البشري وإنما يهتم بالسلوكيات ذات الصلة بالعقل وحالاته. فلا يهتم على سبيل المثال بالعطش أو النوم أو التثاؤب وغيرها من السلوكيات التي قد يهتم بها الفيزيولوجي أو السيسيولوجي ولكن يهتم بالتخيل والتذكر واللغة وعمليات التفكير واتخاذ القرارات[10].

ولا يمكن في ظل هذا التعقيد لمجالات عمل العقل أن تتسع مقاربة واحدة لمعالجة تلك الجوانب المتعددة؛ ولذا كان لزامًا أن تتعدد مقاربات علم الإدراك بتعدد التخصصات التي تعتني بدراسة جانب أو أكثر من هذه الجوانب العقلية للحصول على نتائج مرضية، وتشمل هذه التخصصات: علم البيولوجيا وعلوم الكمبيوتر والذكاء الإصطناعي وعلم الأعصاب، وعلم النفس[11]، والفلسفة،[12] والانثروبولوجيا[13]. تلتقي كل هذه التخصصات عند دراسة التمثيلات العقلية وكيفية

---

(9) Justin L. Barrett, *Cognitive Science, Religion, and TheologyFrom Human Minds to Divine Minds* (West Conshohocken, PA: Templeton Press, 2011), 9-11.

(10) انظر:
Justin L. Barrett, *Cognitive Science, Religion, and Theology: From Human Minds to Divine Minds* (West Conshohocken, PA: Templeton Press, 2011), 5.

(11) ويعتبر علم النفس ألصق التخصصات بعلم الإدراك، وعادة ما يدرس علم الإدراك في الجامعات الغربية ضمن قسم علم النفس وبواسطة أساتذة علم النفس.

(12) تتقاطع الفلسفة مع علوم الإدراك في ثلاث مناطق يرتبط بعضها ببعض. المنطقة الأولى تتعلق بطبيعة التفسير والاختزال وما شابه، تلك المسائل التي تندرج عادة ضمن مسائل فلسفة العلم وتستدعى لتطبيقها على حالات معينة في علوم الإدراك، والمنطقة الثانية هي المسائل التي هي موضع بحث في الفلسفة وعلم الإدراك مثل: العقل وهنا يمكن للفلسفة أن تستفيد بنتائج علم الإدراك في طبيعة التمثيل العقلي والوعي والإرداة الحرة الإدراك الذاكرة العواطف الخ في الإجابة على أسئلة فلسفية تقليدية مثل طبيعة وماهية العقل، والمنطقة الثالثة منطقة علم الإدراك النظري وفيه يعتنى بتشييد الإطار النظري التأسيسي والأدوات اللازمة لنباء الأساس المادي للعقل، وهذا المجال تشترك فيه الفلسفة مع علم الإدراك على حد سواء. انظر:
Rick Grush, "Cognitive Science," in *The Blackwell Guide to the Philosophy of Science* (John Wiley & Sons, Ltd, 2002), 272, https://doi.org/10.1002/9780470756614.ch13.

(13) تلتقي الأنثروبولوجيا وعلم الإدراك في البحث عن أمور مثل: دراسة أساليب الحياة في المجتمعات القديمة من حيث كونها دلائل على كيفية عمل الإدراك البشري قديمًا، أو دراسة كيفية تفاعل الثقافة مع الإدراك البشري. انظر: =

معالجتها. ولما كانت المعلومات الدينية من ضمن التمثيلات العقلية التي يعالجها العقل منتجًا أصنافا من الممارسات والأفكار، وكان التدين ظاهرة إنسانية عالمية منتشرة عبر التاريخ والحضارات، فقد دعت الحاجة إلى إنشاء فرع متخصص في علوم الإدراك لدراسة السلوك والأفكار الدينيةِ من حيث المعالجة العقلية ويعرف باسم علم الدين الإدراكي

علم الدين الإدراكي Cognitive Science of Religion (CSR)

كما كانت خمسينيات القرن الماضي على موعد مع ثورة إدراكية ضد السلوكية كانت تسيعنيات القرن الماضي على موعد مع ظهور ثورة إدراكية أخرى لكن هذه المرة ضد الدراسات الإجتماعية للثقافة والدين. فقد كانت التفسيرات الأنثروبولوجية، متأثرةً بالنهج المابعد حداثي والنسبية الثقافية، تختزل أسباب الظواهر الدينية في العوامل الثقافية والإجتماعية، وهي عوامل نسبية، تختلف من ثقافة لأخرى، ولا مكان فيها للموضوعية، متجاهلةً بذلك أي دور للعقل البشري في معالجة الأفكار والسلوك الديني[14]. ثم ظهرت الأنثروبولوجيا الإدراكية cognitive anthropology، التي تدين بتطورها إلى علم النفس الإدراكي، لتعارض النسبية الثقافية وتصورها للعقل كلوحة فارغة blank slate أو إسفنج سلبي يمتص ما حوله من مدخلات ثقافية، حيث أصبح واضحًا أن العقل مؤثر فعال في تشكيل محتوى المعلومات المكتسبة والمتناقلة، وبالتالي يمكن أن يساهم في تشكيل الثقافات بما يحتويه من هياكل إدراكية كلية مشتركة بين البشر، وصارت العلاقة بين العقل والثقافة ينظر إليها كعلاقة تبادلية، يؤثر كل من الطرفين في تشكل الآخر. وفي ذلِك يقول عالم النفس والانثروبيولوجي الفرنسي الأمريكي باسكال بوير Pascal Boyer : "من الواضح أن عقولنا ليست مستعدة لاكتساب أيما اتفق من المفاهيم الموجودة "في الثقافة". فنحن لا "نتعلم أيما هو موجود في البيئة" كما يقول

Barrett, *Cognitive Science, Religion, and Theology: From Human Minds to Divine Minds*, 14.

(14) Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 5-6.

الناس أحيانًا. بل إن ذلك بعيد عن الواقع، فلا يوجد عقل في العالم يمكن أن يتعلم أي شيء بدون أن يكون لديه معدات عقلية متطورة للغاية ومجهزة لتحديد المعلومات ذات الصلة في البيئة ومعالجة لهذه المعلومات بطريقة خاصة - وهذا ينطبق على طول الخط من الصرصور إلى الزرافة وإلي أنا وأنت. وقد جهزت أذهاننا لذلك لأن الانتقاء الطبيعي أعطانا ميولًا عقلية معينة. وكما أن العقول البشرية مهيأة لاكتساب بعض المفاهيم، فهي أيضًا مهيأة لبعض تنويعات هذه المفاهيم. ومما يلزم عن ذلك أن جميع البشر يمكنهم بسهولة اكتساب مجموعة معينة من المفاهيم الدينية ونقلها للآخرين"[15].

لقد كانت الأنثروبولوجيا الإدراكية من أهم العوامل التي ساهمت في ظهور علم الدين الإدراكي الذي أكد كذلك على أن "البشر في جميع الثقافات لديهم عدد من الميول المفاهيمية، بحكم كونهم بشرًا عاقلين، تقوم بالتأثير على التعبير الديني وتقييده"[16]. ومن الأنثروبولوجيين الإدراكين الذين مهدوا لعلم الدين الإدراكي عالم الإدراك الفرنسي دان سبيربير Dan Sperber الذي قدم في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي نقدًا قويًا للمعالجات التفسيرية للثقافة في الانثروبولجيا الاجتماعية مسلطًا الضوء على دور الإدراك في نقل الأفكار.

يبين سبيربير أهمية دراسة الإدراك ودوره في نشر الأفكار من خلال تشبيه دراسة انتشار الأفكار بدراسة انتشار الأمراض (الإبيدميولوجيا). فعلم انتشار الأمراض ليس علمًا مستقلا يدرس مستوى مستقلًا من الواقع بل هو علم يدرس توزيع الأمراض، والأمراض بدورها يتعرف عليها من خلال علم الأمراض (الباثولوجيا). وكما أنه لا يمكن تعليل أو فهم أسباب انتشار المرض دون اعتبار الطريقة التي يؤثر بها المرض على العضو فكذلك لا يمكن لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا أن يدرسوا انتشار الأفكار في ثقافة ما لم يكن لديهم فهمًا جيدًا

(15) Pascal Boyer, *Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought*, (New York: Basic Books, 2001), 3.

(16) Justin L. Barrett, "Cognitive Science of Religion: Looking Back, Looking Forward," *Journal for the Scientific Study of Religion* 50, no. 2 (2011): 229.

لسيكولوجية تحصيل البشر للأفكار ومعالجتها ونقلها على مستوى الفرد والجماعة (النقل الأفقي) وعلى مستوى الأجيال (النقل الرأسي)[17]. "وإذن فإن تعليل الثقافة يكون بالإجابة على السؤال التالي؟ لماذا تكون بعض التمثيلات أكثر نجاحًا في البشر وأكثر جذبًا من غيرها؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب النظر في توزيع التمثيلات عمومًا"[18]. ومن هنا اقترح سبيربير ما أسماه علم إبيدميولوجيا التمثيلات أو علم انتشار التمثيلات the epidemiology of representations ويبحث في "الأسباب التي تكون بها بعض التمثيلات مستقرة نسبيًا، أو الأسباب التي تتحول بها بعض التمثيلات لتصبح ثقافية"[19]. وخلاصة نظرية سبيربير أن "بعض الأفكار تشفر وتخزن وتستدعى في العقل أفضل من غيرها لاستثمارها خصائص معينة للعقل البشري"[20]. لقد أكد سبيربير - كغيره من الذين اشتغلوا بعلوم الإدراك - أن العقل البشري ليس آلة نسخ تقتصر على نسخ ما هو موجود في الثقافات المحيطة ولكن مرشح ومعالج للمعلومات، بما في ذلك المعلومات والسلوكيات الدينية.

وفي عام 1990 أصدر عالم الإدراك إيرنست توماس لاوسن Ernest Thomas Lawson الأستاذ الفخري بمعهد الإدراك والثقافة بجامعة كوينز Queen's University بأيرلندا الشمالية، والفليسوف والانثروبولوجي روبرت ماكولي Robert N. McCauley الأستاذ بجامعة إيموري Emory University بالولايات المتحدة ومدير مركز العقل والدماغ والثقافة في قسم علم النفس بالجامعة = كتاب "إعادة التفكير في الدين: ربط الإدراك بالثقافة Rethinking Religion: Connecting Cognition and Culture " الذي كان بداية إشراك علماء الدين في النظرية الإدراكية، وظهر فيه أول نظرية لتكوين الطقوس الدينية مبنية على فرضيات منهجية تأسيسية تربط بين دراسة الدين ودراسة

---

(17) Dan Sperber, *Explaining Culture: A Naturalistic Approach*, 1st edition Dan Sperber, Explaining Culture: A Naturalistic Approach, 1st edition (Oxford, UK: Blackwell Publishers, 1996), 59.; Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 6.

(18) Sperber, *Explaining Culture*, 58.

(19) Sperber, *Explaining Culture*, 59.

(20) Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 6.

العقل، معلنين بذلك ميلاد علم الدين الإدراكي[21]. أبرز لاوسن وماكولي في هذا الكتاب أهمية دور نظريات الإدراك في الدراسات الدينية، وأكدا على أهمية الدمج بين المقاربة التفسيرية interpretative approach والمقاربة التعليلية explanatory approach في الدراسات الدينية، معارضين بذلك الاتجاه المابعد حداثي السائد آنذاك في الدراسات الأنثروبولوجية للدين الذي يقود الباحث إلى الإنحياز نحو المقاربة التفسيرية على حساب المقاربة التعليلية[22]. وقد وضحا كيف تؤثر التمثيلات

---

(21) يجعل كثير من المشتغلين بعلم الدين الإدراكي العام 1990 الذي صدر فيه كتاب (إعادة التفكير في الدين) البداية الحقيقية لهذا العلم. وانظر على سبيل المثال:
Luther H. Martin and Donald Wiebe, "Introduction: Religion Explained? The Cognitive Science of Religion after Twenty-Five Years," in *Religion Explained? The Cognitive Science of Religion after Twenty-Five Years*, ed. Luther H. Martin and Donald Wiebe, 1st ed. (London: Bloomsbury Academic, 2017), 1; Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 1.

(22) تهتم المقاربة التفسيرية بسؤال المعنى للأنظمة الرمزية الثقافية آخذة في الاعتبار خصوصية الموضوع (القداسة بالنسبة للدين) غير القابلة للاختزال، ومؤكدة على أن فهم أو تفسير الظواهر الدينية والثقافية يتطلب تقنيات تفسيرية خاصة (هيرمونيطيقا) تتناسب مع فرادة الموضوع محل الدراسة. وعليه فإن الثقافة بوجه عام لا يناسبها التحليل العلمي التجريبي الذي يبحث عن ما يشبه القانون الفيزيائي لفهمها بل يناسبها علمًا تفسيريًا يبحث عن المعنى.
ويضرب الأنثروبولوجي الأمريكي كليفورد جيرتز Clifford Geertz مثالًا يبرز به تجاوز المعنى للوصف الفيزيائي، فيقول: تأمل في حركة جفن العين اليمين لشابين أحدهما حرك جفن عينه حركة عفوية لا إرادية بينما حرك الثاني جفنه ليشير إشارة تآمرية لصديق له. كلتا الحركتين متطابقتان في الظاهر ولكن الاختلاف في المعنى هائل؛ ففي حين أن الحركة العفوية لا معنى لها فإن الحركة الإشارية تهدف إلى إيصال رسالة، فهي تتضمن القصدية والتواصل مع شخص ما، ومعنى ما يراد إيصاله، وكل ذلك وفقًا لنظام ترميز مجتمعي التأسيس.
وأما المقاربة التعليلية فهي مقاربة علمية متأثرة بالمنطق التجريبي وتهتم بسؤال العلاقات التعليلية، وتسعى للكشف عن ما يشبه القانون السببي للسلوك الإنساني. ويرى أتباع هذه المقاربة أنه لا وجود لموضوع فريد من نوعه ينبغي أن يعامل معاملة خاصة في العلم؛ فالعلم مشروع موحد لا يعطى امتيازًا خاصًا للمواضيع المتعلقة بالظواهر الإنسانية من حيث المنهج أوالتصنيف.
وقد وضع عالم الدراسات الدينية روبرت أيه سيجل Robert A. Segal أربعة طرق يمكن بها فهم الفرق بين المقاربة التفسيرية والمقاربة التعليلية، وأشهرها أن التعليل يهتم بسؤال أصل نشأة الدين بينما يهتم التفسير بمحتوى أو معنى الدين. وهنا يمكن تشبيه السلوك البشري =

الإدراكية للأفراد تجاه نظام الطقوس الدينية على بنية النظام، وبرهنا على أن الطقوس الدينية مماثلة للغة الطبيعية، معارضين بذلك تشومسكي الذي شكك في احتمالية وجود نظريات موازية لتلك الموجودة في علم اللغة يمكن أن تطبق على الأنظمة الثقافية الرمزية.

وفي عام 1994 أصدر باسكال بوير Pascal Boyer كتابه "طبيعيّة الأفكار الدينية: نظرية إدراكية للدين The Naturalness of Religious Ideas: a Cognitive Theory of Religion"، ثم في عام 2001 أصدر كتابه ذائع الصيت "تعليل الدين: الأصول التطورية للفكر الديني Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought". كتب بوير الكتاب الأول بلغة تخصصية وسعى فيه للإطاحة بالعديد من المعالجات الأنثروبولوجية التقليدية للدراسات الثقافية التي ليس لديها الكثير لتقوله

= بالنص الأدبي؛ فكما يميز كثير من نقاد الأدب بين سؤال: لما كتب مؤلف عمل ما؟ وسؤال: ما هو نوع موضوع العمل ومعناه؟ فكذلك يميز الباحث في الدين بين سؤال: لماذا صار الناس متدينين؟ وسؤال: ما هي الأفكار والمعتقدات والممارسات التي يحتويها الدين؟
والطريقة الثانية للتميز بين التعليل والتفسير تذهب إلى أن التفسير والتعليل رؤيتان متباينتان في وصف الدين؛ فهما يختلفان من حيث طريقة وصف سبب تدين الإنسان. ففي التعليل ينفصل السلوك عن العلة المسببة له ويكون السلوك هو الأثر وما يؤدي للسلوك هو العلة، بينما في التفسير لا تنفصل العلة منطقيًا عن السلوك الذي يتسبب عنها، وفي تلك الحالة يكون السلوك هو التعبير (لا الأثر) الذي يحدثه المعنى (لا العلة السببية).
والطريقة الثالثة: هي أن التفسير دائمًا عقلي، سواء كان وصفًا أو محتوى، بينما التعليل، وهو وصف فقط، فدائمًا ما يكون ماديًا.
وأما الطريقة الرابعة فهي أن التفسير غير اختزالي بالضرورة، بينما التعليل اختزالي بالضرورة. ويعيب أصحاب المقاربة التعليلية على المقاربة التفسيرية كونها ذاتية وشخصية ولا تنتج سوى تكهنات لا أساس لها، وفي المقابل يعيب أنصار المقاربة التفسيرية على المقاربة التعليلية كونها ميكانيكية اختزالية لا تقدر أهمية أسئلة المعنى لفهمنا لحياة الإنسان وفكره، وغير حساسة للدور الذي تلعبه ذاتية الباحث وقيمه وانحيازاته في تحصيله للمعرفة انظر:
Robert A. Segal, "Reductionism in the Study of Religion" (Leiden, The Netherlands: Brill, 1994), 7.
E. Thomas Lawson and Robert N. McCauley, *Rethinking Religion: Connecting Cognition and Culture* (New York: Cambridge University Press, 1990), 13.
Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures: Selected Essays, Fulcrum.Org* (New York: Basic Books, 1973), 6.

عن سؤال نشأة الأفكار الدينية وذلك لعدم امتلاكها رؤية واضحة عن تحصيل وتمثيل تلك الأفكار والمعالجات العقلية الكامنة وراءها. واقترح تطبيق نظريات علم النفس الإدراكي على الدرسات الأنثروبولوجية للدين لمعرفة الخصائص الكلية للعقل البشري المسؤولة عن تحديد التمثيلات الدينية القابلة للانتشار والتكرار.[23] وأما الكتاب الثاني فهو نسبيًا أقرب للغة القارئ العادي وحاول فيه بوير وضع تصور علمي طبيعاني لأصل نشأة الدين وطبيعته ووظيفته في الحياة البشرية من خلال توظيف علوم الإدراك وعلم تطور الأحياء الذي رأى فيهما الكفاية الأداتية لتفسير كل ما يتعلق بالدين من اعتقادات وطقوس وخبرات ذاتية وأنظمة أخلاقية وبنى مشتركة.

ومن رواد علم الدين الإدراكي الأنثروبولوجي البريطاني هارفي ويتهاوس Harvey Whitehouse الذي صاغ الأنماط الفعالة لنظرية التدين وسعى من خلالها إلى تفسير كيفية تشكيل التقاليد الدينية من خلال الهياكل النفسية المشتركة لعموم البشر، ومن رواد علم الدين الإدراكي أيضًا عالم النفس الأمريكي جاستن إل. باريت Justin L. Barrett صاحب الأعمال العديدة في المجال.

ومن خلال ما سبق، يمكن استنتاج أن النظرية الأساسية لعلم الدين الإدراكي تذهب إلى أن سبب تشابه الأنظمة الدينية في أنواع المفاهيم والسلوكيات هو أن تلك المفاهيم والسلوكات تنتجها نفس العقول البشرية المجهزة بنفس الأدوات الإدراكية التي يشترك فيها جميع أفراد الجنس البشري على اختلاف ألوانهم وثقافاتهم[24].

وكما هو الحال مع علوم الإدراك فإن القائمين على مشروع علم الدين الإدراكي ينتمون لتخصصات متعددة، مثل علم النفس وعلوم الأعصاب والفلسفة

---

(23) Pascal Boyer, *The Naturalness of Religious Ideas: A Cognitive Theory of Religion* (Berkeley: University of California Press, 1994), viii-ix.

(24) Jason Slone and William McCorkle, "Student Introduction," in *The Cognitive Science of Religion: A Methodological Introduction to Key Empirical Studies*, ed. D. Jason Slone and William W. McCorkle, 1st ed., Scientific Studies of Religion: Inquiry and Explanation (London: Bloomsbury Academic, 2019), 1.

والأنثروبولوجيا وعلوم التطور، ويجمع بينهم الأهتمام بالبحث في أصل الدين وطبيعة الأفكار والممارسات الدينية في إطار العلوم الإدراكية. كما يقول هارفي ويتهاوس: "لقد انبثق من رحم المجالات الواسعة والمدمجة على نحو غير محكم للعلوم الإدراكية وعلم النفس التطوري = مجموعة متماسكة نسبيًا من العلماء المشتغلين بما أصبح يعرف باسم "علم الدين الإدراكي". وتتمتع هذه المجموعة من العلماء بقدر غير عادي من الاتفاق على الافتراضات والأساليب والمشكلات المشتركة. وقد نجحوا على مدار العشرين عامًا الماضية، أو نحو ذلك، في إنشاء نموذجًا (بارادايم) لأبحاثهم، كما نجحوا أيضا في إنشاء العديد من المراكز المؤسسية حول العالم، ومجلة علمية وسلسلة كتب، وأدبيات جوهرية تستند إلى بحث تجريبي جديد أدى بدوره إلى ظهور سلسلة من المشاكل البحثية الجديدة"[25].

ومن هذه المشاكل البحثية التي يسعى علم الدين الإدراكي للإجابة عنها: تفسير ميل الناس إلى التدين، وأسباب انتشار الأديان في جميع أنحاء العالم وعبر التاريخ، وأسباب اتخاذ الممارسات الدينية أشكالًا متشابهة كتقديم القرابين أو دفن الموتى بطقوس خاصة، والأسباب التي تجعل من بعض المعتقدات والممارسات الدينية أكثر شيوعًا من غيرها، والأسباب التي تجعل أنواعًا مماثلة من المفاهيم الإلهية تتكرر بانتظام عبر الثقافات، وأسباب اعتقاد الناس بوجود فاعلين خارقين للطبيعة نشطين بأفعالهم في الكون على الرغم من عدم رؤيتهم لهؤلاء الفاعلين، وكيفية تأثير الممارسات الدينية على الممارسين، وسبب احتواء التنظيمات الدينية أو الأديان على أنواع مشابهة من متطلبات عضوية الالتحاق بها، وسبب ترويج الأديان لأنواع مشابهة من الأخلاق، وسماحها أحيانًا بالعنف ضد الآخرين، وسبب محاولة وضع السلوك الجنسي تحت السيطرة من قبل المنظمات الدينية وتعزيز القيم العائلة كالحض على الزواج وإنجاب الأطفال في نطاق شرعي.

---

(25) Harvey Whitehouse, "Introduction," in *Religion, Anthropology, and Cognitive Science*, ed. Harvey Whitehouse and James Laidlaw (Durham: Carolina Academic Press, 2007), 13.

وفي الجملة يمكن تعريف علم الدين الإدراكي بأنه العلم الذي يبحث في أصل نشأة الدين وأسباب تكوين المعتقدات والممارسات الدينية وكيفية انتقالها وانتشارها من خلال الكشف عن الجوانب الإدراكية البشرية المشتركة المختصة بوضع قيود اكتساب وانتقال هذه المعتقدات والممارسات.

النموذج القياسي The Standard Model

أسفرت الأعمال التي أجراها المشتغلون بمشروع علم الدين الإدراكي عن نظريات مختلفة لأصل نشأة الدين وأسباب انتشار الأفكار الدينية ولعل أشهرها ما قدمه باسكال بوير والأنثروبولوجي الأمريكي الفرنسي سكوت أتران[26] Scott Atran فيما ما بات يعرف بالنموذج القياسي للمفاهيم والأعراف الدينية. يحاول النموذج القياسي أن يفهم ويصنف الخصائص الإدراكية الكلية التي تهيئ قبول الدين، والتي تلعب الدور الأكبر في تشكيل الدين وبقائه. ولا يختص النموذج القياسي بتقديم وصف تعليلي لدين معين بل يتميز "بالعمومية الواسعة؛ حيث يقوم بوصف الحالات العقلية والمعالجات الحاصلة لمعظم الناس في معظم السياقات الدينية في أغلب الأوقات دون تقديم نماذج وصفية أو تعليلية للسمات التي تميز دينا عن آخر"[27]. ويعتمد النموذج القياسي على فكرة مركزية في علم النفس التطوري مفادها "أن العقل البشري يتكون من نظام مركب من وحدات جزئية عديدة (أنظمة متخصصة نشأت عن طريق الإنتخاب الطبيعي لغرض حل المشكلات التكيفية التي واجهها أسلافنا في بيئتهم"[28]. وتعمل هذه الوحدات باستقلال نسبي عن بعضها البعض

---

(26) أنثروبولوجي وعالم إدراكي مهتم بدراسة الثقافات وأصول العنف والإرهاب، وصاحب كتاب "نثق في الله: المشهد التطوري للدين In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion".

(27) Pascal Boyer, "A Reductionistic Model of Distinct Modes of Religious Transmission," in *Mind and Religion: Psychological and Cognitive Foundations of Religion*, ed. Harvey Whitehouse and Robert N. McCauley (Walnut Creek, CA: AltaMira Press, 2005), 3.

(28) Aku Visala, *Naturalism, Theism and the Cognitive Study of Religion: Religion Explained?* (London: Routledge, 2016), 8.

وتستجيب لأنواع مختلفة من المعلومات، منها المتعلق بالإدراك الحسي ومنها المتعلق بالمفاهيم. وبعض هذه الوحدات تتخصص في انتاج حدوس عن الأشخاص كفاعلين ووصفهم (وذلك يتضمن قراءة أفكارهم وانفعالاتهم والتكهن بنواياهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم مع الفاعلين الآخرين ومع الجماعة) وهو ما يطلق عليه جهاز كشف الفاعلين، وتتميز هذه الوحدات الإدراكية بكونها بالغة الحساسية بحيث تجعلنا نرى كل شئ من حولنا بنظارة الفاعلية والسلوك القصدي مما يوقعنا أحيانًا في أخطاء نسبة الفاعلية لكائنات موجودة غير فاعلة (كالكواكب والنجوم) أو كائنات وهمية غير موجودة أصلا (كالفاعلين الخارقين من آلهة وأشباح وأرواح، الخ). وعلى الرغم من أن هذه القدرة الإدراكية الحساسة لرصد الفاعلين ليست معصومة فقد كانت بالغة الأهمية من الناحية التكيفية لأسلافنا الذين كانوا يواجهون خطر الفناء بين أنياب الحيوانات المفترسة أو القتل على أيد المنافسين من جنسهم. وبحسب النموذج القياسي فإن الانتخاب الطبيعي قد أحسن الاختيار في الإبقاء على هذه القدرة الإدراكية وإن كانت غير معصومة؛ فأن يكون الخطأ عبارة عن نسبة الفاعلية لأشياء غير موجودة أو غير فاعلة أهون بكثير بالنسبة لأسلافنا من أن يكون الخطأ في عدم نسبة الفاعلية لفاعلين حقيقين من حيث التكلفة[29]. فالأول يترتب عليه اعتقادات كاذبة قد تقود إلى بعض السلوكيات الدينية المكلفة أما الخطأ من النوع الثاني فقد يترتب عليه الموت المباشر. ويضاف إلى ذلك أن بعض المعتقدات الدينية استطاعات استغلال بعض الخصائص الإدراكية مما سهل لها الانتشار والانتقال على الرغم من الانحرافات التي تحدث جراء النقل الفردي والثقافي في حين أنه لم يكتب البقاء والانتقال من جيل لآخر للمعتقدات والطقوس التي لم تملك من السمات ما يمكنها من استغلال تلك الخصائص الكلية للإدراك البشري. ومثل الِدين في ذلك كمثل الموسيقى التي لم تظهر لغرض تكيفي محدد ولكنها نتجت كمنتج ثانوي لآليات إدراكية صوتية تكيفية تهدف إلى فرز أصوات اللغة بما فيها من حروف ونغمات وتميزها من بين أصوات الضوضاء وتلك مهمة ذات قيمة

---

(29) Pascal Boyer, *Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought*, (New York: Basic Books, 2001), 145-147.

تكيفية واضحة لجنس كالجنس البشري يعتمد في التواصل على الكلام. أما الموسيقى، التي هي أقرب للصوت النقي منها إلى الضوضاء، فقد استطاعت - مثلما استطاع الدين - بما تمتاز به من خصائص أن تستغل تلك الملكة الإدراكية استغلالًا جيدًا مكنها من الانتشار الكلي عبر الثقافات[30].

فالدين إذن بحسب النموذج القياسي ما هو إلا طفيلي على وظائف وبنى النزوعات المتطورة للإدراك البشري، ومنتج جانبي عرضي أو ثانوي لوحدات إدراكية كانت لها قيمة تكيفية في تاريخ التطور تتعلق بالبقاء والتكاثر وهي التي أدت إلى تطوير البنية الإدراكية البشرية المشتركة الحالية التي بدورها تقوم بنشر مفاهيم وطقوس ومعتقدات دينية معينة، أما الدين نفسه فلم يتمتع بأي قيمة تكيفية محددة في تاريخ التطور، بل ربما اتصف الدين في بعض الحالات بأنه مضاد للتكيف maladaptive كما في الحالات التي يكون فيها التبتل أو التضحية بالنفس جزءً من الطقوس الدينية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا أمكن لعلم الدين الإدراكي أن يفسر الدين تفسيرًا نهائيا كما يدعي بوير فهل يمثل ذلك تهديدا للوضع الابستمولوجي للمعتقدات الدينية؟ بمعنى آخر، هل يترتب على النموذج القياسي عدم عقلانية أو بطلان المعتقدات الدينية؟

يجيب ماثيو ألبر مؤلف كتاب (جزء الله في الدماغ: تفسير علمي للروحانية الإنسانية والله) بأنه إذا كانت الفرضية العصبية الفيزيزلوجية بخصوص نشاة الاعتقاد في الفاعلين الخارقين صحيحة وكان الأمر برمته مجرد مظهر من مظاهر التكيف التطوري المتواجد في الدماغ وحسب فإن ذلك يعني أنه لا توجد حقيقة واقعية لإله أو لآلهة مستقلة خارج عقولنا. وعليه فإنه لم يعد من الممكن اعتبار الجنس البشري من خلق الله بل يجب أن ينظر لله على أنه من خلق الإدراك البشري[31]. ويرى جون إف هوت John F. Haught اللاهوتي الكاثوليكي الأمريكي والأستاذ بجامعة جورجتاون أنه " إذا كان بوير وغيره ممن يقدمون لنا التفسير النهائي والكافي

---

(30) Boyer, 131-132.

(31) Matthew Alper, *The "God" Part of the Brain: A Scientific Interpretation of Human Spirituality and God* (Naperville, Illinois: Sourcebooks, Inc., 2008), 97.

للدين، فعلينا بالطبع أن نعترف بأن تديننا هو محض خيال. ويجب على كل محبي الحقيقة أن يتخلوا عن أوهامهم العزيزة، بغض النظر عن مقدار الحزن الذي سينتج عن ذلك"[32]. فهل أتى بوير أو غيره بتعليل نهائي للدين حقًا؟ يرى هوت أن بوير قد أبعد النجعة عندما ادعى أنه قد أتى بالتعليل النهائي للدين.

وكذلك يرى جريجوري ر. بيترسون Gregory R. Peterson أستاذ الفلسفة والدين بجامعة ولاية ساوث داكوتا South Dakota State University ويبين أن علم الدين الإدراكي "يسعى كمجال علمي ناشئ إلى استكشاف الجذور البيولوجية والتطورية والهيكلية الإدراكية للدين. ويدرك العديد من العلماء في هذا المجال أن هذه التعليلات البيولوجية ستكون أيضًا شاملة وبالتالي اختزالية. بمعنى أنها ستبين أن الدين ليس سوى نتيجة لضغوط بيولوجية، ومن ثم فإن الدين، على حد تعبير باسكال بوير، "هواء فارغ" لا يستحق أن يكون له حقل مستقل ومن الممكن رفض مزاعمه بأمان... من المؤكد أنه يمكن تقديم حجة جيدة من المعطيات العلمية على أن مجالات واسعة من السلوك البشري لها تأثير وراثي وأن الإدراك البشري، بما في ذلك الإدراك الديني، له ارتباط بنشاط الدماغ. ومع ذلك، فإن الادعاء أن مثل هذه النتائج تُسَفِّه جميع المزاعم الدينية، كما يرى بعض المناصرين لعلم الدين الإدراكي، هو ببساطة ارتكاب فج للمغالطة الجينية. نعم، قد تحتاج المساحة الفكرية إلى إعادة ترتيب، ولكن علم اللاهوت سيستمر، لأسباب ليس أقلها أنه مهما كانت نتائج علم الدين الإدراكي فإن الأسئلة اللاهوتية الواضحة التي يطرحها جميع البشر ستبقى"[33].

وممن انتقد مزاعم التعليل النهائي للنموذج القياسي الفيزيائي واللاهوتي الإنجليزي جون بولكينهورن John Polkinghorne في مراجعته لكتاب بوير (تعليل الدين). وفيه وصف محاولة بوير للكشف عن العلل الطبيعة والنهائية للدين، ومن

---

(32) John F. Haught, "The Darwinian Universe: Isn't There Room for God?," *Commonweal Foundation* 129, no. 2 (25 2002).

(33) Gregory R. Peterson, "Theology and the Science Wars: Who Owns Human Nature?," *Zygon* 41, no. 4 (December 1, 2006): 860-61, https://doi.org/10.1111/j.1467-9744.2006.00782.x.

قبله محاولة دانيال دانت للكشف عن العلل الطبيعة والنهائية للوعي، بأنها محاولات فاشلة. ووضح أن في كتاب بوير" قيدين مفروضين فرضًا ذاتيا يحدان بشدة من كفاءة مناقشته. أحدهما: هو الاستبعاد الكامل لاحتمال وجود حقيقة حول واقع متعالي متضمن في الروايات المتنوعة للقاء المقدس. إن التحدث عن العلم الطبيعي دون النظر إلى علاقته بالعالم المادي سيكون غريباً حقًا. ولكن بالنسبة للدين، فقد قيل لنا بخفة أنه لن يكون هناكِ نقاش في الرأي القائل بأن الدين يحتوي على بصيرة صادقة، وذلك لأن الأمر كذلك. والقيد: الثاني هو أن الأمثلة العديدة للمعتقدات والممارسات الدينية التي نوقشت في الكتاب مستمدة حصريًا على الأغلب مما قد يُطلق عليه الدين القَبَلي. فلم يُشار إلى التقاليد الدينية العظمى في العالم (مثل البوذية والمسيحية والهندوسية والإسلام واليهودية) إلا إشارات قليلة جدًا، وعندما يشار إلي هذه الأديان تأتي الإشارة بعبارات مغرضة ومبسطة تبسيطًا مخلا. إن مثل هذا النهج كمثل السعي لشرح العلم الطبيعي بالإشارة إلى حسابات الخيميائيين الأوائل وحسب - وهو موضوع لا يخلو من الاهتمام، ولكن لا يخبرنا القصة بتمامها. إن الشخصية الدينية النموذجية في الكتاب هي الشامان أما تلك الشخصيات الدينية الهامة، كالأنبياء والمتصوفين، فقد كان غيابهم في الكتاب بارزًا"[34].

وكذلك انتقد عالم النفس الأمريكي كيلي بولكيلي Kelley Bulkeley في مراجعته لكتاب بوير التطبيق الاختزالي لعلم الدين الإدراكي ووصف كتاب بوير بأنه ذو توجه عدائي ويمتلئ بالشجب المبتذل والتعميمات الواسعة جدًا عن الدين[35].

---

(34) John Polkinghorne, "Review of Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought," *American Association for the Advancement of Science* 293, no. 5539 (September 28, 2001).

(35) Kelly Bulkeley, review of *Review of Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought; How Religion Works: Towards a New Cognitive Science of Religion*, by Pascal Boyer and Ilkka Pyysiainen, *Journal of the American Academy of Religion* 71, no. 3 (2003), 671.

ويمكن ملاحظة أن جوهر الخلاف بين أنصار النموذج القياسي ومعارضيهم يكمن أساسًا في الجدل حول تطبيق النهج الاختزالي - الذي هو عنصر أساسي في النموذج القياسي[36] - على الدراسات الدينية.

والاختزالية Reductionism تُعرف عمومًا بأنها تحليل ووصف البيانات أو الظواهر المعقدة من خلال ردها إلى ما هو أبسط منها[37]. وهي بهذا المعنى أحد أساسيات المنهج العلمي الطبيعي. فمثلا "تختزل حركة الأفلاك السماوية إلى قانون الجاذبية، وتختزل تنويعات الحياة الهائلة في مبدأ التطور، بل وتختزل المادة بأكلمها إلى شكل من أشكال الطاقة في معادلة أينشتاين، وهكذا. وهناك أيضًا معنى أكثر دقة يستخدم فيه مصطلح الاختزالية في العلم. يعرفه إرنست ناجل بهذا المعنى على أنه "تفسير نظرية أو مجموعة من القوانين التجريبية في المجال الواحد بنظرية لبعض المجالات الأخرى وإن كانت عادة لا تُصاغ صياغة ثابتة." والمثال النموذجي لذلك شرح نظريات الكيمياء من خلال"النظريات" أو القوانين المصاغة في الفيزياء. وتبقى الكيمياء موجود. ولكن لدينا الآن قوة تفسيرية أكبر بسبب اختزال النظريات في الفيزياء"[38]. فإذا كان المنهج الاختزالي أساسا لدراسة لعلم الطبيعي فماذا عن الدراسات الدينية والإنسانية؟[39].

---

(36) James A. Van Slyke, *The Cognitive Science of Religion* (London: Routledge, 2016), 11.

(37) Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 12; Arvind Sharma, "What Is Reductionism?" (Leiden, The Netherlands: Brill, 1994), 128.

(38) Sharma, "What Is Reductionism?" 129.

(39) يطرح سؤال المنهج في الدراسات الدينية العديد من الأسئلة الجوهرية: هل يمكن شرح الظواهر الدينية من خلال العلل الطبيعية؟ وإن أمكن ذلك فإلى أي مدى؟ وإذا كان ثمة جوهر ديني غير قابل للاختزال فما هو هذا الجوهر؟ وما معناه؟ ومع التسليم بأن الدين أحد مكونات النسيج الثقافي للوجود البشري فكيف يمكن لنا أن نحدد ونصف ثم نعلل المكون الديني الذي تجانس في النسيج الثقافي حتى صعب تمييزه؟ وهل ينبغي على الباحث في الدرسات الدينية أن يكون هو نفسه متدين؟ وهل تعتبر الافتراضات الميتافيزيقية المسبقة ضرورة لدراسة الدين؟ وهل هناك سبيل لدراسة الدين دراسة موضوعية دون أن تتحول إلى فرع من العلوم الاجتماعية؟ إلى غير ذلك من الأسئلة.

إن تطبيق المنهج الاختزالي على الدين يعني - كما يقول روبرت سيجال[40] Robert A. Segal- تحليل الدين (بما يتضمن أصل النشأة والمعنى وصدق القضايا الدينية) بعبارات علمانية بدلًا من العبارات الدينية[41]. وغالبًا ما يقترن ذلك بالمقاربة التعليلية الطبيعية، وبذلك يكون المقصود من تطبيق المنهج الاختزالي على دراسة الدين هو تعليل المعتقدات والسلوك الديني تعليلًا شاملًا بالطرق الطبيعية. ووفقًا لهذه النسخة من الاختزالية فإن الدين لا يُنظر إليه كظاهرة فريدة تستعصي على الاختزال وتتطلب دراسته معالجة خاصة، بل ينظر إليه كما ينظر إلى أي نشاط مما يمكن تعليله بالكامل من خلال علم النفس التجريبي أو علوم الإجتماع أو علوم الإدراك والأعصاب. ويعتبر النموذج القياسي تطبيقًا لتلك النسخة الاختزالية؛ حيث يختزل الدين إلى البيولوجيا في نهاية الأمر وينظر للمعتقدات والسلوك الديني كمجرد منتج ثانوي لعمليات التكيف الإدراكي التطوري، وهو ما يعارضه كثير من علماء الأديان واللاهوتيين الذين يرون في ذلك تحكمًا ومصادرة لا تستند على دليل. فإذا كان الاختزال رد ظواهر إلى ظواهر أخرى يفترض فيها أنها الأصل أو الأكثر جوهرية وكان هذا مناسبا في مجالات العلم الطبيعي الذي موضوع دراستها هو المادة، بخلاف الظواهر الإنسانية التي يدخل فيها المكون المادي والعقلي والروحي = فلأي سبب يجعل المكون المادي هو الأصل والمرجع النهائي الذي يجب أن تختزل إليه جميع الظواهر البشرية؟

يوضح مؤرخ الأديان ميرتشا إلياده Mircea Eliade سبب رفضه لتطبيق المنهج الاختزالي على الدراسات الدينية ويقول: "كيف سيكون وضع الطبيعاني الذي يدرس الفيلة على المستوى المجهري من خلال الميكروسكوب وحسب؟ هل يمكن القول بأنه قد عرف ما يكفي عن الفيلة؟ إن الميكروسكوب لا يظهر سوى بنية الخلايا وآلياتها وهي أمور متماثلة في جميع الكائنات متعددة الخلايا. ولكن هل هذا كل ما يمكن معرفته؟ على المستوى المجهري لا يمكن التأكد أما على

(40) أستاذ الدرسات الدينية بجامعة أبردين بالمملكة المتحدة University of Aberdeen ومن أشهر المدافعين عن تطبيق الاختزالية على الدراسات الدينية.

(41) Segal, "Reductionism in the Study of Religion," 4.

المستوى البصري البشري الذي يتعرف على الفيل على الأقل كظاهرة في علم الحيوان فإن عدم التأكيد ينمحي. وبالمثل، لن يتم التعرف على ظاهرة دينية كظاهرة دينية إلا إذا استوعبت على مستواها الخاص، أي إذا دُرست بوصفها شيئا دينيًا. إن محاولة فهم جوهر هذه الظاهرة عن طريق علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد واللغويات والفن أو أي دراسة أخرى هي محاولة خاطئة؛ حيث إنها تفتقد إلى العنصر الوحيد الذي لا يمكن اختزاله - وذلك هو عنصر المقدس. من الواضح أنه لا توجد ظواهر دينية محضة. فلا يمكن أن تكون ظاهرة تنحصر في كونها دينية فحسب. لأن الدين إنساني، لذلك يجب أن يكون شيئًا اجتماعيًا، ولغويًا، واقتصاديًا - لا يمكنك التفكير في الإنسان بمعزل عن اللغة والمجتمع. ولكن ستكون محاولة بائسة تلك التي تحاول شرح الدين من خلال أي من تلك الوظائف الأساسية التي هي في الحقيقة ليست أكثر من مجرد طريقة أخرى لتعريف الإنسان"[42].

وإذا كان الاختزال الشامل قد رفضه كثير من علماء الأديان فإن الاختزال الجزئي أو المعتدل قبله في المقابل كثيرون. ويقصد بالاختزال المعتدل ذلك الذي لا يدعي وضع تعليل طبيعي كلي وشامل ونهائي للظاهرة الدينية ولكن تعليل جزئ يتمم ولا يتعارض مع مستويات التعليل الأخرى.ف على سبيل المثال، "يمكن لعلماء الأعصاب تتبع ورسم خريطة لما يحدث في دماغ شخص أثناء خوضه لتجربة دينية (شرح بيولوجي)، ويمكن لعلماء النفس التحقيق من دوافع الشخص ومعالجة وتفسير المعلومات قبل التجربة (شرح نفسي)، وتأثيرات التجربة بعد ذلك (شرح سلوكي). وقد يركز علماء الاجتماع الآخرون على شرح العوامل الأخرى على مستوى المجموعة التي تؤهب هذه التجارب وتديمها، مثل دعم مجموعة دينية، والتنشئة الاجتماعية في بيئة يكون فيها الناس لديهم خبرات دينية، وما إلى ذلك (التفسيرَات الاجتماعية والثقافية). هذه المستويات من التفسير مكملة لفهم أقوى

---

(42) Mircea Eliade, *Patterns in Comparative Religion*, trans. Rosemary Sheed (New York: Slwecl & Ward, 1958), xi.

للتجارب الدينية"[43]. والاختزال المعتدل هو ما يقدمه مؤلف الكتاب الذي نقدم له.

يحاول المؤلف في كتابه (الله والدماغ) أن يبطل القول بانهيار عقلانية المؤمن المتدين بظهور تفسيرات علمية طبيعية لاعتقاده. ذلك أنه حتى على افتراض صحة هذه المزاعم فإنه من غير الممكن إثبات أنها السبب النهائي والأخير وراء المعتقدات الدينية. فمن الممكن القول مثلا بأن الإله المتعالي ليس هو السبب المباشر لحدوث المعتقدات الدينية ولكنه هو العلة الأولى والمرجع النهائي الذي ترجع إليه جميع الأسباب بما في ذلك جميع القوانين الطبيعية. فإذا كان الله هو الذي وجَّه الطبيعة لتشكل فينا ملكات إدراكية يدركه الناس بها ويكونون معتقدات عنه = فإن الله إذن هو العلة الحقيقية لهذه المعتقدات في نهاية الأمر. التعليل العلمي إذن لا يخبرنا بالقصة كاملة، بل هو مجرد مستوى من مستويات التعليل الأولية.

قدم المؤلف تفسيرًا فلسفيًا معارضًا للتفسير الإلحادي لمعطيات علم الدين الإدراكي، بين من خلاله أن علم الدين الإدراكي ليس في ذاته معاديًا للأديان، بل ربما أمكن استخدام معطياته لدعم وتأييد المعتقدات الدينية التي تقرر أن الإله الخالق قد فطر الناس على معرفته والتوجه إليه بالعبادة، وهو ما يقول به كثير من علماء الدين الإسلامي على سبيل المثال. وكون علم الدين الإدراكي لا يحمل في ذاته عدواة للدين أكد عليه آخرون ممن يشتغلون بهذا العلم، منهم: جاستين بريت[44]، وأكو فيسالا[45]، وجيمس فان سليكي[46]، وغيرهم.

إن الإطروحة الأساسية لهذا الكتاب ليست في إثبات وجود الله من خلال علم الدين الإدراكي ولكن في دحض القول بعدم عقلانية الإيمان بوجود الله وحسب.

---

(43) Claire White, *An Introduction to the Cognitive Science of Religion*, 13.

(44) Barrett, *Cognitive Science, Religion, and Theology: From Human Minds to Divine Minds*, ix.

(45) Visala, *Naturalism, Theism and the Cognitive Study of Religion*, 13.

(46) Slyke, *The Cognitive Science of Religion*, 3.

ويمثل كتاب (الله والدماغ) مقدمة مناسبة للراغبين في دراسة أو التعرف على علم الدين الإدراكي والآثار الفلسفية الناجمة عن معطياته، وقد بذل فيه المؤلف مجهودًا كبيرًا لتبسيط الأفكار وشرحها وأكثر من الأمثلة التقريبية، وتحاشى قدر المستطاع اللغة الأكاديمية الصعبة التي قد تستعصي على غير أهل التخصص.

والمؤلف هو كيلي جيمس كلارك Kelly James Clark الفليسوف الأمريكي المسيحي والأستاذ بجامعة جراند فالي ستات Grand Valley State University. حصل على الدكتوراة من جامعة نوتردام بولاية إنديانا وهو متأثر بتيار الابستمولوجيا الإصلاحية حيث كان مشرفه على رسالة الدكتوراة فليسوف الابستمولوجيا الإصلاحية ألفن بلانتنجا. يهتم كلارك بمجال فلسفة الدين والابستمولوجيا الدينية وعلم الدين الإدراكي، والفلسفة الصينية، والتقارب بين الأديان. وله مؤلفات عديدة منها: العودة للعقل:

"نقد الدليلية التنويرية والدفاع عن العقل والإيمان بالله"، و"الفلاسفة المؤمنون"، و"الدين وعلوم أصول النشأة"، و"دليل بلاكويل للطبيعانية"، و"عندما لا يكفي الإيمان"، و"معرفتنا بالله: مقالات في اللاهوت الطبيعي والفلسفي"، و"أبناء إبراهيم: الحرية والتسامح في عصر الصراع الديني".

ومن الكتب التي شارك في تحريرها:

"الأخلاق والدين والمجتمع"، و"معجم المصطلحات الفلسفية الرئيسية وأهميتها في علم اللاهوت للمبتدئين"، و"الإيمان والمعرفة والطبيعانية"، و"الدليل والاعتقاد الديني"، و"مسائل معاصرة في العلم والدين"، و"حوار بين العلم والدين".

كما أن له العديد من الأوراق العلمية منها: الإبستمولوجيا الإصلاحية وعلم الدين الإدراكي، والابستمولوجيا الريدانية وعلم الدين الإدراكي (وهي بالاشتراك مع عالم النفس جاستين بريت)، ويعد كتاب الله والدماغ هو أحدث كتب كلارك.

وبالله التوفيق

محمد سيد سلامة

مراجع المقدمة

Alper, Matthew. *The "God" Part of the Brain: A Scientific Interpretation of Human Spirituality and God.* Naperville, Illinois: Sourcebooks, Inc., 2008.

Barrett, Justin L. "Cognitive Science of Religion: Looking Back, Looking Forward." *Journal for the Scientific Study of Religion* 50, no. 2 (2011): 229-39.

—. *Cognitive Science, Religion, and Theology: From Human Minds to Divine Minds.* West Conshohocken, PA: Templeton Press, 2011.

Boyer, Pascal. *Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought. Fulcrum.Org.* New York: Basic Books, 2001.

Bulkeley, Kelly. Review of *Review of Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought; How Religion Works: Towards a New Cognitive Science of Religion*, by Pascal Boyer and Ilkka Pyysiainen. *Journal of the American Academy of Religion* 71, no. 3 (2003): 671-74.

Chomsky, Noam. *New Horizons in the Study of Language and Mind.* 1st edition. New York: Cambridge University Press, 2000.

Claire White. *An Introduction to the Cognitive Science of ReligionConnecting Evolution, Brain, Cognition, and Culture.* New York: Routledge, 2021.

Friedenberg, Jay D., and Gordon W. Silverman. *Cognitive Science: An Introduction to the Study of Mind.* Second edition. Thousand Oaks, Calif: SAGE Publications, Inc, 2012.

Grush, Rick. "Cognitive Science." In *The Blackwell Guide to the Philosophy of Science*, 272-89. John Wiley & Sons, Ltd, 2002. https://doi.org/10.1002/9780470756614.ch13.

Harvey Whitehouse. "Introduction." In *Religion, Anthropology, and Cognitive Science*, edited by Harvey Whitehouse and James Laidlaw. Durham: Carolina Academic Press, 2007.

John F. Haught. "The Darwinian Universe: Isn't There Room for God?" *Commonweal Foundation* 129, no. 2 (25 2002).

John Polkinghorne. "Review of Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought." *American Association for the Advancement of Science* 293, no. 5539 (September 28, 2001).

Lawson, E. Thomas, and Robert N. McCauley. *Rethinking Religion: Connecting Cognition and Culture.* New York: Cambridge University Press, 1990.

Martin, Luther H., and Donald Wiebe. "Introduction: Religion Explained? The Cognitive Science of Religion after Twenty-Five Years." In *Religion Explained?The Cognitive Science of Religion after Twenty-Five Years*, edited by Luther H. Martin and Donald Wiebe, 1st ed., 1-4. London: Bloomsbury Academic, 2017.

Mircea Eliade. *Patterns in Comparative Religion.* Translated by Rosemary Sheed. New York: Slwecl & Ward, 1958.

Pascal Boyer. "A Reductionistic Model of Distinct Modes of Religious Transmission." In *Mind and Religion: Psychological and Cognitive Foundations of Religion*, edited by Harvey Whitehouse and Robert N. McCauley. Walnut Creek, CA: AltaMira Press, 2005.

—. *The Naturalness of Religious Ideas: A Cognitive Theory of Religion.* Berkeley: University of California Press, 1994.

Peterson, Gregory R. "Theology and the Science Wars: Who Owns Human Nature?" *Zygon* 41, no. 4 (December 1, 2006): 853-62. https://doi.org/10.1111/j.1467-9744.2006.00782.x.

Segal, Robert A. "Reductionism in the Study of Religion," 4-14. Leiden, The Netherlands: Brill, 1994.

Sharma, Arvind. "What Is Reductionism?" 127-42. Leiden, The Netherlands: Brill, 1994.

Slone, Jason, and William McCorkle. "Student Introduction." In *The Cognitive Science of Religion: A Methodological Introduction to Key Empirical Studies*, edited by D. Jason Slone and William W. McCorkle, 1st ed. Scientific Studies of Religion: Inquiry and Explanation. London: Bloomsbury Academic, 2019.

Slyke, James A. Van. *The Cognitive Science of Religion.* London: Routledge, 2016.

Sperber, Dan. *Explaining Culture: A Naturalistic Approach.* 1st edition. Oxford, UK: Blackwell Publishers, 1996.

VandenBos, Gary R and American Psychological Association. *APA dictionary of psychology*, 2015.

Visala, Aku. *Naturalism, Theism and the Cognitive Study of Religion: Religion Explained?* London: Routledge, 2016.

إلى عماتي وأعمامي:

كارين وكيني سيفرسون،

جيني وجيم كيلهام،

وتوم وليزلي ليش.

تصدير

اكتشف صديقي، الذي يبلغ من العمر عامين ونصف، وجود وحوش في غرفة نومه مؤخرًا. ويمكن القول من خلال المؤشرات العادية البادية عليه بأن لديه اعتقادًا حقيقيًا بوجود وحوش؛ فهو يعبر بلغته الإنجليزية الملتبسة عن وجود تلك وحوش، ويبدي علامات خوف صادقة (ويقول: "أنا مخيف" ويريد: خائف)، كما أنه يتصرف بناء على هذه المعتقدات. ويمكننا بكل سهولة أن نستنتج أن لدى الطفل الصغير اعتقادًا غير عقلاني في الوحوش- ولكن هل هو بالفعل غير عقلاني؟ إن مجرد كون الاعتقاد كاذبًا لا يعني أنه غير عقلاني. فمن الممكن أن يكوِّن الناس اعتقادات بطريقة عقلانية ومنطقية ويتبين أنها كاذبة. ثم هل نعلم حقًا أنه لا وجود للوحوش في غرفة الطفل؟ يتمتع الأطفال في مثل سنه بالعديد من القدرات التي يفقدها البالغون، ومن ذلك: القدرة على إدراك الاختلافات الدقيقة في الأصوات. فربما يكون أيضًا لدى الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مرحلة المدرسة قدرات أفضل لإدراك الوحوش (وإن كنت لا آمل ذلك). إن الحكم بأن اعتقاد شخص ما قد تشكل بطريقة عقلانية أو لا ليس بالأمر الهين، وإن كان غالبًا ما يكون مغريًا أن نتعامل كما لو كان الوضع كذلك، وربما يزداد هذا الإغراء عندما لا تتفق المعتقدات موضع السؤال مع معتقداتنا.

تتوفر في عصرنا الحالي مجموعات كبيرة ومتنوعة من المعلومات حول أفكار الناس وقيمهم والتزاماتهم من جميع أنحاء العالم، وذلك من خلال الوسائط الإلكترونية والمطبوعة. لقد أدى ذلك المستوى من إمكان الوصول إلى المعلومات إلى إحداث خطأين شائعين عند تثمين معتقدات الإنسان من حيث صحة تشكليها وأحقية التمسك بها. الخطأ الأول هو افتراض أن معتقدات الآخرين (مثل

معتقداتهم الدينية أو الأخلاقية) ينبغي أن لا يوثق بها بسبب العاطفة القَبَلية - على سبيل المثال: "هؤلاء الآخرون لم يكونوا حريصين في تشكيل معتقداتهم كحرصي في تشكيل معتقداتي." ووفقًا لهذا النمط من التفكير فإن معتقداتي تتشكل على نحو دقيق ومدروس من خلال التفكير العقلاني واعتمادًا على الأدلة والحجج الصحيحة، ثم هي مدعومة بالسلطة المعرفية لأهل الخبرة المؤهلين، بينما ينتج الآخرون معتقداتهم على عجل ومن خلال طرق مشكوك فيها. وأما الخطأ الثاني فهو استنتاج أن التنوع الهائل في المعتقدات - على سبيل المثال: بخصوص وجود الأشباح، وما إذا كان لدى البشر أرواح غير مادية، وما إذا كانت بعض الأشياء مقدسة حقًا، وما إذا كان يوجد إله خالق للكون - يستلزم أن لا يكون هناك أفضلية لمعتقدات أي شخص على آخر. فمن أنا حتى أقول لقد شكلت معتقداتي بطريقة أصح من تشكيل أي شخص آخر لمعتقداته؟! إن شعور التواضع هذا لأمر عزيز، ولكن من الخطأ أن نستنتج - بناءً على التنوع الهائل في المعتقدات - عدم إمكان معرفة أي شيء، أو على الأقل، عدم إمكان أن نكون مبررين فيما ندعي معرفته. يحدث كلٌّ من هذين الخطئين بسبب القصور عن معرفة كيفية تشكيل المعتقدات وسبب أهميتها.

حقبة العلم

منذ أن بدأ علم النفس في بناء قواعده على أسس علمية وهو مشتغل بمحاولة تفسير المعتقدات الدينية. ولكن السنوات العشرين الماضية شهدت ازدهارًا غير مسبوق في المحاولات العلمية لتفسير المعتقدات الدينية: من أين تأتي هذه المعتقدات؟ ما الذي يسببها؟ وكما هو متوقع، فإن هذه التحقيقات تبعها تساؤلات حول ما إذا كانت تلك التفسيرات السببية للمعتقدات الدينية تؤثر على الحكم بصدقها أو كذبها أو عقلانيتها أو عدم عقلانيتها. لقد نضج علم الأعصاب، وكذلك علم النفس الإدراكي والتطوري والإجتماعي والتنموي، في نظرياته وأساليبه بما يكفي ليبدأ في إحراز تقدم حقيقي بخصوص كيفية تشكيل المعتقدات، وقد تحول هذا التقدم إلى دراسة أسباب المعتقدات الدينية. والأبرز من بين هذه الجهود هو ذلك المجال متعدد التخصصات والمعروف باسم علم الدين الإدراكي Cognitive

Science of Religion الذي هو المحور الرئيس لهذا الكتاب. وكما حدث في الماضي، فسرعان ما تبعت هذه المعالجات العلمية للمعتقدات الدينية معالجات فلسفية لما يعنيه العلم بخصوص ما إذا كانت تلك المعتقدات الدينية صالحة أو سيئة، مبررة أو غير مبررة، عقلانية أو غير عقلانية. وكان كيلي كلارك - بوصفه فليسوفًا في فلسفة الدين موهوبًا في تبسيط الأفكار والحجج المعقدة - من بين قادة هذا الاشتغال الفلسفي في علم الدين الإدراكي.

بدأ اهتمام الدكتور كلارك بهذا الفرع المعرفي في أواخر التسعينيات عندما أصبحت أستاذًا لعلم النفس في كلية كالفن، حيث كان هو يدرس الفلسفة. وقدمت حينها ندوة تقديمية لزملائي في الكلية بخصوص بحث علمي عُرف بعد ذلك باسم علم الدين الإدراكي، وكان الدكتور كلارك هو الوحيد من بين الحاضرين الذي يحمل تخصصًا آخر غير علم النفس. وعندما انتهيت حرص دكتور كلارك على المجئ ليقول ما أراه مجاملة منه لي، قال: يا إلهي، لم أظن أنه يمكنك أن تقوم بشيء مثير للاهتمام في مجال علم النفس!" وها نحن الآن بعد مرور بضع سنوات مع كتاب كامل حول هذا الموضوع.

لقد اختار دكتور كلارك أن يكتب كتابًا يقع في منطقة تقاطع الفلسفة والدراسات الدينية واللاهوتية والعديد من التخصصات العلمية. إن القيام بذلك ليس عملًا سهلًا، حتى ولو كان على يد موهوب في توصيل الأفكار مثل دكتور كلارك؛ فإن فهم ما هو على المحك ليس بالأمر الهين. وللمساعدة قليلا سأقدم هنا بعض الفروقات.

أولا: الأسباب الفكرية للمعتقد ليست هي أسبابه التكوينة. قد نجيب في كلامنا العادي على السؤال: "لماذا تعتقد ذلك؟" بالإشارة إلى الأسباب الفكرية، على سبيل المثال: "أعتقد أن الاقتصاد مهتز بسبب بيانات مشاركة القوى العاملة" أو "أعتقد أن لدينا ما يكفي من البطاطس للعشاء لأني عددتهم وقد راجعت وصفة تحضير الطعام". إن السبب الفكري هو عملية ربط الانطباعات والمشاعر والأفكار بأفكار أخرى. أما أسباب التكوين فتشير إلى آليات تشكيل الاعتقاد: ما هي الديناميكيات الاجتماعية والعمليات النفسية وحالات الدماغ أو العمليات الكميائية

التي تزيد من احتمالية حدوث الاعتقاد؟ ومثال هذه العلاقة قد تكون " أعتقد أن أمامي كرة لأن الموجات الضوئية تنعكس على الكرة في عيني مما يسبب تنشيطًا لشبكة العين التي بدورها ترسل إشارة إلى دماغي ليعالجها على أنها إشارة لكائن يشبه الكرة". ولكن ماذا عن : "إنك تعتقد أن فرقة البيتلز[1] Beatles أعظم من دريك Drake لأنك كبير في السن"؟ إن اتخاذ أسباب تكوين المعتقدات كمبطل للمعتقد = مغالطة من الناحية المنطقية التقليدية. فمجرد كون اعتقادك قد نتج جزئيًا بسبب فئتك العمرية لا يعني أنه اعتقاد باطل في نفس الأمر. وبالمثل، فإن مجرد اكتشاف سبب تكوين المعتقدات الدينية لا يبطل تلك المعتقدات الدينية. فجميع المعتقدات لها أسباب تكوين بصورة أو بأخرى، والعلوم التي تدرس تكوين المعتقدات، بما في ذلك علم الدين الإدراكي، تعمل على كشف هذه الأسباب. وأما النظر فيما إذا كانت تلك الأسباب تؤثر في بعض الحالات بالسلب على الأسباب الفكرية للاعتقاد فهذا هو السؤال المحوري لكتاب الدكتور كلارك.

ثانيًا: من حيث البحث والتفسير العلمي فإن العقول ليست هي الأدمغة. إن الدماغ، إلى جانب بقية الجهاز العصبي، له دور مهم جدا في توليد الحالات العقلية مثل: الأفكار والمشاعر والخبرات، وبالتالي فإن علوم الدماغ وعلوم العقل يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا بل يتداخلان (كما هو الحال في مجالات علم الأعصاب الإداكي وعلم النفس العصبي). وعلى الرغم من ذلك فإنه عندما يتعلق الأمر بفهم الاعتقادات الدينية أو أي نوع آخر من الاعتقادات فإن العقل والعمليات العقلية هي التي تنخرط انخراطًا مباشرًا أكثر من الأدمغة والديناميكيات العصبية. فالاعتقادات هي أمور عقلية، بينما أنماط التنشيط العصبي هي أمور دماغية. ويشبه الفرق بينهما الفرق بين تعلم كيفية عمل الكمبيوتر على مستوى أنظمة التشغيل (على سبيل المثال: كيف أجعل هذا الشيء يطبع مستنداتي؟ كيف أحفظ الملف بصيغة امتداد مختلفة؟) وتعلم كيف يعمل الكمبيوتر على مستوى المعالجات ولوحات

(1) البيتلز The Beatles فرقة غنائية إنجليزية تشكلت عام 1960م، بينما دريك Drake هو مغني كندي شاب ولد عام 1986م. (المترجم)

الدوائر (على سبيل المثال: لماذا لم يعد الصوت يعمل؟ ما سبب أن هذا الكمبيوتر أسرع بكثير من الكمبيوتر الآخر؟).

الفرق الثالث الذي ينبغي الالتفات له عند النظر في مدى صحة الطريقة التي تشكلت بها المعتقدات الدينية (أو تلك المناهضة للدين) ومدى صحة التمسك بهذه المعتقدات = هو الفرق بين التفسيرات على المستوى الفردي والثقافي. وهذا الفرق دقيق لدرجة أن كثيرًا ممن يعملون في هذا الحقل المعرفي لا ينتبهون إليه أحيانًا. (وأنا أيضًا ينطبق على هذا). إن تفسير سبب شيوع معتقدات معينة في ثقافة ما يختلف عن سبب تمسك فرد بتلك المعتقدات. وبيان ذلك أن الفرد قد يكون لديه التزام قوى تجاه الاعتقاد بوجود الأشباح بسبب خبرة شخصية مخيفة بدت وكأنها التقاء بشخص قد مات مؤخرًا. أو من الممكن توصيف مجموعة ثقافية بأنها تمتلك معتقدات قوية في الأشباح - على الرغم من أن عددًا قليلًا جدًا من الأشخاص في الجيل هم الذين شهدوا شبحًا بالفعل- لأن معتقدات الأشباح هي مكون قوي من مكونات تاريخ هذه المجموعة مستترة في ممارسات طقسية منتظمة. وعلى الرغم من أن مستويي التحليل مرتبطان فإنه لا يمكن أن يفترض أن التفسير وفقًا لأحد المستويين يوافق تمامًا التفسير وفقًا للمستوى الآخر.

وأخيرًا: أجد أنه من المفيد عند اعتبار المعالجات العلمية للفكر الديني وآثاره أن نضع نصب أعيننا حقيقة أن الأفكار الدينية لا تتشكل جميعها بالطريقة نفسها حتى مع كونها تحمل وسم "ديني" في الخطاب الأكاديمي أو الشعبي. وفي الواقع، قد لا يكون الدين من المنظور العلمي أكثر من أداة تصنيفية مفيدة أقرب ما يكون للشجرة التي هي تقريبا مجرد صنف من النباتات الطويلة العالية التي لديها أجزاء تشبه الزوائد. فبالنسبة لعالم النبات فإن بعض الأشياء التي تسمى "أشجار" ترتبط ارتباطًا وثيقا بغير الأشجار أكثر من ارتباطها بالأشجار الأخرى. وبالمثل، فإنه متى ما بدأنا في اعتبار أسباب الاعتقاد والممارسات التي يطلق عليها "دينية" فقد يتبين أن العديد منها أكثر ارتباطًا بالاعتقادات والممارسات غير الدينية من الاعتقادات والممارسات "الدينية" الأخرى. فأنا أعتبر أن الاعتقاد في الآلهة لديه مشتركات مع الاعتقاد غير الديني بأن البشر الآخرين لديهم عقول أكثر مما لديه من

مشتركات مع الاعتقاد الديني في الكرما. وقد تكون أسباب طقوس التطهير في بعض نواحيها أكثر ارتباطًا بكيفية تنظيف الناس لأسنانهم من طقوس دينية أخرى مثل حفلات الزواج. وعليه فإن التفسير العلمي لاعتقاد ديني معين مثل الاعتقاد بإله خالق للكون قد يكون له تبعات قليلة على وضع الاعتقادات الدينية الأخرى (كالاعتقاد في أرواح الأسلاف مثلا)، وتبعات هائلة على وضع بعض الاعتقادات التي تبدو بعيدة عن الاعتقادات الدينية (مثل الاعتقاد بأن الكائنات الحية في الكون لها قيمة وغاية).

هذه الفروقات بالإضافة إلى التعقيدات الواضحة لكيفية تشكيل الاعتقادات الدينية وغير الدينية ينبغي أن تجعلنا نتمهل قليلا قبل أن نحكم على عجل على معتقدات الأفراد الآخرين أو الثقافات الأخرى بأنها غير عقلانية أو غير مبررة أو لا قيمة لها. فأن تشعر أحيانًا أن معتقدات الآخرين مربكة أمر لا مفر منه، ولكن،كما يحض الدكتور كلارك، عندما نعتبر معتقداتنا ومعتقدات الآخرين فإن الاعتبار العلمي لكيفية تشكيل الاعتقادات الدينية ينبغي أن يشجع روح التواضع الفكري لدينا. قد لا يكون ثمة وحوش تحت سرير صديقي الصغير، ولكن من الممكن أن أتعاطف معه في اعتقاده بوجود الوحوش. وآمل أن يمنحني نفس التعاطف عندما يكبر بما يكفي لسماع فرقة البيتلز.

الدكتور جاستين إل بريت

معهد فولر اللاهوتي

شكر وعرفان

استعرت الفصل الأول بتصرف من

Kelly James Clark, "Spiritually Wired: The Science of the Mind and the Rationality of Belief and Unbelief," *Revista Brasileira de Filosofia da ReligiÍo* 3.1 (2016): 9-35.

واستعرت الفصل الثاني بتصرف من

Kelly James Clark, "Rappin' Religion's Solution to the Puzzle of Human Cooperation," Huffington Post, November 11, 2015; Kelly James Clark, "How Real People Believe: Reason and Belief in God," in Science and Religion in Dialogue, 2 vols., ed. Melville Y. Stewart (Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2010), 1:481-99; and Kelly James Clark, "Reformed Epistemology and the Cognitive Science of Religion," in Stewart, ed., Science and Religion in Dialogue, 1:500-513.

واستعرت الفصل الثالث بتصرف من

Chapter 3 borrows from and adapts Kelly James Clark, "Is Theism a Scientific Hypothesis? Reply to Maarten Boudry," Reports of the National Center for Science Education 35.5, 5.2 (September-October 2015); Kelly James Clark and Justin L. Barrett, "Reidian Religious Epistemology and the Cognitive Science of Religion," Journal of the American Academy of Religion 79.3 (2011): 639-75.

واستعرت الفصل الرابع بتصرف من

Kelly James Clark and Justin Barrett, "Reformed Epistemology and the Cognitive Science of Religion," Faith and Philosophy 27.2 (2010): 174-89.

استعرت الفصل السادس بتصرف من

Chapter 6 borrows from and adapts Kelly James Clark, "Atheism, Inference, and Intuition," in Advances in Religion, Cognitive Science, and Experimental Philosophy, ed. Helen De Cruz and Ryan Nichols (London: Bloomsbury Aca-

demic, 2017), 103-18; and Kelly James Clark, "Is Atheism Irrational?," Big Questions Online, https://www.bigquestionsonline.com/2014/01/28/atheism-irrational/.

وأما الملحق فاستعرته بتصرف من

Kelly James Clark, "Atheism and Inferential Bias," European Journal for Philosophy of Religion 9.2 (2017).

الاختصارات

ADD agency-detecting device	جهاز كشف الفاعلين
CREDs credibility-enhancing displays	عروض تعزيز المصداقية
CSR cognitive science of religion	علم الدين الإدراكي
eToM existential theory of mind	نظرية العقل الوجودية
HADD hypersensitive agency-detecting device	جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية
HFA high-functioning autism	التوحد عالي الأداء
NDE near-death experience	تجربة الاقتراب من الموت
ToM theory of mind	نظرية العقل

الفصل الأول

هل دحضت السماء؟
ما تعتقد بذلك إلا لأنك...

عندما كنت طالبًا جامعيًا في السنة الأولى كان لدينا أستاذ في الإنسانيات قد نبذ المسيحية تمامًا زاعمًا أن بولس اخترع المسيحية بالكامل ودليلة الوحيد على ذلك هو تشخيص طبي ساذج لا تدعمه الأدلة. اعتنق بولس، الذي عرف في وقته باسم شاؤول الطرطوسي، المسيحية بينما كان في مهمة لمطاردة أو سجن بل قتل المسيحيين الأوائل. وفي الحقيقة، لقد بارك شاول رجم إسطفانوس[1] وكان شاهدًا على ذلك. وفي طريقة إلى دمشق، حيث كان لا "يَزَال يَنْفُثُ تَهَدُّدًا وَقَتْلًا على تلاميذ الرَّب"، أحيط شاول فجأة بوميض مشرق من النور أسقطه أرض، ثم سمع صوتًا مهيبًا قائلا له: "شاول شاول لماذا تضطهدني؟" وعندما طلب شاول من صاحب الصوت أن يبين هويته جاءه الرد: "أنا يسوع" (أعمال الرسل 9: 1-5)[2]. وفي رؤية واحدة تغمرها النشوة "يري" شاول الله ويسمع ويدرك أن يسوع هو الله، وأن تلامذة المسيح هم شعب الله. وربما عنى بولس هذه الرؤية عندما حكى في رسالة كورنثوس الثانية (12: 4) أنه "اختطف إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسانٍ أن يتكلم بها". إن أحد التفسيرات لتجربة بولس ذات النشوة المبهجة أن الله تغشاه بالروح والحق. أما أستاذي في مادة

(1) إسطفانوس هو أول شهداء المسيحية وأحد الشمامسة السبعة الذين عينهم التلاميذ في القدس. وجهت إليه تهمة التجديف ورجم بالحجارة عام 35م. (المترجم)

(2) الاقتباسات من الكتاب المقدس مأخوذة من النسخة الدولية الجديدة. (المترجم)

الإنسانيات في السنة الجامعية الأولى فقد قدم تفسيرًا مغايرًا: أن بولس - الذي اعترف أنه كان يشعر بشوكة مؤلمة في جسده - كان يعاني من صرع الفصد الصدغي (temporal lobe epilepsy (TLE، فلم تكن رؤى بولس سوى اختلالًا عصبيًا شائعًا عند حدوث نوبة الصرع. لقد أعتقد بولس أن المسيح هو الله الظاهر في الجسد بسبب نوبة صرع جزئية معقدة في الفص الصدغي من دماغه.

اعتمد أستاذي على حيلة "(ما تعتقد بذلك إلا لأنك...) وهي طريقة سهلة للفوز على الخصم في المحاججة، ولكنها طريقة مشبوهة. تأمل بعض الأشياء التي قد تسمع أحد يقولها (أو قد يفكر بها الإنسان في نفسه): "ما تعتقد بزيادة الضرائب (على الرغم من الأدلة على أن إعادة توزيع الثروات غير فعالة) إلا لأنك اشتراكي"، "ما تعتقدين بأهمية مشاعرك (تاركة الأسباب الجيدة حقًا التي بينتها لك توًا) إلا لأنك امرأة"، "ما تعتقد أن عمر الأرض لا يتجاوز 10000 سنة (طارحًا ما أثبته العلم بأدلة حاسمة) إلا لأنك أصولي". ترى أنك من خلال إظهار الأسباب (النفسية أو اللاعقلانية) لمعتقد الآخرين (ما تعتقد بذلك إلا لأنك...) قد قوضت أو قللت من عقلانية الشخص الذي يحمل هذا المعتقد. إنه ادعاء استعلائي أن خصومك (أو أصدقاءك أو حتى زوجك) يرفضون الأدلة الواضحة في الأمر المعين لأن أيديولوجيتهم أو جنسهم أو دينهم أو تحيزاتهم قادتهم لفعل ذلك. وبهذه الطريقة تلمح زاهيًا بانتصارك إلى أنهم غير عقلانيين، لأن معتقداتهم نتجت عن دوافع نفسية. أما أنت فعقلاني رابط الجأش، تبني معتقداتك على تقييم رصين واقعي للأدلة الوجية. وتظن أنه من خلال الكشف عن دوافعهم النفسية التي دفعتهم للاعتقاد (بدلًا من اتباع طريقتك العقلانية) فقد أثبت عدم عقلانيتهم، ومن ثم تعلن أنك أنت الفائز في المحاججة.

توجد العديد من ادعاءات "أنت تعتقد بذلك لأنك..". في الحقول المتعلقة بالله والعقل. وأكثرها شهرة ما زعمه سيجموند فرويد من أن الدين من الناحية النفسية هو شكل طفولي من أشكال تلبية الرغبات. وبيان ذلك: أننا في مواجهتنا لكوننا البارد غير المبالي نشعر بالعجز والذنب ولذلك اخترعنا إله أبوي ليمحننا الأمان والمعفرة. يقول فرويد بتصرف: "أنت تؤمن بالله فقط لأنك لم تترعرع

وتواجه الواقع بدون عكازتك النفسية". وقدم عالم النفس المعاصر بول بلوم Paul Bloom من جامعة يال تفسيرًا للاعتقاد في الآلهة استنادًا إلى فكرة النظم النفسية المعطوبة وادعى أن الدين "نتاج ثانوي عرضي لوظيفة إدراكية معطوبة"[3]. ويجادل عالم الأحياء ريتشارد دوكينز بالمثل أن لا عقلانية الدين هي نتاج ثانوي لآلية لاعقلانية مدمجة في الدماغ. ويمكنك سماع بلوم وداوكينز يقولان: "أنت تؤمن بالله فقط بسبب وجود ملكة إدراكية معطوبة". سنبحث في الادعاء المتعلق بأن الله ليس سوى تشنج في المخ وإن الخبرات الدينية هي ببساطة عمليات عصبية في الدماغ - "ما تعتقد بالله إلا لأن الخلايا العصبية الموجودة في الفص الصدغي في دماغك قد تم تحفيزها بإفراط"- كما سنبحث في ادعاء يستند إلى ما يسمى بجين الله، الذي ينص على أن بعض البشر ميالين جينيًا للمعتقدات الروحية والبعض الآخر لا: " ما تعتقد بالله إلا لأن جيناتك تجعلك ميالًا للاعتقاد". يقوم الإدعاء إذن على أن كشف الأسس العصبية أو النفسية أو الجينية للمعتقد يؤدي- كما يزعم الادعاء - إلى تقويضه.

وعلى الرغم من أننا سنناقش بشيء من التفصيل هذين الإدعاءين، فسنبحث أولاً في تجارب الاقتراب من الموت (التي يزعم فيها الأفراد -المحتمل أنهم قد تعرضوا للموت - أنهم قد خبروا الله): "أنت تؤمن بذلك فقط لأن دماغك المجهد الميت تقريبًا كان غارقًا في المواد الكيميائية". وبعد أن نزيل بعض القشور الهستيرية، سنركز على اللباب العلمي الراسخ. وبعد ذلك، يمكننا أن نسأل في بقية الكتاب ما إذا كان هذا اللباب، إذا ما فهم فهمًا صحيحًا، يقوض الاعتقاد الديني العقلاني أم لا.

برهان السماء

أصابت بكتيريا نادرة مميتة دماغ جراح الأعصاب بجامعة هارفارد إيبن أليكسندر Eben Alexander عام 2008 وأخذت تتغذي على دماغه. وبينما قاوم

(3) Paul Bloom, "Is God an Accident?" Atlantic Monthly, December 2005.

أليكسندر الغزاة المتخفيين ببسالة، إلا أن الغلبة كانت لهم حيث كانت البكتيريا تتقدم بخطى بطيئة لكن ثابتة. وفي نهاية المطاف استسلم دماغ ألكساندر وانزلق في غيبوبة عميقة. وخلال سبعة أيام كان فريق من الأطباء يراقبون أليكسندر باستمرار، وكُتب تقرير عن حالة تدهوره جاء فيه أن القشرة المخية الحديثة، وهي أكثر أجزاء المخ التي تجعل الإنسان إنسانًا، قد وقفت عن العمل تمامًا. واستُدعي صديق أليكسندر، القس مايكل ر. سوليفان، ليقرأ عليه الصلوات الأخيرة. وقبل لحظات من إقدام أطباء ألكساندر على إيقاف تشغيل نظام دعم الحياة، عاد أليكسندر إلى وعيه[4].

لم يكن أليكسندر يؤمن بوجود الله قبل دخوله المستشفى؛ ذلك لأنه - كما قال - "لا يوجد دليل علمي على وجود الله". وعندما استيقظ أليكسندر من غيبوبته، استقيظ مؤمنًا موقنًا بالله واليوم الآخر.

نشرت قصة أليكسندر في موضوع غلاف مجلة نيوزويك. لقد غادر وعي أليكسندر جسده أثناء غيبوبته، بينما كان دماغه متوقفًا عن العمل، أو هكذا ادعى، وسافر إلى عالم لا يمكن وصف جماله ولا تفسيره، تقوده امرأة بارعة الجمال. لقد تحرر وعيه من دماغه وانطلق يتجول بحرية من ظلام مشوش إلى نور مطوق. وإليكم ما خبره:

كنت في مكان كله سحب، سحب منتفخة هشة بيضاء تميل للون الوردي، وقد ظهرت بوضوح قِبل السماء العميقة الزرقاء المسودة. وفي مكان أعلى من السحب، أعلى على نحو لا يمكن قياسه، كانت توجد حشود من كائنات سماوية شفافة متلألئة تصطف في شكل قوس عبر السماء، تاركةً وراءها خطوطًا تشبه أضواء الشفق الشمالي. أهي طيور؟ مِلائكة؟ هذه الكلمات التي استعملتها عندما كنت أكتب مذكراتي، ولكن أيا من هذه الكلمات لا يصف هذه الكائنات التي كانت مختلفة تمامًا عن أي شيء عرفته على هذا الكوكب. لقد كانوا أكثر سموًا، لقد كانوا أعلى.

(4) Eben Alexander, Proof of Heaven: A Neurosurgeon's Journey into the Afterlife (New York: Simon and Schuster, 2012).

ثم جاء صوت مدو مثل ترنيمة مبهجة متألقة من أعلى وتساءلت عما إذا كانت الكائنات المجنحة تقوم بإصدارها؟ عندما فكرت مرة أخرى في ذلك لاحقًا خطر على بالي أن هذه البهجة التي تصدر من هذه المخلوقات كلما حلقت عاليًا كان ضجيجًا يصدر على نحو طبيعي غير إرادي، كما لو أن هذه البهجة كانت تصدر على نحو لا يتمكنون من كتمانها واحتوائها. لقد كان الصوت محسوسًا، وماديًا تقريبًا، كالمطر تستشعره على جلدك ولكن لا يصيبك بالبلل.

لم يكن السمع والبصر حاستين منفصلتين في ذلك المكان الذي كنت فيه. كنت أسمع الجمال البصري للأجسام الفضية لهذه الكائنات العلوية المتلألئة بالأعلى، وكان بإمكاني أن أرى الكمال المبهج الفياض لأغانيهم[5].

تحدثت مرشدة أليكسندر الجميلة معه في نهاية رحلته بدون صوت وبدون كلمات، وقالت : "أنت محبوب ومرحب بك بعمق وللأبد. ولا شيء لديك لتخاف منه. ستظل محبوبًا دائمًا، وليس ثمة شين تفعله"[6].

وفي النهاية أخبرته أنه يجب عليه العودة إلى هذا العالم، إلى حياته. ثم استيقظ.

لقد خاض أليكسندر أغنى تجربة حقيقية في حياته في ذلك الوقت المحدد الذي توقف ذلك الجزء من دماغه المتعلق بالوعي والفكر والذاكرة والعاطفة تمامًا. لقد طرأت أعمق أفكاره وأعمق مشاعره، التي التحمت في أعمق مكان في ذاكرته، بدون دعم من دماغه. لقد سافر بوعي متحرر دماغيًا إلى عالم أحدث وأكبر وأفضل ليخوض - كما زعم - تجربة محبة الله وجهاً لوجه.

كان دائمًا يزدري ويسخر من مزاعم تجارب ما هو خارج الجسم قبل خوضه تجربته للعالم الآخر معتقدًا أنها قابلة للتفسير علميًا. فربما، على سبيل المثال، تغمر الكيماويات العصبية الدماغ التي بدورها تنتج هذه الأحاسيس الاستثنائية عند الاقتراب من الموت.

---

(5) Alexander, *Proof of Heaven*, 45.

(6) Alexander, *Proof of Heaven*, 71.

وقد تساءل ألكساندر بعد ذلك: أني يكون لديه مثل هذه الخبرات في الوقت التي انهارت فيه تمامًا البنية الفوقية العصبية اللازمة لمثل هذه الخبرات؟ فلم يكن ثمة جزء من جسمه صالح لإنتاج مثل هذه الخبرات. و هكذا وجد أليكسندر نفسه مضطرًا للاعتقاد في أبدية أرواحنا وأن ثمة حياة أفضل وأكبر وأطول بعد هذه الحياة الأرضية، وأن الله يترقب معانقتنا.

صرحت أوبرا وينفري Oprah Winfrey[7] بعد إجراء مقابلة مع أليكسندر، قائلة: "لقد تحدثت للتو مع الرجل الذي رأى الله". كانت هناك بالطبع ردود متشككة وساخرة على "دليل الجنة" الذي قدمه ألكساندر. قال المحرر والمدون ماكس ريد Max Read: "ربما تكون هذه هي قصة الغلاف الأكثر إحراجاً على الإطلاق التي قدمتها مجلة نيوزويك". ثم شرع في تفكيك رواية أليكسندر للسماء سطرًا سطرًا من خلال مقارنة رواية أليكسندر عن رحلته السماوية بحالات التعثر الناتجة عن عقار الهلوسة (LSDعقار ثُنائِيُّ إيثيلاميد حمضِ الليسرجيك) أو عش الغراب[8]. وكتب الملحد الشهير سام هاريس Sam Harris: "إن رواية أليكسندر سيئة للغاية. إن تفكيره كسول جدًا ومغرض لدرجة أنه أليق بأن يكون تحت إشعار - إن لم يكن لحقيقة - تشويه غلاف مجلة إخبارية كبرى". لقد سخر من تحول أليكسندر قائلًا: إن تحوله "كان يتطلب رحلة على فراشة تخديرية"[9]. وقد رفض الفيزيائي فيكتور ستينجر Victor Stenger، مؤلف كتاب "الله: الفرضية الفاشلة"، رواية أليكسندر باعتبارها جهلًا خالصًا وساذجًا[10].

لحق أستاذ علم الأعصاب والمؤلف المشهور أوليفر ساكس Oliver Sacks

---

(7) ممثلة وكاتبة مقدمة برامج حوارية أمريكية مشهورة. (المترجم)

(8) Max Read, "Newsweek Cover Story or Internet Posting about Drugs? A Quiz," Gawker, October 8, 2012, http://gawker.com/5949892/newsweek-cover-story-or-internet-posting-about-dugs-a-quiz.

(9) Sam Harris, "This Must Be Heaven," The Blog, October 12, 2012, http://www.samharri-s.org/blog/item/this-must-be-heaven.

(10) Victor Stenger, "Not Dead Experiences (NDEs)," Huffington Post, October 11, 2012,https://www.huffingtonpost.com/victor-stenger/not-dead-expereirnces-nde_b_1957920.html.

بالمتشككين. وقال إن مثل هذه التجارب التي تحدث خارج الجسم أوهام تستغل تحديدًا نفس أجزاء الدماغ التي تقوم بمعالجة وتخزين تجارب حقيقية للغاية[11]. تبدو هذ التجارب حقيقية لأنها تحدث في جزء التجربة الحقيقية من الدماغ وتُخَزَّن في جزء الذاكرة الحقيقية من الدماغ. وتتميز هذه الأوهام إذن بشعور لا مفر منه بالواقع؛ فلا يمكن تمييز مثل هذه الذكريات المتعلقة بعالم الروح عن تلك المتعلقة برحلة منذ زمن طويل إلى عالم ديزني. إن أوهام أليكسندر لم تكن سوى أحداث عصبية في دماغه الذي ضعف أداؤه، وربما لو كان لدينا أليكسندر ما قبل الغيبوبة لكان قد كتب شيئًا مشابهًا.

الهلوسات

لدى أوليفر ساكس قصته الخاصة عن الاتصال الاستثنائي. كان ساكس يمشي بمفرده في يوم من الأيام في جبال النرويج عندما صادف ثورًا هائلًا عدوانيًا. وبينما كان يهرب وقد روعه الثور، سقط على منحدر حاد واستقر في الأسفل وقد إلتوت ساقه تحته. واستطاع ساكس، وهو يعاني من آلام مبرحة من ركبته المفككة، أن يصنع جبيرة من مظلته ومعطفه وبدأ ينزل منفرداً والألم يعتصره. وأثناء طريقه بدأ يشعر بالعجز واليأس على نحو متزايد، واعتقد أنه قد اقترب من الموت. وكان جسده يصرخ: "استسلم" وبدأ عقله يوافق. لقد كان على وشك التوقف والاستسلام للراحة عندما سمع "صوتًا قويًا وواضحًا آمرًا له يقول: " لا يمكنك الراحة هنا - لا يمكنك الراحة في أي مكان. عليك أن تستمر. حافظ على السرعة التي يمكنك مواصلتها والمضي قدماً بثبات". وجد ساكس باستجابته للصوت القوة التي مكنته من الاستمرار على الرغم من الألم المشل في ساقه التي لم تعد قادرة على القيام بوظيفتها. وكتب ساكس قائلا "لقد ثبتني هذا الصوت الطيب، صوت الحياة، وأعاد لي عزيمتي. لقد توقفت عن الارتعاش ولم أتعثر مرة أخرى".

(11) Oliver Sacks, "Seeing God in the Third Millennium," Atlantic Monthly, December 2012, https://www.theatlantic.com/health/archive/2012/12/seeing-god-in-the-third-millennium/266134/.

وبينما يسارع البعض في مثل هذه المواقف في الاعتقاد بأنهم سمعوا صوت الله الطفيف الهادئ ويقدمون الشكر = ادعى ساكس، بدلاً من ذلك، أن الصوت كان هلوسة، وعزا هذه الهلوسة إلى عمليات إدراكية عادية تمامًا لكنها غير شائعة.

ولكن لنفترض أنها لم تكن هلوسة.

إذا كان يوجد إله يتحدث إلى الناس من وقت لآخر في الظروف القاسية مثل تلك التي وجد ساكس فيها نفسه = فثمة تفسير علمي معقول وجيه لعدم إيمان ساكس. تشير الدراسات إلى أن الأفراد المصابين بالتوحد يفتقرون إلى الأدوات العقلية اللازمة للتواصل مع إله شخصي. (سأناقش العلاقة بين التوحد وعدم الإيمان في الفصل السابع) فربما أصاب ساكس ضرب خفيف من التوحد. فالمصابون بالتوحد يفتقرون بنسب متفاوته، تتفاوت بحسب درجة التوحد لديهم = إلى القدرة على عزو الأفكار والمشاعر والرغبات إلى الفاعلين المشخصين. وهذا هو السبب - مرة أخرى بدرجات متفاوتة - وراء ظهور صعوبات في الشعور بالتعاطف أو التعبير عنه مما قد يعيق قدرتهم على الدخول في علاقات شخصية طبيعية. فقد يتحدث الوالد المحب إليهم ويظهر اهتمامه بالتواصل معهم ويتقبلهم، وفي المقابل يكون بعض الأطفال المصابين بالتوحد غير قادرين على إدرك ذلك التعاطف والاستجابة له.

وباختصار، يواجه الأفراد المصابون بالتوحد صعوبات في إدراك وجود علاقة شخصية مع الله (إذا كان ثمة إله). فقد يتحدث الله إليهم، ويمد يده ويتقبلهم، ولكنهم يجدون صعوبة في التعرف على إله شخصي.

وتتفاوت أعراض التوحد بحسب التفاوت في درجات التوحد. وأبرز هذه الأعراض بالطبع صعوبات التفاعلات الاجتماعية. إن عدم المقدرة على بدء محادثاتِ أو الاستمرار فيها الناتج عن إصابة الفرد بالتوحد قد تعزى في حالة الأطفال إلى الخجل. فغالبًا ما يكونون منعزلين غير قادرين على تكوين صداقات أو الحفاظ على الصداقات، ويفضلون قضاء وقتهم بمفردهم. ولكن في حالة الطفل المصاب بالتوحد، فإن تشخيص الخجل يستبدل بالحالة التي يكون ظهور تلك الأعراض فيها أكثر ظهورًا وثباتًا.

فهل من الممكن أن يكون ساكس يعاني من هذه الحالة؟ لقد عانى ساكس طوال حياته من مرض يدعى "بروسوباجنوشا" Prosopagnosia والمعروف أكثر باسم "عمى تمييز الوجوهFace Blindness" أولئك الذين يعانون من عمى الوجه يفتقرون إلى القدرة على التعرف على الوجوه أو تذكرها، وأحيانًا حتى وجوه أفراد أسرهم أو أصدقائهم المقربين. وفي بعض الأحيان عندما ينظرون إلى والدتهم، على سبيل المثال، قد يرون شخصًا غريبًا؛ قد يتعرفون على رائحة أمهم أو مشيتها المميزة، لكنهم ببساطة لا يستطيعون التعرف على نظرتها اللطيفة ولا نظرات أي شخص آخر. إن ساكس يعاني من عدم المقدرة على التعرف على وجهه هو شخصيًا في المرآة. والشاهد المثير للاهتمام في ذلك أن عمى الوجه شائع بين الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات طيف التوحد. فكيف يمكنك معرفة ما الذي يفكر فيه الشخص أو يشعر به إذا كنت لا تستطيع التمييز بين الوجه والأشياء الأخرى، ولا تستطيع التعرف على الشخص الذي يتحدث إليك، ولا "قراءة" وجهه؟ إذا كنت لا تستطيع معرفة ما يفكر فيه الشخص أو يشعر به، فلا يمكنك أن تتجاوب معهم كأشخاص.

لقد وصف ساكس نفسه بأنه وحيد في أغلب الأحيان وأن خجله "مرض". وبالنظر إلى كونه يعاني من عمى الوجه وصعوبات في التواصل وشعور بالوحدة = فقد يستنتج المرء (كطبيب نفساني هاو) أن ساكس يعاني من مرض التوحد عالي الأداء الوظيفي .High-Functioning Autism وإذا كنت ترى مثل هذا التشخيص، فأنت قد انضممت مع بعض أصدقاء ساكس، والذين منهم علماء نفس مدربين. يقول ساكس في مقابلة أجريت معه: "كنت وما زلت خجولًا بعض الشيء. فلا أبادر إلى فتح حوارات بسهولة؛ وأعتقد أن صعوبة التعرف على الأشخاص تلعب حتمًا دورًا في هذا الأمر. لقد قيل إنني أعاني من الرهاب الاجتماعي [أو] متلازمة أسبرجر [لكني أعتقد] أن ذلك أمر مبالغ فيه".

أنا لست أخصائيًا نفسيًا، وليس غرضي أن أشخص ساكس. وما أريد توضيحه هو أنه إذا كان ساكس مصابًا بالتوحد، فقد يكون غير قادر على الاستجابة إلى إله شخصي.

نحن الآن نتحدث بلغة علمية لا تخديرية. فالأفراد المصابون بالتوحد

بدرجاتهم المتفاوتة يجدون صعوبة في فهم القرائن الشخصية - التعبيرات اللفظية وغير اللفظية للأفكار والمشاعر والرغبات - التي تعتبر ضرورية للعلاقات الشخصية، وعليه إذا كان ثمة إله وهو يتكلم، فإن الأفراد التوحديين قد يكونون غير قادرين على الفهم والاستجابة.

لنفترض أن الله قد تحدث في الواقع بصوت لطيف هادئ إلى أوليفر ساكس. وكان ساكس مصابًا بالتوحد، فحينئذ يكون من المحتمل أن ساكس لم يمتلك القدرة البنيوية للتعرف والتجاوب مع صوت الله.

خبرات الاقتراب من الموت NDEs

سجلت حالات وقوع ما يسمى بخبرات الاقتراب من الموت في جميع أنحاء العالم وعلى مر التاريخ البشري. إن قصة أليكسندر تتناسب مع نمط قياسي لهذه الخبرات التي تشتمل عادة على تسجيل روايات عن: ضوء نقي ساطع، أو طُفُوًّا خارج الجسد، أو رحلة عبر نفق غالبًا إلى بُعد آخر (الذي هو الجنة عادة لا دائمًا). وغالبًا ما يقابل المرء على طول الطريق كائنات روحية تقوده إلى العالم التالي. وبعد إجراء مراجعة لحياة المرء بأكملها ومن ثم تأمين مغفرته، تقوم تلك الكائنات بإرشاده مرة أخرى إلى جسده. تبدو تجربة الاقتراب من الموت أكثر واقعية من تجارب هذه الحياة الدنيا، بل لا يبدو عالمنا سوى ظل خافت لهذا العالم الأكبر والأفضل والأعمق من حيث الحقيقة والواقعية، إنه أحق من الحقيقي. تتميز الألوان والأحاسيس والنكهات بأنها أعظم جاذبية وحيويةِ وإشراقًا وقوة من تلك الموجودة في الحياة الأرضية الكاسدة الحقيرة المسطحة نسبيًا. وهكذا يعود المرء إلى جسده في العالم الدنيوي على مضض ممتعضًا، وغالبًا يعود، بعد أن يتم توجيهه إلى العودةِ، ولديه شعور بالواجب والتحدث بالأشياء التي سمعها وشاهدها وشعر بها والتي هي عادة: الجنة والله والمحبة. وتلك هي تقريبًا الرواية الطويلة أو القصيرة لتجارب ما بعد الموت النموذجية.

تذهب النظرة التشكيكية النموذجية لمثل خبرات أليكسندر الّتي يقترب فيها الإنسان من الموت إلى أن هذه التجارب الحية الزاهية تمثل لحظات النزوع الأخيرة

لدماغ يموت على الأرض، لا لحظات التوق الأولى لحياة جديدة في الجنة. وبحسب هذه الرؤية، فإن الإحساس بالسكينة و السلام، والشعور بالمرور في نفق باتجاه النور، ومشاعر الدفء، وحتى الشعور بتلقي حب غير مشروط ليس أكثر من توهج دماغ نشط قد غُمِرَ في كمياوياته. حيث يدخل المخ - بسبب الإجهاد الناتج عن الوفاة - في حالة نشاط مفرط؛ إذ تشتعل الخلايا العصبية اشتعالًا هائلًا، وتطلق المواد الكيميائية في كل مكان. وقد يؤدي فقدان تدفق الدم إلى المخ إلى تضييق الأحاسيس البصرية، مما يفسر "رؤية" النفق، كما يُغمَر المخ بالإندورفين - المورفين المنتج طبيعيًا في الجسم -مما يخلق درجة عالية من النشوة يرافقه ذلك الشعور السلمي والمريح.

دفعت تجربة الاقتراب من الموت إلى إجراء دراسة حديثة تضمنت فحص تخطيط الدماغ الكهربائي (EEGs) لفئران تم إصابتها بالسكتة القلبية عمدًا. وأظهرت تخطيطات الدماغ الكهربي في أول ثلاثين ثانية بعد "الموت"، "ارتفاع شامل لحظي من موجات جاما المتزامنة، والتي تكشف عن مستويات عالية من الاتساق بين مناطق الدماغ والتواصل الارتجاعي، بالإضافة إلى التردد المتبادل المقترن بموجتي ثيتا وألفا"، والتي، بلغة سهلة، تعني أن هناك الكثير مما كان يحدث داخل أدمغة الفئران، التي وإن كانت صغيرة إلا أن أدمغتها "عالية الإثارة". فهل كان تخطيط الدماغ الكهربي يسجل نشاط دماغ هذه الجرذان التافهة الصغيرة أثناء عبورها بحماس إلى أرض الثديات الموعودة وقد غفر لها أخيرًا ما اقترفته من نشر الطاعون وترويع البشر؟ أم هل بينت تلك التخطيطات بيانًا قطعيًا حاسمًا أن تجارب ما بعد الموت وإن كانت تبدو لمن يخوضها أكثر حقيقة من الحقيقة الدنيوية إلا أنها ليست سوى أوهام ناتجة عن كماويات المخ؟ هل أسفرت تجارب الفئران عن حالة من الثمل الفئراني؟ أو هل أسفرت تلك التجارب عن تبليغ فئرانها إلى فردوس الفئران؟ أدلى المجربون أنفسهم باستنتاجهم المتزن وبينوا فيه : "أنه من خلال عرض أدلة على نشاط دماغي عالي التنظيم وملامح فيسولوجية عصبية تتناغم مع المعالجة الواعية التي تحدث عند الاقتراب من الموت = فإننا نقدم الآن إطارًا

علميًا للبدء في تفسير الخبرات الذهنية شديدة الوضوح والواقعية التي سجلها الناجون من الموت الوشيك"[12]. وإذا ترجمنا هذا الكلام مرة أخرى بلغة سهلة لغير المتخصصين فسيصير كالتالي: "ليس لدينا أي فكرة عما كانت تفكر فيه الفئران أو تحسه أو تشعر به أثناء تجربة الاقتراب من الموت أو كيف تكون لخبراتهم بخصوص الاقتراب من الموت علاقة بخبرات الاقتراب من الموت البشرية (كيف حقا يمكن أن تكون لدينا أي فكرة عن ذلك؟)، ولكن يا له من إنجاز باهر! ربما يمكننا الآن أن نبدأ في تفسير الخبرات الوهمية التي خاضها الناجون من الموت الوشيك" أو شيء من هذا القبيل.

لا يحتاج أليكسندر وغيره من الناجين من خبرات الاقتراب من الموت إلى إنكار الصعود المفاجئ والشامل لتذبذبات جاما المتزامنة. فإذا كان العقل / الدماغ متورطًا في إدراك خبرة الاقتراب من الموت، التي تعتبر بكل المقاييس رهيبة ومبهرة ومحولة للحياة، فقد يتوقع المرء قراءات غير معتادة لمخططات الدماغ الكهربي. وإذا كان للمرء أن يكسو عقله العادي بواقع غير عادي للمرة الأولى، واقع هو أكثر حقيقة من واقعه العادي = فقد يرى علماء الأعصاب "مستويات عالية من الاتصال الارتجاعي والتناسق بين مناطق مختلفة" بالإضافة إلى "التردد المتبادل المقترن بموجتي ثيتا وألفا" (بل ربما بعض الموجات الأخرى أيضًا). وبما أننا نفكر بعقلنا / أدمغتنا فإن العقل سيكون وسيطا في أي خبرة بشرية. ولذلك إذا عبر أحدنا الجانب الأخر، ذلك الجانب الرائع، فسيكون المخ في حالة اهتياج مفرط محاولًا أن يفهم واقعية هذا الجانب.

فهل تمثل تجارب الاقتراب من الموت دليلًا على وجود الجنة كما يزعم أليكسندر؟ أم أنها جميعها في دماغه فقط كما يزعم من يزدرونه؟ هل بلغ أليكسندر حقا الواقع الحقيقي، أم كان الأمر كما يدعي ساكس: هلوسة عميقة؟ حتى الآن،

---

(12) Jimo Borjigin et al., "Surge of Neurophysiological Coherence and Connectivity in the Dying Brain," Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 110.35 (2013): 14432-37.

يبدو العلم محايدًا على نحو مخيب للآمال. ولكن مع ذلك تثير هذه الأسئلة قضية هامة: هل معتقداتنا عن الله هي مجرد أحداث دماغية أم أنها - على الأقل لبعض الناس وفي ظروف معينة - تجعلنا على اتصال بواقع خارج عقولنا؟

خوذة الله

شكرًا لله أن ليس على المرء أن يموت ليتصل بالسماء. فليس الموت الوشيك هو الطريقة الوحيدة التي يخوض بها الناس تجربة العلاقة أو الاتصال بالله؛ فهناك خيارات أخرى أقل خطورة بكثير. لنتأمل ما أطلق عليه خوذة الله التي طورها عالم الأعصاب مايكل بيرسنجر. Michael Persinger إن الحج إلى مختبر بيرسنجر في جامعة لورانس الكندية قد يتوج برؤية الله! وفي الواقع ادعاء "رؤية الله" أمر مبالغ فيه قليلًا، وكثير من المزاعم المبنية على خوذة الله هي مبالغات، وسوف نعود إلى ذلك.

تعمل ما يسمى بخوذة الله على خلق تجربة الشعور أو الاتصال بالله صناعيًا من خلال تحفيز الدماغ تحفيزًا كهرومغناطيسيًا (دون تدخل معروف بحسب علمنا فيما يتعلق بالجانب الخاص بالله المتعالي). ويزعم بيرسنجر أن خوذة الله تدل على أن جميع المزاعم المتعلقة بتجارب الاتصال بالله ما هي إلا نتائج التحفيز الكهرومغناطيسي في الدماغ. "فالله" ليس سوى نتيجة للتدليكات الكهربائية اللحظية للدماغ. وكما يقول بيرسنجر: "بدلاً من أن يخلق الله أدمغتنا، فإن أدمغتنا هي التي خلقت الله"[13].

يرافق التقنيون ذوو المعاطف البيضاء في مختبر بيرسنجر كل شخص من الأشخاص التي تجرى عليه التجربة إلى غرفة معقمة عازلة للصوت من خلال باب حديدي ضخم، ويجلسونهم على كرسي مريح ثم يخبرونهم أنهم سيشاركون في دراسة للاسترخاء. ثم يضع التقنيون خوذة دراجة نارية زودت بملفات لولبية كهرومغناطيسية على رؤسهم ثم يخرجون تاركين الشخص الذي هو موضوع التجربة في غرفة صامتة مظلمة تمامًا. وتبدأ الكهرباء بالتدفق إلى أربع لفائف مغناطيسية

(13) Quoted in Robert Hercz, "The God Helmet," http://www.skeptic.ca/Persinger.htm.

للخوذة على كل جانب من الرأس، مروراً بالأقطاب الكهربائية المتصلة بصدغ الشخص وإلى الفص الصدغي، مدلكة جزءًا صغيرًا من دماغ الشخص.

يقوم العلماء بمراقبة وتسجيل موجات الدماغ، أما الأشياء الجميلة فمتروك تسجيلها للشخص نفسه. وعندما يُنَشط الفص الصدغي للشخص كهرومغناطيسيًا يخبر عن تجارب روحية متنوعة، بما في ذلك الشعور بالوجود الحسي لله (أو الكائنات الروحية الأخرى مثل الملائكة والأجداد والأشباح). وقد أفاد ما يصل إلى 80 % من الأشخاص الذين أجريت عليهم تجربة بيرسنجر بوجود "شعور محسوس". وذكر البعض أنهم شعروا بالوئام الكوني أو بالوحدة مع كل شيء.

فهل قام بيرسنجر بتحديد وعزل وتحفيز "بقعة الله" العصبية - ذلك الجزء من الدماغ الذي يخلق معتقدات الله(14) من لا شيء؟

تخيل أنه لا وجود للجنة (وهو أمر سهل إذا ما جربته)(15)، وفي نفس الوقت يمكن للجميع الحصول على خوذة الله. فبالإمكان أن تشتري خوذة الله الخاصة بك عبر الإنترنت مقابل 145 دولارًا فقط بالإضافة إلى 5 دولارات شحن (داخل الولايات المتحدة الأمريكية)؛ وبإمكانك حتى تحميل الخطط المتاحة للجهاز وضبط ما تريد منها. وبفضل خوذة الله، يحصل المرء على السلع التالية: السلام الداخلي والسكينة والشعور بالوئام، وبدون تكلفة الدين المتمثلة في أداء العبادات المملة والمستهلكة للوقت، ودفع الزكوات أو العشور باهظة الثمن، والصلاة الشاقة، والمطالبة بالصوم (ناهيك عن العديد من الطقوس المتطرفة الأخرى، مثل:

---

(14) يطلق المؤلف مصطلح معتقدات الله God-beliefs ليشمل المعتقدات في جميع الكائنات الغيبية المتصورة مثل: الأرواح والأشباح والآلهة وما قد يتصفون به من أوصاف وسلوكيات (المترجم).

(15) هذا مقطع من أغنية (تخيل Imagine) للمغنى الانجليزي جون لينون John Lennon (1940-1980) الذي عرف بآرائه وأغانيه المثيرة للجدل لتصادمها مع الثقافة العامة للمجتمع، ومن ذلك أغنية "تخيل" التي استهلها لينون بعبارة: "تخيل أنه لا وجود للجنة وهو أمر سهل إذا ما جربته" وتتحدث كلمات الأغنية عن عالم يسوده السلام لا وجود فيه للجنة والنار ولا الأديان والقوميات والحدود بين البلدان. (المترجم)

التندب الساحق، المشي على النار، ثقب أماكن متعددة في الجلد، نحت الأسنان، والضرب بالسياط). إذن يحصل الإنسان على الله، إذا جاز التعبير، دون أي تكاليف دينية (كما يقول جون لينون: لا شيء تَقتل أو تُقتل من أجله)[16]. ومع هذا الشعور العميق بالوئام والوحدة، ربما نتخيل، مع تعديل بسيط في عبارة لينون: "آمل أن تنضم إلينا في يوم من الأيام [بامتلاك خوذة الله]، وأن يعيش العالم ككيان واحد[17]".

جَدِيلة خوذة الله ونداء المذبح

ومع ذلك قد لا يكون الحال كذلك. دعوني أشرع أولا من خلال قصة: عندما كنت طالبًا في الكلية أقيمت حفلات صاخبة على الجانب الآخر من المدخل المؤدي إلى من شقتي(أكثر من مرة)، حيث يحضر الطلاب من جميع أنحاء الحرم الجامعي كل أنواع المشروبات الكحولية، ثم يسكبونها بعد ذلك - كل بما يساهم به - في سلة مهملات بلاستيكية كبيرة. تخلط هذه المشروبات معًا ثم تشرب بكميات وفيرة (مع كل التأثيرات المتوقعة). وفي إحدى الليالي وبعد ساعات قليلة من بدء الحفلة قرعت موني بحذر على باب المحتفلين (وهي أحد أتباع القس سون ميونج مون، مؤسس كنسية التوحيد الشهير). ولما كانت الموسيقى صاخبة لم يتمكن أحد من سماعها، فطرقت مرة أخرة بقوة أكبر. فتح الباب شخص ما ودعاها إلى الحلفة (طالبًا مساهمتها في المشروبات الكحولية) فأجابت بتواضع وهدوء: "أنا لست هنا من أجل الحفلة ولكن أنا أبيع شموع لجمع أموال من أجل كنيسة التوحيد". وعندما سأل الناس في الداخل عما تريده الفتاة الشابه ذات الملابس الجيدة جدًا والرصانة والاتزان المفرط = صاح الرجل الذي عند الباب بصوت عال: "اسمعوا جميعًا: هذه الفتاة تبيع جِمالا لله".

---

(16) هذا أيضا مقطع مقتبس من أغنية لينون: "تخيل". (المترجم)

(17) العبارة الأصلية في أغنية لينون كالتالي "آمل أن تنضم إلينا في يوم من الأيام وأن يعيش العالم ككيان واحد". (المترجم)

ثمة جزء في تلك الرواية حدث بالفعل، وهو أن فتاة تبيع الشموع لكنسيتها. وأما الجزء الآخر فجاء على سبيل المبالغة، وذلك أنها تبيع الجِمال لله. وهكذا هو الحال فيما يتعلق بخوذة الله.

لنبدأ أولا بالقول إن خوذة الله لا تعمل لدى الجميع، بل ربما لا تعمل لدى أي أحد. فبينما يزعم بيرسنجر أن تجربته نجحت مع 80% من الأشخاص الذين أجرى عليهم التجربة إلا أن مختبرًا سويديًا لم يتمكن من تكرار نتائجه[18]. وقد عزا العالم الرائد، بير جرانكفيست Pehr Granqvist من جامعة أوبسالا "معدل النجاح" المذهل لبيرسنجر إلى الإيحاء، وذلك من خلال طريقين: أولا: إما أن بيرسنجر أو فنيوه قد أوجدوا في الأشخاص الذين هم موضوع الدراسة توقعًا لخوض تجربة روحية (الإيحاء هو جزء لا يتجزأ من رغبتنا الأصلية في الإرضاء - ويتجلى ذلك في حرصنا اللاواعي على إتيان الأداء كما هو متوقع منا). وثانيًا: ادعى جرانكفيست أن أسئلة برسنجر التي اتسمت بطابع توجيهي أثارت ردودًا متوقعة حول الشعور بوجودات محسوسة. أما في مختبر جرانكفيست فقد كانت التجربة يحكمها تعمية مزدوجة: فلا الأشخاص الذين أجري عليهم التجارب كانوا على علم بالغرض من الدراسة، ولا التقنيون الذين عملوا معه؛ وبذلك لا يمكن أن يكون الأشخاص المجرى عليهم التجربة عرضة للتأثر إذ لم يتمكن التقنيون من تقديم أي شيء يتعلق بأغراض الدراسة. ولم تظهر دراسة جرانكفيست أي آثار روحية ملموسة للمشاركين الذين تم تحفيزهم كهرومغناطيسيًا. ومن المثير للدهشة أن نصف عدد الأشخاص الذين أجري عليهم تجربة جرانكفيست من المجموعة الضابطة[19] (هذه المجموعة كانت ترتدي خوذة إله ولكنها لم تتلق أي تحفيز

---

(18) Pehr Granqvist et al., "Sensed Presence and Mystical Experiences Are Predicted by Suggestibility, Not by the Application of Transcranial Weak Complex Magnetic Fields," Neuroscience Letters 379.1 (April 29, 2005): 1-6.

(19) المجموعة الضابطة control group هي مجموعة مشاركة في التجربة لا يقع عليها المؤثرات المفتعلة للتجربة وتكون - بجوار المجموعة الواقع عليها المؤثرات المفتعلة - بمثابة مجموعة مقارنة لعزل المتغير المستقل المراد دراسة تأثيره. ففي حالة تجربة جرانكفيست =

كهرومغناطيسي على الإطلاق) أبلغوا عن تجارب دينية قوية! وأخيراً، جادل جرانكفيست بأن الحقول الكهرومغناطيسية المشاركة في تجارب بيرسنجر، وكانت أقل من تلك الموجودة في مغناطيس الثلاجة، كانت أضعف بكثير من أن يكون لها أي تأثير ذي بال على الدماغ.

أدت دراسة جرانكفيست إلى جولات من الردود الحادة المتصاعدة. حيث أصر بيرسنجر على نواياه العلمية الحسنة ("لقد كانت أيضًا مزدوجة التعمية")، مدعيًا أن جرانكفيست لم يجري تجربته على نحو صحيح. واعترض جرانكفيست وفريقه قائلين: سنترك الأمر عند هذا الحد.

ذهب الملحد الشهير ريتشارد دوكينز حاجًا إلى معمل بيرسنجر ليخوض بنفسه شعور أن يكون مؤمنًا متدينًا. وعلى الرغم من حسن نوايا بيرسنجر وجهوده، فإن داوكينز لم ير ولم يشعر - ولو شعورًا ضئيلًا - بأي شيء روحاني. وقال داوكينز مستعيدًا تجربته التي غمرتها خيبة الأمل في الفيلم الوثائقي الذي أذاعته هيئة الإذاعة البريطانية عام 2005 بعنوان "الله فوق الدماغ" : "لقد شعرت كما لو كنت في ظلام دامس، مع وجود خوذة على رأسي واسترخاء مريح". ولا شيء غير ذلك: ليس ثمة شعور بحضور معين ولا بوحدة مع الواقع (وبالتأكيد لم تكن ثمة رؤية لله). وزعم بيرسنجر أن نتيجة داوكينز السلبية هذه كانت بسبب تناولة لكمية كبيرة من مشروب كحولي قبل دخوله مختبره مباشرة. لا توجد حاجة لأن يكون دفاعيًا لهذه الدرجة؛ فوجود عنصر متمرد واحد لا يمثل دحضًا للتجربة.

لنفترض جدلًا أن بيرسنجر محق وأن كلًا من جرانكفيست ودوكينز مخطئون، وأن خوذة الله تعمل.

وإذا وضعنا جانبًا مشاكل إعادة استنساخ التجربة وما فيها من إيحاءات فإن نتائج بيرسنجر ستظل مع ذلك أقل إثارة مما هو متوقع. ففي حين أن 80% من المجرى عليهم التجربة استشعروا بوجود حضور شخصي في الغرفة (الله، أو

= تُخبر المجموعة الضابطة عن هدف التجربة مع عدم استثارة أدمغتهم فعليًا، على العكس مما حدث مع المجموعة المجري عليها التجربة. (المترجم)

أشباح، أو أرواح الأجداد أو أناس آخرون، وهكذا) لكن هل "رأي" أي منهم الله حقًا؟ وخلافًا لدوكينز، أخبرت عالمة النفس سوزان بلاكمور عن تجربة مختلفة لخوذة الله حيث ذكرت أنها كانت واحدة من "أكثر التجارب الاستثنائية التي مررت بها على الإطلاق"[20]. ولكن مهما كانت التجربة عميقة وإيجابية أو حتى خارقة للعادة فليست هي رؤية الله المبهجة. وفي الواقع، لقد ادعى حوالي 1 % فقط من المشاركين في دراسات بيرسنجر أنهم شعروا بوجود الله. وقد يتوقع المرء أن تكون نسبة الذين يستشعرون حضور الله أكثر من 1 % بمجرد الجلوس في غرفة سوداء بلا صوت أثناء المشاركة - على نحو عشوائي - في دراسة الاسترخاء (بل قد يتوقع المرء ما هو أكثر من ذلك: أن يشعروا "بحضور محسوس").

وأخيرًا، لنفترض أن بيرسنجر قد نجح فعليًا في أن ينتج أحيانًا رؤى لله من خلال التحفيز الكهرومغناطيسي للدماغ، فهل يقوض ذلك عقلانية الإيمان بالله؟

نحن كائنات مجسَّدة، تجري عملية التفكير فينا بتوسط الدماغ، ولذلك لا ينبغي علينا أن نتفاجأ إذا علمنا أن الدماغ متورط بعمق في كل أنواع المعتقدات، بما في ذلك معتقدات الله. ويضاف إلى ذلك أن على المؤمنين المتدينين الذين يتمتعون بإحساس قوي بالخلق أن يعترفوا عن طيب خاطر بصلاح الجسد، بما فيه من آلة جسدية إدراكية (التي تؤكد أننا نخوض عملية التفكير بكامل أجسادنا بما في ذلك الأدمغة). فلسنا أرواحًا شبيهة بالأشباح التي تطفو فوق الواقع المادي وتشكل المعتقدات دون أن تتأثر بالجسم. وبما أننا خلقنا من تراب فنحن جزء لا يتجزأ من العالم المادي، ونقوم بالتالي بمعالجة تجاربنا وخبراتنا من خلال أدمغتنا المادية تمامًا. وقد نكون أكثر من مجرد أدمغة، ولكن يبقى أن لدينا أدمغة، ويبقى أن إدراكنا الإنساني المخلوق مرتبط بعمق بالعمليات العصبية في الدماغ. وكما هو الحال بالنسبة لمعتقدات الإدراك الحسي أو الذاكرة، على سبيل المثال، فإن أجزاء معينة من هذا الدماغ تكون أكثر عرضة من غيرها للتوسط أو لمعالجة المعتقدات المتعلقة بالله. وربما إذا تم تحفيز تلك الأجزاء من الدماغ تحفيزًا مناسبًا وفي ظل

(20) See an interview with Blackmore at https://www.youtube.com/watch?v=Zo-achedLMs.

ظروف خاصة للغاية = فمن الممكن لتلك الأجزاء أن تولد معتقدات الله.

تتعلق معظم المعالجات التي تنتجها الأجسام العصبية بأمور إدراكية عادية. تأمل المعالجات التالية المتعلقة بالإدراك الحسي: عندما أنظر إلى شجرة وأشكل الاعتقاد: "توجد شجرة أمامي" فإني أفعل ذلك جزئيًا لأن أجزءًا من الدماغ تساهم في تشكيل هذا الإدراك (كما يرجع ذلك جزئيًا أيضًا إلى وجود شجرة في الخارج أمامي وأنا أراها). وهذه هي الطريقة التي يعمل بها الإدراك الحسي العادي: عندما أرى شجرة (شجرة حقيقية، في الخارج، خارج عقلي) فإن معلومات مرئية تمر من خلال عيني عبر أعصاب شبكية عيني إلى الجزء الدماغي المختص بالرؤية الذي يحفز مختلف العمليات الكيميائية والعصبية، والتي بدورها تولد إحساسًا بالشجرة، والذي يصاحب تكوين اعتقاد بخصوص الشجرة. وبالطبع، نعرف القليل جدًا عن كيفية عمل كل هذا، ولكننا نعرف أن إدراك الشجرة هو عملية يدخل في تشكيلها: الأشجار والعينين والأعصاب والدماغ والمواد الكيميائية في الدماغ والخلايا العصبية والعمليات العصبية والأحاسيس الداخلية والمعتقدات.

وربما يأتي اليوم الذي ينجح فيه عالم أعصاب ماهر في إحداث تحفيز كهرومغناطيسي في الجزء الخاص بالإدراك الحسي من دماغي يجعلني أحصل على إحساس بصري حقيقي للغاية برؤية شجرة أمامي دون أن تكون ثمة شجرة أراها في الواقع. وإذا حدث ذلك فسأجد نفسي أعتقد (خطأً) أن "ثمة شجرة أمامي".

فهل يجب أن يؤدي هذا الخلق الكهرومغناطيسي للإدراك الحسي وما يصاحبة من اعتقاد إلى تقويض عقلانية كل معتقداتي الحسية؟

أعتقد أنه من الواضح أنه في هذه الحالة تحديدًا يكون اعتقادي الحسي، " أمامي شجرة "، غير عقلاني لأنه تم إنتاجه عن طريق التحفيز الكهرومغناطيسي المباشر لدماغي (وليس عن طريق رؤية شجرة). وسأضحك مع عالِم الأعصاب متعجبًا أن الآلة يمكنها أن تنتج على نحو فعال وقوي أحاسيس كالتي تكون لدي عندما أرى شيئًا ما فعليًا. وسأفهم حينها فهمًا أفضل إلى حد ما حقيقة أن مواجهاتي الحسية مع العالم الخارجي تحفز كهرومغناطيسيًا أجزاء من دماغي بطرق تنتج عنها أحاسيس داخلية بل ومعتقدات.

فهل يجب على أن أستنتج من الوهم الذي أنتجه التحفير الكهرومغناطيسي أن جميع معتقداتي الحسية هي أيضًا وهم؟

لا أعتقد ذلك. فعلى الرغم من أني قد أفاجأ أنه في ظل ظروف مختبرية خاصة للغاية يمكن إحداث أحسيس ومعتقدات في دماغي بدون إثارة تحفيزية من العالم المادي (على سبيل المثال: من شجرة حقيقية أو كلب حقيقي في الخارج) فلا ينبغي على الاعتقاد أن ذلك يستلزم حدوث جميع معتقداتي الحسية بداخلي دون تحفيز من العالم المادي. ولماذا أعتقد ذلك؟ لماذا يفترض أنه يجب على أن أفقد الثقة في ملكات الإدراك الحسي؟

وبالمثل، فأنا لن أفقد الثقة بملكة الذاكرة لدى حتى لو تمكن عالم أعصاب ماهر من تحفيز دماغي لخلق ذاكرة ما، ولن أتوقف عن الثقة بملكة الأخلاق لدي حتى لو نجح عالِم أعصاب في تحفيز دماغي لخلق اعتقاد أخلاقي. لن أتخلى عن الاعتقاد بأن زوجتي تحبني حتى لو تمكن عالم أعصاب ماهر من زرع إحساس حقيقي للغاية في دماغي لأشخاص آخرين أو إحساس بأني محبوب من قبل أشخاص آخرين. فلا ينبغي أن أنزعج إذا اكتشفت أن مجموعة من علماء الأعصاب الأذكيا تمكنوا من فعل أي من ذلك لأشخاص آخرين، ولو كانوا كثرين.

كيف يمكن أن تقوض مثل هذه النتائج لعلم الأعصاب عقلانية معتقدات الله؟ لا يمكن تقويض الاعتقاد بالله عن طريق اكتشاف أن الاعتقاد بالله يمكن أن يحفز في شخص ما في ظل ظروف غير اعتيادية بالمرة - كتلك المتعلقة بالتحفيز المباشر لدماغ الشخص. وبالبطع فإن الاعتقاد بالله الناتج بهذه الطريقة غير الطبيعية بالمرة دون وجود أي صلة بالواقع الخارجي تؤكده لن يكون عقلانيًا. ولكن هكذا أيضًا لن تكون الاعتقادات المنتجة بالتحفيز الاصطناعي بخصوص الشجرة أو الذاكرة عقلانِية. لنتأمل في اعتقاد الشجرة: إذا كنت أعرف أن اعتقادي بوجود الشجرة قد نتج مباشرة من خلال التحفيز الكهرومغناطيسي لدماغي (وليس بواسطة رؤية شجرة حقيقية) فسيكون هذا الاعتقاد غير عقلاني. ويتم تقويض هذا الاعتقاد الشجري تحديدًا من خلال إدراكي بأنه كان نتاجًا مباشرًا بواسطة الخوذة وليس من خلال رؤية الشجرة. وبالمثل، إذا علمت أن اعتقادي بالله قد أُحدث كهرومغناطيسيًا دون

أي اتصال موثوق بالله فهذا الاعتقاد إذن سيكون غير عقلاني. وحينها فإن هذا الاعتقاد بالله الذي نتج على هذا النحو سيقوض تقويضًا عقلانيًا من خلال إدراكي أنه نتج عن خوذة وليس عن طريق الله.

ولكن هل هذا يقوض كل اعتقاد بشجرة أو كل اعتقاد بالله؟ لماذا يجب أن تقوض هذه التجارب المختبرية عقلانية كل اعتقاد بشجرة أو كل اعتقاد بالله؟ ماذا عن معتقداتي السابقة عن الله؟ وماذا عن معتقدات الآخرين عن الله؟ هل تقويض معتقداتي ومعتقدات القلة الآخرين التي اكتسبوها بالتحفيز الكهرومغناطيسية عقلانيتهم فيما يتعلق بمعتقدات الله؟

لكي يصح تقويض عقلانية جميع المؤمنين الدينيين نحتاج إلى سبب ما للاعتقاد بأن معظم المعتقدات الدينية نتجت عن شيء يشبه التحفيزات الكهرومغناطيسية المباشرة للدماغ (ولم تنتج عن الله). ربما تكون هذه التحفيزات قد حدثت، ربما تسببت التحولات المنتظمة في الصفائح التكتونية للأرض في حدوث ثورات كهرمغنطيسية كافية لتحفيز أدمغة أعداد مهولة من الناس بمعتقدات الله المختلفة في معظم أنحاء العالم وعبر تاريخ البشرية. وربما يكون سبب زيادة الإلحاد في زماننا المتأخر أن قشرة الأرض قد استقرت استقرارًا كافيًا بحيث تنبعث منها تحفيزات كهرمغنطيسية أقل للجزء الخاص بالله من الدماغ.

ولكن "ربما" و "لعل" و "لو"، ليست علمًا معتبرًا. فما لم يتبين وإلى أن يتبين أن معظم معتقداتنا عن الله قد قد تم إنتاجها إنتاجًا كهرومغناطيسيًا بدون تدخل الله = فإن القلة من معتقداتنا عن الله المستحثة على نحو غير طبيعي لا تكفي لتقويض عقلانية كل مؤمن متدين.

نحن بعيدون كل البعد عن اختراع خوذات الإدراك الحسي وخوذات الذاكرة والخوذات الأخلاقية، وعلى الأرجح نحن أكثر بعدا عن عمل خوذات الشعور بشخص آخر وخوذات الشعور بأنك محبوب. وحتى هذه اللحظة، لا يوجد سبب للاعتقاد بوجود خوذة الله (تلك التي تحفز الشعور بالله تحفيزًا غير عشوائي). لقد ابتكر بيرسنجر، على أحسن تقدير، خوذة تحدث شعورًا رائعًا في بعض الأحيان، ثم هذا الشعور الرائع قد يتضمن أحيانًا إحساسًا بالآخرين. وحتى لو تم اختراع أيًا

مما ذكر أعلاه، فإن ذلك سيقوض فقط ذلك الاعتقاد المتولد مباشرةً بهذه الخوذات، وليس الثقة في الملكات الإدراكية التي تشارك عادة في إنتاجه. ولكي نتوقف عن الثقة في معتقدات الإدراك الحسي أو معتقدات الذاكرة فلابد مثلا من وجود سبب وجيه للاعتقاد بأن معظم معتقدات الإدراك الحسي أو الذاكرة تنتج عن التحفيز الكهرومغناطيسي المباشر وليس بواسطة، على سبيل المثال، شجرة حقيقية أو حدث من الماضي.

ولكي نتوقف عن الثقة في ملكة الاعتقاد بالله فإننا سنحتاج إلى سبب وجيه لنعتقد أن معظم المعتقدات الإلهية قد تم انتاجها بشيء مثل التحفيز الكهرومغناطيسي المباشر وليس من قبل الله. وإلى أن يظهر ذلك، فإن ادعاءات علم الاعصاب بأنها قوضت عقلانية الاعتقاد بالله تفتقر إلى الدعم الكافي.

جين الألوهية

نشر عالِم البيولوجيا الجزيئية دين هامر Dean Hamer الذي تلقى تعليمه في جامعة هارفارد كتابه المثير بعنوان "جين الألوهية: كيف أن الإيمان متجذر في جيناتنا"[21] عام 2004. ظهر عنوان الكتاب في 29 نوفمبر 2004 على غلاف مجلة تايم بعنوان فرعي استفزازي: "هل يجبرنا حمضنا النووي على البحث عن قوة عليا؟ صدق أو لا تصدق: بعض العلماء يقولون نعم! ". ادعى هامر في كتابه أنه قد حدد موقع الجين، جين الألوهية، المسؤول عن الروحانية البشرية (الجين $VMAT_2$. وزعم أن "جين الألوهية" يشفّر لإطلاق بعض المواد الكيميائية السامة في المخ، والتي تنتج عند إطلاقها مشاعر روحانية. ومما قاله في هذا المقال: "أنا مؤمن بأن كل تفكير نفكر فيه وكل شعور نشعر به هو نتيجة نشاط في الدماغ. وأعتقِد أننا نتبع قانون الطبيعة الأساسي، ذلك أننا حزمة من التفاعلات الكيميائية تجوب وتدور في كيس"[22]. فكل ما هو هنالك عن الله نابع من جيناتنا.

---

(21) Dean Hamer, The God Gene: How Faith Is Hardwired into Our Genes (New York: Doubleday, 2004).

(22) “The God Gene,” Time magazine, November 29, 2004.

قيَّم هامر في دراسته تدين الأشخاص الذين أجرى عليهم الفحص باستخدام بعد تجاوز الذات self-transcendence، "وهو أحد أبعاد اختبار قائمة المزاج والشخصية"[23] الذي يختص بقياس الروحانية التي فهمت بغموض على أنها اعتبار الفرد نفسه جزءًا لا يتجزأ من الكون. وعلى الرغم من أن قياسه لم يقيِّم الاعتقاد في كائن علوي فإنه شمل تقييم النسيان الذاتي (قدرة الفرد على الانغماس في اللحظة الحالية) والانسجام (تحديد هوية النفس كجزء من الكون) والتصوف (درجة انفتاح الفرد على الغموض). وتضمنت نماذج أسئلة الصواب والخطأ التي وجهت لفهم مستوى الفرد من تجاوز الذات ما يلي:

1 - غالبا ما أكون مفتونًا بما أقوم به لدرجة أنني أنسى نفسي في تلك اللحظات وكأنني انفصل عن الزمان والمكان.

2 - غالبًا ما أشعر بالاتصال الشديد مع الناس من حولي وكأنه لا وجود للفواصل بيننا.

3 - أنا مفتون بتلك الأشياء الكثيرة في الحياة التي لا يمكن تفسيرها علميًا.

4 - في كثير من الأحيان عندما أكون مسترخيًا تأتيني ومضات تبصر أو إدراك غير متوقعة.

5 - أشعر أحيانًا بالترابط الشديد مع الطبيعة إذ يبدو كل شيء وكأنه عضو من جسم كائن حي واحد.

---

(23) قائمة المزاج والشخصية: هو اختبار ابتكره الطبيب النفساني وعالم الوراثة الأمريكي كلود روبرت كلوننجر Claude Robert Cloninger لتحديد سمات الشخصية وتقلبها ودراسة الوراثة الجينية للشخصية وتأثير الشخصية على نتائج العلاج النفسي. يتكون الاختبار من 250 بندا في شكل أسئلة ذاتية صواب وخطأ يجيب عليها المفحوص بالإثبات أو النفي لتحديد سبعة أبعاد تشمل 25 جانبا للشخصية. يطلق على أربعة من هذه الأبعاد أبعاد المزاج وهي (تجنب الضرر، البحث عن الابتكار، الاعتماد على المكافأة، الثبات) والثلاثة الباقين يطلق عليها أبعاد الشخصية وهي (التوجيه الذاتي، التعاون، تجاوز الذات). (المترجم).
انظر:
Gary R. VandenBos, *APA Dictionary of Psychology*, (Washington, DC: American Psychological Association, 2015), 1071.

جادل هامر بعد ذلك بأن العديد من المواد الكميائية المختصة بتنظيم الحالة المزاجية في الدماغ، التي هي أحاديات الأمين (بما في ذلك السيروتين والدوبامين)، هي المسؤولة عن المشاعر الإيجابية وأحيانًا مشاعر النشوة لبعد تجاوز الذات self-transcendence المرتبط بالروحانية.

وعلى افتراض أن أحاديات الأمين هي كالمفتاح للتفاعلات الكميائية التي تدور في الكيس الإنساني والتي ترتبط على نحو إيجابي بالروحانيات فقد كانت الخطوة التالية هي إيجاد الأساس الجيني لانتاج أحاديات الأمين (وليست بالمهمة السهلة حيث أن لدى البشر 25000 جين مشفر للبروتين).

فحص هامر عينات من الحمض النووي للمفحوصين بحثًا عن الجينات التي أنتجت تجاوز الذات لدى هؤلاء الناس. وألقى الضوء على جين يعرف ب $VMAT_2$ والذي يشارك في تشفير البروتينات التي تصنع أحاديات الأمين. ولأن أن أحاديات الأمين ترتبط ارتباطا إيجابيا بتجاوز الذات فقد اعتقد أنه قد وجد جين تجاوز الذات. ثم بعد أن أرسل الكتاب للناشر، تحول جين تجاوز الذات إلى جين الألوهية، الله في جيناتنا. إن هذا الجين، وفقًا لهامر، هو سبب اعتقاد الناس بالله وليس الاستجابة الإيمانية الحرة للمتعالي.

ترتبط مثل هذه الادعاءات المثيرة بالحتمية الجينية - وهو الادعاء بأنه لدينا جينات لتحديد كل جانب من جوانب السلوك البشري من كون الشخص مائلًا للإنعزال إلى الميل للعنف، بالضبط كما لدينا جينات تحدد شكل أنوفنا أو درجة الصلع مثلًا. وقد يدعي القاتل أنه كان ميالًا للعنف بسبب جيناته (وبالتالي ما كان يملك من أمره شيئًا). وقد ناقشت دراسة حديثة ما إذا كان ثمة جين للسعي وراء الأمور المشوقة. ونحن نقرأ (وغالبًا ما نعتقد) أنه "يوجد جين" للكرم والخجل والشجاعة والعطف على سبيل المثال، ولكن مثل هذه الادعاءات لا تستند إلى أي دعم علمي على الإطلاق، كما أنها تتجاهل الدور الهام الذي تلعبه البيئة في التأثير على السلوك البشري. هذا بالإضافة إلى أن الحتمية الجينية تنتهك أحساسنا العميق بكرامة الإنسان وحرية إرادته. فقد تجعلنا جيناتنا وبيئتنا نميل إلى سلوكيات

واعتقادات معينة لكنها لا تفرض هذه السلوكيات والاعتقادات بالقوة أو تتسب فيها. على الأقل لا يوجد سبب علمي للاعتقاد بأن جيناتنا تقوم بذلك.

كان هامر قد ادعى قبل ذلك ادعاءً متسرعًا مفرطًا في التبسيط وغير مدعوم بأدلة عن الجينات والسلوك. ففي عام 1993 أدلى بتصريح مثير حول وجود صلة جينية للمثلية عند الذكور في منقطة في كروموسوم إكس. وعلى الرغم من أن هامر قد خفض يقين ادعاءه بنسبة 99,5% باستخدامه تعبيرات مثل "أشار" "يبدو أنه يشير إلى" "على الأرجح" إلا أن الإعلام قد هرع دون تثبت مدعيًا أن العلم قد اكتشف جين المثلية (ولم يخل بالكامل من بعض الدعم الجاد من دراسة هامر الذي وإن بدا جادًا لكنه كان مضللًا). ولم يتمكن الباحثون الآخرين من الحصول على نفس نتائج هامر.

ولكن حكايته ذات الأسلوب الشخصي والتحذيري لم تمنع هامر من الإندفاع في نشر "جين الألوهية" دون أي فارق أو تحفظ كاف.

استندت حجة جين الألوهية إلى دراسة غامضة غير قابلة للتكرار وغير معتمدة. وحتى لو قدم إثبات بدليل فإنه يقيس ميلًا جينيًا طفيفًا نحو روحانية غامضة للغاية: الوحدة والانسجام والتصوف. وقد أفادت الدراسة عن القليل أو عن لا شيء مطلقًا فيما يتعلق بالاعتقاد بالله؛ ذلك لأن المفحوصين لم يُثمين اعتقادهم بالله. لقد اقترح كارل زيمر في مراجعته النقدية العنيفة لكتاب هامر في مجلة ساينتفك أمريكن أن يُغير العنوان إلى: الجين المسؤول عن أقل من واحد في المائة عن التباين الموجود في بيانات الاستبيانات النفسية المصممة لقياس عامل يطلق عليه تجاوز الذات، الذي يمكن أن يعني كل شيء ابتداءً من الانتماء إلى الحزب الأخضر[24] وانتهاء بالاعتقاد بالحاسة السادسة، وذلك طبقًا لدراسة فردية غير منشورة وغير قابلة للتكرار!"[25]

---

(24) حزب يدعم سياسات المحافظة على البيئة في الولايات المتحدة. (المترجم).

(25) Carl Zimmer, "Faith-Boosting Genes: A Search for the Genetic Basis of Spirituality," Scientific American 291.4 (October 2004). CHAPTER 2.

ببساطة، لا يوجد سبب للاعتقاد "بأنك لم تعتقد في الله إلا لأن جيناتك جعلتك تفعل ذلك".

حقيقة أم وهم؟

إن طريقة جين الألوهية وخوذة الله والتفسيرات "العلمية" لخبرات الاقتراب من الموت هي أكثر الطرق الجوهرية المثيرة للجدل التي تسعى إلى دحض الاعتقاد بالله بناءً على علم الدماغ. وعلى الرغم من أن العلم قد وقف حائرًا في كل حالة من هذه الحالات إلا أن الأمر يطرح وكأن العلم قد أكد ما تزعمه الدراسات (مع ما يترتب على ذلك من عواقب وخيمة بخصوص عقلانية الاعتقاد بالله). يوجد مع ذلك علم يتعلق بالله والدماغ قد أسس على نحو راسخ ومقبول على نطاق واسع وهو علم الدين الإدراكي Cognitive Science of Religion وهو علم العقل وعلاقته بالمعتقدات والممارسات الدينية. يشير علم الدين الإدراكي إلى أن الدماغ يجعل الناس يمليون أو ينزعون إلى الاعتقاد بالله نزوعًا طبيعيًا؛ إذ تحفز الأدمغة العادية الناس العاديين في الظروف العادية على الاعتقاد بالله. فالمعتقدات المتعلقة بالله هي نتاج طبيعي عادي تمامًا لعمليات الدماغ السليمة الطبيعية.

إن تفحص الآراء المتطرفة غير المستقرة التي استعرضناها في هذا الفصل لم يكن عبثًا حيث يكشف النقاش عن وجود انقسام عميق بخصوص النظر إلى علاقة الدماغ بالله: هل يكون الدماغ عاملًا مشيرًا إلى كائنات أو قوى تتجاوز الدماغ (حقيقة واقعية)، أم أن الأمر ليس سوى علميات كميائية أو عصبية أو إدراكية في المخ (وهم). وقبل أن نتمكن من إحراز أي تقدم في قبول أو رفض مثل هذه المزاعم نحتاج أولا إلى تزويد أنفسنا بفهم أفضل لعلم العقل وكيف يشارك العقل في اِنتاج وتغذية المعتقدات الدينية.

الفصل الثاني

الدماغ والآلهة

علوم الإدراك Cognitive Science

كنا نسمع في مسلسل ستار تريك التلفزيوني كل أسبوع: "الفضاء، الحدود النهائية..". ومثلما استبدلت الأرض كحد كوني للاستكشاف بالفضاء فإن الوعي وما يحيط به من ألغاز قد يحل محل الفضاء كحد نهائي. وفي الوقت الذي كنا نكتشف فيه العالم الخارجي والذي كلل ببعض النجاح فإن ما أحرزناه من تقدم في استشكاف العقل البشري كان أقل بكثير. لقد اكتسب علماء الكون والفيزياء الفلكية أرضية علمية مهمة لفهم طبيعة وشكل عالمنا خلال القرن الماضي. فنحن نعرف عمر كوننا و ظروفه الأولية وثوابته الأساسية وكيف أن ترتيبه الأولي مع قوانين الطبيعة أدى إلى نشوء كواكب ونجوم والحياة في نهاية الأمر. ونعرف مدى الكون المرئي ومكاننا الصغير في ركن منه نطلق عليه مجرة درب التبانة، ونعلم أن كوكبنا هو ثالث صخرة تدور سنويا حول الشمس. ونعرف التكوين الداخلي للنجوم: تلك الأفران الكميائية التي تمثل مصانع الكون. نعرف الكثير والكثير.

ومع ذلك، وبعد سنوات من الجهد والتفكير، لا يوجد لدينا أي فكرة عن كيفية نشوء ألم الركبتين أو إدراك الإحمرار في وردة أو حلاوة طعم العسل من مواد كميائية في الدماغ أو العلميات العصبية المرتبطة بتلك الأفكار والمشاعر الواعية. في الواقع ليس لدينا فكرة على الإطلاق كيف أن أشياء تتمتع بخصائص فيزيائية واضحة مثل الشكل والحجم والمدة والكمية والصلابة والحركة (أو ببعض من

ذلك) تتسبب في نشوء مشاعرنا أو أحاسيسنا الذاتية للغاية مثل اللون أو السعادة أو الألم. وكيف تتسبب أشياء ذات خواص فيزيائية بالكامل في إحداث أشياء ذات خواص ذهنية بالكامل؟ ما هي العلاقة بين ما هو عقلي وجسدي؟ نحن بكل بساطة لا نعلم.

لنطرح السؤال بطريقة أخرى: ما هي علاقة الأفكار والمشاعر الذاتية بالدماغ المادي؟ كيف يكون شعوري بالحزن نتيجة عمليات أو حوادث كميائية أو عصبية؟ حتى الآن ليس لدينا أي فكرة. فالدماغ والوعي هما "الحدود النهائية" التي تكتنفها الغموض في هذه المرحلة.

وعلى الرغم من أننا لا نعرف كيف تنتج العمليات الكميائية أو العصبية التي تحدث في أدمغتنا أفكارًا وأحاسيس غير مادية فإننا نعرف من خلال علوم الإدراك الكثير عن كيف تجعلنا الطرق المميزة للتفكير البشري نميل إلى اعتقادات بشرية نموذجية إلى حد ما. يوحد علوم الإدراك، وهو فرع معرفي جديد نسبيًا، كلًا من علم النفس وعلم الأعصاب وعلوم الكمبيوتر والفلسفة لدراسة علميات العقل/الدماغ (ولأغراض تتعلق بالكتاب سنستخدم كلمة الدماغ والعقل على نحو مترادف). يدرس علم الإدراك كيفية اكتساب وتخزين وتنظيم واسترجاع العقل البشري للمعلومات. إن الدراسة العلمية للعقل المفكر تهتم بأشياء من بينها الإدراك الحسي والانتباه والذاكرة وأنماط التمييز وتشكيل المفاهيم والوعي والاستدلال وحل المشاكلات ومعالجة اللغة والنسيان.

هذه الملكات الإدراكية هي التي أسفرت بفاعلية كبيرة عن فهم الفيزياء الفلكية لطبيعة كوننا (والتي مع ذلك لم تسفر حتى الآن إلا عن فهم قليل للوعي). نحن نعلم - بدون معرفة كيفية انتاج المادة للأفكار والمشاعر - أن العقل يأتي مجهزًا بملكِات إدراكية تسمح لنا بفهم الكثير عن الواقع (بما في ذلك بعض تلك الملكات الإدراكية).

لقد تعلمنا، كما قد يتوقع المرء، أن لدينا ملكات إدراكية تسمح لنا بمعرفة الكثير من الأمور: نعرف أنه يوجد الكثير من الناس (وأحيانا نعرف ما يفكرون أو يشعرون به)، ونعرف أن ثمة ماض وأن المستقبل سيأتي (وأنه سيكون كالماضي)،

ونعرف أن هناك عالما خارج عقولنا وأن ذلك العالم يعمل وفقًا لقوانين الطبيعة (التي تتمثل في الكمياء والجيولوجيا والفيزياء مثلًا)، ونعرف الحساب والهندسة (ويعرف عدد قليل من جنسنا البشري اللانهائيات واللانهائيات المتعددة)، ونعرف أن الاستعباد شيء سيئ وأن الكرم شيء جيد. لقد استخدمنا ملكاتنا الإدراكية لنتعلم عن الماضي البعيد والمستقبل الغيبي، فنحن نأسف للملايين الذين قتلوا في المحرقة. وبالمثل، أعرف أن شجرة قيقب توجد في الفناء الخلفي لمنزلي، وأن هناك ساحة مليئة بورق من العشب لا يحصى، وأن عش عصفور أبو الحناء المليء بالبيض محصور في فروع تلك الشجرة.

ما هي بعض تلك الملكات الإدراكية التي زودتنا بمعرفة مثل هذه الأشياء؟ لقد تعلمنا أن لدينا ملكات تهيئنا لإدراك الأشياء عبر حواسنا الخمسة ومعرفة عقول الآخرين والحكم عليها (على الأقل معرفة بعض أفكارهم ومشاعرهم ورغباتهم). ونفترض من خلال ملكات الإدراك أنه يوجد ماض (زمن لم نكن فيه قد خلقنا، وزمن لم نكن نحن ولا العالم قد خلق، والزمن الذي مضى منذ خمس دقائق في حال كون ذكرتنا سليمة) ويوجد عالم خارج عقولنا وأن كليهما ممكن المعرفة. ونتطلع إلى المستقبل ونصدر أحكامًا أخلاقية وجمالية (وبعضها كلي على نحو مدهش). وكذلك نحن مجهزون إدراكيًا لعد الأشياء بل ونميل إلى ذلك. وقد أدى هذا النزوع الإدراكي، بالاقتران مع ملكات إدراكية أخرى مثل الملكات المرتبطة بالتفكير، إلى اختراع علم الجبر وحساب التفاضل والتكامل.

ولسنا قادرين فقط على التفكير في الحقائق الواقعية وحدها ولكننا أيضًا مجهزون للتفكير بطريقة معاكسة للواقع: كيف يمكن أن تكون الأمور أو كيف كان من الممكن أن تكون. يسمح هذا النوع من التفكير التجريدي للعلماء أن يفكروا، من بين أشياء أخرى كثيرة، في مدى إحتمالية أن تكون حقيقة الواقع مختلفة عن الطريقة التي تبدو بها لنا. لقد نتج العلم الحديث عندما تحالف التفكير المعاكس الحذر والإبداعي مع التطورات في الرياضيات. فعلى سبيل المثال: في حين تبدو لنا الأرض غير متحركة، فإن العلم يخبرنا أنها تتحرك بمعدلات سرعة عالية نسبيًا في مدار حول الشمس. وبينما تبدو الشمس كما لو أنها تشرق وتغيب نعلم أن

الأرض هي التي تدور في الواقع بينما الشمس تبقى ثابتة. وعلى الرغم من أن الطاولة تبدو مادة صلبة ومستقرة وغير قابلة للاختراق، فإنها في الواقع عبارة عن مساحات أغلبها فارغ ويملؤها ذرات لا حصر لها تتحرك بمعدلات عالية من السرعة. لقد كان العلم الحديث ليتجاوز الفهم الإنساني لو أن البشر افتقروا إلى القدرات الإدراكية للعد والتفكير المعاكس (وأيضاً، من بين أشياء أخرى كثيرة، التفكير الجماعي والمتعمق على مدى فترات زمنية طويلة جدًا).

وبالإضافة لما سبق، فإن ملكاتنا الإدراكية تساعدنا في الغالب على الوصول إلى ما نحن ذاهبون إليه، وتجنب المزالق، والتمتع بأصدقائنا وعائلاتنا، وتأمين الغذاء والمأوى، وتجنب الحيوانات المفترسة والأعداء، والعثور على رفقاء للحياة، ورعاية أطفالنا. إن ملكاتنا الإدراكية تجهزنا لإنجازات فكرية مذهلة، من ناحية، وللمعارف الدنيوية عن الحياة والناس والعالم من ناحية أخرى.

نعرف أيضًا أننا مخلوقات محدودة غير معصومة عن الخطأ ذات قدرات إدراكية مصنوعة من الغبار والتي (شُكلت على الأرجح خلال عمليات تطورية). ونحن ميالون للاعتقاد بأننا أفضل من المتوسط (تأثير بحيرة ووبيجون)[1] باستثناء الأفراد الذين يعانون من الاكتئاب والذين قد يكون لديهم فهم أفضل للواقع في هذا الصدد. ونحن أيضًا في الغالب نعتقد أننا أكثر ذكاءً وأفضل من الناحية الأخلاقية من أولئك الذين يختلفون معنا، ونتحيز للأدلة التي تؤكد معتقداتنا الحالية (ونتجاهل

(1) يشير مصطلح "تأثير بحيرة ووبيجون" إلى التفاؤل غير الواقعي المتمثل في ميل معظم الناس إلى الاعتقاد بأنهم أعلى من الشخص المتصف بدرجة متوسطة من الذكاء وروح الفكاهة والقدرة على الغوص وماشابه. وقدم الطبيب الأمريكي جون جاكوب كانيل (من مواليد 1948) هذا المصطلح في تقرير نشر عام 1987 و 1988 معلقًا على حقيقة أن كل الولايات الأمريكية الخمسين أبلغت عن نتائج أعلى من المعدل الوطني المتوسط للمدارس الابتدائية. وأخذ المصطلح (والذي يسمى أيضا مغالطة بحيرة ويبجون) من برنامج إذاعي أنشأه الكاتب الأمريكي جرسون كيلور (من مواليد 1942) ووصفها في رواية عام 1985 بعنوان أيام بحيرة ويبجون وفيها يوصف سكان تلك البقعة التي تقع فيها بحيرة ويبجون من أطفال ونساء ورجال بأنهم جميعا فوق المتوسط في جميع الصفات. (المترجم) انظر:
"Lake Wobegon effect. "*Oxford Reference*.
https://www.oxfordreference.com/view/10.1093/oi/authority.20110810105237549.

بسعادة الأدلة التي تعارضها). هذه الميول الإدراكية تغذي بدورها ميولنا الطبيعية إلى القَبَلية تجاه مجموعتنا (الأشخاص الذين لهم مثل رائحتنا ويعتقدون ويبدون ويفكرون مثلنا) وإلى التعصب تجاه المجموعة الخارجة عن مجموعتنا (أولئك الذين ليس لهم مثل رائحتنا ولا يعتقدون ولا يبدون ولا يفكرون مثلنا). ويعتقد بعض البشر، من خلال نفس هذه الملكات الإدراكية ذاتها، أن الأرض مسطحة وأن الأشباح والعفاريت موجودة.

لقد تعلمنا من خلال علوم الإدراك الكثير عن ملكاتنا الإدراكية (النبيل منها والخسيس) والمعتقدات الناتجة عنها (نبيلها وخسيسها). وهذه الملكات التي تكسبنا المعرفة والهوية الإنسانية هي ذاتها التي تضللنا وتجردنا من الإنسانية.

ولقد تعلمنا خلال الثلاثين سنة الماضية أو ما يقارب ذلك، كيف تجعلنا عقولنا نميل إلى الاعتقاد بالله. فلقد أوضحت علوم الأدراك - من الناحية الإدراكية- كيف يخوض البشر خبرات نموذجية ثم يعالجون هذه المعلومات بطرق تنتج معتقدات الله على نحو طبيعي للغاية.

الله والأدمغة

وبالإضافة إلى دراسة الإدراك والانتباه والذاكرة والتمييز بين الأنماط وتشكيل المفهوم والوعي والاستدلال وحل المشكلات ومعالجة اللغة والنسيان = تدرس علوم الإدراك أيضًا الطرق التي نكتسب بها المعتقدات الدينية ونحافظ عليها، ويسمى هذا التخصص الفرعي في العلوم الإرداكية بعلم الدين الإدراكي cognitive science of religion (CSR). من الظاهر أنه لدى كل أمة معتقدات راسخة حول الكائنات الروحية، ومعظم الأمم لديها معتقدات عن الحياة الآخرة. ومثلما تم شرح الخصائص الإنسانية الكلية مثل اللغة والعاطفة من خلال نزوع العقل\الدماغ باتجاه اللغة والعاطفة أصبح من المقبول الآن على نطاق واسع أن المعتقدات الروحية التي تحدث على نحو كلي تشير إلى أن البشر لديهم نزوع أو ميل طبيعي إلى الاعتقاد بالكائنات الروحية. ومثل اللغة، فإن هذه الميول الإدراكية تجد تعبيرات محددة

بحسب كل ثقافة، بينما يبقى الاعتقاد الراسخ في كل من العالم الروحي والعالم المادي أمر شائع بين كل الثقافات.

ومثل الانتشار الواسع النطاق للمعتقدات الحسية ("أرى سيارة"، "الجو بارد") ومعتقدات الذاكرة ("أتذكر قيادة سيارتك التشيفي في صباح ذلك اليوم الثلجي من شهر يناير") فإن الانتشار الواسع النطاق للمعتقدات الدينية يشير إلى أن اكتساب المعتقدات الدينية يرجع إلى عمل ملكات إدراكية تحدث على نحو طبيعي. (سأستخدم مصطلح "ملكة إدراكية" كاسم للأدوات العقلية التي نستخدمها لنفكر أو لنتعرف على العالم. وقد استخدم هذا المصطلح على نطاق واسع فلاسفة القرن السابع عشر الذين اعتقدوا أن الملكات الإدراكية الكبرى هي الإدراك الحسي الذاكرة والخيال، والفهم [أو الفكر]. ولدينا ملكات عاطفية وإرادية أيضًا). وكما أن اكتساب اللغة أمر طبيعي فكذلك تمامًا اكتساب المعتقدات الدينية. إن المعتقدات الدينية طبيعية بسبب إمكان اكتسابها بسهولة (عادة بدون اللجوء إلى التفكير أو الحجة المنطقية) ولأنها تنشأ مع القليل من المدخلات الثقافية. نحن مجبولون بالطبيعة على الاعتقاد بالمعتقدات الدينية.

فما هي الملكات الإدراكية المرتبطة بالاعتقاد بالله؟ خلال العشرين سنة الماضية أو ما يقارب ذلك ظهرت ثروة رائعة من الدراسات العلمية حول الآليات الإدراكية المرتبطة بإنتاج المعتقد الديني. يوجد علم ثري ويتزايد ثراء بخصوص الاعتقاد بالله (علم الدين الإدراكي). سنعود مرارا وتكرارا إلى هذا العلم. وعلى الرغم من أن علم الدين الإدراكي في مهده فقد حققنا بعض الفهم للآليات الأساسية المشاركة في إنتاج المعتقد الديني والمحافظة عليه[2].

---

(2) فيما يلي سأعتمد على الأعمال التالية:

Scott Atran, In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion (Oxford: Oxford University Press, 2002); Justin Barrett, Why Would Anyone Believe in God? (Lanham: AltaMira, 2004); Pascal Boyer, The Naturalness of Religious Ideas: A Cognitive Theory of Religion (Berkeley: University of California Press, 1994); Stewart Guthrie, Faces in the Clouds (Oxford: Oxford University Press, 1993); Robert N. McCauley, Why Religion Is Natural and Science Is Not (Oxford: Oxford University Press, 2011).

لنفترض أنك تقود على الطريق السريع وكنت على وشك الاصطدام بسيارة سريعة قد حادت عن الطريق. يتكون حينها في نفسك على الفور اعتقاد في الفاعلية - ليس في فاعلية السيارة ولكن في فاعلية شخص (داخل سيارة) قادر على التصرف من تلقاء نفسه. والعناصر غير الفاعلة مثل: ورقة العشب التي تطير مع الرياح أو رفرف السيارة عندما يصطدم به سيارة أخرى = هي عناصر تستجيب للقوى استجابةً سلبية، بينما يستجيب الفاعلون، مثل: البشر والحمر الوحشية وحتى الأميبات، استجابة إيجابية لمحفزات مختلفة. ولكنك تفعل أكثر من مجرد التفكير في الفاعلية: فأنت أيضًا تحكم بإسناد المسؤولية إسنادًا سريعًا (وقد يعلو صوتك بكلمة بذيئة!، وربما تلوم).

لنفترض الآن أن السيارة أجبرت على التوقف عند ظهور ضوء أحمر وأنك أخذت جانبًا وأوقفت السيارة. وبينما كنت تنظر حانقًا على السائقة رأيت مظهرًا على وجهها. وبناءً على تعبيرات وجهها فقط قمت على الفور بإلحاق حالة الخوف والقلق للسائقة. فما بدأ باعتباره مجرد إسناد للفاعلية ثم انتقل مباشرة إلى إسناد النية والغرض قد تغير الآن مرة أخرى بعد رؤية وجهها. لقد "قرأت" وجهها (قراءة صحيحة)، وتشكل لديك اعتقاد مباشر بالحالة العقلية للسائقة. ثم قلبت نظرك داخل السيارة بحثًا عن معلومات تتفهم بها الحالة: لترى طفلاً ملطخًا بالدماء على وجهه وذراعه فاستنتجت أن صاحبة السيارة تهرع بابنها إلى المستشفى القريب؛ فتلاشى غضبك وحل محله التعاطف.

تجهزنا مقدرتنا على إسناد الفاعلية والنوايا بتشكيل مباشر للمعتقدات التي نحتاجها لتشكيل استجابة مناسبة في مجموعة متنوعة من الظروف. فنحن لا نستدل عادةً لاستنتاج الفاعلية، ولا نفكر عادة لمعرفة النية والغرض. وليس لدينا حوار داخلي نثبت فيه لأنفسنا صحة الاعتقاد بأن الأصوات المختلفة أو الأحاسيس أو التجارب ناتجة عن فاعلين. نحن لا نستدل قائلين: "حسنًا، ماذا عساه ياترى أن يكون؟ لقد اندفعت السيارة فجأة، وفي معظم الأحيان عندما تندفع السيارة بجواري

تكون موجهة بواسطة فاعلين، ومن النادر ما أقرأ في الأخبار عن السيارات التي تعمل بالكامل من تلقاء نفسها بصورة آلية. إذن هذه السيارة كانت موجهة أو حادث عن طريقها بواسطة فاعل"، بل نحن نجد أنفسنا ببساطة نكشف عن الفاعلين. فإذا مرت سيارة مندفعة بجواري وقد كادت أن تصطدم بي فإني أجد من نفسي اعتقادًا بالفاعل قد تشكل على الفور.

وبعد ذلك نقوم برد الفعل. ما الذي دفعك للقيام بذلك؟ إنه جهاز كشف الفاعلين agency-detecting device (ADD). عندما نسمع صوتًا غريبًا مجهولًا أو نبصر ما يشبه الإنسان أو الحيوان نذهب إلى التفكير في كائن ذي مقدرة على الفعل، ربما شيء يمكن أن يضرنا. ويُثار جهاز كشف الفاعلين، في بعض الأحيان مع وجود أقل قدر من التحفيز، لينتج على الفور (أي بدون نظر أو استدلال) معتقدات في فاعل ما. إن القدرة على الاستجابة السريعة للمواقف الخطرة له فوائد صحية واضحة؛ ولذلك من المحتمل أن ينتهي الأمر بأولئك الذين يستجيبون ببطء للمواقف الخطرة إلى الوفاة. ومن المرجح أن أسلافنا القدماء الذين دربوا على إعمال الفكر في مثل هذه الظروف قد أزالوا أنفسهم من التجميعة الجينية Gene pool - دعونا نفصل أكثر عن طبيعة هذا الفكر، تقول على سبيل المثال: واحدة فقط من بين كل عشرة مرات يسبق هذا النوع من الضجيج دخول العدو الذي يرغب في سرقة طعامي؛ وبالتالي فمن المرجح جدًا أن هذه المرة ليست واحدة من تلك المرات القليلة التي يدخل فيها العدو". لقد زودتنا الطبيعة بدلًا من ذلك بالملكات الإدراكية التي تنتج استجابات / معتقدات فورية مستقلة عن التفكير على وجه التحديد بسبب الضرورة الملحة لهذه الأنواع من الحالات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الملكات تحرر الموارد الإدراكية للقيام بأشياء أخرى. لقد زودتنا الطبيعة - على غِرار التنفس في الرئتين والقلب النابض - باعتقادات تتشكل بصورة تلقائية وعمليات استجابة ضرورية لبقائنا.

فنجد أنفسنا معتقدين بالسرعة نفسها تقريبًا (دون استنتاج) بنوايا الفاعل أو مشاعره أو أهدافه. وإذا كان شخصًا، فقد نحدد على الفور تصورات تتعلق بغضب ذلك الشخص أو حزنه أو سخطه.

وفي حال ما إذا كان أسدًا أو نمرًا أو دبًا، فنحن نحكم على الفور على نواياه ومن ثم نتصرف عادة دون تفكير (عادة ما نعتقد بوجود "نوايا عدائية!" ومن ثم نهرع بالفرار!). ونحكم تلقائيًا على النوايا البشرية - من خلال النظر إلى وجه الشخص كهز كتفيه وطريقة مشيه - ثم نتصرف بعد باستجابة مناسبة لذلك. أهي مراهقة غير مسؤولة تتباهى أمام الأصدقاء أو أم مذعورة خائفة على طفلها؟ أهو جاهل أم غير مبال؟ أيعاني إصابه أم متكبر؟ تشير الدراسات إلى أن البشر عمومًا جيدون في قراءة نوايا الناس من وجوههم. ويسميها سايمون بارون كوهين Simon Baron-Cohen "قراءة العقل" "Mindreading"[3].

دعونا نغير المثال. فكر كيف سيكون ردك عندما تكون في المنزل بمفردك في نوم عميق وتستيقظ بسبب صوت عال في الطابق السفلي. سيكون لديك استعداد فوري للاستجابة الفعلية، وسيتسبب الأدرينالين في تسريع دقات قلبك، وستنقبض عضلاتك لتتصرف، مثلًا: بأن تجري مسرعًا لتصل إلى أسفل سريرك بحثًا عن مضرب بيسبول ثم ترفع صوتك بصوت فيه رعشة قليلة: "من هناك؟" لقد تصرفت تصرفًا غريزيًا بقليل من التفكير الواعي استجابةً للصوت، وقد اعتقدت أن شخصًا ما موجود بالأسفل. لقد سمعت صوتًا غريبًا واعتقدت فورًا دون تفكير أن هناك شيئًا ما أوشخص ما بالأسفل قد يؤذيك. وفي حين أن العيش في بيئة آمنة نسبيًا قد تتسبب في إضعاف حساسية جهاز كشف الفاعلين ADD لدينا وتجعل ردود أفعالنا متبلدة، إلا أن خوفنا الفوري المروع من ضجيج غريب في المنزل يذكرنا بأن جهاز كشف الفاعلين ADD لدينا كان راقدًا، ولا يتطلب الأمر سوى نكزة بالكوع لإيقاظه من سباته.

ولا شك أنه ينتج عن جهاز كشف الفاعلين العديد من المعتقدات الصادقة التي تثير استجابات الكر أو الفر المناسبة؛ ولكنه ينتج أيضا بعض النتائج الكاذبة. فقد يصرخ جهاز كشف الفاعلين أحيانًا بوجود "الذئب!"[4] وعلى الرغم من أن

(3) Simon Baron-Cohen (principal author), Mind Reading: The Interactive Guide to Emotions (London: Jessica Kingsley Publisher, 2003).

(4) الإشارة هنا إلى قصة الراعي الكاذب والذئب وفيها كان الراعي يصرخ بوجود ذئب بينما لم يوجد في الواقع (المترجم).

جهاز كشف الفاعلين هو ملكة إدراكية للاعتقاد/ الفعل يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير، ولكن بسبب حساسيته المفرطة فقد أطلق عليه أيضًا اسم "جهاز الكشف عن الفاعلين شديد الحساسية "hypersensitive agency-detecting device" (HADD).

لكن إيقاظ جهاز كشف الفاعلين ليس كافيًا لدفعنا إلى اتخاذ إجراء عملي. فهل نقف ونثبت مكاننا لنقاتل، أو نهرب وندع أمر القتال ليوم آخر؟ هل هو عدو أم مفترس أم صديق؟ البشر، كما ذكرنا، مجهزون، بالإضافة إلى جهاز كشف الفاعلين، بالقدرة على فهم الحالة الداخلية أو العقلية لشخص آخر بناءً على ما نراه في وجوه وأجسام الآخرين. وهذه الملكة الإدراكية لها أسماء مختلفة: من جهاز "نظرية العقل theory of mind" (ToM) إلى جهاز قراءة العقل mindreading. لا تكتفي (نظرية العقل) بافتراض فعالية لا عقل لها؛ بل تبحث عن نوايا الفاعل أو أغراضه. وإذا استطعنا أن نفترض بفعالية نية (أو نوايا) الفاعل حينها فقط يمكننا أن نتصرف بعقلانية. فمن خلال الحكم على الآخرين كونهم غاضبين أو جائعين أو ودودين يمكننا التصرف وفقًا لذلك. وبالعودة إلى المثال أعلاه، فإنه بمجرد أن تبدأ في إسناد المعتقدات والرغبات إلى الفاعل المعين تبدأ في استنفار أداة أخرى من أدوات الإدراك تسمى نظرية العقل. فجهاز الكشف عن الفاعلين ينسب الفاعلية إلى الصوت، ثم تتولى نظرية العقل عملية فهم سبب تصرف الفاعل: أيبحث عن مأوى أو عن طعام؟ ومرة أخرى، بينما تنسب نظرية العقل في بعض الأحيان النوايا والأغراض إلى أشياء لا يمكن أن يكون لها نوايا (إلى الوجوه المتشكلة في السحب، أو توزيع النجوم في السماء [التنجيم]، أو ضوضاء السباكة التي أيقظتك) فهي مع ذلك ملكة إدراكية مفيدة للغاية للتحقق المباشر من الأغراض والنوايا (والذي بدوره يسمح لنا بالتصرف بسرعة وفعالية).

في السياق الطبيعي للحياة البشرية نتصور أشكالًا ووجوهًا وأصواتًا بشرية، فيصف جهاز كشف الفاعلين تلقائيًا، وبدون نظر أو استدلال، الفاعلية البشرية باعتبارها المصدر. فنفكر: "هذا فاعل". ثم يُنشط النظام الإدراكي الثاني المسؤول عن توليد الاستدلالات ذات الصلة بالحالات العقلية - نظرية العقل - ويملأ تلقائيًا التفاصيل حول معتقدات الفاعل (الإنسان) المحتملة ورغباته وعواطفه وما إلى

ذلك: هذا الفاعل لديه هذه النية. نحن جيدون في الحكم على غضب الآخرين أو خوفهم أو إحراجهم أو حزنهم بمجرد النظر إلى وجوههم. ويمكننا رصد التهكم والسخرية من نبرة صوت الآخرين، ويمكننا من خلال مشاهدة شخص يمشي أن "نرى" ما إذا كان مبتهجا مسرورًا أو حزينًا مهمومًا.

ولا شك أن نظرية العقل - مثلها مثل جهاز كشف الفاعلين- ليست معصومة. فنحن نرتكب أخطاء، والناس يكذبون ويخفون مشاعرهم الحقيقية. ولكن على الرغم من ذلك فإن معظم الناس في حالتهم الطبيعية جيدون جدًا في "قراءة العقل" : أي في الحكم التصوري المباشر على مشاعر الآخر وأفكاره ورغباته.

ونحن أيضًا ننسب النوايا بسهولة حيث لا وجود لها.

عند عودتي من متجر البقالة في أحد الأيام الثلجية انزلقت بينما كنت أخرج من سيارتي. وعندما سقطت انسكب ما بداخل حقيبة البقالة التي كنت أحملها على الأرض الجليدية. وفي تلك اللحظة فتحت زوجتي الباب الخلفي لمنزلنا وجاء كلبنا رنكلز يقفز مبتهجًا نحوي ليرحب بي. ولبرهة وجيزة تولد لدي فكرة شبية بتلك الفكرة عن الكلبة لاسي: "إنه يرى حزني وقد أتى مسرعًا لإنقاذي وسيقوم بمساعدتي بأنفه على القيام حتى أستقر على آمنًا". ومع اقتراب رنكلز، ركض على جانبي وبدأ في أكل لحم الهامبرغر الذي سقط من حقيبتي. لقد نسبت (نظرية العقل) عندي نوايًا إنسانية إلى حيوان له نوايا مختلفة تمامًا - إن وجدت هذه النوايا. لدينا رغبة قوية في الأنسنة: إسناد نوايا الإنسان إلى أشياء وأحداث غير إنسانية، تلك الرغبة التي انسقت إليها دون قصد مع كلبي.

ومن السهل أن نخطئ في إسناد الفاعلية والحكم على النية. فجهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل، على الرغم من فائدتهما، ليسا معصومين. تخيل أنك تمشي في الغابة وقت الغسق وسمعت ضجيجًا حادًا على يسارك، فاستدرت مسرعًا لترى من على مسافة وجهًا يحدق بك بنظرات عدائية. وأصبحت مخاوفك ملموسة عند ضخ الأدرينالين وزيادة معدل ضربات القلب. وتساءلت عن نوايا هذا الشخص (أهو قاطع طريق أو مسافر مثلي؟). وتصبب جبينك بالعرق مما يشير إلى أنك انحزت إلى جانب الحذر بافتراض أنه سارق وليس صديق. وأضأت مصباحك الكهربائي مباشرة

على الوجه لترى ما هو عليه حقًا فإذا به مجرد عقدة من الأغصان المتشابكة لشجرة. فهدأت مخاوفك ببطء، ولكن سيستغرق الأمر بعض الوقت ليعود ضغط الدم إلى طبيعته. وفي هذه الحالة يكون جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل مخطئين.

نحن نرى فاعلين في الوقت الذي لا يكون لهم وجود، وننسب النوايا في الوقت الذي لا تكون فيه موجودة (وفي بعض الأحيان إلى أشياء أو أحداث ليس لها نوايا أصلًا). نسمع خشخشة شجيرة ونظن أن ذلك أسدًا، ونرى أسدًا ونعتقد أنه شجاع، ونرى صديق يقترب ونظن أنه عدو، ويغمر الفيضان محاصيلنا ونعتقد أننا نعاقب، وهلم جرا. يُعد جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل أدوات جديرة بالثقة ولكنهما غير معصومين. وهذا الخطأ في إسناد الفاعلية والنية هو بالضبط ما يعتقد بعض علماء علوم الإدراك أنه السبب في انتاج الاعتقاد بالآلهة.

كيف إذن ينتقل البشر من الفاعلين والنوايا وصولًا إلى الآلهة؟

بحسب تخمين بعض علماء الإدراك فإن اختلالات متسلسلة بكل من جهاز كشف الفاعلين ADD (وبصورة أدق: جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD) و نظرية العقل ToM أدت إلى إنتاج معتقدات الآلهة. ففي بعض الأحيان تثير الأصوات أو الأشكال أو الأنماط أو الحركة لتنتج "خبرة جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD" التي هي إسناد للفاعلية لا يتوافق مع أي فاعلين طبيعين معروفين كالبشر أو الحيوانات. وفي هذه الحالات قد يؤدي نشاط HADD إلى افتراض نوع مختلف من الفاعلين مثل الإله. ويبين عالم النفس جاستين بريت هذا الأمر على النحو التالي:

"تحتوي عقولنا على العديد من أجهزة الكشف عن الأنماط التي تنظم المعلوماتِ البصرية في وحدات ذات معنى. يظل جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD مترقبًا للأنماط التي يعرف عنها أنها لا تنتج إلا عن فاعلين. فإذا طابقت هذه المعلومات الأنماط... المعروف عنها أن تنتج عن فاعلين فإن جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية يكشف عن فاعل وينبه الأدوات العقلية الأخرى.... والأكثر إثارة للاهتمام هو عندما يُكشف عن نمط ما يبدو غائيًا أو موجهًا لهدف ثم

هو لا يبدو أنه ناجم عن أسباب ميكانيكية عادية أو بيولوجية. تحث مثل هذه الأنماط جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية إلى عزو الأثر إلى فاعل لم تحدد هويته بعد: أشخاص مجهولون أو حيوانات أو كائنات فضائية أو أشباح أو آلهة"[5].

وفقًا لهذا الرأي، فإن الخطأ في إسناد الفاعلية وسوء تقدير النية أو الغرض يولد المعتقدات في الآلهة.

وغالبًا ما يُطلق على كل من جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM في مناقشات الأصول الإدراكية للمعتقد الديني ملكة الاعتقاد بالله[6]؛ إذ تأخذنا هذه الملكة بقليل من التأمل الواعي، أو حتى بدونه، إلى معتقدات الله وممارسة دينية.

وعلى الرغم من أن ملكة الاعتقاد بالله صممت وفقًا للانتخاب الطبيعي ولنطاق معين من النشاط إلا أن مرونة هذه الملكة وضبط حساسيتها تجعلها عرضة لإنتاج معتقدات بفاعلين غيبيين أو فاعليين مريدين ذي خواص أخرى خارقة للطبيعة. يجادل عالم الأنثروبولوجيا ستيوارت جوثري Stewart Guthrie بأنه بدلاً من الاستنتاج المنطقي لوجود كائن ذكي تفسر به الارتطامات الغامضة أثناء الليل أو

---

(5) Barrett, Why Would Anyone Believe in God?, 36-37.

(6) إن انتشار المعتقدات في الآلهة في كل مكان، مثل انتشار المعتقدات في العقول الأخرى واطراد الطبيعة، هو بعض الأدلة الأولية على وجود ملكة الاعتقاد بالله. يقول عالم الأنثروبولوجيا أتران Atran، في كتابه: "الآلهة التي نثق بها In Gods We Trust"، ص 57: "إن الفاعلية الخارقة للطبيعة هي المفهوم الأكثر تكرارًا ثقافيًا والأكثر صلة من الناحية الإدراكية والأكثر إلحاحًا من الناحية التطورية في الدين. إن مفهوم الخارق للطبيعة مشتق ثقافيًا من مخطط معرفي فطري". إن انتقال آتران من ملاحظة تكرار الإيمان بالآلهة إلى ربط مثل هذه المعتقدات بالجزء الطبيعي من الإدراك البشري لا يرتكز فقط على شيوع الإيمان بالآلهة. وقد شرع أتران وغيره من علماء الدين الإدراكيين في تحديد الأنظمة الإدراكية المختلفة التي تعمل في تناسق، والتي يبدو أنها تعطي الإيمان بالآلهة دعمًا فطريًا. ويجادل أتران، متابعًا في ذلك عالم الأنثروبولوجيا ستيوارت جوثري Stewart Guthrie، من أجل بيان أهمية نظام كشف الفاعلين الذي تطور لاكتشاف الحيوانات المفترسة والفرائس والأشخاص الآخرين في البيئة.

الوجوه في السحب فإن الأنظمة الإدراكية البشرية قد تم ضبطها للإدراك السريع بوجود فاعلين مريدين في البيئة، حتى في حالة وجود أدلة ضئيلة أو غير كاملة[7]. ويقول جوثري: في ظل ظروف معينة (تلك التي نجد فيها من أنفسنا ميلًا لأنسنة أو إضفاء المعنى على عالمنا الطبيعي الغامض والمحير) قد يولد هذا الميل معتقدات في آلهة مأنسنة.

ما هي الخصائص المحددة التي قد تكون لهؤلاء الآلهة؟ كما هو الحال مع البشر، سيكون للآلهة مفاهيم وأفكار ومعتقدات ورغبات وأهداف ودوافع وعواطف. وعلى الأرجح، سيكون لديهم لغة وتواصل وعلاقات اجتماعية. كل هذه الصفات الأساسية تأتي بصورة تلقائية من نظرية العقل ToM. وعلى الرغم من أن جوثري يركز على أمر إسناد الخواص الإنسانية (وبالتالي، فهو يعتبر أفكاره نظرية أنسنة[8] anthropomorphism theory جديدة للدين) فإنه يعترف بأن الملكات الإدراكية في الواقع تدعو إلى شروط إدخال أكثر مرونة من الفاعلية الإنسانية المتميزة. فبعد كل شيء، يجب أن تستوعب الحيوانات غير البشرية (كالنمور ذات الأسنان الحادة) والفاعلين المقنعين أو المموهين. ولأن جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD قادر على التعامل مع الفاعلين غير المرئيين فإن فكرة الإله غير المرئي لا تعوق مكلة الاعتقاد بالله على الإطلاق.

يفترض البشر في بعض الأحيان فاعلين غير طبيعيين يتمتعون بقوى استثنائية تعمل لأسباب غير طبيعية من خلال أمور ظاهرة كالمعجزات والفيضانات والرعد. ويكون لدى هؤلاء الفاعلين العظماء أسباب عظيمة لأفعالهم. وإذا اكتسب شخص معتقدات حول فاعلين يفوقون الإنسان ويتصفون بصفات تتجاوز الطبيعة - مثل القوى المطلقة والعلم المطلق - فسيكون لدي هذا الشخص تفسير جاهز لأسباب الأحداثَ الفائقة. وباختصار، لقد أنتج كل من جهاز الكشف عن الفاعلية ADD

---

(7) Stewart Guthriẽ "A Cognitive Theory of Religioñ" Current Anthropology 21.2 (1980): 181-203; Guthrie, Faces in the Clouds.

(8) إضفاء الصفات الإنسانية على غير الإنسان (المترجم).

ونظرية العقل ToM معتقدات عن فاعلين مريدين خارقين للطبيعة. وقد ظلت هذه المعتقدات تمتلك قدرة غنية لشرح بعض مشكلات الحياة المهمة للغاية (مثل: الطقس، أو النجاح في الحرب).

"ملكة الاعتقاد بالله" إذن تقييدية على نحو مفرط. وأعني بكلمة "الآلهة" أي فاعلين أو قوى مريدة خارقة للطبيعة، وغالبًا ما تكون أرواحًا بلا جسد تؤثر على النشاط البشري (من الممكن أن يكون الله أو البعل أو الأشباح أو العفاريت أو الجنيات).

ويضاف إلى ذلك، أن ملكة الاعتقاد بالله ليست مكرسة لإنتاج معتقدات الله، بل هي مكرسة لحملنا على التصرف تصرفًا مناسبًا (كر أو فر مثلًا) كستجابة لفاعل ذي نوايا. وحيث إنها تنتج معتقدات بدلاً من أفعال فهي "تهدف إلى" إنتاج معتقدات عادية جدًا في فاعلين عاديين جدًا كالأسود والأشخاص، ولكن، بالإضافة إلى مخرجات الاعتقاد النموذجية كما في اعتقاد الأسد والشخص فإن هذه المجموعة من ملكات الإدراك البشري تنتج معتقدات في الآلهة بلا استدلال (بالنظر إلى المدخلات العادية من البيئات العادية). ويعتقد علماء علم الدين الإدراكي CSR بأن لدينا بالفعل حاسة دينية طبيعية وغريزية وأن المعتقدات التي تنتجها عادة ما تكون غير استدلالية وعادية وطبيعية. فالاعتقاد بالله هو نتاج طبيعي تمامًا لملكاتنا الإدراكية السليمة تمامًا والتي تعمل طبيعيًا[9].

تنشط خبرات محددة جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل، ولكن معتقدات الله

---

(9) سأضع جانباً مناقشة الطبيعة الدقيقة لملكة الاعتقاد بالله وأضع في الاعتبار بدلاً من ذلك بعض الملكات الإدراكية الطبيعية التي تجعلنا نؤمن بالمعتقدات الدينية. لن أناقش ما إذا كانت هذه الملكة وحدة واحدة من العقل-الدماغ أو وحدة معقدة تتضمن أجزاءًا مختلفة من الدماغ. يرفض باسكال بوير، على سبيل المثال، الادعاء بأن هناك وحدة واحدة تنتج المعتقدات الدينية، وفي ذلك يقول: "أول شيء يجب فهمه عن الدين هو أنه لا ينشط ملكة واحدة معينة في العقل: "وحدة دينية" أو نظاما من شأنه خلق مجموعة معقدة من المعتقدات والأعراف التي نطلق عليها عادة اسم الدين. بل على العكس من ذلك، تُدعم التمثيلات الدينية من خلال مجموعة كاملة من الأنظمة المختلفة".
Boyer, “Why Is Religion Natural?,” Skeptical Inquirer 28.2 (March/April 2004).

ليست افتراضات ضمنية موجودة مسبقًا تنتظر التنشيط بل تنشأ هذه المعتقدات استجابةً لتحفيزات بيئية معينة. فمن الممكن أن تكون هذه الخبرات صوت ارتطام شيء في الليل، أو ظهور وجوه في السحب، أو حالات لافتة للنظر من الحظ أو سوء الحظ. إن معتقد الله الذي يستثار سينطوي على سمات عقلية تشبه الإنسان، ولكنه قد ينطوي أيضًا على قوى خارقة للطبيعة، وقد يكون الإله غير مرئي، وربما يكون مهتمًا أخلاقيًا بالشؤون الإنسانية. وتتميز تلك الخصائص التي يمتلكها الإله، مثل كونه خالق الكون، وعالما بكل شيء، ومدركًا لكل شيء، وخالدًا، وغير ممكن التغيير، أو كونه الخير المحض = بأنها إلى حد كبير غير محددة.

وبينما ينظر علم الدين الإدراكي إلى نظرية العقل وجهاز الكشف عن الفاعلين عادة على أنهما اللاعبان الرئيسيان في قصة إنتاج المعتقدات الدينية فإن ملكات إدراك أخرى متورطة كذلك. شرع عالم النفس جيسي بيرنج Jesse Bering - على الرغم من عدم إنكاره دور خبرات جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD على توليد أو تشجيع الاعتقاد بالآلهة - في تطوير متغير في ملكة الاعتقاد بالله يسمح لمجموعة واسعة من الخبرات لإثارة أو تنشيط الأفكار حول الآلهة. وجادل بيرينج، بناءً على بعض الأدلة التجريبية مع الأطفال، عن ميل عام مبكِّر لدى البشر إلى التساؤل عن "ماذا يعني ذلك؟" أو "لماذا أنا؟" لاسيما فيما يتعلق بخبرات ملفتة من الحظ أو سوء الحظ. ويجادل بيرينج بأنه عندما تواجه هذه الأنواع من الخبرات فإننا نتوقع تلقائيًا نوايا لفاعلية غير محددة قد تفسر الحدث وماذا يعني هذا الحدث. وأطلق بيرنج على هذا الاتجاه الإدراكي نظرية العقل الوجودية the existential theory of mind، أو eToM[10]. وبالإضافة إلى خبرات HADD، فإن أحداث ضربات الحظ الجيد أو السيئ والمصادفات الغريبة وما شابهها تدفعنا إلى النظر فِي نوايا ذلك الشخص اللامحدد الذي دبر الحدث. وبهذه الطريقة فإن نظرية

(10) Jesse M. Bering, "Intuitive Conceptions of Dead Agents' Minds: The Natural Foundations of Afterlife Beliefs as Phenomenological Boundary," Journal of Cognition and Culture 2.4 (2002): 263-308; Jesse M. Bering, "The Existential Theory of Mind," Review of General Psychology 6 (2002): 3-24.

العقل الوجودية eToM قد تحفز - مثلها مثل جهاز كشف الفاعلين HADD - التفكير في الآلهة والاعتقاد بهم، تلك الآلهة التي تؤثر على الشؤون الإنسانية، وربما تكافئ أو تعاقب وفق طريقة أخلاقية ما. واقترح بيرنج وزملاؤه أن الميل إلى إرجاع الأحداث إلى أنشطة فاعلين مريدين مهتمين بالشؤون الأخلاقية، ومن ثم الاعتقاد بأن الآلهة يراقبون كأنهم شرطة بوليس أخلاقية محتملة = قد يكون تكيفًا بيئيًا ساعد على بناء مجتمعات تعاونية[11].

وثمة مسار آخر للاعتقاد بالآلهة قد يعتمد بالكلية على تمثيلات الموت. نظرت في جنازة والدي (الذي توفي فجأةً وفي سن مبكرة) إلى جسده الذي لا حياة فيه لكنني وجدت نفسي مع ذلك أفكر في أنه سيستيقظ وسيبدأ الكلام معي مرة أخرى. وعندما عدت إلى بيت طفولتي حدقت في مقعده الذي صار فارغًا ووجدت نفسي أفكر في أنه سيجلس عليه قريبًا حتى يأخذه النوم والتلفزيون موقد كما كان يفعل كل ليلة. وفي أواخر نوفمبر، مشيت في حديقته متجولًا بين الطماطم المتحللة والقرنبيط الذي تعفن و"تحدثت إليه" في ذهني. وعلمت لاحقًا أنني لم أكن وحدي في محادثات المتوفين بعد الوفاة.

يجادل بيرينج بأننا نواصل إسناد الحالات الذهنية إلى العقول أو الأرواح التي نعتقد أن الموت لا يشملها على نحو حدسي[12]. فيواصل الكثير منا، على سبيل المثال، التحدث مع أحبائنا في أذهاننا بعد موتهم كما لو كانوا لا يزالون موجودين. وعلى الرغم من غيابهم جسديًا فإننا نواصل المناجاة والحديث مع أولئك "الحاضرين" روحيًا. وهذه الصعوبة في المحاكاة الذهنية لانقطاع الحالات العقلية تجعل فكرة العقول أو الأرواح الناجية من الموت فكرة بديهية[13]. ولذلك ليس من

(11) Jesse M. Bering and Dominic Johnson, "'O Lord... You Perceive My Thoughts from Afar': Recursiveness and the Evolution of Supernatural Agency," Journal of Cognition and Culture 5 (2005): 118-42.

(12) Bering, "Intuitive Conceptions of Dead Agents' Minds"; Bering, "The Existential Theory of Mind."

(13) Bering, "Intuitive Conceptions of Dead Agents' Minds"; Bering, "The Existential Theory of Mind."

المستغرب أن يكون أحد أكثر أنواع معتقدات الله انتشارًا وربما الأقدم هو الاعتقاد في الأسلاف والأشباح.

وتدعم الدراسات التي تؤكد ثنائية الطبيعة البشرية - عقل وجسد - مزاعم بيرنج. فنحن نعتقد اعتقادًا طبيعيًا أن الإنسان مركب من جسم مادي ونفس روحية أو غير مادية. وقد جادل عالم النفس بول بلوم Paul Bloom، من بين العديد من الأشخاص الآخرين، بأننا ندرك على نحو حدسي أن الناس مركبون من الأجسام المادية والأرواح غير المادية، وأن هذا الرؤية الثنائية تعزز الاعتقاد الطبيعي إلى حد ما ببقاء روح الفرد بعد وفاة جسده[14]. وإذن، فالاعتقاد بأن عقول الأموات غير المجسدة تسمر في الوجود وتتفاعل مع البشر هي نتاج غير استدلالي لنظم إدراكية عادية[15]. ومرة أخرى، إنه خط مفاهيمي رفيع ذلك الذي يفصل بين الاعتقاد في أرواح الأجداد والاعتقاد في الرب ياهوا Yahweh على سبيل المثال.

وبالتزامن مع هذه النتائج، اقترحت عالمة النفس التنموي ديبورا كلمن Deborah Kelemen أن الأطفال قد يكونون "مؤمنون بالفطرة" وذلك بناءً على سلسلة من الدراسات المتعلقة بالإدراك الطبيعي للأطفال عند نضجهم والمتعلقة بفهم أسباب الأشياء في العالم الطبيعي[16]. وباختصار: تشير البحوث إلى أن الأطفال يمتلكون ما يسميه كلمن "الغائية غير الانتقائية[17] promiscuous teleology"، وهي

(14) Paul Bloom, Descartes' Baby: How Child Development Explains What Makes Us Human (London: William Heinemann, 2004).

(15) Pascal Boyer, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books, 2001).

(16) Deborah Kelemen, "Are Children 'Intuitive Theists'? Reasoning about Purpose and Design in Nature," Psychological Science 15.5 (2004): 295-301.

(17) الغائية غير الانتقائية: مصطلح أطلقته أستاذة علم النفس بجامعة بوسطن ديبورا كلمن على الميل البشري الطبيعي للتفكير الغائي (يقصد بالتفكير الغائي التفسيرات المبنية على الغاية والغرض) تجاه العالم الطبيعي عمومًا، أي بما فيه من كائنات حية وغير حية، والذي يبدأ ظهوره في فترة مبكرة من عمر الفرد. (المترجم)، انظر:

Kelemen, Deborah. "Are children "intuitive theists"? Reasoning about purpose and design in nature." *Psychological science* 15, no. 5 (2004): 295-301

Mills, Rónán, and Jason Frowley. "Promiscuous teleology and the effect of locus of control." *The Irish Journal of Psychology* 35, no. 2-3 (2014): 121-132.

تفضيل الأطفال للتفسيرات التي تُظهر تصميمًا وغرضًا في الظواهر الطبيعية وإن تجاوزت هذه التفسيرات ما قد تعلموه. وبالتالي فإن الأطفال في الرابعة من العمر سيكونون سعداء بالتفسيرات الوظيفية الغائية عن سبب كون الصخور مدببة (على سبيل المثال، حتى لا تجلس الحيوانات عليها) أكثر من سعادتهم بالتفسيرات الميكانيكية (على سبيل المثال: بسبب تراكم أجزاء من المادة مع مرور الوقت والرياح والمطر عليها). أضف إلى ذلك أن الأطفال يفترضون أن فاعلين مريدين - لا الأسباب الميكانيكية - هم الذين يصدر عنهم التصميم والنظام. إن الميل إلى رؤية العالم الطبيعي على أنه مصمم إلى جانب الحدس بأن التصميم يستلزم أو يفترض وجود فاعلية مريدة (التصميم يدل على المصمم) = يؤدي بالأطفال إلى اعتناق عقيدة الخلق بسهولة وأنواع أخرى من خوارق الطبيعة التي تتعلق بفهم العالم الطبيعي (ورفض التطور والمادية).

وتشير بحوث إضافية حول فهم الأطفال للعقول إلى أن الحالة الافتراضية في مرحلة ما قبل المدرسة هي أن عقول الآخرين فائقة المعرفة والإدراك (وربما) خالدة[18]. يفترض الأطفال بطبيعة الحال قدرات خارقة بخصوص هذه الأبعاد عند تطبيقها على الناس أو على العديد من الحيوانات أو على الآلهة. ثم يقومون بإزالة تلك الكمالات الفائقة عن البشر عند تعلمهم عدم عصمة الإدراك الحسي البشري والشروط اللازمة للمعرفة وعدم الخلود. ومن هذه الجهة، فإن الإله الذي يتمتع بالمعرفة الفائقة والإدراك الفائق و/أو الخلود يتطلب قدرًا أقل من التعلم، بالنسبة لمرحلة ما قبل المدرسة، مما يتطلبه التعلم عن البشر. وبالنظر إلى الإعدادات الافتراضية في أنظمتهم المفاهيمية، فإن الأطفال "مستعدون" لفهم وتأكيد جوانب كثيرة من الله الخالق الكامل[19].

---

(18) Justin L. Barrett and Rebekah A. Richert, "Anthropomorphism or Preparedness? Exploring Children's God Concepts," Review of Religious Research 44.3 (2003): 300-312; Barrett, Why Would Anyone Believe in God?

(19) للحصول على رؤية أكثر اكتمالاً للأدبيات المتعلقة بهذا الأمر، انظر:
Barrett and Richert, "Anthropomorphism or Preparedness?"; and Barrett, Why Would Anyone Believe in God? (esp. chapter 6).

تلخيص ما سبق

يتحد كل من جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل لتكوين معتقدات واسعة الانتشار عن فاعلين شبيهين بالإله (وجوه في السحب). ولكن الملكات الإدراكية تشكل معتقدات دينية أخرى أيضًا، مثل: ازدواجية الجسم والعقل ونشاط ما بعد الحياة للأرواح والغائية غير الانتقائية. وتتجمع مثل هذه النتائج من علم نفس النمو لتدفع العلماء إلى الاتفاق مع بلوم على أن "الدين أمر طبيعي"[20]. ويتزامن ذلك مع اتفاق أبرز المفكرين في علم الدين الإدراكي. يجادل عالم النفس جاستين باريت Justin Barrett بأن "الإيمان بالله أو الآلهة ليس تدخلًا مصطنعًا مفتعلًا على الحالة الطبيعية الإنسانية؛ بل ينشأ الاعتقاد بالآلهة عمومًا، والاعتقاد بالله خصوصًا، من خلال العمل الطبيعي العادي للعقل البشري في البيئات الطبيعية العادية"[21]. وأكد باسكال بوير Pascal Boyer أن المعتقدات الدينية طبيعية: بمعنى أن المعتقدات الدينية تتكون على نحو طبيعي من خلال ملكات العقل الإنساني.

وتجدر الإشارة إلى أن علم الإدراك لا يحابي أي دين معين أو مجموعة معينة من معتقدات الله؛ فليست هي داعمة مثلًا للمسيحية تحديدًا أو حتى - على نطاق أوسع - للأديان الإبراهيمية. فكما أن لدينا نزوع واستعداد لاكتساب لغة (وليس استعدادًا لاكتساب الإنجليزية تحديدًا على سبيل المثال) فكذلك لدينا نزوع واستعداد لاكتساب معتقدات وممارسات دينية (وليس استعدادًا لاكتساب معتقدات المسيحية تحديدًا على سبيل المثال). لا وجود هنا للحتمية الوراثية أو الإدراكية: إن وجود ميل طبيعي لاكتساب لغة لا يلغي العوامل الثقافة الكثيرة التي تحدد اللغة المكتسبة (وليس كل ما يتعلق باللغة نابع من جيناتنا) كما أن وجود ميل طبيعي

= الدليل على حدس الخلود أضعف، لكن الافتراض القائل بأن العقول لا تتوقف تلقائيًا أو تموت في مرحلة ما قد اقترحه جيسي إم بيرينغ، انظر:
Jesse M. Bering, "The Folk Psychology of Souls," Behavioral and Brain Sciences 29 (2006): 453-98; and Bloom, Descartes' Baby.

(20) Paul Bloom, "Religion Is Natural," Developmental Science 10 (2007): 147-51.

(21) Barrett, Why Would Anyone Believe in God?, 124.

لاكتساب معتقدات أو ممارسات دينية لا يلغي العوامل الثقافية الكثيرة للثقافة التي تحدد أيًا من هذه المعتقدات / الممارسات الدينية سيكتسب (ليس كل ما يتعلق بالدين في جيناتنا). وكما أن ملكاتنا الإدراكية لا تفضل أو تحابي أو تثمن أي لغة معينة فهي كذلك لا تفضل أو تحابي أو تثمن أي دين معين (بل ولا حتى الدين على الإطلاق).

ووفقًا لعلم الإدراك فإن عقولنا تأتي مجهزة بملكات إدراكية نشطة تقوم بمعالجة تصوراتنا وتشكيل مفاهيمنا عن العالم[22]. وتقوم هذه الملكات الإدراكية المشتركة ببناء وإعلام وتعزيز وتقييد الطريقة التي نفكر بها عن العالم حولنا. وتقوم بعض هذه الملكات الإدراكية ببناء وإعلام وتعزيز وتقييد المعتقدات الدينية. فالإيمان بالآلهة، كشكل مميز من المعتقدات الدينية ينشأ من تحفيز ملكاتنا الإدراكية. بمعنى آخر: يتقبل البشر وجود الآلهة وبطيب نفس يعقلون أنشطة هذه الآلهة ويكونون أعمالًا جماعية (مثل الطقوس) كاستجابه لهذه المعتقدات = بسبب الخاصية الهيكلية المعمارية المميزة للعقول البشرية بغض النظر عن أي تثقيف خاص. إذن تنتج المعتقدات في الآلهة، من وجهة نظر علوم إدراك الدين، على نحو طبيعي لملكاتنا الإدراكية المشتركة، وبهذا المعنى يكون المعتقد الديني "طبيعيًا".

التفسيرات التطورية للاعتقاد الديني

يبدو أنه لا يمكن إنكار أن البشر لديهم ملكة الاعتقاد بالله (أي جهاز الكشف عن الفاعلين ADD و نظرية العقل ToM). وقد ذهب البعض إلى أبعد من ذلك بمحاولتهم فهم الكيفية التطورية التي أدت بنا إلى اكتساب ملكة الاعتقاد بالله كما أدت إلى اكتساب العديد من الملكات الإدراكية الأخرى. فغالبًا ما تلجأ تفسيرات ملكة الاعتقاد بالله إلى التفسيرات التطورية لأصول ملكاتنا الإدراكية. وقد أشرت بالفعل إلى هذه التفسيرات في القسم السابق لكنها تستحق التكرار. تسعى التفسيرات التطورية لملكاتنا الإدراكية إلى شرح تطور ملكاتنا العقلية ومفاهيمنا

---

(22) Boyer The Naturalness of Religious Ideas.

المختلفة من حيث الاستجابات لمختلف عمليات الشد والجذب التي واجهها أسلافنا البدائيون. فكما شكلت عملية التطور إصبع الإبهام ليكون في وضع مقابل لبقية الأصابع من خلال الانتقاء الطبيعي فكذلك تطورت أدمغتنا (عقولنا) على نحو مشابه، وعندما نجحت زادت من نجاحنا في التكاثر. ويذهب علم النفس التطوري إلى أن العقل البشري تطور في أسلافنا البدائيين من خلال عملية الإنتخاب الطبيعي لحل مشكلات تكيفية في بيئتهم الأسرية.

طَورت أدمغتنا أو عقولنا، استجابةً للضغوط الانتقائية المختلفة، مجموعة من الأدوات الفكرية التي تكيفنا للبقاء في عالم يعج بالأعداء والأصدقاء، والأقارب والعشيرة، والكوارث الطبيعية والمواسم العادية، والحيوانات المفترسة والفرائس. فاصطفت ملكاتنا الإدراكية بارتجال، كردود للعديد من المشكلات التكيفية، وبطرق مكّنتنا من إدراك الأشياء متوسطة الحجم مثل: الأشخاص والطيور (لا الأشياء الكبيرة الفلكية الحجم أو الصغيرة المجهرية)، ومكنتنا من مراعاة الماضي والحاضر والمستقبل، ومن توقع خطط أعدائنا وتوقع الأصدقاء / ورفقاء الحياة المحتملين، ومن التأمل وبدء واستكمال الخطط الخاصة بنا، ومن التواصل والشعور والتذكر. طورت هذه القدرات وغيرها من القدرات الإدراكية استجابةً للضغوط البيئية في ماضينا الذي كان فيه أسلافنا يعتمدون على جمع الثمار واصطياد الحيوانات البرية بما يتلاءم مع احتياجاتنا الإنسانية الأساسية (الأربعة الشهيرة: التغذية، الفرار، القتال، والتكاثر).

وبينما كنا نظن في الماضي أن الحيوانات تحكم بالغرائز وأما البشر فبالعقل فإننا نفهم الآن أن تاريخنا التطوري شكلنا بحيث يكون قدر كبير من الإدراك والفعل البشري غريزيًا (بصورة مباشرة وبلا حاجة لنظر أو استدلال). فربما نكون متفوقين على الحيوانات، لا لأننا نفتقر إلى هذه الغرائز ولكن لأن لدينا الكثير منها. لقد اكتسبنا من خلال التطور عددًا لا يحصى من الغرائز (وغالبًا ما تكون غير مرئية): الطرق التي نبصر بها والحد الذي نسمعه، وما نجده جذابًا أو مثيرًا للاشمئزاز في الروائح أو الطعام، ومن أو ما الذي نخشاه، ومتى يجب الفرار أو القتال، وماذا نقول ولمن من ومتى (وهذا يفترض فيه قدرتنا الغريزية على اكتساب

اللغات) ما هو جميل (أو قبيح)، وما هو جيد (أو سيء)، والكثير من الغرائز الإدراكية والعملية الأخرى. (هذا لا يعني إنكار الدور الهائل الذي تلعبه الثقافة في المحتوى المعين للمعتقدات وتشكيل الممارسات.) وكما أننا لا نتخذ قرارًا لنتنفس أو نجعل قلوبنا تدق فكذلك لا نقرر في الغالبية العظمى من الحالات ماذا نعتقد أو ما الذي يجب القيام به، بل تنتج ملكاتنا الإدراكية على الفور - بناءً على المدخلات المعلوماتية المختلفة- معتقدات و/أو أفعالًا غير استدلالية.

فليس من المستغرب إذن أن يكون لدى البشر، على سبيل المثال، خوف عميق وغريزي من الثعابين، فلا شك أن أسلافنا الذين عانوا من هذه المخاوف عاشوا لفترة أطول من أولئك الذين لم تكن لديهم تلك المخاوف (وبالتالي نقلوا جينات الخوف من الثعابين إلى الأجيال القادمة). ولدى البشر نفور طبيعي من أشياء كثيرة من بينها نكاح المحارم والبراز. وعلى الرغم من أننا قد نعتقد أن الحكم السابق يتسم بأخلاقية واضحة إلا أن زواج الأقارب يقلل عادة من البراعة البدنية والعقلية (وبالتالي تقليل فرص النجاح في الإنجاب) وعليه فإن كرهنا الطبيعي لسفاح المحارم له جذور تطورية. وأجدادنا الذين واجهوا تبخر البراز (وبالتالي نأوا بأنفسهم عن النفايات البشرية) تجنبوا من الأمراض التي تنقلها النفايات أكثر من إخوانهم الأقل تمييزًا (ومرة أخرى، أدى ذلك إلى زيادة فرص النجاح في الإنجاب).

قد يتوقع المرء إذن العثور على زمرة من الملكات الإدراكية ذات صلة مباشرة بالتزاوج، على سبيل المثال، وتجنب الأعداء. ونحن نجد ذلك بالفعل.

لنتأمل في سيكولوجيا اختيار رفيق الحياة. ترغب النساء في الرجال الذين هم على قمة التسلسل الهرمي الاجتماعي (مثل هؤلاء الرجال سيكونون من الأرجح قادرين على رعاية الأبناء)، ولذلك يتنافس الرجال على تأكيد قدرتهم على تحقيق النجاح بحسب ثقافة المجتمع (وهذا يفسر أيضًا انجذب النساء الشابات الجميلات إلى الشيوخ الأغنياء). فالرجال الناجحون مجتمعيًا وماليًا هم الأكثر احتمالًا لإنجاب وتربية الأطفال بنجاح (وبالتالي نقل جيناتهم التنافسية) من الرجال الفقراء والمحرومين. ومن المحتمل أن تكون أحكام الجاذبية البدنية بمثابة مقاييس لصحة

الرفيق المحتمل؛ فأولئك الذين لديهم شركاء أكثر صحة هم أكثر عرضة لإنتاج ذرية صحية، وبالتالي نقل الجينات الصحية إلى الأجيال القادمة. ويميل الرجال إلى المبالغة في تقدير رغبة المرأة في ممارسة الجنس معهم (وربما يمنحهم ذلك الثقة للاقتراب من رفقاء الحياة المحتملين)، في حين أن المرأة تميل إلى المبالغة في تقدير اهتمام الرجل أن يكون بجوارها بعد ولادة الطفل. ولأن التكاليف التطورية للحمل وتربية الأطفال مرتفعة على نحو غير متكافئ بالنسبة للنساء فإنه يفترض في الرجال رغبتهم في ممارسة الجنس المتحرر عن الارتباطات والالتزامات أكثر من النساء.

ما هي أنواع الآليات الإدراكية التي طورناها فيما يتعلق بهؤلاء البشر الآخرين الذين نافسونا على الموارد الشحيحة (أي الأعداء المحتملون)؟ كانت الحياة على سيرينجيتي[23] قَبَلية أو عشائرية، مع منافسة شرسة بين القبائل أو المجموعات العشائرية. وكانت القدرة على سرعة الحكم إذا ما كان الشخص صديقًا أم عدوًا قد تعني الفرق بين الحياة والموت. يبدو إذن أن لدينا خوفًا طبيعيًا من الغرباء وتتزايد تلك المخاوف من الغرباء إذا كانوا ذكورًا. ويتجلى هذا الخوف عندما يسير الشخص بمفرده في شارع مظلم ويرى غريباً كبيراً يسير ببطء نحوه. وكلما زادت الغرابة على الشخص (أكبر مني ويرتدي ملابس مختلفة عن الملابس المعتادة في مجتمعي على سبيل المثال)، كلما زاد احتمال حكمنا عليه بأنه سيؤذينيا. وبحكم أننا ماهرون للغاية في الحكم على درجة الغضب أو الود من خلال رؤية الوجه فيمكننا تقييم التهديد واستجاباتنا المحتلمة بسرعة.

وبالمثل، لقد اكتسبنا غرائز جهاز كشف الفاعلين ونظريات العقل. وقد ناقشنا بالفعل المزايا التطورية لجهاز كشف الفاعلين ADD لأسلافنا. لقد كانت القدرة على اكتشاف الفاعلين بسرعة وبدون استدلال حتى مع وجود احتمال صدور تقارير كاذبة مفيدة للغاية. ومن المحتمل جدًا أن يكون قد تم تطوير نظرية العقل ToM في أسلافنا البدائيين الذين احتاجوا إلى طريقة أكثر فاعلية للتفاوض مع المنافسين من

(23) منطقة تقع في شمال تنزانيا في القارة الأفريقية. (المترجم)

البشر الذين تجمعهم بهم علاقة يكتنفها الغموض والخداع. فكلما كنا أفضل في اكتشاف رغبات منافسينا من البشر، كلما كان ذلك أفضل في التخطيط والتصرف وفقًا لذلك. أهم معادون أم ودودون؟ جائعون أم شبعانون؟ أيستجيبون لنا بالخوف أم يترقبون تقدمنا؟ هل يجدني رفيق الحياة المحتمل جذابًا أو مثيرًا للشفقة؟ بدون قدرة على إصدار أحكام سريعة حول نوايا الآخرين، لن يستجيب البشر استجابة فورية ليخططوا وفقًا لذلك. تنتج نظرية العقل ToM فينا المعتقدات المتعلقة بأغراض الفاعلين المريدين غريزيًا. ونفس الكلام يمكن أن يقال عن المزايا التكيفية الأخرى، مثل: التفكير الغائي والوجودي.

ويرى البعض أن المعتقدات الدينية مشكلة تطورية. ففيما يتعلق باللياقة التكيفية، يبدو أن العديد من الممارسات الدينية تعاني من سوء التكيف؛ ذلك لكونها لا تبدو - من الناحية التطورية - أنها تفضي إلى النجاح التناسلي. عبر أتران Atran عن الدين، عند مناقشة تكلفته، بأنه "مكلف ماديًا" و "مخالف للواقع بلا هوادة، بل ومعاد للحدس". وقال: إن "الممارسة الدينية مكلِّفة من حيث التضحية المادية (على الأقل وقت الصلاة)، والنفقات العاطفية (إثارة المخاوف والآمال)، والجهد الإدراكي (للحفاظ على كل من شبكات المعتقدات الواقعية والمخالفة للحدس)"[24]. فعلى سبيل المثال: تتعارض الممارسات الدينية القاسية، مثل العزوبة والتضحية بالعذارى مع النجاح الإنجابي على أقل تقدير. وعليه تُزال تلك المجموعة الدينية التي تمارس على الدوام العزوبة والتضحية بالعذارى من تجميعة الجينات بسرعة. ترتكب طائفة الشيكرز[25] the Shakers انتحارًا تطوريًا لامتناعهم عن النشاط الجنسي. وبالمثل، في أوقات الندرة (والتي كانت تمثل معظم الأحيان بالنسبة لأسلافنا البدائيين) فإن التضحية بالسلع ذات القيمة العالية مثل الحبوب

---

(24) Atrañ In Gods We Trust, 4.

(25) طائفة مسيحية أمريكية في حكم المنقرضة، ظهرت عام 1747 كانت تؤمن بأن العزوبة ضرورية للخلاص، وأطلقوا على أنفسهم: المجتمع المتحد للمؤمنين بالظهور الثاني للمسيح the American religious group the United Society of Believers in Christ's Second واختصارا شاكرز Shakers. (المترجم).

والحيوانات لا تساعد على البقاء. بل حتى الممارسات مثل العبادة والصلاة يمكن أن تكون مكلفة؛ لأنها تستغرق وقتًا بعيدًا عن الصيد والجمع والتكاثر.

فكيف يمكن لهذه الممارسات المكلفة أن تلحق بالركب؟ كيف ظل الاعتقاد بالواقع الروحي خلال الوجود الإنسان هو المعيار؟ كيف أمكن لهذه السلوكيات الباهظة الثمن أن تبقى حية مع الغربلة الدقيقة والقاسية للانتخاب الطبيعي؟ توجد طريقتان لتفسير الأصل التطوري للدين: الأولى ترى أن الدين ناتج ثانوي، بينما ترى الآخر أن الدين وسيلة تكيفية.

ينتج عن الانتخاب الطبيعي في بعض الأحيان سمة أو صفة كنتاج ثانوي وليس نتاجًا مباشرًا عن عملية الانتخاب الطبيعي. أي أن الانتخاب الطبيعي يختار سمة قابلة للتكيف، وهي سمة تزيد من نجاح الفرد في الإنجاب، ولكن تكون تلك السمة مصحوبة بسمات أخرى غير تكييفية (تعاني من سوء التكيف، أو ببساطة غير تكييفية)؛ ولو كانت هذه السمة الثانوية بمفردها غير مصحوبة بتلك السمة القابلة للتكيف المقصودة بذاتها لما تم اختيارها. فاحمرار الدم في البشر مثلًا هو ناتج ثانوي لقدرة الهيموغلوبين على تخزين الأكسجين (يتحول الهيموجلوبين إلى اللون الأحمر عند أكسجينه). كما أن التجاعيد على مفاصل أصابعنا هي نتيجة ثانوية لقدرتنا التطورية الناجحة على ثني أصابعنا. المنتجات الثانوية عبارة عن بقايا عرضية غير قابلة للتكيف، وبمعنى آخر: ليست سمات تكيفية.

اعتقاد المنتج الثانوي، إذا صح التعبير، هو اعتقاد ثانوي أنتجته الملكات "المصممة" لإنتاج أنواع أخرى من المعتقدات. وإذا كانت هذه الصورة القياسية صحيحة فإن المعتقد الديني هو اعتقاد ثانوي غير تكيفي.

تنشأ المعتقدات الدينية، إذن، كمعتقدات ثانوية بحسن نية عن جهاز كشف الفاعلين، الذي يساعدنا على البقاء أحياء. وتنسب الظواهر المخيفة والكبيرة و / أو الجسيمة التي لا يمكن تفسير حدوثها بنسبتها إلى الإنسان أو الوحش = إلى العوامل الروحية (أي غير الجسدية) ذات القوى العظمى، ومن خلال نظرية العقل ToM تكتسب تلك القوى نوايا مختلفة. وهذه الكائنات غير المادية ليست في صفنا أو ضدنا، وعلينا أن نبدأ في وضع خطط لاسترضائهم أو تهدئتهم (ومن هنا يظهر

أصل الطقوس الدينية). إذن يشكل جهاز الكشف عن الفاعلين ADD معتقدات في فاعلين غير مجسدين، ثم تزين نظرية العقل ToM هذه المعتقدات الأولية في شكل آلهة (مأنسنة).

لقد أبعد جهازنا الكاشف عن المفترس والعدو النُّجْعَة عندما ذهب لانتاج الاعتقاد بالآلهة؛ لاجئًا إليهم "لإيجاد تفسير" للطقس، وحركات الكواكب، والنجاح في الصيد أو زراعة المحاصيل، والحظ الجيد والسيئ، والمرض، بل وحتى الموت نفسه[26].

ومن ناحية أخرى، فإن الانتخاب الطبيعي ينتج أحيانًا سمة بغرض التكيف. فهل من الممكن أن تكون المعتقدات الدينية أمورًا تكييفية تساهم بالفعل في اللياقة المعيشية؟ على الرغم من أن الاعتقاد الديني يُصوَّر عادةً على أنه اعتقاد ثانوي، إلا أن ثمة معارضين مهمين وأسباب وجيهة للمعارضة. يدعي جوزيف بلبليا Joseph Bulbulia، على سبيل المثال، أننا "نحتاج إلى البدء في التفكير في تقاليدنا الدينية ليس كأخطاء وأشياء مكلفة غير تكيفية ولكن كممارسات لازدهار الإنسان"[27]. كيف إذن يمكن اثبات أن المعتقدات الدينية تكييفية؟

نظرًا إلى أن المعتقدات الدينية تساهم غالبًا في تحريك المشاعر والعواطف فقد تكون ملهمة ومحفزة للغاية. قد يعمل كل من جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM على نحو متكرر لإنتاج الكثير من المعتقدات عن الأشخاص

---

(26) قد يظن المرء أن هذا دليل على أن الله ليس إلا فكرة داخل العقل (أناس مثل ريتشارد دوكينز ودانيال دينيت يؤمنون بذلك). فنحن، بعد كل شيء، ذو نزوع لا هوادة فيه لأنسنة الأشياء ونبدو غير قادرين على إغلاق صنبور نظرية العقل ToM عندما يبدأ بالفيض. فنحن نجد فاعلين شبيهن بالبشر في السحب والنجوم والرعد وحتى الجثث. ولأننا نميل بطبيعتنا إلى الاعتقاد بأن أحبائنا ينجون من الموت وينتقلون إلى شكل روحي من الوجود، فإن الجثث تكون بمثابة حاويات للآلهة؛ وأحيانًا يؤدي حرق الجسد إلى إطلاق الروح. نأخذ القليل من جهاز كشف الفاعلين، ونهزها مع رشة من نظرية العقل ToM لنخلق الآلهة. وهكذا، كل شيء في العقل! سنعود إلى هذا الادعاء في الفصل الرابع.

(27) Joseph Bulbuliã "Religious Costs as Adaptations That Signal Altruistic Intention," Evolution and Cognition 10 (2004): 23.

أثناء سير المرء في مركز تجاري كبير. ولكن هذه المعتقدات عرضية عابرة ونادراً ما تفرض علينا أي مطالب أخلاقية. أما المعتقدات الدينية فهي تخلق شعورًا بالواجب أو نقصان القيمة تجاه أشخاص الآلهة. وتحركنا هذه المعتقدات بعمق لما تقدمه من أسباب وجيهة محركة للعواطف والرغبات لجعلنا أخلاقيين. ومن المعروف أن الأديان غالبًا هي التي تزودنا بالمحتوى الأخلاقي، و تحركنا أيضًا لنكون أخلاقيين. إن المعتقدات الدينية هي التي (أعطت) وتعطي الأخلاق جاذبيتها.

يقول آرا نورنزايان Ara Norenzayan في كتابه "الآلهة الكبار: كيف غيَّر الدين التعاون والصراع": إن "الآلهة الكبرى" هي أحد الحلول للغز التعاون الإنساني المبكر(28). لقد ربطت الآلهة الكبار - التي كانت تسيطر على المشهد الثقافي الإنساني - البشر الأوائل معًا في مجتمعات كبيرة على نحو متزايد من خلال تأمين تعاون هؤلاء الموجودين في داخل المجتمع المتدين، كما تسببت في زيادة نجاح هذه المجتمعات المتدينة ضد أولئك الذين لم تكن لديهم تلك الرابطة (أي ضد تلك المجموعات المتنافسة التي تفتقر إلى مفاهيم الإله العظيم). ليس من الصعب شرح الاهتمام القصري والأناني تجاه الذات أو حتى التعاون بين الأقرباء على أسس تطورية؛ فالأقرباء في نهاية الأمر يشاركون جينات المرء، وما التطور إلا تمرير جينات المرء إلى الجيل التالي. وليس من الصعب تفسير الخوف الشديد من غير الأقارب من حيث المنافسة على الموارد الشحيحة. ولكن من الصعب أن نفسر على أسس تطورية كيف تمكن البشر الأوائل من التغلب على خوفهم الشديد من غير الأقارب وبدؤوا على نحو متزايد ينتهجون سلوكًا تعاونيًا في مجتمعات بشرية كبيرة (وناجحة). كيف أمكن لأفراد تتجذر فيهم الأنانية والتنافسية أن يتعاونوا مع غيرهم من الأفراد الذين لا تربطهم بهم صلة وهم على نفس الدرجة من الأنانية والتنافسية ليكونوا مجتمعات كبيرة؟ إن ذلك باختصار لهو اللغز التطوري للتعاون الإنساني.

---

(28) Ara Norenzayan, Big Gods: How Religion Transformed Cooperation and Conflict (Princeton: Princeton University Press, 2013)..

من المؤكد وجود فوائد تعاونية من العيش في مجتمعات بشرية كبيرة. فبالإمكان القبض على المزيد من الحيوانات البرية من قبل مجموعات من الصيادين أكثر مما يمكن الحصول عليه من قبل صيادين فرادى. والقتال الجماعي ضد أعداء الفرد أفضل إلى حد كبير من أن يقاتل المرء بمفرده. والعمل المشترك والخبرات التخصصية تضمن حصادًا وفيرًا في المجتمعات الزراعية. وأن يكون لدى الإنسان طفل وأن يلتزم رعايته بمفرده أمر مكلف للغاية من الناحية التطورية، ولذلك فإن في مشاركة تربية الأطفال فائدة هائلة، خاصة للنساء. وتوجد فرص أكبر للقاء رفقاء أو رفيقات الحياة داخل المجتمعات الكبيرة. ويمكن الحصول على طعام أفضل في العشاء الجماعي. وباختصار: من المفيد أن نتعاون ولكن (وهنا يطل لغز التعاون الإنساني برأسه القبيح مرة أخرى) هذا فقط إذا كنت واثقًا من الأعضاء الآخرين في مجتمعك الذين تتجذر فيهم بطبيعة الحال الأنانية والتنافسية (وهم في المقابل يثقون بك). فكيف إذن يمكن للمرء أن يكفل الثقة اللازمة لأن يعيش أفراد أنانيون وتنافسيون معًا في سلام ليجنوا تلك الفوائد التعاونية دون تهديد الخسارة؟

هنا تأتي المنطقة التي يبدو أن الدين قد قام فيها بالمساعدة. كيف يمكن أن تكون المعتقدات الدينية حفزت البشر الأوائل على التعاون؟ يمكن لمعتقدات الله أن تحفز التعاون إذا اعتقد الإنسان أن الله يرى كل شيء يفعله (وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يفلت باقترافه الشر). فمن الممكن بالتأكيد أن يشبع الفرد رغباته الأولية إشباعًا أفضل (كأن يحصل على المزيد من الطعام، والمزيد من ممارسة الجنس) حتى داخل مجتمع كبير أو تعاوني = إذا أمكن له أن يسرق ويغتصب ويأمن العواقب. وإذا اعتقد إنسان أنه لا يوجد سوى عدد محدود من الأشخاص الذين يمكن خداعهم فقد يطرأ عليه على نحو معقول فكرة أن قتل أو سرقة طعام هؤلاء الأشخاص في بعض الأحيان ستكون في مصلحته.

لنفترض أنك واحد من أربعين عبدًا يجذفون على متن سفينة يونانية شراعية. وقد صقَّلت قدرتك على التعرق بغزارة وتجعيد جبينك وتثني عضلاتك الوترية، كل ذلك مع تقليل المجهود المبذول فعليًا. أما التسعة والثلاثون الآخرون فكل واحد منهم يبذل قصارى جهده لينجز نصيبه من العمل على أتم وجه. وبسبب أنك عملت

أقل من زملائك في التجذيف فقد حرقت سعرات حرارية أقل وتحتاج بالتالي إلى نوم أقل. أكلت حصتك من العصيدة والتي هي نفس الكمية التي تناولها زملاؤك، وعندما استغرق زملاؤك الذين أنهكهم التعب والإرهاق بالكامل في نوم عميق قمت بالتسلل لتناول بعض الطعام الإضافي. ولأنك تعمل أقل وتآكل أكثر كانت صحتك أفضل. بعض زملاؤك الذين يعانون من الإرهاق ونقص التغذية قد بلغوا من المرض ما يمنعهم من الزواج، وبعضهم يموت في شبابه. أما أنت فتذهب بكامل قوتك وحيويتك لتستمتع بحياة الليل في مدينة الميناء حيث تنشر حيواناتك المنوية على نطاق واسع، فتمرر جيناتك الأنانية، بينما تتم إزالة جينات زملاؤك التعاونية من مجموعة الجينات.

وبطبيعة الحال، فإنك تجتهد لتعمل بنفس القوة التي يعمل بها الجميع في كل مرة يحدق في وجهك سيدك المسؤول عن التجذيف في السفينة والسوط في يده على أهبة الاستعداد. وعندما يأتي اليوم الذي تتم فيه مراقبة مخزون المواد الغذائية طوال الليل تفوتك وجبة المساء الخفيفة. ولكن عندما لا تكون قيد المشاهدة ترجع و تتسلل لتحصل على أكثر مما يحصل عليه زوملاؤك الأكثر تعاونًا.

من السهل أن نرى في هذا المثال اللغز التطوري للتعاون البشري. المستغلون الأنانيون الذين يعطون أقل ويأخذون أكثر من متوسط ما يأخذه الفرد في مجموعة من المتعاونين هم الذين يمررون جيناتهم إلى الأجيال المقبلة على الأرجح. ولذا يجب علينا أن نتوقع من الناحية التطورية أن تنتصر النزوعات الأنانية على النزوعات التعاونية على المدى الطويل.

ولكن ربما يكون الله مثل ذلك السيد المسؤول عن التجذيف في السفينة.

فإذا كنت جزءًا من مجتمع يؤكد على وجود الإله الذي يعلم كل شيء ذي العدل المطلق = فستعتقد حينئذ بعدم إمكان الفرار من مراقبته؛ فالله - على العكس من البشر ذي القدرات المحدودة - يعلم دائمًا كل أفعالك التي تقوم بها. وليس من المنطقي أبدًا إذا كنت وأفراد مجتمعك تؤمنون بالله= أن تعتقد إمكان الإفلات من العواقب إذا ما سلكت سلوكًا غير أخلاقيًا. ولأن الله ينظر إليك دائمًا،

فمن الجيد إذن أن تلتزم بالقواعد. وباختصار: يمكن لمعتقدات الله أن تحفز السلوك الإيثاري.

ومن المثير للاهتمام أن علم الإدراك قد أظهر وجود ميل بشري طبيعي إلى إضفاء صفة العلم المطلق والقدرة المطلقة على الفاعلين الخارقين. فمجرد الاعتقاد بأن الله بكل شيء عليم ليس كافيًا لمنع الناس من أن يكونوا لا أخلاقين؛ لابد أن يعتقد الناس أيضًا أن هذا العالم بكل شيء يمتلك أيضا القدرة على معاقبتهم. وربما تقوم الآلهة بتوزيع العقوبات والمكافئات في هذه الحياة من خلال حسن الحظ أو سوء حظ. وغالبًا ما يُنظر إلى الآلهة على أنهم يعاقبون الناس هنا والآن من خلال إصبع القدم المكسور، أو هجوم أسراب الجراد، أو حدوث فيضان، أو حادث مشوه للجسم. أو من الممكن الاعتقاد بأن توزيع العقوبات سيؤجل للحياة الآخرة حيث تتعادل موازين العدالة. ومن المثير للاهتمام أن علم الإدراك أظهر أن لدينا ميلًا طبيعيًا إلى عزو الغائية إلى الحظ وسوء الحظ، وميلًا طبيعيًا إلى الاعتقاد بالحياة الآخرة.

يلقي علماء علوم الإدراك "نظرة خاطفة" على أعمال العقل البشري من خلال تقنيات التهيئة المختلفة. عندما يغرس العلماء ببراعة المفاهيم (في عملية يطلق عليها "تهيئة priming")، فإنهم يسعون إلى استخراج استجابات مختلفة غير واعية. وتحدث التهيئة في التجارب النفسية دون مستوى التفكير الواعي. فمن خلال تعريض الشخص الخاضع للاختبار لأحد المحفزات، يؤثر العلماء في استجابات الشخص لمحفز آخر. فعلى سبيل المثال، الاشخاص الذين تم تهيئتهم (تحفيزهم دون وعي) عن طريق تركيب قطع صور الأحجية التي تحتوي على الكثير من اللون الأرجواني قد "يشاهدون" عنبًا عندما يظهر لهم صور لدوائر (مثير واعي). الأشخاص الذين تمت تهيئتهم بأحجية رد الكلمات المفككة والتي تحتوي على مصطلحات مثل "العلم" و "البلد" قد يستخرج منهم مشاعر الوطنية عندما يتم تحفيزهم لاحقًا بواسطة مقاطع فيديو لشركائهم في الوطن الذين فازوا في الألعاب الأولمبية. والأشخاص الذين قيل لهم عن زجاجة نبيذ أنها باهظة الثمن (عامل التهيئة) سيكونون أكثر عرضة للاعتقاد بأن هذه الزجاجة جيدة جدًا عند تذوقها (المحفز)

(وسيكونون أكثر عرضة للاعتقاد بأن النبيذ سيء إذا قيل إنه من النوع الرخيص). وتشير مجموعة من الدراسات التجريبية، والتي أجرى الكثير منها نورنزيان وزملاؤه، إلى أن الناس يكونون أكثر لطفًا وأقل غشًا وأكثر عطاءً، وتعاونًا إذا اعتقدوا أنهم يخضعون للمراقبة. فمجرد وجود زوج من العيون على شاشة الكمبيوتر يقلل من الغش في الاختبارات؛ وبنفس الطريقة، فإن مجرد وجود زوج من العيون على علبة الصفيح المخصصة لجمع المال يمكن أن تزيد من القيمة المدفوعة لثمن المشروبات الغازية في نظام ثقة غير رقابي (حيث يوضع ثمن المشروب في علبة صفيح خارج ثلاجة المشروبات).

تلك مجرد مقلة عين. فكيف إذا كانت التهيئة بالله؟ عندما غرس العلماء بمهارة تصورات خارقة للطبيعة في أذهان طلاب الجامعات، تناقص معدل الغش في الاختبارات: أولئك الذين ذكر لهم المجربون على نحو يوحي بعدم القصدية أن شبح طالب في الدراسات العليا الميت قد شوهد في غرفة الاختبار = كانوا أقل غشا من أولئك الذين لم تذكر لهم قصة الشبح. وعندما تتم التهيئة من خلال مفاهيم تتعلق بالله فإن الناس يصبحون بصورة ملحوظة أكثر عطاءا بأموالهم مع غرباء مجهولين (دون ترقب لأي مقابل). أجريت تجربة على مجموعتين أحدهما مجموعة ضابطة لم تخضع لأي تهيئة والأخرى خضعت للتهيئة وأعطى كل فرد فيهما عشرة دولارات لينفقوا منها كيفما أحبوا على غريب مجهول (لم تسبق لهم رؤيته). وقبل تقسيم الأموال، حل الأفراد من المجموعتين أحجية لتكوين جمل. أما المجموعة التي تم تهيئتها فقد احتوت كلماتهم على "روح" و "إلهية" و "الله" و "مقدسة" و "نبي"، بينما كانت جمل المجموعة الضابطة[29] لها مصطلحات محايدة. قدمت المجموعة المهيئة بمفاهيم تتعلق بالله 4,56 دولار في المتوسط وهو في الواقع معدلِ مثالي للإيثار)، في حين قدمت المجموعة الأخرة المحايدة 2,56 دولار.

---

(29) المجموعة الضابطة هي مجموعة مشاركة في التجربة لا يقع عليها المؤثرات المفتعلة للتجربة وتكون - بجوار المجموعة الواقع عليها المؤثرات المفتعلة - بمثابة مجموعة مقارنة لعزل المتغير المستقل المراد دراسة تأثيره. (المترجم)

وحتى الملحدون كانوا أكثر كرماً عندما هيؤا دينياً. عندما نعتقد أن الله يراقبنا فإننا نكون بلا تردد أكثر تعاونًا.

وبالمثل أظهر علم الدين الإدراكي أن الخوف من العقاب، خاصة العقاب الإلهي، يحفز السلوك التعاوني تحفيزًا فعالًا. وفي حين أن المعتقدات الروحية الحنونة أو اللطيفة تؤدي في كثير من الأحيان إلى تحفيز السلوك التعاوني فإن معتقدات الله القاسية أكثر تحفيزًا. فالاعتقاد في فاعل معاقب خارق للطبيعة يقلل (وقد قلل بالفعل تاريخيًا) من التعديات الاجتماعية أكثر مما يفعله الاعتقاد في فاعل محب خارق للطبيعة. وبعبارة نورنزيان: "الجحيم أقوى من الفردوس"[30]. ويجادل كل من دومنيك جونسون Dominic Johnson وأوليفر كروجر Oliver Kru والذان أطلقا على ذلك اسم "نظرية العقاب الخارق للطبيعة" أن العصى الإلهية تزيد السلوك التعاوني بدرجة ملحوظة أكثر من الجزرة الإلهية[31]. ووجد نورنزيان خلال سلسلة من الدراسات أنه بينما لم يقلل الاعتقاد في إله رحيم الغش بفعالية، قلل الاعتقاد في الإله المعاقب الغش (وقلله بدرجة ملحوظة). وباختصار، الاعتقاد بأن الله يتصف بكلا الأمرين: مراقبة السلوك الإنساني ومعاقبة المسيئين = يبدو فعالًا للغاية للحد من التعديات الاجتماعية وتشجيع السلوك التعاوني. ولم تقتصر الأدلة الداعمة لنظرية العقاب الخارق للطبيعة على نتائج التجارب التي أجريت على طلاب السنة الأولى في الجامعة ولكنها أيضًا تشمل الادلة دعائم من تاريخ المجتمعات. وجد دومينيك جونسون في دراسة استقصائية شاملة ضمت 186 مجتمعًا حول العالم علاقة تلازم ملحوظة بدرجة كبيرة بين الوعظ الأخلاقي للآلهة السامية من ناحية والامتثال للقواعد الاجتماعية من ناحية أخرى.

تعطي نظرية العقاب الماورائي تفسيرًا تطوريًا منطقيًا. ففي مقابل فوائد التعاون الهائلة، يمثل هؤلاء الذين يحتالون (بسرقة طعام أو بالشح بما لديهم أو بكونهم

---

(30) Ara Norenzayañ Big Gods: How Religion Transformed Cooperation and Conflict (Princeton: Princeton University Press, 2013), ch. 3.

(31) Dominic Johnson and Oliver Kru"The Good of Wrath: Supernatural Punishment and the Evolution of Cooperation," Political Theology 5.2 (2004): 157-73..

كسالي وما إلى ذلك) ويفلتون بتجاوزاتهم من العقاب = تهديدًا لأزراق المجتمع. إن تكليف بشر برقابة وضبط مجتمعاتهم ومعاقبة المعتدين منهم أمر باهظ الثمن؛ حيث تعوق واجبات الضبط والمعاقبة القادرين من الناس عن الكر والفر والتغذية والتكاثر[32]. ولكن بما أن الاعتقاد بإله أخلاقي متعالي يزيد بفعالية من السلوك التعاوني ويقلل من التجاوزات فإن تكلفة الضبط والمعاقبة ستقل بدرجة كبيرة. فالإله المتصف بالعلم المطلق يكشف عن التعديات والتجاوزات أينما وجدت ومتى حدثت ويعاقب على التجاوزات، وكل ذلك بالمجان.

ومع ذلك فمن النادر أن تكون المعتقدات الدينية خالية من التكلفة. فحتى أبسط الطقوس الدينية مثل الصلاة والعبادة تشغل حيزًا من الوقت بعيدًا عن تلبية الدوافع الأساسية الأربعة. وتتعارض قرابين الحبوب والألعاب المقدمة إلى الآلهة مع إشباع احتياجاتنا البشرية الأساسية. بالنسبة للفلاسفة فهم بطبيعة الحال مهووسون بالمعتقدات ولا يبالون بالطقوس، ولكن بما أن الدين يحتوي على ممارسات بقدر احتوائه على اعتقادات فإن أي نقاش مستفيض أو حتى مقبول لتطور الدين يجب أن يأخذ في الاعتبار الشعائر الدينية. ولأنني مهتم في المقام الأول بعقلانية الاعتقاد الديني، سأناقش بإيجاز نظرية واحدة فقط عن الشعائر وأصل المعتقد الديني: نظرية الإشارة المكلفة costly signaling[33]، التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين والتعاون.

كيف يمكننا معرفة من هو عضو في مجتمعنا، ومن هو الجدير بالثقة؟ كيف نعرف من هو المتعاون المخلص؟ تتفاقم مشكلة تمييز الثقة بسبب السهولة التي

---

(32) يطلق على هذه الدوافع الغريزية الأربعة في اللغة الانجليزية اختصارFour Fs، وتعتبر - وفقا لنظرية التطور- الدوافع الأساسية البدائية في مملكة الحيوان التي تساعد الحيوانات على التكيف والبقاء. (المترجم) انظر:
Weiten, Wayne. *Psychology*: Themes and Variations. Belmont, CA: Wadsworth, 2010, p.99

(33) لمعرفة المزيد عن نظرية الإشارات المكلفة انظر (المترجم):
Sosis, Richard. "Why Aren't we all Hutterites?: Costly Signaling Theory and Religious Behavior." *Human Nature : An Interdisciplinary Biosocial Perspective* 14, no. 2 (06, 2003): 91-127.

يمكن بها لبعض الناس أن يتصنعوا الصدق. لا شك أن أفضل خيار لتلبية الاحتياجات التطورية الفردية هو خيار "التعاون" المخادع الذي يعمل فيه الفرد على استغلال الآخرين بقدر المستطاع (دون أن يفتضح أمره)، ذلك بأن يعمل بأقل جهد ممكن (في الوقت الذي يظهر فيه أنه يعمل بجد) ويأخذ أكبر قدر ممكن (في الوقت الذي يبدو فيه أنه يأخذ نصيبه بالعدل)، وأثناء ذلك، يعمل الأعضاء الآخرون في المجموعة بأقصى طاقتهم ويأخذون ما لهم وحسب. ولكن إذا تمكنا من التأكد من صدق اخلاص وتعاون الناس (على الأقل نتأكد من أنهم ليسوا انتهازيين)، فيمكننا أن نكون متحمسين تمامًا للعمل الجاد من أجل الصالح العام والنوم جيدًا في الليل لتجديد النشاط. فهل توجد أي آليات اجتماعية يمكن أن تثبط المستغلين وتشجع السلوك التعاوني الحقيقي؟ ترى نظرية الإشارات المكلفة أن الانخراط في مختلف الأفعال المكلفة أو التضحية يوضح للآخرين مدى الإخلاص الأخلاقي للفرد مما يشجعهم على الرد بالمثل.

وغالبًا ما تكون بعض علامات الالتزام، المتمثلة غالبًا في الطقوس الدينية والمحرمات = شديدة الخطورة ومكلفة لدرجة أنه سيكون من الحمق القيام بها إلا أن يكون فاعلها متعاونًا ومخلصًا حقًا. على سبيل المثال: بعض طقوس التنشئة الدينية، مثل تلك التي تنطوي على الخدش أو الوشم، مؤلمة جدًا بل وخطيرة لدرجة أن الإنسان لن يخضع إليها بطبيعة الحال ما لم يرغب رغبة حقيقية في أن يكون عضوًا مساهمًا مساهمةكاملة في هذا المجتمع. وتمثل هذه الطقوس التي تحدث مرة واحدة علامات رئيسية على الإخلاص. إن الطقوس الأقل قسوة ولكن الأكثر انتظامًا - كالصلوات اليومية، ودفع العشور، وتجنب أنواع معينة من الأطعمة، وما إلى ذلك - تشير أيضًا إلى استعداد المرء للخضوع لخير المجتمع، وبالتالي تعزيز التعاون والالتزام والثقة المتبادلة. وقد أظهرت دراسة ريتشارد سوسيس Richard Sosis عن المجتمعات الطوباوية في القرن التاسع عشر أن المجتمعات الدينية ذات المتطلبات الأكثر كلفة لأعضائها استمرت لفترة أطول بكثير من المجتمعات العلمانية أو المجتمعات ذات المتطلبات الأقل كلفة. وبخلاف

الطقوس العلمانية، لقد عززت الطقوس الدينية المكلفة التعاون والتماسك داخل الجماعات[34].

تشارك مجموعة من الملكات الإدراكية أكبر بكثير مما كنا نتخيل في خلق المعتقدات الدينية والحفاظ عليها: جهاز كشف الفاعلين ADD، ونظرية العقل ToM، والعاطفة، والدافع، والاعتقاد في حياة تالية، والاعتقاد في الغاية والأخلاق. دعونا نطلق على هذه المجموعة من الملكات اسم ملكة الاعتقاد بالله الكبيرة، لأن المعتقدات التي تنتجها أكبر وأقوى بمليون مرة من المعتقدات التي تنتجها ملكة الاعتقاد بالله الأساسية (التي هي جهاز كشف الفاعلينADD بالإضافة إلى نظرية العقل ToM). بالإضافة إلى ذلك، تعمل ملكة الاعتقاد بالله الكبيرة في كثير من الأحيان ضمن السياقات الثقافية للطقوس الدينية والمحرمات، مما يزيد من الجاذبية التحفيزية.

ولأن التعاون أثبت ضروريته للنجاح التطوري للإنسان العاقل، فنحن بحاجة إلى النظر في تلك القدرات الإدراكية البشرية التي أعدَّتنا للعيش معًا في وئام. ويبدو على الأرجح أن ملكة الاعتقاد بالله الكبيرة عندما تحالفت مع طقوس دينية مختلفة قد خدمت هذا الغرض. فالحس الأخلاقي يوفر معلومات حول ما يجب على المرء فعله من أجل العيش بانسجام في المجتمع (على سبيل المثال: لا تكذب أو تغش أو تقتل أو تسرق)، وتحفز المعتقدات الإلهية الكبيرة الأشخاص الأنانيين تحفيزًا عاطفيًا على أن يكونوا أخلاقيين. ومن المرجح لمجتمعات المتعاونين أن تحتوى على أفراد أكثر ممن يعيشون أطول ويتمتعون بحياة أفضل من المجتمعات غير المنسجمة. ولذا يرجح أن تكون ملكة الاعتقاد بالله الكبيرة والمعتقدات الدينية التي تنتجها تكيفية وليست منتجات ثانوية. فالمعتقدات الدينية، على الرغم من أنها

---

(34) Richard Sosiš "Why Aren't We All Hutterites? Costly Signaling Theory and Religious Behavior," *Human Nature* 14 (2003): 91-127.

ربما تكون الطقوس الدينية أقوى من الطقوس العلمانية لأن الإشارات المكلفة في حد ذاتها لا تكفي للتخلص من المستغلين. تضيف الطقوس الدينية نظرية العقوبة الخارقة للطبيعة إلى المزيج التحفيزي.

باهظة الثمن على ما يبدو، تؤدي إلى ازدهار الإنسان. إن مزايا نجاة المجتمع الذي لديه الموارد التفسيرية الكاملة لمكافأة السلوك الجيد ومعاقبة السلوك السيئ لضمان التعاون وبالتالي إنتاج فوائد تعاونية = واضحة بينة.

ولكن

يمكننا أن نكون متأكدين تمامًا أنه نظرًا إلى أن معظم المعتقدات الدينية لمعظم الناس عبر معظم تاريخ البشرية تتضمن معتقدات في الفاعلين المشخصين = فإن جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM يشتركان في إنتاج المعتقد الديني والحفاظ عليه. ومثلما نستخدم العديد من حواسنا - كالبصر واللمس مثلًا - لإدراك الأشجار (ألوانها وأحجامها المتنوعة والإحساس الخشن للحاءها والشعور الناعم لأوراقها) فكذلك أيضًا ندرك الآلهة من خلال مكلة جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل من بين العديد من الملكات الإدراكية الأخرى. وبالطبع، فإن معتقدات الله أغنى بكثير من مجرد صفات لفاعلية خارقة ذات حد أدنى من النوايا. فنحن ننسب الأغراض إلى الآلهة والأكوان، وفي بعض الحالات ندمجها في الغرض الأعظم الذي غرسه الله في كل شيء. فنحن نهتم بشدة بمكاننا في الكون المنعزل الوحيد، ونفكر في معنى الحياة: غرضنا الذي غرسه الله فينا. ولأن معظم آلهتنا كبيرة وطقوسنا الدينية مكلفة، فإن الله يعلم الأخلاق ويسيطر كشرطة البوليس على الإنسانية ويهدد بالعقاب ويحفز التعاون.

وأيضًا فإن معتقدات الله غنية بالاستدلالات. فعندما تعالج مكلة التفكير معتقدات الله فمن الممكن أن تمتد هذه المعتقدات إلى الواقع بأكمله. قد يقودنا حدسنا الطبيعي عن السببية إلى التساؤل عن السبب الأول للكون أو المحرك الأول للنجوم والكواكب. وقد يقودنا ميلنا الطبيعي لرؤية الأغراض في الأشياء إلى معتقدات أعمق بخصوص الحكيم الإلهي. وقد تشير التزاماتنا الأخلاقية العميقة، عند التفكير، إلى حقيقة أخلاقية أساسية تتجاوز العالم المادي. وباختصار، قد تنتج ملكاتنا الإدراكية الأخرى مع حدوسنا العميقة معتقدات دينية أكثر تعقيدًا وعلى نحو مباشر أو قد تتخذ شكل حجج رسمية عن وجود الله وطبيعته.

ومن الناحية التطورية، يجب فهم كل ما سبق في السياق المعقد للنجاح

الإنجابي والثقافة البشرية. وقد قلنا القليل جدًا عن تأثير الثقافة والتطور المشترك للإنسانية والثقافة. لنفترض أن الدماغ البشرية الحديثة كانت قادرة على الحفاظ على الإدراك الديني منذ 100000 عام. فما حدث تحديدًا فيما يتعلق بالمعتقدات والممارسات الدينية من 100000 قبل الميلاد، على سبيل المثال، إلى زمن الأنبياء العبرانيين وسقراط وكونفوشيوس على أقل تقدير = غير واضح؛ فالأدلة ما بين هزيلة إلى معدومة. لا نعرف ما هي تلك المعتقدات والممارسات الدينية المبكرة، وكيف تشكلت، وبأي ملكات إدراكية. ولا نعرف ما إذا كانت قابلة للتكيف أم منتجات ثانوية. إن التفسيرات التطورية للدين رائعة ومحبطة في نفس الوقت، فنحن نعلم حقًا القليل جدًا عن تطور المعتقد الديني.

إن علم الدين الإدراكي في مهده، وعلم نفس الدين التطوري أكثر حداثة من ذلك. وكلاهما مجالان مثيران وصعبان. وفي ظل هذا الوضع يمكننا أن نقول بأمان، كما أعتقد، أن لدينا بعض الإحساس بالملكات الإدراكية التي تشارك في إنتاج ودعم المعتقد الديني. ولكن بما أن العلم علم، فهو دائمًا جزئي وأولي. فبعض أبحاث علم الدين الإدراكي سيتم رفضه وسيُراجع البعض الآخر، ومن المحتمل أن يستمر البعض.

يرفض البعض علم النفس التطوري تمامًا، ويزعمون أنه نظرًا إلى أن أنسجة المخ نادرًا ما تُحفظ في أحافير، فهناك القليل من المعلومات المادية التي يمكن بناء مثل هذه النظريات عليها. وقد يرى المرء أن بناء النظرية في علم النفس التطوري عبارة عن سلسلة من "مجرد قصص[35] Just-So Stories" : فكما هو الحال مع أنف الفيل، نعرف ما يجب شرحه، ولنقل عن الاعتقاد بالله - لذا نخترع قصة

---

(35) مَصطلح يذكر على نحو إزدرائي ليصف التقارير أو الرويات التي تهدف إلى تفسير ظاهرة طبيعية معينة، بشرية أو حيوانية، دون استناد إلى أدلة أو إثبات كحكايات الأساطير القديمة عن نشاة الكائنات والحياة مثلا. يرجع أصل هذا المصطلح إلى الروائي البريطاني روديارد كيبلينج Rudyard Kipling الذي نشر سلسلة من القصص المخصصة للأطفال أطلق عليها اسم : مجرد قصص للأطفال الصغار. وتروي هذه القصص كيفية حصول الحيوانات على صفاتها وطبائعها. (المترجم)

تطورية تفسير الاعتقاد بالله. ولأنه لا وجود لمعلومات صلبة بخصوص الموضوع فإن عالم النفس التطوري يتجاوز اعتماده على مجرد تقييمه لمعقولية المعلومات المتاحة. ومع ذلك، سأفترض أن علم النفس التطوري (أو شيء من هذا القبيل) صحيح - وأننا ندرك الله بعقول تشكلت من خلال التطور.

لذا، على سبيل الجدل، دعونا نفترض أن جوهر علم الدين الإدراكي والقصص التطورية للدين تسير على الطريق الصحيح. فنحن نعتقد في الله، بنفس الطريقة التي نعتقد بها في أي شيء، أي بأدمغتنا (عقولنا). ونحن نعتقد في الله، بالطريقة التي نعتقد بها في أي شيء، أي بملكاتنا الإدراكية العادية والطبيعية (فليس لدينا بعض ملكات الاعتقاد بالله الخاصة والمغروسة من قبل الله)؛ بل شُكلت تلك الملكات الإدراكية العادية جدًا من التراب من خلال عمليات تطورية غير معروفة في الغالب، وكان انبثاقها استجابة لمشكلات تكيفية محددة جدًا ونموذجية لأنواع الأجناس.

والسؤال حول ما إذا كانت هذه المعتقدات الدينية الترابية عقلانية أم لا هو موضوع بقية هذا الكتاب.

الفصل الثالث

الموقف العقلاني

الاجتياز الأول

إننا نعرف، أو هكذا نظن، كيف تُكتسب المعتقدات في العلوم الطبيعية. يجمع العالم، على سبيل المثال، مجموعة كاملة من عبارات الملاحظة ويخرج بتعميم بناءً على تلك العبارات ثم يستنتج قانونًا طبيعيًا. وربما يشاهد العالم الكثير من الأشياء المتساقطة (كالتفاح أو قطرات المطر أو الريش) ليسجل بعناية ما يلاحظه، ويدرس ما كتبه الآخرون الذين شاهدوا سقوط العديد من الأشياء. ثم يستنتج بمساعدة الرياضيات أن كل شيء يسقط على الأرض يكون نزوله بسرعة 9,8م/ ثانية^2. أو ربما يطور العالم نظرية الحركية للغازات أو نظرية الإلكترون ثم يبتكر تجربة أو يستخرج ملاحظة لاختبار تلك النظرية.وتختبر النظرية لمعرفة ما إذا كانت نتائج التجربة أو الملاحظات تؤكدها أو لا تؤكدها، ثم تختبر النظرية مرارًا وتكرارًا. وتكون النظرية الصامدة أمام هذه العمليات الصارمة للغاية عقلانية بالتأكيد.

هل يجب أن تحتذي كل معتقداتنا بمعتقدات ذلك العالِم الطبيعي حتى تكون عقلانية؟ لو كانت كل معتقداتنا مثل الاعتقاد في نظرية علمية لوجب إذن على كل اعتقاد أن يجتاز التجارب أو الاختبارات الشبيهة بتلك التي تجتازها الاعتقادات العلمية[1].

---

(1) يتصور ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne الاعتقاد بالله مثل الاعتقاد بنظرية علمية =

لا أشكل اعتقاداتي بخصوص ابني إيفان لأنها قد اجتازت، أو اجتاز ايفان نفسه، مجموعة من الإختبارات أو التجارب؛ بل يكفي أن أراه أو أسمعه لأجد نفسي أعتقد بأنه موجود، وأنه شخص ذو أفكار ورغبات متنوعة (وأستجيب له كما أستجيب للأشخاص، لا كما أستجيب لحيوان النيص أو أشجار الصنوبر، على سبيل المثال). وأضحك معه وأرجو له الخير وأعانقه بخلاف علاقتي مع حيوان النيص أو أشجار الصنوبر. ويبدو من السخف أن أضع معتقداتي حول إيفان رهينة لاجتياز الاختبارات العلمية.

وكذلك عندما أنظر من النافذة وأرى شجرة فلا أخضع الاعتقاد الحسي بأني أرى شجرة لمجموعة من الاختبارات، بل أراها وأعتقد بوجودها. وعندما قرأت في كتاب أن بعض المستعمرين المتنكرين في زي هنود الموهوك قد ألقوا عام 1773 عدد 342 صندوقًا من الشاي في ميناء بوسطن، اعتقدت مباشرة أن بعض المستعمرين المتنكرين في زي هنود الموهوك قد ألقوا عدد 342 صندوقًا من الشاي في ميناء بوسطن. فلم أتحقق من الهوامش، ولم أبحث عن رويات شهود العيان، ولم أقرأ الصحف الصادرة عام 1773، بل قرأتها في كتاب وصدقتها بكل بساطة. وعندما شاهدت وثائقيًا عن الهولوكوست وشعرت بالاستياء من الأفعال الآثمة وغير الأخلاقية لقائد عسكري قاسي لم أتوقف للتفكر في الأدلة التي تدعم معتقداتي الأخلاقي أن الإبادة الجماعية خطأ أو أن البطش بالأبرياء أمر سَيِّئ، وعندما أرى أفعال هذا القائد فإن الأحكام الأخلاقية تنبثق بداخلي دون تفكير واع بالأسباب. (بينما أنا أكتب الآن، أتوقف وأتأمل كفليسوف معتقدًا أنه ليس لدينا أي دليل علمي على الإطلاق لأي من معتقداتنا الأخلاقية، بما في ذلك: أن الإبادة الجماعية

= وَيجلب أنماطًا عقلية شبيهة بالعلم للتأثير على الاعتقاد العقلاني بالله (مرة أخرى، تجدر الإشارة إلى أنه لا يعتقد أن الاعتقاد بالله نظرية علمية، وعليه فإن الإعتقاد بالله في نظره ليس في منافسة لأية نظرية علمية معينة)؛ انظر:
Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Oxford University Press, 2004).
إذا كان المرء يميل إلى التفكير في الاعتقاد بالله بهذه الطريقة، فإن عمل سوينبيرن سيكافئ جهوده.

خطأ، والبطش بالأبرياء سَيِّئ). وعندما أوقفت شخصًا في الشارع طالبًا منه معرفة الوقت الحالي أجابني: 12:45 مساءً، فشكرته معتقدًا أن التوقيت الآن هو 12:45 مساءً، ولم أسأل شخصًا آخر ولا وضعت في محرك بحث جوجل عبارة "الساعة الذرية" لأجد موقعًا أتحقق منه من هذا الوقت، ولا تحققت من وضع قوس الشمس، بل أخبرني شخص بالوقت فصدقته. إن كلا من الاعتقادات الحسية، والاعتقادات المستندة إلى سلطة معرفية، والاعتقادات الأخلاقية، واعتقادات الشهادة (ومجموعات أخرى) هي اعتقادات عقلانية دون الحاجة إلى اجتياز الاختبارات العلمية.

وسأجادل في هذا الفصل أنه في بعض الأحيان، بل ربما في معظم الأوقات، نجد من أنفسنا أننا نعتقد ببساطة في أمور (دون أي تفكير على الإطلاق في الأدلة أو الاهتمام ببرهان لها). ولذلك يبدو أن العقلانية لا يمكن أن تنحصر في الاعتقادات التي اجتازت اختبارات شبيهة بالتي تجرى على الاعتقادات العلمية.

فما الذي يجعل معتقداتنا مقبولة بل وعقلانية؟ في هذا الفصل سأطرح تصورًا للعقلانية يتوافق مع الكثير مما تعلمناه في علوم العقل في الخمسين سنة الماضية أو ما يقرب من ذلك. وقد دافع عن هذا التصور فلاسفة (منهم أنا)[2]. وبالطبع لا يتفق جميع الفلاسفة على ذلك التصور؛ فلكل رؤية فلسفية توجد رؤية أخرى مساوية ومضادة لها في الاتجاه. ولذلك سأقدم، على الأقل من باب الترويح عنك، تصورًا للعقلانية أعتقد أنه معقول ويمكن الدفاع عنه وينسجم مع فهمنا الجيد.

---

(2) هذا الرأي هو الأكثر شهرة الذي يقول به فلاسفة معاصرون كألفين بلانتينجا Alvin Plantinga ونيكولاس وولترستورف Nicholas Wolterstorff، اللذين اعترفا بولائهما للفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد Thomas Reid في القرن الثامن عشر. ومن بين المؤيدين الذين لديهم وجهات نظر قريبة ويليام ألستون William Alston وجورج مافروديس George Mavrodes ووجون جريكو John Greco وألفين جولدمان Alvin Goldman ولودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein وجي إي مور G. E. Moore.

لماذا العقلانية؟

لماذا يجب علينا أن نهتم بالعقلانية ابتداء؟ لماذا لا ندع الجميع يعتقدون كما يشاؤون، ولتكن العقلانية ملعونة؟ أعتقد أن السبب الذي يجعلنا نهتم بأن نكون عقلانيين هو أننا جميعًا، أو أكثرنا، نسعى للبحث عن الحقيقة. يريد معظمنا توجيه حياته نحو الحقيقة، نريد أن نعرف الحقيقة سواء فيما يتعلق بالأمور التوافه أو المهمة. فنريد أن نعرف حقيقة ما إذا كان نجم سينمائي مشهور لا يزال يحب زوجته أم أنه يتسلل سرًا للقاء صديقته السابقة. ونريد أن نعرف الحقيقة بشأن مرشحينا السياسيين بل والأنظمة السياسية الصحيحة. لقد أردنا التاكد من أن العراق يملك أسلحة دمار شامل، أو أن إيران تنوي صنع سلاح نووي (ومهاجمة إسرائيل). وإن كان يوجد إله، فليُعرف ذلك الإله ولنعش حياتنا بناءً على تلك المعرفة. وإن لم يكن يوجد إله فليُعرف ذلك أيضًا ولنعش حياتنا وفقًا لتلك الحقيقة. فالهدف من العقلانية أو أن تكون عقلانيًا هو أن تقترب أكثر من الحقيقة[3]. والسعي لأن تكون عقلانيًا هو سعي عن الحقيقة، وهو أمر يرغب جميعنا فيه. العقلانية إذن أمر مطلوب للغاية في سعينا إلى حياة تتوجه نحو الحقيقة توجهًا صحيحًا. فمعظمنا لا يريد أن يعيش كذبة[4].

ماذا لو؟

ماذا يعني أن تكون عقلانيًا؟ دعونا نرى ما إذا كان بالإمكان أن نحرز تقدمًا في مفهوم العقلانية من خلال بعض القصص. لنفترض أنه بينما كنت تتصفح بريدك في يوم ما وجدت ظرفًا موجهًا إليك وليس عليه عنوان الإرجاع. ففتحت الظرف متعجبًا نوعًا ما من هذا الموقف لتجد رسالة بسيطة فيها: "زوجك يخونك". ولم يتم إلحاق الرسالة بأي صورة أو تاريخ أو مواقيت أو أسماء، بل فقط التأكيد على

---

(3) توجد، بالطبع، إصدارات للعقلانية لا علاقة لها بالحقيقة. على سبيل المثال، يرى البعض أن الشخص عقلاني بقدر ما ينجح في تحقيق أهدافه أو أغراضه.

(4) هذا لا يعني إنكار أن بعض الناس ميالون نفسياً، على الأقل في بعض المناسبات، إلى تجنب الحقيقة.

خيانك زوجك. وبحسب علمك، فقد قضيت خمسة عشر سنة طيبة مع زوجك، لم يتغير فيها سلوكه تغيرًا ملحوظًا. وباستثناء هذا الادعاء فلا يوجد ما يدعو للاعتقاد بوجود شرخ في هذه العلاقة. فماذا عليك أن تفعل؟ هل عليك أن تواجه زوجك بما تعتبره الآن حقيقة؟ أم هل عليك أن تأجر محققًا لمتابعة زوجك لمدة أسبوع راجيًا أن تكون الرسالة مجرد مكيدة؟ أم عليك أن تحافظ ببساطة على الثقة التي بنيتها طوال تلك السنوات؟

وإليك "ماذا لو" أخرى. عادت ابنتي كاتي إلى المنزل بعد أول درس لها من مادة الفلسفة في الكلية متجاهلةً إياي تمامًا، ليس على النحو الذي كانت تفعله عندما كانت في الثانوية وأكون أنا متعكر المزاج بالكلية؛ الآن تتجاهلني كما لو كنت غير موجود في الغرفة. وعندما سُئلت عن ذلك شرعت كاتي باستعلاء بتوضيح ما يطلق عليه "مشكلة العقول الأخرى"، وهي المشكلة التي تحاول الإجابة على السؤال التالي: "كيف نعرف أن العقول الأخرى، وبالتالي البشر الآخرون، موجودون؟ كيف نعرف أن الأناس الآخرين ليسوا مجرد ربوتات مصنعة بعناية بوظائف تجميل ممتازة؟ كيف نعرف أن خلف وجه الأشخاص يوجد أشخاص حقيقيون ذو أفكار ومشاعر ورغبات؟ لقد أخذت كاتي مشكلة العقول الأخرى بجدية حقيقية. إنها تعرف بيقين من نفسها أنها شخص لكونها واعية بأفكارها ومشاعرها ورغباتها، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما إذا كنت أنا، أو أي إنسان آخر، أشخاصًا حقيقيين. ولا يمكنها أن تخبر، على سبيل المثال، ما إذا كنت أنا شخصًا لأنها لا تستطيع أن تمتلك وعيًا بمشاعري وأفكاري ولا تستطيع الشعور بألمي (بل حتى بيل كلينتون لا يستطيع أن يشعر بألم شخص آخر)[5]. ولأن هذه المشاعر والرغبات كلها ضرورية لكون الشخص شخصًا، ولأنها لا تستطيع الوصول إلى الوعي الداخلي للآخرين فهي حقًا لا تستطيع معرفة ما إذا كنت أنا أو أي شخص آخر موجودًا. فأحتججت عليها، ولكنها تنهدت وهي تشعر بالملل وعدم اليقين من وجود شخصي وهمست بكلمات (لنفسها على ما يبدو) قائلة: "مهما

(5) اشتهر عن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ذكاءه العاطفي وقوله "أني أشعر بألمكم" (المترجم).

يكن من أمر!" وعادت إلى متابعة لعبة الفيديو. كيف تتعامل مع أحد لا يزال وضعه الشخصي معلق؟ هل توظف محققًا فلسفيا للبحث عن دليل على أن بعض الأشياء الشبيهة بالبشر هي بالفعل بشر؟ هل ستتجنب معانقة طفلك أو حبه في أثناء ذلك لنفورك من احتضان الآلات؟ أم أنك ببساطة ستثق في قناعتك الراسخة بأن طفلك هو بالفعل شخص ويستحق أن يعامل على هذا النحو على الرغم من عدم وجود أدلة؟

لنفترض أنك في درس الفيزياء، وأن أستاذك العنيد في واقعيته، المحب للحقائق، والمحتقر للإيمان، يصر على أنه لا ينبغي لأحد أن يعتقد في أي شيء دون اختباره أولاً (والتأكد من اجتيازه لتلك الاختبارات). فهو يصرخ قائلا: "يجب أن يقوم الاعتقاد على الدليل"، "وأي اعتقاد لا يستند إلى دليل يجب أن ينبذ". ثم يسخر من الطلاب بسبب معتقداتهم الدينية المتخلفة (والتي هي في الغالب مسيحية) والمعتقدات السياسية (والتي هي في الغالب تابعة للحزب الجمهوري) بسبب ضعف تأسيسها الدليلي. ويسخر من أولئك الذين يعتقدون في الإرادة الحرة وموضوعية الأخلاق. وعندما قامت إحدى الطلبات محتجةً صرخ قائلا: "أين الدليل؟ أين الدليل؟" ولكن لأنك شجاع (شجاعة تتاخم حدود التهور) قمت وسألته: لماذا كلفت الطلاب بقراءة الكتاب المدرسي في الفيزياء الذي من المفترض أن يأخذ الطلاب بما يقوله مؤلفوه عن طريق الشهادة وليس عن طريق التقييم الدقيق للادلة؟ فأجاب بأن هؤلاء الأشخاص بارعون، حاصلون على درجة الدكتوراة في مجالهم، وقد فحصوا الأدلة. فرددت معترضًا: "ولكن هذا يعني أنني يجب أن أقبل ما يقولونه بناءً على سلطتهم المعرفية (وليس بناء على التفحص الدقيق للأدلة)"، لاحظ أنه لا يمكن حتى لأستاذك المحترم أن يكون خبيرًا في كل شيء - فهناك العديد مِن النظريات، والكثير من الحقائق، والعديد من المجالات خارج مجال خبرته؛ وحتى في مجال خبرته يجب عليه أن يعتمد على ما لا حصر له من تقارير العلماء الآخرين (فلا يمكنه تكرار جميع تجاربهم)، بل يضطر أن يقبل ما يقوله الناس على أساس الشهادة والسلطة. مضيت في التساؤل عن الافتراضات غير المثبتة في العلم: مبادئ المنطق والرياضيات، والاعتقاد بأن المستقبل سيكون مثل

الماضي، والادعاء بأنه يمكننا استنتاج قوانين كلية من مجموعة محدودة من البيانات، والموثوقية الأساسية في الحواس، ثم سألت: "ألسنا نؤكد جميعًا بعقلانية على العديد من الأشياء المهمة حقًا التي لا تستند إلى أدلة أو ربما لا يمكن أن تستند إلى أدلة؟ فصرخ أستاذكِ الغاضب: "ليس لدينا وقت لكل هذه الحماقات الفلسفية"، ويضحك ساخرًا ثم يعود مغرورًا راضيًا عن نفسه إلى محاضرته عن الإنتروبيا.

مطلب الأدلة

إذا كنت تعتقد أنه من الغريب طلب أدلة على إخلاص زوجتك أو وجود شخصية طفلك أو على الشهادة التي يعتمد عليها في التدريس أو الاستفسار العلمي أو الافتراضات المسبقة التي بني عليها العلم = فقد استشعرت بالفعل تجاوزات المطلب "العلمي" الصارم للحصول على أدلة على بعض معتقداتنا المهمة جدًا. فهل ينبغي، أو حتى هل يمكننا، المطالبة بدليل داعم وكافٍ لمعظم معتقداتنا؟

قبل التوجه للجواب عن هذا السؤال، اسمحوا لي أن أتحدث بإيجاز شديد عن نوع الدليل الذي يدور في ذهني. سأحصر الدليل، بما يتناسب مع مناقشتنا حتى الآن، على ما يسميه الفلاسفة "الدليل القضوي". فالقضايا، وتعرف أيضًا باسم العبارات أو الجمل الخبرية، هي الحامل الرئيسي لقيمة الحقيقة (وبالتالي فهي إما صادقة أو كاذبة). وتتضمن القضايا، من بين جمل خبرية أخرى لا حصر لها، ما يلي:

الظربان كريهة الرائحة.

بكين مزدحمة.

4 = 2 + 2

سقطت روما بسبب التسمم بالرصاص.

طعم الزبدة المملحة أفضل من الزبدة غير المملحة.

الثلاث قضايا الأولى صحيحة والرابعة خاطئة، والأخيرة قابلة للجدل

والنقاش، ولكن أعتقد أنها صحيحة. وأما القضية:

يوجد عدد زوجي من شفرات العشب في حديقتي.

فهي قضية (بمعنى أنها إما صحيحة أو كاذبة) ولكن لا أحد منا قادر على تحديد ما إذا كانت صحيحة أو كاذبة. وأخيرًا، عندما نعتقد في شيء ما، فنحن نصدق أو نكذب قضية. فأنا أعتقد أن مايكل جوردان هو أفضل لاعب كرة سلة على الإطلاق، وأن رفع الحد الأدنى للأجور لن يؤدي إلى زيادة البطالة؛ وهذا يعني أني أصدق القضية التي تقول إن:

مايكل جوردان هو أفضل لاعب كرة سلة في كل العصور،

وأني أكذب القضية التي تقول إن:

رفع الحد الأدنى للأجور سيزيد من البطالة.

وبالطبع، كما هو الحال بالنسبة لمعظم المعتقدات، قد أكون مخطئًا.

وربما كنت تعتقد باستخدام فهمك العادي للأدلة أن بصمة الإصبع، أو الحفرية، أو يوم شتاء دافئ دليل على ذنب شخص، أو ديناصور جديد، أو ظاهرة الاحتباس الحراري. أو ربما كنت تعتقد أن رؤية الوجوه هي دليل على أفكار الشخص أو مشاعره أو رغباته (وبالتالي فهم أشخاص حقيقيون). أو ربما كنت تعتقد أن المنطق والرياضيات بدهية (وإنهما يحملان أدلتهما على أكتافهما، إذا جاز التعبير؛ فلا يحتاجان إلى أن يُثبتا لنا لنرى أنهما صحيحان). أوافق على أن الكثير من هذا يؤخذ أو يمكن أن يؤخذ دليلاً. ومع ذلك، فإن الفيلسوف عندما يطلب الأدلة فهو عادة ما يقصر الأدلة على القضايا، التي، كما رأينا، هي جمل خبرية، أي حوامل للصدق والكذب. وسأشرح لاحقًا في هذا الفصل، في القسم المعنون "مشكلة علاء الدين" سبب تفضيل بعض الفلاسفة للأدلة القضوية.

أولئك الذين يطالبون بربط العقلانية بالأدلة القضوية يقصرون العقلانية على المعتقدات التي بنيت على البرهان. والبرهان هو مجموعات من القضايا يُقدم بعضها (المقدمات) لدعم الآخر (النتيجة).

كل البشر غير خالدين.

سقراط بشر.

إذن، سقراط غير خالد.

يقدم هذا القياس المنطقي الكلاسيكي القضيتين الأولين كداعم دليلي للنتيجة. وفي هذه الحجة تنتج النتيجة من المقدمات (لاحظ أن جميع المعلومات الواردة في النتيجة موجودة بالفعل في المقدمات).

وفي الحجج الاستقرائية، يكون الدليل محدودًا وتكون النتيجة (من حيث المبدأ) غير محدودة. فعلى سبيل المثال، وهذه أيضا قضية كلاسيكية:

البجعة$_1$ المرصودة بيضاء.

البجعة$_2$ المرصودة بيضاء.

البجعة$_3$ المرصودة بيضاء....

البجعة$_ن$ المرصودة بيضاء (حيث ن عدد محدد).

وعليه، كل البجعات بيضاء.

في حالة الحجج الاستقرائية، يكون الاستدلال تكبيريا ampliative أساسًا - مما يعني أن النتيجة (ذات الطابع اللامحدود) تتجاوز إلى حد كبير الأدلة (المحدودة) الواردة في المقدمات.فأنا أستطيع أن ألاحظ فقط الكثير من البجع وليس البجع كله. ويمكن للجنس البشري بأكمله أن يراقبوا فقط الكثير من البجع وليس كله. ولذلك، فإن مقدماتنا عن البجع الأبيض مقيدة بمحدودية الإنسان. ومع ذلك، فقد توصلنا إلى استنتاج كلي يشمل كل البجع.

إن وجود عقول أخرى، ووجود الماضي، والاعتقاد بأن المستقبل سيكون مثل الماضي، من وجهة النظر هذه، يتطلب أن يكون مدعومًا بحجة (قضوية) صحيحة. وقد يعتقد المرء أننا بحاجة إلى حجج في مثل هذه الحالات لأننا لا نستطيع تجربة الماضي ولا مشاعر الآخرين ولا المستقبل. فنحن بحاجة إلى شيء، إلى حجة صحيحة، لتجاوز ما يمكن أن نختبره إلى تلك الأشياء التي لا يمكننا اختبارها (و التي على الرغم من ذلك نعتقد فيها).

قد نطلب أدلة على جميع معتقداتنا لأننا نعتقد أن هذه هي الطريقة التي يسير

عليها العلم الطبيعي، والعلم الطبيعي هو أكثر المشاريع عقلانيةً شرع فيها البشر. لقد حقق العلم، بما فيه من تدقيق وفحص وتوازنات، إجماعًا عقلانيًا بينما فشلت الفلسفة واللاهوت في ذلك فشلاً ذريعاً. وإذا أخذنا العلم كنموذجنا للعقلانية، فسيتبع ذلك أننا سنعتقد فيما هو مبني على الدليل وحسب. ووفقًا لوجهة النظر هذه، يتم استنتاج النظريات العلمية من عبارات الملاحظة (القضايا)، وليس، من الناحية الفنية، الملاحظات نفسها. فمن خلال التحليل الدقيق للقضايا المتعلقة، على سبيل المثال، بالأشياء الساقطة، استنتج نيوتن قانون الجاذبية الكلي. ومن خلال جداول البيانات التي سجلت الملاحظات المتعلقة بالعلاقة المتبادلة بين الحرارة والغازات والضغط = أكد بويل النظرية الحركية للغازات. والشيء نفسه ينطبق، أو هكذا يُزعم، على القوانين والنظريات الطبيعية من قانون بويل Boyleإلى$E = mc^2$. وإذا أردنا الانتقال بعقلانية من الملاحظات حول الحاويات المعدنية المملوءة بالغاز المتمدد عند تسخينها إلى الاعتقاد بوجود ذرات غير قابلة للرصد = فمن الأفضل أن يكون لدينا حجة جيدة (مبنية على أدلة قضوية راسخة). وإذا أردنا تجاوز عالمنا المرصود الثلاثي البعد لنأكد بعقلانية للزمكان المنحني رباعي الأبعاد لأينشتاين = فمن الأفضل أن يكون لدينا حجة جيدة تستند إلى أدلة قضوية راسخة.

وبتوسيع هذا المطلب الدليلي فإن الاعتقاد العقلاني في العقول الأخرى والماضي والمستقبل في حاجة إلى حجة جيدة لكي نتجاوز ما يمكننا خبرته إلى ما لا يمكننا خبرته. يدعي ريتشارد دوكينز أن الاعتقاد العقلاني بوجود الله يجب أن يستند إلى أدلة قضوية لأن وجود الله، كما يزعم، فرضية علمية. وعليه يكون وجود الله عقلانيًا فقط إذا تم دعمه جيدًا بالأدلة القضوية الصحيحة، مثله مثل قانون الجاذبية والنظرية الحركية للغازات. يقول دوكينز: "إن وجود أو عدم وجود ذكاء خارق خلِاق هو بلا شك سؤال علمي". وإذا كان الاعتقاد بالله سؤالًا علميًا، فلا ينبغي قبول هذا الاعتقاد دون دعم قضوي كافٍ[6].

---

(6) عبء الإثبات إذن يقع على عاتق المؤمن، ولكن "لا يوجد دليل لصالح فرضية الله".
Richard Dawkins, The God Delusion [Boston: Houghton Mi‘in 2006], 58-59
ومن ثم يخلص دوكنز إلى أن الموقف العقلاني هو أن تتحول اللاأدرية إلى الإلحاد. =

هل الاعتقاد في العقول الأخرى، والله، والماضي تشبه حقًا الفرضيات العلمية (وهي بالتالي بحاجة إلى أن تدعم بأدلة راسخة حتى تكتسب عقلانيتها)؟ لكي نتمكن من الإجابة على هذا السؤال نحتاج أولًا إلى فهم أفضل لماهية الفرضية العلمية.

تكتسب الفرضية العلمية عقلانيتها من خلال قدرتها على التفسير، وفي معظم الحالات من خلال قدرتها على التنبؤ. فتُدعم الأفكار العلمية مثل: $E = mc^2$ ونظرية الجراثيم للمرض من خلال قدرتها الكاشفة المدهشة على الشرح والتنبؤ (غالبًا بطرق دقيقة رياضياً). وكذلك يشرح قانون الجاذبية الكونية مدارات الكواكب والمد والجزر، ويضع تنبؤات دقيقة لظهور المذنبات والكسوف.

ومع ذلك، فإن معظم معتقداتنا لم تكتسب عقلانيتها من طريق التفسير والتنبؤ. أعتقد أنني موجود، وأنني أكتب الآن، وأن هناك عالمًا خارجيًا وماضيًا، وأن هناك أشخاصًا آخرين في الغرفة. أقوم بتكوين هذه المعتقدات على الفور، دون نظر أو استدلال بمجرد ما يتم تحفيز قدراتي الإدراكية بطرق مختلفة. ولا أعتقد في مثل هذه الأشياء لأنها أفضل تفسير لهذا النوع أو ذاك من الخبرات الذاتية. وإذا كنت سألتقي بك، فسأعتقد على الفور أنك شخص، ليس لأن افتراض أنك شخص هو أفضل تفسير لبيانات خبرتي الذاتية، ولكن من خلال وظيفة نظرية العقل (ToM) التي تهيئ البشر لتشكيل المعتقدات حول الحالات العقلية للآخرين.

وتتصف هذه المعتقدات غير العلمية بالعقلانية عندما تكون الملكات الإدراكية للإنسان القائمة بوظيفتها قياماً صحيحًا = في علاقة صحيحة مع سبب الاعتقاد. فاعتقادي الحسي بوجود شجرة أمامي مثلًا هو اعتقاد عقلاني إذا تم إنتاجه عند تحفيز ملكاتي الإدراكية الحسية بواسطة الشجرة المذكورة. والتذكر الودود لأمي أمر عقلاني بسبب ذاكرتي التي تعمل على نحو صحيح (وبسبب نظرية العقل أيضًا) وكوني في علاقة سببية صحيحة بالأحداث (الأحداث التي شملت والدتي) والتي

= ويؤكد دوكينز أن الاعتقاد العقلاني بالله يتطلب دعم الأدلة، وفي حالة الافتقار إلى مثل هذه الأدلة فإن الاعتقاد بالله يكون غير عقلاني.

أدت إلى نشوء الذاكرة المتعلقة بها. فأنا لا أمتلك المعتقدات الحسية أو معتقدات الذاكرة لأنها أفضل تفسير لخبراتي الذاتية. ومعظم معتقداتنا تكون عقلانية بهذه الطريقة - أي عندما تكون الملكات الإدراكية التي تقوم بوظيفتها على نحو صحيح في علاقة صحيحة مع الاعتقاد.

ولذلك ربما لا يتطلب الاعتقاد العقلاني (دائمًا) دعمًا من الأدلة أو الحجج.

مناهضة المطلب الدليلي

اشتهر عن عالم الرياضيات والفيزياء البارع ويليام كليفورد William K. Clifford في القرن التاسع عشر الإدعاء بأنه: "من الخطأ دائمًا وفي كل مكان أن يعتقد أي شخص في أي شيء بناءً على أدلة غير كافية"[7]. وقد بيَّن في مقاله "أخلاقيات المعتقد" أثر موقفه على المعتقد الديني؛ حيث ذهب إلى أن المعتقد الديني لا يفي بالمتطلب المتعلق بالأدلة. دعونا نفحص ادعائه بأن كل شيء يعتقد فيه يجب أن يكون فقط من خلال الاستناد إلى الأدلة الكافية (مع الأخذ في الاعتبار أنه، بحسب ادعائه، من الخطأ الاعتقاد بالله في ظل غياب الأدلة). في عام 1870، في رحلة استكشافية لرصد كسوف في إيطاليا، نجا كليفورد من حطام سفينة قبالة ساحل صقلية. فلا عجب إذن أن يأتي نقد كليفورد للاعتقاد بوجود الله من خلال استخدام مثالًا لمالك سفينة يرسل عن قصد سفينة غير صالحة للإبحار، يقول كليفورد:

كان يعلم أن سفينته قديمة، وأنه لم يكن قد تم الانتهاء من بنائها على نحو جيد من الأساس؛ وأنها قد خاضت العديد من الأسفار في البحار وواجهت ظروفا مناخية متعددة، وكثيرا ما كانت تحتاج إلى ترميم وإصلاحات. كان صاحب السفينة على علمَ بكل ذلك وكانت تساوره الشكوك في أن سفينته ليست صالحة للإبحار. وكانت تلك الشكوك تملأ فكره وتعكر عليه مزاجه. كان يحدث نفسه أنه ربما عليه

---

(7) William K. Clifford, "The Ethics of Belief," Contemporary Review (1877); reprinted in William K. Clifford, Lectures and Essays, ed. Leslie Stephen and Frederick Pollock (London: Macmillan and Co., 1886).

أن يجري عليها فحصًا شاملًا، ويغير الأجزاء التالفة فيها ولو كان ذلك سيكلفه ثمنًا باهظًا. لكن على الرغم من ذلك نجح صاحب السفينة في التغلب على هذه الأفكار المزعجة قبل أن تبحر السفينة. قال لنفسه: لقد أبحرت السفينة بأمان خلال أسفار مضت ونجت من عواصف عدة؛ فمن المستبعد أنها لن تتمكن من العودة بأمان هذه المرة أيضاً. لقد وضع ثقته في العناية الإلهية التي من المستبعد أن تخذل هذه العائلات البائسة في حمايتها، وهم المساكين الذين تركوا أوطانهم سعيًا للبحث عن حياة كريمة في مكان آخر؛ وأزاح عن خاطره كل الشكوك السلبية حول أمانة بناة السفينة والمقاولين. وبهذه الطريقة اكتسب قناعة مريحة وصادقة أن سفينته كانت آمنة تماما وصالحة للإبحار. ودع صاحب السفينة سفينته وهي تغادر بقلب مطمئن، وتمنى لأولئك المهاجرين التوفيق والنجاح في موطنهم الجديد. ولما غرقت السفينة في عرض المحيط لم يفلت الرجل من العقوبة وحسب، بل أخذ أموال التأمين على السفينة وكأن شيئا لم يكن!(8).

النقطة الحاسمة لكلفورد لا تتعلق بالاعتقاد ذاته، ولكن بكيفية اكتسابه. إن مالك السفينة لم يكتسب اعتقاده بصلاحية سفينته للإبحار من خلال الاهتمام الدقيق بالأدلة (بل الأدلة كانت تشير إلى عكس ذلك)، ولكن من خلال قمعه لشكوكه وللأدلة المضادة. وكان صدق اعتقاده غير ذي صلة بصحة أو خطأ الاعتقاد في نفس الأمر؛ لأن افتقاره إلى الأدلة يحرمه من حق الاعتقاد بصلاحية السفينة للإبحار. وكان عليه أن يكتسب الاعتقاد عن طريق التحقيق المتأني، وليس بالانصياع الأناني لشغفه. إن قمعه المتعمد لكل من الأدلة وشكوكه جعله مسؤولاً مسؤولية تامة عن وفاة ركابه. ومن هذا المثل يستخلص كليفورد درسًا عامًا: "من الخطأ دائمًا وفي كل مكان أن يعتقد أي شخص بأي شيء بناءً على أدلة غير كافية"(9).

توضح أمثلة كليفورد بقوة أنه في بعض الحالات، مثل صلاحية السفن للإبحار، تتطلب المعتقدات أدلة من أجل أن تكتسب عقلانيتها. ولن يعارض أحد

---

(8) Clifford, "The Ethics of Belief," 339.

(9) 8. Clifford, "The Ethics of Belief," 346 (my emphasis).

أو لا ينبغي أن يعارض أحد على أن بعض المعتقدات تتطلب أدلة لتكون عقلانية. فلا يدافع أحد عن نفي الحاجة للدعم الدليلي عن جميع المعتقدات. ولكن هل تحتاج كل المعتقدات في كل الظروف إلى الدليل؟ هذا ادعاء قوي للغاية، وقد اتضح أنه ادعاء لا يستند إلى أدلة.

والسبب الأول لافتراض أنه لا يمكن بناء جميع معتقداتنا على الأدلة هو حجة الارتداد. لنفترض أن ثمة اعتقاد لك هو ق (حيث ق قضية تؤكد أنت صدقها). فإذا كانت (ق) عقلانية، وفقًا للمطلب الشامل أو الكلي للأدلة (القضوية)، فيجب أن تستند إلى بعض الأدلة (القضوية) (وليكن ب). ولكن إذا كانت (ب) عقلانية، فيجب أيضًا أن تستند إلى بعض الأدلة (لنقل ج). وإذا كانت (ج) عقلانية، فيجب أن تستند إلى (د) و (د) إلى (ز) و (ز) إلى (ع) وهكذا. فإذا كان يجب أن يستند كل اعتقاد إلى دليل، فإن امتلاك معتقد واحد فقط يتطلب من المرء أن يكون لديه عدد لا نهائي من المعتقدات. ولكن لا أحد منا، في هذا العصر المزدحم (أو في أي عصر، مزدحم أم غير مزدحم)، لديه المساحة الذهنية أو الطاقة أو الوقت ليعتقد في عدد لا حصر له من المعتقدات. ولذلك، إذا كانت لدينا القدرة على الاعتقاد في أي شيء بعقلانية، فيجب أن توجد بعض المعتقدات التي يمكننا أخذها كدليل و تكون في نفس الوقت غير معتمدة على الأدلة. وبعبارة أخرى، يجب أن نكون قادرين على أن نبدأ ببعض المعتقدات. فلا يمكن أن يكون هناك طلب كلي شامل للأدلة إذ يتوجب قبول بعض المعتقدات دون دعم الدليل لتجنب حدوث التسلسل اللانهائي في الاستدلال.

وتتنوع تسمية المعتقدات التي نبدأ بها فهي "مباشرة" (فلا تتوسطها معتقدات أخرى)، أو "غير استدلالية" (فلا يستدل عليها من معتقدات أخرى)، أو "أساسية" (فلا تستند إلى معتقدات أخرى). وتشمل تلك المعتقدات الأساسية النموذجية ما يلي: "أرى شجرة"، "أسمع تغريدة طائر"، "أتذكر تناول فنجان قهوة جيدًا في وقت مبكر من هذا الصباح" و "يبدو جون غاضبًا". عندما نُستحث ومع المدخلات الصحيحة = نجد أنفسنا ببساطة مع هذه المعتقدات (فلا نصل إليها عن طريق التفكير). وتشكل هذه المعتقدات القاعدة أو الأساس الدليلي لمعرفتنا،

حيث تستند معتقداتنا الأخرى على معتقداتنا الأساسية (وتستنج منها، وبواسطتها).

السبب الثاني لرفض المطلب الكلي للدليل هو عدم وجود دليل يدعم هذا المطلب. لنتأمل فيما قد يسمح لنا كليفورد بأخذه كدليل: المعتقدات التي نكتسبها من خلال التجربة الحسية - تلك المكتسبة من خلال البصر أو السمع أو اللمس أو التذوق أو الشم - والمعتقدات البديهية مثل: المنطق والرياضيات. هذان النوعان من المعتقدات غالبًا ما يعتقد البعض أنهما المعتقدات الأساسية المسموح بها في العلوم الطبيعية[10]. والعلم الطبيعي، كما يُزعم، متأصل بالتجارب الحسية ثم يتم تشييده من خلال الرياضيات والمنطق في صورة قوانين طبيعية. فهل يمكن لمثل هذا المفهوم الكليفوردي للأدلة أن يدعم المطلب الكلي للدليل؟

اكتب قائمة بكل معتقداتك التجريبية أو الحسية، مثل ما يلي:

السماء زرقاء.

العشب أخضر.

معظم الأشجار أطول من الجراد النطاط.

العسل حلو.

تلك الرائحة مثل الوردة.

الرخويات تترك أثراً لزجاً.

أضف الآن إلى هذه قائمة بجميع معتقداتك المنطقية والرياضية. فيما يلي بعض الاعتقادات المرشحة

$4 = 2 + 2$

كل قضية إما صادقة أو كاذبة.

(10) قد تبدو هذه المجموعة من الأدلة مقيدة على نحو مفرط. قد تعتقد أنه يمكن دعم تصورات المرء من خلال تصورات زملائه من البشر (لذلك يجب أن تتضمن الأدلة ما يخبرنا الآخرون أنهم يدركونه). ومع ذلك، فإن مفهوم التنوير للعقلانية الذي أمثله هنا كان ملتزمًا باليقين المطلق. يمكنني أن أكون متأكدًا تمامًا فقط مما أختبره شخصيًا أو ما أفهمه فهمًا عقلانيًا. وبما أن ما يقوله لنا الآخرون هو خطأ أحيانًا، فلا يمكنني التأكد من شهادة الآخرين.

في الهندسة الإقليدية يكون مجموع الزوايا الداخلية للمثلث يساوي 180 درجة.

خذ كل هذه القضايا معًا وحاول أن تستنتج منها النتيجة بأنه من الخطأ دائمًا وفي كل مكان أن يعتقد أي شخص في أي شيء بناءً على أدلة غير كافية. ستلاحظ أنه لا يوجد أي من القضايا المسموح بأخذها كدليل لها أي علاقة على الإطلاق بهذه النتيجة. ولا يمكن استنتاج المطلب الكلي للدليل من هذه المجموعة من القضايا أكثر مما يمكن استنتاج القضية: "يجب أن تكون كل خطوة ثالثة تتخذها مصحوبة بصرخة عالية"؛ فالأدلة عديمة الصلة بكلا القضيتين. إن المطلب الدليلي الشامل لكلفورد لا يمكن أن يلبي معاييره الذاتية. ولذلك، وفقًا لمعيار كليفورد الخاص، يجب أن يكون مطلبه غير عقلاني.

يوجد درسان سريعان من هذا المران. أولاً: إذا كان ثمة مطلب كلي للدليل (القضوي)، فسيتم استبعاد جميع معتقداتنا باعتبارها غير مبررة أو غير عقلانية (حجة الارتداد اللانهائي). وثانيًا: حتى لو سمحنا بأدلة مثل المنطق والخبرة الحسية، فإن معظم معتقداتنا، تلك التي تتجاوز خبرتنا المباشرة، سيتم استبعادها باعتبارها غير عقلانية. إن المطلب الكلي للدليل مطلب قاس للغاية[11][12].

الاعتقاد يبدأ بالثقة

لا نستطيع، بوصفنا كائنات محدودة، تلبية المطلب الكلي للدليل. ضع في اعتبارك جميع المعتقدات التي لديك حاليًا، كم معتقد قد استوفى هذا المطلب

---

(11) توجد دفاعات قوية للدليلية. انظر تحديدا:
Earl Conee and Richard Feldman, “Evidentialism,” Philosophical Studies 48 (1985): 15-34.

وللحصول على مناقشة جيدة للأدلة، انظر المقالات في
Trent Dougherty, ed., Evidentialism and Its Discontents (Oxford: Oxford University Press, 2011).

(12) للإطلاع على كتابات باللغة العربية عن الدليلية، انظر: مدخل إلى الدليلية: نظرية في التبرير الابستمولوجي، من منشورات مركز نماء. (المترجم)

الصارم للدليل؟ لقد أراد كليفورد منا جميعًا اختبار جميع معتقداتنا مثل العلماء في المختبر، ونبذ أي معتقدات تفشل في اختبار الأدلة باعتبارها غير عقلانية. فهل من الممكن أن تنجو العديد من معتقداتك في مثل هذه الاختبارات؟ ضع في اعتبارك عدد معتقداتك التي تفي فعليًا بمعايير كليفورد الدليلية.

فكر في عدد معتقداتك، بما في ذلك المعتقدات العلمية، التي اكتسبتها لمجرد أن شخصًا ما أخبرك. أنا لم أقم بزيارة باراغواي، وليس لدي سوى دليل الشهادة على أن باراغواي بلد في أمريكا الجنوبية. ولكن ربما تآمر صانعو الخرائط ليخدعونا بوجود باراغواي. وحيث إنني زرت بلدانًا قليلة نسبيًا حول العالم، يجب أن أؤمن بوجود معظم البلدان (وأن هناك أشخاصًا آخرين يسكنونها ويتحدثون بلغة ذلك البلد) دون دعم كاف من الأدلة. وحتى إذا كنت في بلد أجنبي به الكثير من الأشخاص الذين يتحدثون الإسبانية ونظرت حولي لأرى الشارة ("مرحبًا بكم في باراغواي") = لا يزال علي أن أثق في أن كل من حولي لا يخدعني.

أعتقد أن $E = mc^2$ وأن هذه المادة تتكون من جسيمات صغيرة جدًا (أو موجات أو جزيئات موجية)، وليس ذلك بسبب التجارب في معمل الكيمياء أوالفيزياء (لقد فشلت جميع تجاربي على أي حال)، ولكن لأن أساتذتي في العلوم الطبيعية وكتب الدراسة النظامية العلمية ذكرت ذلك. من المؤكد أنه لأمر عقلاني، في كثير من الحالات، تصديق ما يقوله لنا الآخرون.

العديد من المعتقدات التي اكتسبتها - بما في ذلك معظم معتقداتي العلمية - تستند إلى ثقتي في أساتذتي وكتبي المدرسية والسلطات المعرفية الأخرى ذات الصلة، لا على دراسة متأنية لما يعتبره كليفورد دليلاً كافياً.

ولا يمكن تلبية هذا المطلب للدليل من خلال المعدات الإدراكية التي لدينا في عدد كبير من الحالات.

خذ مشكلة العقول الأخرى المذكورة في قصة (ماذا لو) في بداية هذا الفصل. ليس لدي وصول أستطيع به أن أخبُر الحياة الداخلية لشخص آخر: لأفكاره أو مشاعره أو رغباته. لديّ وصول مباشر فقط إلى الوجوه والأجساد، لا إلى ما يدور

داخل "عقل" الشخص. ولذلك، لا أستطيع بناء معتقدي في وجود الأشخاص الآخرين على نوع الدليل الوحيد الذي له صلة بتأسيس الشخصية. ولأن الأفكار والمشاعر والرغبات ضرورية لكون المرء شخصًا حقيقيا = فإن العجز عن الوصول إلى أفكار ومشاعر شخص آخر يعني أنني أعجز عن الوصول إلى الدليل الوحيد الذي يمكنه أن يثبت الشخصية. أعلم أنني شخص لأن لدي القدرة على الوصول إلى أفكاري ومشاعري ورغباتي. ولكن لا يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي أعرف بها أن أي شخص آخر هو شخص بالفعل (حيث لا يمكنني الوصول إلى أفكار الأشخاص ومشاعرهم ورغباتهم). ولا يمكنني الاستدلال من خبرتي الخاصة، على أي أسس علمية أو منطقية، على خبرات أي شخص آخر. ولا توجد حجة جيدة لإثبات وجود أشخاص آخرين. ومع ذلك، فإن الإيمان بأشخاص آخرين أمر عقلاني تمامًا (وإنكار وجود أشخاص آخرين - أو الظن بهم أنهم مجرد روبوتات - يبدو ضربًا من الجنون).

وبالإضافة إلى وجود الأشخاص الآخرين، لم يتمكن أي شخص من إثبات وجود عالم خارجي - عالم خارج عقل المرء أو مستقل عن تجارب الفرد. يعتقد معظمنا اعتقادًا راسخًا أن هناك عالمًا مستقلًا عن عقولنا، عالم يتسبب في إحساسنا بالأشجار والجبال والنجوم، على سبيل المثال. ونعتقد أننا لسنا محاصرين في عالم من تخيلاتنا. ولكن إذا كان دليلي الوحيد هو خبرتي الذاتية، فكيف يمكنني إثبات وجود شيء خارج خبرتي الخاصة؟

أضف إلى ذلك أنه لم يتمكن أحد من إثبات أننا لم نخلق قبل خمس دقائق بمجموعة كاملة من الذكريات، أو أن الماضي حدث بالفعل أو أن المستقبل سيشبه الماضي (بالمعنى العلمي). ليس لدي أي خبرات في الماضي أو المستقبل - جميع خبراتي هي الآن (في الوقت الحاضر). أرى شيئًا الآن، وبمجرد أن أغلق عيني أتوقف عن تلقي تلك الخبرة البصرية، وأحولها على الفور إلى ذاكرة حالية (عن الماضي). وبالنظر إلى حاضر جميع خبراتي، فإن الخبرة هي دليل ضعيف على الماضي والمستقبل غير الحاليين.

وإذا لم تكن لدي القدرة على اكتساب معتقدات عقلانية حول الماضي

والمستقبل فلن أتمكن من اكتساب أي معرفة علمية؛ لأن النظريات العلمية أو القوانين الطبيعية تدور حول معرفة كيفية حدوث الأشياء في جميع الأماكن في جميع الأوقات - الماضي والحاضر والمستقبل. ويضاف إلى ذلك أن العلم الحديث يفترض أشياء غير قابلة للإثبات، مثل: وجود العالم الخارجي، والأشخاص الآخرين، والماضي، وأن المستقبل سيكون مثل الماضي. وبدون عالم خارجي وحكمة جماعية للباحثين الآخرين، وبدون مبدأ الاستقراء (أن المستقبل سيكون مثل الماضي) = سيكون العلم مستحيلاً.

ومن الممكن أن تطول القائمة وتطول. فهناك حدود للأشياء التي يمكن للبشر أن يبنوها على الدليل. والكثير مما نعتقده، بما في ذلك العلوم الطبيعية = مبني على الثقة وليس على الأدلة أو الحجج.

وبينما أستخدم هنا مصطلح "الثقة"، فأنا لا أستخدمه كمقابل للمعرفة. فمن المؤكد أننا نعرف (وإن كان من طريق الثقة حيث لا نستطيع البرهنة) أنه يوجد أشخاص آخرون، وأن عمر الأرض أكثر من خمس دقائق، وأن الشمس ستشرق غدًا، وأن بولس تحول إلى المسيحية، وأن الديناصورات جابت الأرض في وقت من الأوقات. نحن نعرف الكثير من الأشياء التي لا يمكننا البرهنة عليها؛ نعرفها بدون دليل. ونعرفها من خلال ملكاتنا الإدراكية التي تنتج (بصورة غير استدلالية) مثل هذه المعتقدات. فنحن نعتمد على ذاكرتنا لإنتاج معتقدات الذاكرة (أتذكر تناولَ القهوة هذا الصباح). ونعتمد على ملكة استقرائية لإنتاج معتقدات حول صحة القوانين الطبيعية (إذا تركت هذا الكتاب فستتسبب الجاذبية في سقوطه على الأرض). ونعتمد على ملكاتنا الإدراكية عندما نعتقد أن هناك أشخاصًا آخرين، وماضٍ، وعالم مستقل عن أذهاننا، وعندما نصدق ما يقوله لنا الآخرون. ولا يسعنا إلا أن نثق في ميولنا الإدراكية. والمعتقدات الناتجة على هذا النحو معتقدات عقلانية.

فشل ديكارت

في القرن الثامن عشر دافع الفيلسوف الاسكتلندي توماس ريد Thomas Reid، الذي حظيت أفكاره مؤخرًا باهتمام متزايد، عن مجموعة واسعة من المعتقدات التي تنتجها عقولنا طبيعيًا. لقد طور مفهومًا قويًا جدًا للمعرفة الإنسانية يؤكد اعتمادنا على الملكات الإدراكية وترفض المطلب الكلي للدليل الذي أتى به مفكرو عصر التنوير. وقد تميز ريد بخلافة آدم سميث Adam Smith، مؤسس رأسمالية السوق الحرة، كأستاذ للفلسفة الأخلاقية في جامعة جلاسكو. وكانت خلافة ريد زمنية، ومن المفارقات أنها كانت أيضًا مالية (حيث كان ريد أكثر شهرة من سلفه مما أدى إلى قيامه بتدريس عدد أكبر من الطلاب في ظل نظام يتقاضى فيه الأساتذة رواتبهم على كل تلميذ!). الدفاع الآتي عن العقل ليس دفاع ريد بالضبط؛ بل يحمل روح ريد. ويصادق هذا الدفاع (الريدياني) على عقلانية معظم اعتقادات معظم الناس العاديين، وعلى عكس الكثير من الفلاسفة، فإن لديه قدرًا كبيرًا من المعقولية.

يلقي ريد باللوم على رينيه ديكارت (1596–1650) بخصوص المطلب الكلي للدليل، ذلك المطلب الذي يعتقد ريد أنه يؤدي إلى الشكوكية. فقد بدأ ديكارت، كما يعلم كل طالب مبتدئ في الفلسفة، بالتشكيك في كل ما يمكن أن يكون موضع شك. وكان يرغب بشدة في اليقين، وسعى إليه من خلال القضاء على عدم اليقين (كل ما يمكن أن يشك فيه). وتضمنت طريقة الشك الديكارتي رفض أي شيء يمكن أن يكون موضع شك على أنه كاذب حتى يتمكن من اكتشاف شيء لا توجد فيه شكوك محتملة - الأساس المؤكد واليقيني الذي يبني عليه المعرفة. فعلى سبيل المثال، عندما فكر ديكارت في المعتقدات التي اكتسبها على أساس حواسه (الرؤية والسمع وما إلى ذلك)، أدرك أن حواسه خدعته أحيانًا. ولذلك، كان هناك سبب للشكِ في حواسه. وعلى هذا النحو، لم تستطع حواسه أن تزوده بمصدر اليقين الذي يرغب فيه.

وانطلق ديكارت من الشك في حواسه إلى الشك في العالم الخارجي، ومن هناك إلى الشك حتى في المبادئ الرياضية (مثل: 1+1=2). وتضمنت حجته شيطانًا

شريرًا محتملًا من الممكن أن يخدعنا حتى بشأن الحساب (يمكنه جعل مثل هذه العبارات تبدو يقينية طوال الوقت بينما تكون خاطئة في نفس الأمر). والشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون ديكارت متيقنًا منه تمامًا هو وجوده (وليس حتى أن لديه جسدًا - لأن معرفة امتلاكه للجسد تتطلب استخدام حواسه [المخادعة]). لقد حاول ديكارت، من خلال وجوده، بناء معرفة عن نفسه والعالم والماضي والحاضر والمستقبل. وكانت أداته الوحيدة هي المنطق، والذي سأسميه الاستدلال. نحن نستدل مستخدمين المنطق لإثبات اعتقاد ما من اعتقادات أخرى نعتقد بها بالفعل؛ ولكن ديكارت، كما يجادل ريد، قد ترك لنفسه القليل من الاعتقادات الثمنية التي يمكنه أن يستدل منها.

وإذا كان ديكارت يقصر نفسه على نحو صارم على ما يلزم منطقيًا من وجوده، فكل ما يستطيع أن يستدل عليه هو وجوده! وهو بذلك قد فشل في سعيه إلى الاستدلال على العالم الخارجي من خلال نفسه ومن تجاربه الذاتية الداخلية.

والاستدلال المنطقي بمفرده عاجز عن إنتاج المعتقدات؛ فيجب أن يكون لدى المرء بعض المعتقدات لكي يستدل منها إلى شيء آخر. والأشياء التي سمح ديكارت لنفسه بأن يستدل منها لا توفر بيانات كافية للاستدلال على وجود العالم الخارجي. وقد تكرر فشل ديكارت مرارًا وتكرارًا من قبل فلاسفة ما بعد عصر التنوير.

إن المفاهيم الدليلية للاعتقاد العقلاني قاصرة؛ ذلك لأن مدخلاتنا الخبراتية (التي هي آنية، ومحدودة، وعابرة) غير كافية لدعم مخرجاتنا المعرفية/والاعتقادية: عن العالم (والذي يشمل الماضي والحاضر والمستقبل والدائم وما إلى ذلك). بعبارة أخرى، لدينا الحد الأدنى من المدخلات الخبراتية في مقابل كم هائل من المخرجات المعلوماتية. وتوفر خبراتنا الخاصة معلومات محدودة لدرجة أنها غير قادرة على دعم معرفتنا بالعالم. وحتى لو استخدمنا المنطق والرياضيات لترتيب خبراتنا والاستنباط منها، فإن العالم المقدم إلى خبراتنا المحدودة التي سيتم ترتيبها بهذه الطريقة سوف يتضاءل مقارنة بالعالم العميق والواسع الذي نعتقد به.

فكر في العالم، إنه يعود إلى الماضي السحيق وسيستمر في المستقبل إلى

أجل غير معلوم؛ أبعاده الفيزيائية واسعة وصغيرة بدرجة لا يمكن تصورها؛ ويضم أشخاصًا، وقد عاش بعضهم منذ زمن بعيد، والبعض الآخر يعيش في الحاضر، والبعض الآخر سيعيش في المستقبل؛ إنه يشمل شخصي أنا، شخص حي واع بذاته والذي استمر خلال الزمن ويتذكر الفوز بالمركز الأول في سباق تتابع في المدرسة الثانوية (بفضل ثلاثة زملاء كانوا هم أسرع بكثير). فكر الآن في خبراتك الحسية، هل بإمكان هذه الخبرات، عند استكمالها بقواعد المنطق والرياضيات، أن تنتج العالم (أو لنكون أكثر دقة، أن تنتج اعتقادات مبررة عن العالم)؟ حتى لو أضفنا خبرات الآخرين إلى مستودع المعلومات لدينا، فسنظل غير قادرين على اشتقاق العالم بخبرتنا المشتركة ومنطقنا.

إذا كان المطلب الكلي للعقل (بناء كل شيء على أدلة كافية) يؤدي إلى عالم مجرد، قاحل وصغير - "عالم" يشملني أنا وخبراتي فقط - فعلينا إذن أن نتخلى عن الفهم التنويري للعقل. إن الاعتماد على دليل كافٍ من خبرة محدودة للغاية يؤدي بنا إلى الضلال. لقد حان الوقت لإيجاد طريق جديد. ربما أمكن لفلاسفة التنوير إثبات القليل الثمين من المعتقدات، وما يجب رفضه، كما يقول ريد، ليس معتقداتنا العادية، بل المطلب الكلي للبرهان. فلا يمكنك إثبات كل شيء، ولست بحاجة إلى إثبات كل شيء.

الميول الإدراكية

لحسن الحظ، كما لاحظنا في الفصل السابق، أننا أتينا مجهزين بملكات إدراكية ذاتية البناء أو ميول فطرية أو قابلية لإنتاج معتقدات جوهرية عن العالم حيث يفشل المنطق والتجربة. لدينا العديد من النزوعات الإدراكية الإضافية - وليس فقط مَلكة الاستدلال - التي تنتج اعتقادات حول العالم. وتقوم هذه الملكات بملء مستودع الاعتقادات لدينا بما لا يمكن ملؤه من خلال المنطق والخبرة. وبدون هذه المعدات الإدراكية الإضافية ذاتية البناء، سيكون لدينا عدد قليلٍ من المعتقدات العقلانية المهمة والثمينة - فلا عالم خارجي، ولا ماض، ولا علم طبيعي، وما إلى ذلك. وفي هذا القسم، سأنسج على منوال ريد، موسعًا من رؤيته من خلال

الأعمال الحديثة في علوم الإدراك ومبينًا الملكات الإدراكية ذات الصلة بشروح معاصرة.

لدينا ملكات إدراكية للحس والذاكرة. يؤكد ريد - على عكس ديكارت الذي لم يثق بحواسه الخمس - أن معتقداتنا الحسية عقلانية في الجملة حتى لو كانت تنتج معتقدات خاطئة في بعض الأحيان. وكما أنه من المنطقي بالنسبة لي الآن أن أعتقد أن ريبكا ترتدي سترة سوداء (بينما أنا أنظر إليها وأثناء ارتدائها سترة سوداء)، كذلك سيكون من المنطقي بالنسبة لي أن أعتقد في وقت لاحق في اليوم نفسه أنها كانت ترتدي سترة سوداء بناءًا على ذاكرتي. ولأن ملكات توليد الاعتقاد الخاصة بالإدراك والذاكرة تمثل جزءًا من البنية البشرية بقدر ما يمثله الاستدلال المنطقي، فلا يوجد سبب لإعلاء الاستدلال المنطقي على الحس والذاكرة.

وثمة ملكة إدراكية أخرى نتمتع بها تنتج الاعتقاد بدوام نفوسنا. المفهوم الفلسفي للنفس معقد وصعب. وبينما قد تعتقد أنك نفس الشخص الذي كنت في الصف الثالث في فصل الأستاذة شوارتز، فإن إثبات أنك نفس الشخص منذ ذلك الحين وحتى الآن قد ثبت أنه مستحيل. ومن حسن حظنا أن لدينا ملكة إدراكية تنتج الاعتقاد بالنفس المستمرة عبر الزمن، وتوحدنا مع خبراتنا. وعلى الرغم من أن لدينا ميلًا قويًا للاعتقاد بأن لدينا نفسًا مستمرةً، فإن أحدًا لم يقدم دليلًا على ذلك. فأحاسيسي، والتي هي متمايزة، بحاجة إلى نفس مستديمة توحد هذه الأحاسيس فيما يتكون منه أنا (نفسي). ولكننا لا نستطيع أن نستدل منطقيًا على وجود نفس مستديمة من خبراتنا الحسية المنفصلة. ولذلك، إذا كان يجب أن يستند الاعتقاد بالنفس إلى حجة تستخدم خبرة الفرد وحسب كدليل (التذكر، والذكريات لا تُحسب هنا)، فإن الاعتقاد بالنفس حماقة.

تخيل محاكمة في قضية قتل يَدعي فيها المدعى عليه، دعنا نسميه "OJ"، أنه لم يرتكب جريمة القتل لأنه لم يكن لديه نفس مستمرة عبر الزمن. لقد وُجدت أحاسيس غضب وأحاسيس للقيام بالطعن (وأحاسيس لتلقي الطعن)؛ وحاليًا ثمة أحاسيس لكونه في المحاكمة (تبدو قاعة المحكمة ساخنة، والمكتب ناعم وما إلى ذلك). ولكن OJ يزعم في دفاعه أنه لا توجد نظرية فلسفية تثبت أن أحاسيس

القتل متحدة مع أحاسيسه المحاكمة من خلال نفس OJ التي استمرت عبر الزمن (من لحظة القتل إلى المحاكمة)؛ ويخلص OJ إلى أنه لم يرتكب الجريمة (لأنه لا يوجد "هو"). قد يطلق سراح OJ بسبب الجنون لا بسبب الاستدلال المنطقي الجيد. فحتى لو لم نتمكن من إثبات وجود النفس الدائمة، فهذا لا يعني أنه ليس لدينا نفس أو أن الاعتقاد بالنفس الذي يستمر عبر الزمن غير عقلاني.

تنتج ملكاتنا الإدراكية أيضًا الاعتقاد بالماضي، وهو ما يفترض في كل معتقد تاريخي. فعلى سبيل المثال: تأمل الاعتقادات القائلة بأن قيصر عبر نهر روبيكون، وأن الصينيين اخترعوا البارود. وبما أنني لا أستطيع خبرة الماضي خبرة مباشرة، فإن معتقداتي بشأن قيصر ومخترع البارود لا تستند إلى أي إحساس لقيصر أو مخترع صيني قديم. تخيل طالبة تاريخ عند إجرائها امتحان آخر السنة تقتصر إجابتها في عبارة واحدة، تقول فيها: "بسبب أنه لا يمكن لأي شخص أن يكون لديه أي اتصال خبراتي مع الماضي، فليس من العقلانية الاعتقاد في أي أحداث سابقة بل ليس من العقلانية الاعتقاد في الماضي بإطلاق". وبينما تقدم عذرًا إبداعيًا، فإن فشلها في استخدام ملكاتها الإدراكية غير الحسية سيتسبب في رسوبها في مادتها.

ويرتبط الاعتقاد العام بوجود الماضي بذاكرتنا، والتي تنتج المعتقدات على نحو مباشر وفوري من خلال ملكاتنا الإدراكية (في حالة توفر الحوافز والظروف الصحيحة). إذا سُئلت مثلًا "ماذا تناولت على الإفطار هذا الصباح؟" سيؤدي هذا السؤال إلى إثارة ذاكرة، والتي من شأنها أن تنتج تلقائيًا اعتقاد ذاكرة - "تناولت دقيق الشوفان". ليس لدي أي إحساس حالي بدقيق الشوفان - لا أراه أو أسمعه أو أتذوقه أو أشمه. ولا أستنتج منطقيًا من أي من أحاسيسي الحالية الاعتقاد بأنني تناولتِ دقيق الشوفان على الإفطار؛ وبدلاً من ذلك، أقوم فورًا بتكوين الاعتقاد عند تحفيز السؤال وحسب. نحن نثق في ذاكرتنا باعتبارها موثوقة (إلى حد ما) على الرغم من أننا نعلم أنها تفشل في بعض الأحيان.

وحتى في مجال العلم الطبيعي، مجال الصرامة الخبراتية والتجريبية المهيب، فإن اطراد الحوادث الطبيعية (أن المستقبل سيكون مثل الماضي) يتم افتراضه بكل

بساطة. يصدر العلم الطبيعي تعميمات كلية بناءً على مجموعة متناهية من التجارب المحدودة للغاية. فلا يمكننا اختبار معظم الكون، وفوق ذلك، يتجاوز المستقبل قبضتنا التجريبية الضئيلة. فكيف يمكننا إصدار أحكام عقلانية حول أشياء لا يمكننا رؤيتها أو فهمها بالكامل؟ قانون الجاذبية الكونية على سبيل المثال ينص على أن كل كائن في الكون ينجذب إلى كل كائن آخر في الكون في تناسب طردي مع كتلتيهما وتناسب عكسي مع المسافة بينهما. ومن المفترض أن ينطبق هذا على كل شيئين، في كل مكان في الكون، في الماضي والحاضر والمستقبل. ولكننا يمكننا أن نرى سلوك الجزء الأصغر من الأشياء في الكون وحسب، بإمكاننا مراكمة خبرات محدودة فوق خبرات محدودة ليلًا ونهارًا، ولكننا لن نتمكن أبدًا من التعميم على كل كائن في كل مكان دون افتراض اطراد الحوادث في الطبيعة. وستكون ممارسة العلم مستحيلة دون قدرتنا الإدراكية الطبيعية على التعميم من مجموعة محدودة من البيانات إلى كل شيء، في الماضي والحاضر والمستقبل.

لدينا إذن ميل أو ملكة تؤدي - في الظروف المناسبة - للاعتقاد أن هناك عالمًا خارجيًا، وأن لدينا نفسًا دائمة، وأن هناك أشخاصًا آخرين، وأن ذكرياتنا موثوقة، وأن المستقبل سيكون مثل الماضي، وأن الطبيعة مطردة. وتكمن أهمية الملكات الإدراكية التي تنتج هذه المعتقدات في أنها - باستثناء ملكة الاستدلال المنطقي - تنتج آثارها على الفور، دون حاجة إلى دعم برهاني من معتقدات أخرى. تنتج معظم ملكاتنا الإدراكية فينا اعتقادات بطريقة فورية وغير استدلالية. ونحن لا نسعى عادةً إلى تبرير هذه الأنواع من المعتقدات بالاستدلال المنطقي لها. بل نعتقد بها بكل بساطة. ونحن في ذلك عقلانيون تمامًا كما سأجادل.

وليس لدينا خيار آخر: ملكاتنا الإدراكية هي كل ما لدينا لاكتساب المعتقدات وفهم العالم. هذه هي كل الأدوات التي نملكها.

ليست كل معتقداتنا مباشرة. فبعض المعتقدات تكتسب وتُدعم من خلال الاستدلال عليها من معتقدات أخرى نعتقد بها. وفي بعض الأحيان، تُكتسب النظريات العلمية - مثل: الاعتقاد بوجود إلكترونات أو أن $E = mc^2$ - عن طريق إجراء تجارب معينة في المختبر أو فحص أدلة الملاحظة. وقد يكتسب العالم، عند

التفكير في الصيغ الرياضية المتعلقة بمدارات الكواكب، الاعتقاد بالقانون العام للجاذبية. كما يمكننا تخيل العديد من المعتقدات اليومية المكتسبة من خلال الاستدلال المنطقي. ويمكن لإنسان بعد سماع الشهادة في المحاكمة أن يستنتج أن المدعى عليه مذنب. وبالمثل، بعد تقييم الأدلة الغذائية، قد يعتقد المرء أن التخلي عن لحم الخنزير المقدد سيقلل من عدد الكوليسترول. هذه أمثلة على المعتقدات الناتجة عن ملكة الاستدلال المنطقي.

ومع ذلك، فإن أي عالم صادق سيعترف بالاعتماد على المبادئ الاستدلالية، وهي مبادئ لا يملك العلماء إلا أن يثقوا فيها، مثل: الاستقراء. وبالنظر إلى العدد المحدود جدًا من خبراتنا البشرية (الموضوعة في القضايا)، فإن احتمال وجود أي عبارة كلية (بما في ذلك كل قانون طبيعي أو نظرية) سيكون صفراً. وبدون الثقة في مبدأ الاستقراء، سيكون العلم مستحيلًا، وسنتراجع للوراء.

وتظل الغالبية العظمى من المعتقدات التي نتمسك بها لا يتوصل إليها من خلال الاستدلال، ولكن يتم إنتاجها مباشرة إنتاجًا غير استدلالي من خلال نزوعاتنا الإدراكية المختلفة.

إذا رأينا أو سمعنا شيئًا ما، أو إذا تم توجيه انتباهنا إلى شيء ما، فإننا نشكل اعتقادًا مباشرًا. وإذا تحدث إلينا شخص ما، نرد عليه كشخص (دون تجشم الاستدلال لاستنتاج أنه شخص). ويفترض تفكيرنا شرعية المنطق غير المبرهنة، ويفترض تفكيرنا العلمي الاطراد غير المبرهن للطبيعة. وإذا صدقنا أنفسنا، فإن نسبة كبيرة مما نعتقد يتوصل إليه بمجرد أن يخبرنا شخص ما، سواء كان شخصًا آخر، أو مدرسًا، أو صحيفة، أو مجلة.

يجب أن نتعجب، كما أعتقد، من آلياتنا الإدراكية المذهلة. فلولاها لكنا وحيدين، نفوسًا انفرادية، توجد الآن وفقط. بهذه الملكات نصل إلى الأشخاص الآخرين، والماضي والمستقبل والنفس والعالم الخارجي والمبادئ التي يقوم عليها العلم الطبيعي. وإن أضفت إلى ذلك: قدرتنا المذهلة على الاستدلال والتفكير بطريقة افتراضية معاكسة للواقع، والتفكير الرياضي والإبداعي = ستحصل على العلم الطبيعي الحديث بأكمله. نحن محدودون للغاية - بمعنى أننا نعتمد بشدة على

معداتنا الإدراكية الفطرية لمعرفة الكثير عن أي شيء على الإطلاق. ولكن من خلال تلك المعدات نحصل المعارف عن الذرات والمجرات البعيدة والديناصورات والنياندرتال. ويبدو أن المهابة هي الاستجابة الصحيحة لقدراتنا على فهم العالم.

تصديق ما يقوله الآخرون لنا

الملكة الإدراكية التي تحكم قبولنا لما يقوله لنا الآخرون، والتي تسمى أحيانًا مبدأ الشهادة principle of testimony، هي مصدر عميق وواسع للمعتقدات البشرية: من الاعتقاد برد إنسان غير معروف لديك على استفسارك عن الوقت، إلى قبول ما أخبرك به معلموك في الفصل أو ما تقرأه في كتاب. فالاعتماد على الآخرين في معتقداتنا عميق وواسع الانتشار. وحتى في العلم الطبيعي - حيث يتم البحث عن الأدلة والبراهين - تستند معظم المعتقدات العلمية إلى ما قاله الآخرون. وقد ذكرت سابقًا أنه لا يجوز للمرء أن يؤكد صدق القانون العام للجاذبية إلا بعد تقييم الأدلة بعناية. ولكن معظمنا من غير الفيزيائيين بالكاد يستطيع فهم القانون الكلي للجاذبية، ناهيك عن موازنة وتقييم الأدلة لصالحه. وحتى لو أجريت التجربة، فربما تعطي بياناتي دليلًا على أن $E = mc^3$ أو $E = mc^{2.24876629}$ (وذلك بالتأكيد خلاف $E = mc^2$). ولكني أعتقد أن $E = mc^2$ لأن الأشخاص الأذكياء قد جمعوا الأدلة وقبلت بكل بساطة ما قالوه لي.

قد يكون من غير المناسب للفيزيائي قبول بعض الفرضيات العلمية - ولنقل إذا كان بعضها في مجال تخصصه - دون النظر بعناية في الأدلة. فيجب على الفيزيائي الانتباه بعناية إلى الأدلة والأدلة المضادة وعدم الموافقة على بعض الفرضيات العلمية دون دعم من الأدلة. فلن نأخذ على محمل الجد عالمة ألزمت نفسها بفرضية علمية لأنها حدثت لها بدافع نزوة أو فقط لأنها "بدت صحيحة". ولكن حتى أفضل العلماء وأكثرهم تحريًا يجب أن يقبلوا قدرًا كبيرًا مما يقوله العلماء الآخرون. فيجب على الفيزيائي، حيث إنه غير القادر على إثبات كل نظرية، أن يقبل بعض النتائج التجريبية للنظريات والملاحظات بناء على سلطة أقرانه المعرفية. وبصفتي غير فيزيائي، أعتقد أن هناك إلكترونات، وأن الشمس تتكون في

الغالب من الهيدروجين، وأن الثقوب السوداء موجودة وذلك فقط لأن العلماء أخبروني بذلك.

وأعتقد أيضًا بوجود بلد اسمه أوزبكستان ويبلغ عدد سكانه حوالي 28 مليون نسمة، وأن أفضل قهوة هي جامايكا بلو ماونتن (ومن جامايكا)، وأن المحيط الأكبر هو المحيط الهادئ، وذلك لأن آخرين أخبروني. وإذا كنت سأحاول تأكيد هذه الأمور، فسيتعين علي الاعتماد على ما قاله لي الآخرون (رسامو الخرائط، المختصون بحصر التعداد السكاني، المؤرخون، المستوردون، مندوبو المبيعات، أدلة المتاحف، وما إلى ذلك).

يزعم ريد (زعمًا خاطئًا) أن الرغبة في تصديق ما يقوله لنا الآخرون غير محدودة عند الأطفال؛ لأن الأطفال يقبلون دون سؤال أي شيء يقوله لهم أي شخص. ولكن عندما يكبرون وينضجون، يبدأ الأطفال في التشكيك في شهادات الآخرين. ويبدأون في طرح أسئلة حول ما يقوله الآخرون لهم، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن ما قيل لهم يتعارض أحيانًا مع أشياء أخرى قيلت لهم. فيبدؤون في إدراك حقيقة أن المعتقدات الناتجة عن الشهادة ليست معصومة من الخطأ. وعندما تتعارض مثل هذه المعتقدات، يجب على المرء أن يدعو ملكة من ملكات إدراكه لحل الصراع.

تأمل في المثال التالي: لنفترض أن ويل أخبرك أنه رأى جابي يمشي على طول النهر ويده في يد أليسيا ليلة الثلاثاء الماضي. ثم عندما رأيت جابي وسألته عن أليسيا نفي أنه كان مع أليسيا يوم الثلاثاء. والآن لديك معتقدان يتنافسان قبولك: "كان جابي مع أليسيا" و"جابي لم يكن مع أليسيا"، ما الذي يجب أن تصدقه؟ يمكنك أن تتوقف عن الاعتقاد، أو أن تسأل شخصًا آخر، أو يمكنك التحقق من مقاطع الفيديو الأمنية المنشورة على طول النهر. ولنفترض أنك تحققت من تلك الكاميرات ولاحظت أن جابي لم يكن مع أليسيا. وبينما كنت في بادئ الأمر عقلانيًا في تصديق ما أخبرك به ويل، لأنه من الجيد عمومًا تصديق ما يقوله لنا الآخرون، فإن إنكار جابي سبب تضاربًا في الشهادة. أنت على وشك حل الصراع من خلال التوسع في إشراك ملكاتك الإدراكية (ملكة الشهادة أو ملكة

البصر). ولنفترض أن كاميرات الفيديو أوهنت أو قوضت شهادة ويل، ففي تلك الحالة تقوض كاميرات الفيديو عقلانية اعتقادك العقلاني مبدئيًا بأن جابي كان يسير مع أليسيا. لقد كان اعتقادك الأصلي عقلانيًا في البداية، ولكن تم التشكيك في عقلانيته من خلال شهادة جابي ثم هُزم بعد ذلك بفحص مقاطع الفيديو.

وعلى الرغم من أن الناس يكذبون علينا أحيانًا وأحيانًا يقدمون لنا تقارير مختلفة تمامًا عما رأوه، فإن معظم الناس يقولون الحقيقة في معظم الأوقات. وببساطة لا يمكننا العيش بدون الاعتماد على شهادة الآخرين. ونظرًا إلى وجود الكثير مما يجب معرفته، فنحن على حق في تصديق ما يقوله لنا الآخرون. فبينما أعرف مثلًا بعض مجالات الفلسفة، إلا أنني أعتمد على الآخرين ليخبروني عن برغسون، وهان فيزي، وفاسيستا. وبصفتي فيلسوفًا، يجب أن أعتمد على أصدقائي من علماء الأحياء والنصوص لشرح الأليلات[13] وعلم التخلق والانحراف الجيني (وبالمثل أعتمد على علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس والجيولوجيين والاقتصاديين لتقديم معلومات أخرى). وقد قرأت الصحف التي أخبرني المراسلون من خلالها بما حدث في جاكرتا وأوكلاهوما وأوساكا (واعتقدت بما ذكروه). واتصلت بأخي النجار، جون، لأطلب النصيحة بشأن النجارة وبعض الأجهزة الإلكترونية والسيارات (وأخذت بنصيحته دون أن أتحقق منها). والخلاصة: الشهادة ضرورية وجديرة بالثقة في معظمها.

وباختصار، تنتج معظم ملكاتنا الإدراكية المعتقدات بصورة مباشرة، دون اللجوء إلى الحجج. وفي بعض الأحيان تكون معتقداتنا التي يتم إنتاجها على هذا النحو متعارضة، وعلينا أن نفكر فيما يجب علينا قبوله أو رفضه من المعتقدات المتضاربة. هل يمكننا تطوير هذه الأفكار إلى نظرية في العقلانية؟

---

(13) شكل بديل للجين ينشأ عن طريق الطفرة ويوجد في نفس المكان على الكروموسوم. (المترجم)

ماذا يعني إذن بالنسبة لمخلوقات محدودة مثلنا وتعتمد على ميولها الإدراكية أن تكون عقلانية؟ يمثل الاعتراف بملكاتنا الإدراكية العديدة التي تنتج المعتقدات بصورة مباشرة دون دعم من دليل أو حجة نقطة انطلاق جذرية في اتجاه ترك مفهوم العقلانية التنويري الديكارتي المطالب بالدليل أو الحجة لكل معتقد. فاستراتيجية ديكارت، "شك أولاً واعتقاد ثانيًا"، لا يمكن الدفاع عنها كونها ملائمة لكائنات مثلنا. فلا يمكننا - مع وضع ملكاتنا الإدراكية في الاعتبار - التعامل مع جميع معتقداتنا أو حتى معظمها على أنها مريبة أو، بعبارة قانونية، مذنبة حتى تثبت براءتها. وإذا شككنا أو فقدنا الثقة في معتقداتنا أو ميولنا الإدراكية فسينتهي بنا الأمر إلى القليل جدًا من المعتقدات. ووفقًا لمبادئ ديكارت والتنوير، يجب أن نكون جميعًا متشككين - غير مؤمنين بوجود أشخاص آخرين، ولا بالعالم الخارجي والماضي والمستقبل. ولجميع أولئك الذين يرغبون في تجنب الشكوكية، تابعوا القراءة.

إن الفهم (الريدياني)[14] للعقلانية الذي سأقوم بتطويره أكثر ملائمة بالنسبة لمخلوقات نهائية ومحدودة وغير مستقلة وغير معصومة. لسنا آلهة، فلا يوجد لدينا وصول معصوم من الخطأ وغير قابل للشك للعالم، ولا نمتلك قدرات ومبادئ تفكير واستدلال معصومة. ومع ذلك، فإن أجهزتنا الإدراكية تعمل جيدًا إلى حد ما على مساعدتنا على فهم الواقع. فعلينا الاعتماد على ما تم بناءه فينا. وليس بإمكاننا فعل أي شيء آخر.

فبدلاً من افتراض أن معتقداتنا مذنبة حتى تثبت براءتها ربما، كما يجادل ريد، ينبغي أن يبدأ الاعتقاد بالثقة. وبوجه عام، يمكننا أن نثق في ميولنا الإدراكية، وعلينا أن نثق في الاعتقاد الذي قدمته لنا ملكاتنا الإدراكية ما لم يكن لدينا أسباب

(14) نسبة إلى الفليسوف ريد (المترجم)

جوهرية للتشكيك في هذا الاعتقاد. وهنا يلتقي مبدأ ويليام ليكان[15] William Lycan للسذاجة مع فكرة ريد: "اقبل في البداية كلًا من تلك الأشياء التي تبدو صحيحة"[16].

وفقًا لريد، فإن نهجنا المبدئي والعقلاني في الاعتقاد هو نهج الثقة، وليس نهج الشك أو الارتياب. ولذلك، المعتقدات بريئة حتى تثبت إدانتها وليس العكس. وبموجب افتراض تلك البراءة، يجب قبول الاعتقاد كعقلاني ما لم أو حتى يظهر ما يدعو للشك في عقلانيته.

يؤكد الفيلسوف المعاصر نيكولاس ولترستورف[17] Nicholas Wolterstorff على حدس ريد ويطورها إلى معيار للعقلانية/

العقلانية الريديانية Reidian Rationality

يكون الشخص مبررًا تبريرًا عقلانيًا في الاعتقاد بقضية أنتجتها ملكاته الإدراكية في الظروف المناسبة ما لم يكن لديه سبب كافٍ لترك الاعتقاد.

وبناءً على هذا المفهوم للعقلانية، تكون المعتقدات التي تنتجها ملكاتنا الإدراكية عقلانية ما لم أو حتى يكون لدى الإنسان سبب وجيه لترك الاعتقاد فيها. وهذا يعني أنه يمكننا الوثوق بالمعتقدات التي تنتجها ملكاتنا الإدراكية حتى يتم تقويض هذا الاعتقاد أو هزيمته بواسطة معتقدات أقوى أو مدعومة دعمًا أفضل. إذن معتقداتنا بريئة حتى تثبت إدانتها، وليست مذنبة حتى تثبت براءتها[18].

---

(15) فليسوف أمريكي معاصر وأساتذ فخري بجامعة نورث كارولينا. (المترجم)

(16) In William G. Lycan, Judgement and Justification (Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

(17) فليسوف ولاهوتي أمريكي ولد عام 1932. ساهم في تأسيس جمعية الفلاسفة المسيحيين ومجلة الإيمان والفلسفة وألف العديد من الكتب في مجال فلسفة الجمال والأبستمولوجيا وفلسفة السياسة والفلسفة الدين وفلسفة التعليم. درس في عدة جامعات منها هارفارد وأكسفورد ومشيجان.

(18) وجهة نظر العقلانية الأكثر تعارضًا مع نسخة ريد التي دافعت عنها هي الدليلية القوية، =

أعتقد أن العقلانية الريديانية جيدة بقدر ما تعطيه للبشر المحدودين. وكما كتبت سابقًا: ليس لدينا خيار آخر؛ فملكاتنا الإدراكية هي كل ما علينا العمل به لفهم العالم. هذه هي الأدوات الوحيدة التي نحصل عليها.

تولد حالة الاعتقاد البشري ما سأطلق عليه "مشكلة علاء الدين". في فيلم ديزني "علاء الدين" عام 1992حك علاء الدين مصباحًا صغيرًا، وفي لفحة من دخان ونار، خرج الجني. وبعد أن أهان الجني المضجر علاء الدين عدة مرات، عزا علاء الدين خبرته إلى خدعة في الدماغ، وقال: "لابد أنني ضربت رأسي بقوة أكبر مما كنت أعتقد". قد نتوقع من هذه المصابيح المتواضعة زيتًا أو ماءًا أو ربما رمالًا في صحراء أغرابه لكن ليس الجن. افرك مصباحًا نحاسيًا صغيرًا وربما ينسكب الزيت ولكن لن ينسكب أبدًا أي شخص (ناهيك عن شخص يمكنه تلبية كل رغباتك؛ حسنًا، ثلاث رغبات فقط). وعندما عبر علاء الدين عن شكوكه، لاحظ الجني التناقض: "قوى كونية هائلة... مساحة معيشية صغيرة ". مخرجات ضخمة، ومدخلات متواضعة.

مشكلة علاء الدين الإدراكية هو الاسم الذي أطلقه على ما يسمى "فقر التحفيز" : مدخلات خبراتية صغيرة، ومخرج اعتقادي ضخم. وباختصار، تقرر مشكلة علاء الدين أن مدخلاتنا الخبراتية (التي تتصف بكونها منحصرة في اللحظة الحالية ومحدودة وعابرة) غير كافية بدرجة مؤسفة لتولد بمفردها مخرجاتنا

= التي تؤكد على أن الاعتقاد أن ق عقلاني إذا كانت القضية ق مدعومة بالأدلة، ويفهم الدليل هنا إما على أنه معتقدات يعتقد بها المرء أو حجج قضوية يفهمها. وفقًا للدليلية القوية، إذن، يكون الاعتقاد بالله عقلانيًا إذا، وفقط إذا، كان مدعومًا بالأدلة، ومرة أخرى عادةً ما يُفهم الدليل ههنا بذاك الذي قد يكسب المرء الاعتقاد بالله من خلال التفكير في حجة قضوية سليمة لوجود الله (مثل حجة الحدوث أو حجة التصميم). إن العقلانية أو اللاعقلانية في الاعتقاد بالله، وفقًا للدليلية القوية، تستند بالكامل إلى الحجج التأليهية والحجج المضادة لها (على سبيل المثال، مشكلة الشر أو إخفاء الله). وعلى الرغم من رفضي للدليلية القوية للأسباب المذكورة أعلاه، إلا أنني سأوضح كيف أن علم الدين الإدراكي (CSR) وثيق الصلة بالدليلية القوية مع تقدمنا في العمل.

الاعتقادية/ المعرفية: العالم (الماضي، الحاضر، المستقبل، الدائم، الأشخاص الآخرون، إلخ). فلدي قدر ضئيل من المدخلات الخبراتية - طعم هذا وذاك، وهذه الروائح، وأفتقر إلى عدد لا يحصى من الروائح الأخرى (بعضها جيد، وبعضها سيء) - ولدي الكثير فقط من خبراتي التي أشعر فيها (بالخشونة، على سبيل المثال، والبرد) ولا يمكنني رؤية سوى الكثير فقط من البجع والتفاح الساقط. ويتكون لدي من خلال مدخلاتي الخبراتية المحدودة للغاية مخرجات إعلامية هائلة: فأنا اعتقد بعالم يمتد إلى ما هو أبعد من خبرتي الخاصة، عالم يمتد إلى الماضي البعيد ويمتد وفقًا للقانون الطبيعي إلى المستقبل غير المحدد. وأعتقد، دون أن أكون قادرًا على خبرة الاعتقاد ذاته، أن الإمبراطور تشين قتل الكثير من الأبرياء في 225 قبل الميلاد، وأن مذنب هالي سيصبح على مرمى البصر من الأرض في عام 2061م.

وحتى لو أضفت خبراتك وخبرات كل شخص آخر إلى كومة الأدلة الخاصة بي، ثم استخدمت المنطق والرياضيات لترتيب هذه الكومة من الخبرات = فإن هذه الكومة المحدودة جدًا من الأدلة القضوية تتضاءل مقارنة بالعالم الغني والواسع الذي أعتقد به. وحتى لو وضعنا كل الخبرات البشرية في مجموعة من الأدلة القضوية، فستكون هذه المعلومات الناقصة غير قادرة منطقيًا على توليد معرفتنا بالعالم. فالعالم يمتد إلى الماضي البعيد ويمضي إلى المستقبل غير المرئي؛ وأبعاده الفيزيائية واسعة بدرجة لا يمكن تصورها وأيضًا صغير مجهريًا، ويضم أشخاصًا، عاش بعضهم منذ زمن بعيد وفي أماكن بعيدة. إن مجموعتنا الضئيلة من البيانات الخبراتية، حتى عند استكمالها بقواعد المنطق والرياضيات، غير قادرة على توليد معتقدات حول العالم يكشف عنها العلم والخبرة المشتركة. ومع ذلك فإننا نعتقد بعقلانية، حيث يجب أن تفشل التجربة والمنطق بمفردهما، في وجود عالم مستقل عن خبرتنا المحدودة، عالم عمره مليارات ومليارات السنين، عالم يحتوي على ذرات وتحكمه الجاذبية والإنتروبيا، عالم سيستمر فترة طويلة بعد موتي إلى وقت الموت الحراري للكون.

المدخلات الإدراكية قليلة، والمخرجات الاعتقادية ضخمة.

يسمح لنا الحل الريدياني لمشكلة علاء الدين الإدراكية بالثقة في ارتقاء معداتنا الإدراكية إلى مستوى مهمة التفكير الحقيقي في العالم الذي يتجاوز خبرتي الإنسانية المحدودة. علينا ببساطة أن نتنازل ونقبل بأننا مجهزون بملكات إدراكية تساهم مساهمة كبيرة في معتقداتنا حول العالم[19]. ومن ثم يجب علينا استخدام هذه الميول بأفضل ما نستطيع حتى نفهم العالم.

الموقف العقلي The Rational Stance

افتتحنا هذا الفصل مشيرين إلى أن العقلانية تهدف إلى الحقيقة. وبينما قد نهدف إلى الحقيقة فإن العقل لا يصيب هذا الهدف دائمًا. لا شك أنه كان من المنطقي بالنسبة لمعظم الناس في عام 200 قبل الميلاد الاعتقاد بأن الأرض كانت مسطحة وأن الأرض كانت في مركز الكون (كلاهما معقول بالنسبة لبعض الناس اليوم في بعض الأجزاء غير المتطورة من العالم)؛ فنحن لا نرى انحناء الأرض، ولا نشعر بأن الأرض تدور بسرعة ألف ميل في الساعة تقريبًا، ولا نشعر كما لو أننا نندفع عبر الفضاء في مدار حول الشمس بسرعة 67000 ميل في الساعة. ومن الممكن لملكاتنا الإدراكية – وقد فعلت - أن تنتج معتقدات يعتقد الإنسان بها اعتقادًا عقلانيًا ولكنها باطلة، مثل: معتقدات حول مكان الأرض في الكون، وشكل الأرض، وعدم حركة كوكبنا. لقد ضللتنا تصوراتنا واستمرت في تضليلنا بشأن طبيعة الواقع المادي. وما تخلينا عن الاعتقاد بمركزية الأرض – وهي وجهة نظر ذات عمق وتاريخ طويل وموافقة للحس المشترك - إلا مع تصاعد الأدلة ضد هذا الاعتقاد لصالح مركزية الشمس. فإذا أردنا الحصول على الحقيقة، إذن، يجب أن نَكون منفتحين على الأدلة المعارضة لمعتقداتنا العقلانية مبدئيًا.

الدليل، في آخر الأمر، هو موصل أو مشير إلى الحقيقة (التي يعد العلم

---

(19) John Greco, Putting Skeptics in Their Place: The Nature of Skeptical Arguments and Their Role in Philosophical Inquiry (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

الحديث شاهدًا عليها). والأدلة مفيدة في تأسيس الحقيقة في العديد من مجالات البحث والتحقيق، مثل: التاريخ وقضايا المحاكم والطهي. يعتقد معظم الصينيين (والكثير منا)، بناءً على الشهادات، أن كونفوشيوس قد كتب كتاب تعاليم كونفوشيوس حوالي عام 400 قبل الميلاد. ومع ذلك، تُظهر الأدلة التاريخية أن كونفوشيوس لم يكتب التعاليم (على الرغم من أن العمل ذاته يزعم أنه ينقل أقوال المعلم)، وأن النص المستلم من التعاليم عبارة عن تجميع يرجع تاريخه إلى ما يقرب من 150 قبل الميلاد، وأن العديد من مقاطعه هي إضافات متأخرة (متأخرة كثيرًا عن زمن كونفوشيوس). وتبطل الإدانة الأولية لقاضٍ بخصوص جريمة لمتهم (حيث يفكر القاضي في نفسه في بادئ الأمر ويتساءل: "لماذا تم القبض عليه"، "إذا كان غير مذنب؟ شيش، من المؤكد أنه يبدو مجرمًا") أمام حقيقة براءته من خلال عرض دقيق للأدلة من قبل محاميه. وقد يتعلم الطاهي الجيد كيفية طهي سوفليه الجبن اللذيذ من خلال تجربة الكثير من الوصفات الجديدة أو تعلم كيمياء الجبن. وإذا كنا ملتزمين بالحقيقة فعلينا أن نبحث عن أدلة داعمة، على الأقل في بعض الحالات.

ولذلك نحن بحاجة إلى تعديل فهمنا للعقلانية. إذا أردنا اكتشاف الحقيقة فعلينا أن نكون حساسين لتراكم الأدلة والأدلة المضادة. وفي الواقع يعد الحصول على الأدلة أحد أفضل الإرشادات إلى الحقيقة. ومع ذلك، ولكل الأسباب المذكورة أعلاه، فإن مجرد الحصول على أدلة كافية قد لا يساعدنا على اكتشاف الحقيقة.

لدينا ميل مؤسف، يسمى التحيز التأكيدي، لتفضيل الأدلة التي تدعم معتقداتنا العزيزة وتجاهل الأدلة التي تعارضها. فلسنا نزيهين في تقييمنا للأدلة والأدلة المضادة، ولا نتوصل إلى المعتقدات بعد التحليل الموضوعي الدقيق. بل نحن انتقائيون للغاية للأدلة ومتجاهلون للأدلة المضادة، ومرة أخرى، بطرق تحافظ على مفاهيمنا المسبقة. فالتحيز التأكيدي، بالنسبة للباحثين عن الحقيقة، مقلق للغاية بقدر انتشاره. وكما كتب ريموند نيكرسون Raymond Nickerson:

إذا حاول المرء تحديد جانب إشكالي واحد من التفكير البشري يستحق

الاهتمام قبل كل شيء آخر، فيجب أن يكون التحيز التأكيدي من بين المرشحين للنظر في أمره. لقد كتب كثيرون عن هذا التحيز، ويبدو أنه قوي ومنتشر بما فيه الكفاية لدرجة أن المرء يدفع إلى التساؤل عما إذا كان التحيز في حد ذاته قد يفسر جزءًا كبيرًا من الخلافات والمشاجرات وسوء الفهم التي تحدث بين الأفراد والجماعات والأمم[20].

يُدعم التحيز التأكيدي دعمًا جيدًا من الناحية التجريبية، ومن الممكن التعرف عليه بسهولة في التقييمات المختلفة لمناظرة المرشحين الرئاسيين على سبيل المثال. ففي حين أن الجمهوري والديمقراطي قد يشاهدان نفس النقاش على نفس القناة وفي نفس الغرفة، فغالبًا ما يصلان إلى تقييمات مختلفة تمامًا عن "الفائز"، وهي تقييمات تتماشى تمامًا مع التزاماتهما السياسية المسبقة. فيسلط الجمهوري الضوء على هذه النقطة الجيدة ويتجاهل تلك النقطة السيئة، في حين يأخذ الديموقراطي مجموعة مختلفة تمامًا من النقاط لتكون حاسمة (متجاهلًا تمامًا، ناهيك عن أن يعترف، بأي من النقاط الجيدة التي تقع في صالح صديقه الجمهورية). وجد فالديس كريبس Valdis Krebs أنه خلال الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 2008، اشترى أولئك الذين لم يعجبهم باراك أوباما كتبًا تصوره تصويرًا سيئًا، واشترى أولئك الذين أحبوا أوباما كتبًا كان تصورة تصويرًا جيدًا.

ويشير التحيز التأكيدي إلى أننا نبحث بنشاط عن أدلة تدعم معتقداتنا ونتجنب على نحو سلبي الأدلة التي تتعارض معها. ولكن في حين أننا قد نشعر بالرضا - فبعد كل شيء، قد أمضينا الوقت في البحث عن أدلة ووجدنا أدلة تدعم قناعاتنا الأصلية - فإن مجموعة الأدلة أحادية الجانب التي لا تتضمن أي دليل مضاد نادرًا ما تكون المواد الخام للحقيقة.

يَضاف إلى ذلك، أن الأدلة ضد معتقد ما، في بعض الحالات، قد تكون أكثر توصيلًا للحقيقة من الأدلة التي لصالح الاعتقاد. افترض أنك محلف سمع من

(20) Raymond Nickerson, "Confirmation Bias¤ A Ubiquitous Phenomenon in Many Guises," Review of General Psychology 2 (1998): 175.

المدعي العام أن المدعى عليه، كما هو الحال في قضية جنائية، لديه الدافع والوسائل والفرصة. وعلى مدار عدة أيام جمع المدعي العام الأدلة التي تدعم كل عنصر من هذه العناصر. الرغبة في الإدانة غامرة تقريبًا. ثم افترض أن محامي الدفاع قدم أدلة دامغة على أن المدعى عليه كان في ريموس بولاية ميشيغان وقت ارتكاب الجريمة (التي ارتكبت في رومولوس بولاية ميتشجان، على بعد 170 ميلاً). في هذه الحالة، هناك حالة واحدة من دليل معارض يغرق مجموعة ساحقة من الأدلة الداعمة. وإذا كنا باحثين عن الحقيقة، فنحن بحاجة إلى أن نكون منفتحين على الأدلة الجديدة وعلى استعداد لمراجعة معتقداتنا كنتيجة لتلك الأدلة الجديدة.

ولا يسعنا إلا الوثوق أو الاعتماد على ملكاتنا الإدراكية والمعتقدات التي تنتجها (بصورة مباشرة في الغالب). هذا هو المكان الذي نبدأ لكل استقصاء بشري، ولذا فهو المكان الذي يجب أن نبدأ منه فهمنا للعقلانية. يبدأ الاعتقاد بالثقة، بنقاء وبساطة. ولكن، بقدر ما نكون باحثين عن الحقيقة، ينبغي علينا، متى أمكننا ذلك، أن نطلب أدلة داعمة ونقيّم بعناية الأدلة التي تتعارض مع معتقداتنا المبدئية. ولأن اتباع مسار العمل هذا سيساعد في سعينا إلى الحقيقة، فلنقترح الموقف العقلاني التالي:

الموقف العقلاني The Rational Stance

ثق بالمعتقدات التي تنتجها ملكاتك الإدراكية بصورة مباشرة،

وابحث عن الأدلة الداعمة،

وكن منفتحًا للأدلة المضادة.

الموقف العقلاني يجمع بين الرؤية الثاقبة القائلة بأن الاعتقاد يبدأ بالثقة، وبين هدف العقلانية القاصد للحقيقة وذلك من خلال البحث عن أدلة داعمة والانفتاح على الأدلة المضادة[21].

---

(21) الدفاعات حول هذا الموقف العقلاني - دعنا نسميه، تسمية غير رسمية، موقف بلانتنجا وولترستوف وريد - الذي أوجزته في هذا الفصل تشمل ما يلي: =

قبل أن تظن أن الموقف العقلاني سيُحوّل أو يجب أن يُحوّل كل شخص إلى فيلسوف (أو عالم طبيعة) حيث يقييم الأدلة باستمرار ويعديل القناعات وفقًا لذلك = اسمحوا لي أن أقدم بعض الملاحظات التحذيرية. أولاً: في يومنا وعصرنا المزدحم (حسنًا، في أي عصر)، لا يملك معظمنا الوقت الكافي لتقييم الأدلة المؤيدة والمعارضة لمعظم معتقداتنا. ومعظمنا، في معظم الأوقات، وفي معظم الظروف، سيكون عقلانيًا بكل بساطة بقبوله المعتقدات التي تنقلها إلينا ميولنا الإدراكية على نحو مباشر. أما العالم في مختبره فيقع على عاتقه التزامات خاصة محددة الدور بأن يعتني بتقييم الأدلة - بطرق دقيقة ومحددة للغاية - التي تدعم النظريات. وهناك آخرون عديدون لديهم التزامات محددة الدور لتقييم الأدلة بعناية أيضًا - على سبيل المثال: المؤرخون عند كتابة الكتب أو القضاة أثناء

Alvin Plantinga and Nicholas Wolterstorff, eds., Faith and Rationality: Reason and Belief in God (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1984); Thomas Reid, An Inquiry into the Human Mind on the Principles of Common Sense (1764), Essays on the Intellectual Powers of Man (1785), and Essays on the Active Powers of the Human Mind (1788); Nicholas Wolterstorff, Reason within the Bounds of Religion, 2nd ed. (Grand Rapids: Eerdmans, 1984), and Thomas Reid and the Story of Epistemology (Cambridge: Cambridge University Press, 2001); Alvin Plantinga, Warrant: The Current Debate (Oxford: Oxford University Press, 1993), Warrant and Proper Function (Oxford: Oxford University Press, 1993), and Warranted Christian Belief (Oxford: Oxford University Press, 2000); William Alston, Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991), and The Reliability of Sense Perception (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1993); John Greco, Putting Skeptics in Their Place, and "How to Reid Moore," Philosophical Quarterly 52.209 (2002): 544-63; and Michael Bergman, Justification without Awareness (Oxford: Oxford University Press, 2006).

توجد أعداد لا تحصى من المناهج المعاصرة الأخرى لكل من المعرفة والعقلانية والحقيقة والتبرير (والمواضيع ذات الصلة). إن وجهة النظر الموضحة في هذا الفصل، ووجهة نظر بلانتنجا وولترستوف وريد ، قابلة للنمو، ويمكن الدفاع عنها، ومناسبة لطبيعتنا كمخلوقات محدودة. لكنها مجرد واحدة من العديد من المناهج التي يتبعها الفلاسفة في المعرفة. للإطلاع على وجهات النظر المختلفة، انظر:

Michael Williams, Problems of Knowledge: A Critical Introduction to Epistemology (Oxford: Oxford University Press, 2001); Robert Audi, Epistemology: A Contemporary Introduction to the Theory of Knowledge (New York: Routledge, 2010); Fred Feldman, Epistemology (Upper Saddle River, NJ: Pearson, 2002); Richard Fumerton, Epistemology (Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2006); Richard Swinburne, Epistemic Justification (Oxford: Oxford University Press, 2001); and Jay Wood, Epistemology: Becoming Intellectually Virtuous (Downers Grove, IL: InterVarsity, 1998).

المحاكمة. ولكن معظمنا، في معظم الأوقات، وفي معظم أدوارنا، لسنا مكلفين بذلك.

حتى العالمة في مختبرها تحكم على خلفية افتراضات مسلم بها فيما يتعلق بمصداقية حواسها، ووجود عالم خارجي، واطراد الطبيعة، وطبيعة الشهادة (حيث إنها لا تستطيع تكرار كل تجربة لكل نظرية، بل يجب عليها ببساطة أن تقبل تقريبًا جميع الاعتقادات التي تشكل خلفيتها العلمية على أساس الشهادة). وعندما تغادر العالمة مختبرها، ستعتقد بعقلانية وستثق ببساطة في ملكاتها الإداركية (ودون النظر في أي دليل على الإطلاق) أن شريكها هو شخص، وأن هناك شجرة في الفناء الخلفي لبيتها، وأن العسل مذاقه حلو. قد تعتقد أيضًا بعقلانية، دون دليل أو حجة، أن القتل أمر سيء، وأنها اختارت آيس كريم الفانيليا بحرية بدلاً من آيس كريم الشوكولاتة، وأن البشر لهم حق طبيعي في السعادة.

الخاتمة

لئلا ننسى، لقد دخلنا في هذه الرحلة الطويلة لأننا كنا مهتمين بعقلانية الاعتقاد الديني. أو بتعبير أدق، بدأنا رحلتنا لأن الكثيرين زعموا أن الاعتقاد بالله غير عقلاني لافتقاره، أو هكذا يُزعم، إلى الأدلة الكافية. لقد قدمنا سببًا لرفض الافتراض العلمي المزعوم بأن كل أو حتى معظم معتقداتنا تتطلب دعم الأدلة حتى تكون عقلانية. وقد قدمنا تصوراً بديلاً للعقلانية، مفهومًا مغايرًا يتلاءم مع الملكات الإدراكية الفعلية التي جُهزنا بها. فالاعتقاد بالنسبة لنا يبدأ بالثقة. ووفقًا لهذا المفهوم الريدياني للعقلانية، هل يوجد أي سبب للاعتقاد بأنه يمكن للإنسان أن يعتقد بوجود الله بعقلانية؟

الفصل الرابع

العقل والاعتقاد بالله

الحس الإلهي وملكة الاعتقاد بالله

لقد أمضينا زمنًا طويلاً في الفصل السابق نعزز وننافح عن نظرية في العقلانية تقرر، تقريرًا كما يبدو صحيحًا، أن معظم معتقداتنا العقلانية تنتجها ملكات الإدراك المتنوعة إنتاجًا مباشرًا. وقد رفضنا الادعاء القائل إن جميع المعتقدات يجب أن تستند إلى حجج مصوغة صريحة كي تكون عقلانية. وعلى الرغم من أن المطلب الكلي للدليل مغر فيجب في نهاية الأمر مقاومته لأنه غير قابل للتطبيق على حالتنا الاعتقادية: فنحن لسنا مجهزين (إدراكيًا) بالمقدرة على تأسيس جميع معتقداتنا على الأدلة. بل في الواقع نحن مجهزون (إدراكيًا) لتأسيس قلة قليلة من معتقداتنا على الأدلة. فمعظم معالجاتنا الفطرية للمعلومات تنتج معتقدات دون اللجوء إلى الاستدلال. فعندما نرى شجرة في فناء دار إنسان تنتج قدراتنا الحسية على الفور الاعتقاد بأن "ثمة شجرة في ذلك الفناء". وعندما تسأل عن ما تناولته في الإفطار تنتج ملكات الذاكرة لدي على الفور الاعتقاد: "لقد تناولت الخبز المحمص مع المربى في إفطار هذا الصباح". وعندما أسمع طائرًا يزقزق بالخارج (لكني لا أراه) تنتج ملكات السمع لدي على الفور اعتقادًا بوجود طائر خارج نافذتي.

أضف إلى ذلك أنني كما لا أملك قرار أن أتنفس، فكذلك لا أقرر (على أساس الحجة) في الغالبية العظمى من الحالات ما اعتقاده. بل تنتج ملكاتي الإدراكية، في ظل وجود الظروف الصحيحة من المحفزات والخبرات، معظم

المعتقدات على الفور دون الحاجة إلى حجة. تقوم ملكاتي إذن بمعظم العمل فيما يتعلق بالتنفس والاعتقاد. ففي معظم الحالات لا توجد الحاجة لقرار التنفس أو الاعتقاد.

وفي حين أن بعض المعتقدات - كالمعتقدات العلمية أو القضائية مثلًا - يجب أن تستند إلى أدلة (من حيث المبدأ بالطبع؛ وإلا ففي معظم الأحيان يقبل معظمنا ما يخبرنا به العلماء على أساس الشهادة، لا على أساس الأدلة الجيدة) = فإن معظم المعتقدات لا تحتاج الاستناد إلى أدلة. إن مجموعة الاعتقادات التي نقبلها على أساس الدليل، ويتوجب علينا بالفعل أن نستدل لها هي أصغر بكثير من مجموعة الاعتقادات التي نقبلها على غير أساس من الأدلة ولا يتوجب علينا أن نستدل لها. ذلك هو المدى الطويل والقصير لشرط الاعتقاد البشري. ففي معظم الحالات، يتوجب علينا - في الظروف المناسبة - الاعتماد على أجهزتنا الفكرية أو الوثوق بها لإنتاج المعتقدات دون حاجة إلى دليل قضوي أو برهان. وحتى إذا اعتقدنا على أساس البرهان فلا يزال يتعين علينا الوثوق بمجموعة من الملكات الإدراكية، بما في ذلك ملكة الاستدلال. لقد قلنا إن الاعتقاد يبدأ بالثقة، ونعني الثقة في ملكاتنا الإدراكية وفي المعتقدات التي تنتجها.

وجادلنا - باستحضار كل ما سبق - أن المعتقدات بريئة (عقلانية) حتى تثبت إدانتها. وجادلنا أن التمسك بالمعتقدات الناتجة عن ملكاتنا الإدراكية هو تصرف عقلاني تمامًا إلى أن يظهر ما يدعو للشك في تلك المعتقدات (أو في الملكة الإدراكية التي أنتجتها).

وأوضحنا هذا الادعاء في:

الموقف العقلاني The Rational Stance

ثق بالمعتقدات التي تنتجها ملكاتك الإدراكية بصورة مباشرة،

وابحث عن الأدلة الداعمة،

وكن منفتحًا للأدلة المعارضة.

ماذا سيحدث إذا أخذنا هذه الأفكار وطبقنا الموقف العقلاني على الاعتقاد بوجود الله؟

الموقف العقلاني متجذر في ما أسميه وجهة النظر الريدية الولترستوفية البلانتنجانية (ريد-ولترستوف-بلانتنجا). وكما سنرى، لقد أطلق على تطبيق وجهة نظر ريد-ولترستوف-بلانتنجا على المعتقد الديني اسم نظرية الابستمولوجيا الإصلاحية (اشتق الإصلاح من الاتجاه الإصلاحي المنسوب لعالم اللاهوت الإصلاحي جون كالفن[1]. ولكن هذه الرؤية لها أيضًا جذور تمتد إلى أنسلم و أغسطين وتوما الأكويني وبونافنتورا ومجموعة من اللاهوتيين والفلاسفة الآخرين، ولذلك فإن تسمية هذه الرؤية باسم الابستمولوجيا الإصلاحية تضليل للمشروع. قد تكون التسمية الأكثر دقة هي وجهة نظر ريد-ولترستوف-بلانتنجا-كالفن-أنسلم-أغسطين-الأكويني-بونافنتورا، ولكنها أقل فاعلية.

يقرر علم الدين الإدراكي أن لدى البشر ملكة إدراكية - جنبًا إلى جنب مع ذاكرتنا وملكاتنا الإدراكية الأخرى - تنتج "معتقدات الله" دون اللجوء إلى الحجج. فهل يختلف الاعتقاد بالله بطريقة ما عن معتقداتنا الأخرى التي ننتجها انتاجًا مباشرًا أم أن لدينا ملكة إدراكية تنتج الاعتقاد بالله على نحو مماثل؟

دعونا كما فعلنا في الفصول السابقة نبدأ مع اثنين من "ماذا لو".

افترض أنك تؤمن بوجود إله لأن والديك علماك من المهد أن الله موجود. وأنك تتذكر- بقدر ما تأخذك الذاكرة - أنك كنت دائمًا تؤمن بالله. ولا يمكنك أن تتذكر زمنًا في حياتك لم يكن وجود الله فيه واضحًا وضوح وجود الأشخاص الآخرين. فلم يخطر ببالك عدم وجود الله.

أو افترض أنك كنت تستجم وتستمع بجمال الطبيعة في مكان مرتفع بعيدًا عن صخب المدينة، وأثناء ذلك غمرك فجأة شعور بأن الله خلق الكون وأن الله خلقك

---

(1) جون كالفن (1509-1564)، مؤسس اللاهوت الإصلاحي والطائفة الكالفينية ومفسر الكتاب المقدس. ولد في نويون بفرنسا وتعلم في جامعة باريس وأورليان وبورجيس، معروف بتأكيده على فطرية الإيمان بالله عن طريق ما سماه ملكة الحس الإلهي. (المترجم)

ويحبك. فبدأت في الاعتقاد بالله، ليس لأنك اقتنعت بحجة؛ ولكنك آمنت بالله وحسب، ووجدت من نفسك اعتقادًا لما سبق أن أنكرته. أنت لم تتجاهل أي حجج، ولكنك فقط لم تتعرض لها، فلم تكن الحجج عاملاً في إيمانك الجديد، ولم تخطر على بالك الحجج التأليهية[2].

تشير هذه التجارب البشرية (النموذجية إلى حد ما)[3]، ودراسات علم الدين الإدراكي، وانتشار المعتقد الديني في كل مكان = إلى أننا نميل إلى الاعتقاد بالله بصورة سهلة للغاية وطبيعية وغير استدلالية.

ويبدو الدافع اللاهوتي للادعاء بأننا قد وهبنا ملكة الاعتقاد بالله واضحًا: فإذا كان الله المحب قد خلق البشر وأرادهم أن يكونوا على صلة به، فمن المعقول أن يجهزنا الله بالمعدات المعرفية التي نحتاجها لنحبه و نعرفه؛ وإذا كان الله شخصًا، كما يُعتقد على نطاق واسع، فإن طرق معرفة الله ستكون جنبًا إلى جنب مع الطرق التي نعرف بها الأشخاص الآخرين (البشر). ويستوحي التقليد المسيحي، كما هو متأصل في الكتاب المقدس، هذه المسألة من بولس الذي كتب: "فَإِنَّ مَا لَا يُرَى مِنْ أُمُورِ اللهِ، أَيْ قُدْرَتَهُ الأَزَلِيَّةَ وَأُلُوهَتَهُ، ظَاهِرٌ لِلْعِيَانِ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ، إِذْ تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ مِنْ خِلالِ الْمَخْلُوقَاتِ". (رومية 1: 20). لقد ألهم هذا المقطع بعض اللاهوتيين المسيحيين للدفاع عن نوع من المعرفة الطبيعية والأساسية والغريزية إلى حد ما عن الله.

ترى الابستمولوجيا الإصلاحية أنه يمكن للمرء أن يعتقد على نحو صحيح وعقلاني بوجود الله دون أن يبني اعتقاده على برهان. وتجد فلسفة القرن العشرين هذه مصدر إلهامها في كالفن (على الرغم من إمكانية إرجاع الفكرة إلى بولس)، وتتجلى في أعمال ألفن بلانتينجا ونيكولاس وولترستورف وويليام ألستون. يؤكد كل

---

(2) وفقًا للدليلية القوية، فإن اعتقاد المرء بالله سيكون عقلانيًا إذا وفقط إذا استوعب المرء عن وعي حجة سليمة، مثل الحجة الكونية أو الحجة من التصميم، لوجود الله.

(3) تشير دراسة إلى أن ما يقرب من ثلثي الأمريكيين يزعمون أن لديهم تجارب دينية عميقة. انظر: Rodney Stark, What Americans Really Believe (Waco, TX: Baylor University Press, 2005).

هؤلاء على أن الاعتقاد بالله ينتج على نحو نموذجي ومبرر عن شيء أشبه ما يكون بملكة للاعتقاد بالله. فيعتبر ألفن بلانتينجا ملكة الاعتقاد الله، التي يسميها الحس الإلهي *sensus divinitatis*، مماثلة لملكاتنا الإدراكية الأخرى، يقول:

الحس الإلهي هو ميل أو مجموعة من الميول لتشكيل المعتقدات التأليهية في ظروف مختلفة، استجابة لأنواع الظروف أو المحفزات التي تثير عمل هذا الحس الإلهي.... هناك العديد من الظروف ذات الأنواع المتعددة (بهاء الطبيعة، والخطر الجسيم، والوعي بعدم الموافقة الإلهية، وما إلى ذلك) التي تستدعي أو تتسبب في الاعتقاد التأليهي. هنا يشبه الحس الإلهي الملكات أو الآليات الأخرى المنتجة للاعتقادات. وإذا أردنا أن ننظر إلى الأمر من منظور التشابه الوظيفي المفرط فيمكننا النظر إلى الحس الإلهي كذلك كجهاز إدخال وإخراج: فهو يأخذ الظروف المذكورة أعلاه كمدخلات ويخرج الاعتقادات التأليهية - اعتقادات عن الله - كمخرجات[4].

يعتقد بلانتينجا أن الاعتقاد بالله لا هو غريزي (فطري أو منقوش مباشرة على العقل البشري) ولا هو ينتج عادةً عن طريق النظر في الحجج، بل إن الاعتقاد بالله يحدث في ظروف مختلفة بواسطة الحس الإلهي. على سبيل المثال: إذا وقف إنسان على قمة جبل فقد تحدث تجربته شعورًا عميقًا لأن يعتقد بوجود خالق للعالم، أو شعورًا بالذنب، أو قد يشعر الإنسان بأنه مسؤول أمام الله.

لنفترض أن لدينا ملكة الاعتقاد بالله، فهل المعتقدات التي تنتجها عقلانية؟

علوم الإدراك Cognitive Science

كما رأينا في الفصل السابق، فإن دراسة علوم الإدراك لعمليات العقل تقدم دعمًا تجريبيًا لادعاء توماس ريد القائل بأنه في العديد من الحالات يكون لدينا آليات أو ملكات أو ميول أو وحدات إدراكية داخلية تعالج المعلومات وتنتج

---

(4) Alvin Plantinga, Warranted Christian Belief (Oxford: Oxford University Press, 2000), 173-75.

اعتقادات مباشرة غير استدلالية. هذه الملكات الريديانية - أي الحس والمبدأ الاستقرائي والذاكرة وتلك التي تنتج الاعتقادات بالعالم الخارجي أو الأشخاص الآخرين وما إلى ذلك - مناظرة لتلك الملكات التي أكدتها علوم الإدراك. فيبدو أن علوم الإدراك قد أكدت أن العقل يعمل تقريبًا كما تصوره ريد. ويبدو أيضًا أن علوم الإدراك تدعم شيئًا مثل الحس الإلهي sensus divinitatis: ملكة الاعتقاد بالله الغريزية التي قال بها بلانتينجا. أو كما قد يعبر مناهضوا اللاهوت والفلسفة: إن ما اعتقده اللاهوتيون مثل كالفن والفلاسفة مثل ريد وبلانتينجا بدون أي دليل على الإطلاق قد وجد نوعًا من الإثبات التجريبي! وفيما يتعلق بالاعتقاد بالله، يبدو أن لدينا بالفعل شعورًا دينيًا طبيعيًا وغريزيًا أو ملكة الاعتقاد بالله[5].

يعتبر مصطلح "ملكة الاعتقاد بالله" في علم الدين الإدراكي محدد للغاية بل ومضلل. فالملكات الإدراكية المشتركة في انتاج المعتقد الديني لا تنحصر في ملكة واحدة، ولا هي مكرسة لإنتاج معتقدات عن الله وحسب. بل إن ما يسمى بملكة الاعتقاد بالله هو مجموعة من الملكات التي ليست "معنية" بمعتقدات الله ولا تستهدفها. وتتضمن هذه الملكات، على سبيل المثال، جهاز الكشف عن الفاعلين (ADD) ونظرية العقل (ToM). وفي حين يمكن لهذه الملكات أن تنتج أو تتوسط في عملية انتاج الاعتقاد بالله كما يتصور بلانتينجا، فأنها من الممكن أيضًا أن تولد معتقدات في الجان والأقزام والعفاريت وأرواح الأشجار والسحرة. ويبدو أن لكل ثقافة تقريبًا معتقدات راسخة عن الكائنات الروحية والحياة الآخرة. ومثلما يتم تفسير السمات البشرية الكلية مثل اللغة والعاطفة من خلال ميل العقل/الدماغ إلى اللغة والعاطفة، فمن المقبول الآن على نطاق واسع أن المعتقدات الروحية

---

(5) اعترف داروين نفسه بشيوع المعتقدات الدينية، بينما رفض شمولية الاعتقاد بالله، قال: "غالبًا ما قُدم الإيمان بالله ليس على أنه أعظم الفروق بين الإنسان والحيوانات الدنيا وحسب، بل وأكثرها اكتمالًا .ومع ذلك، من المستحيل التأكيد على أن هذا الاعتقاد فطري أو غريزي في الإنسان .من ناحية أخرى، يبدو أن الإيمان بالقوى الروحية الشاملة أمر شامل، ويبدو أنه ينبع من تقدم كبير في عقل الإنسان، ومن تقدم أكبر في ملكات الخيال والفضول والاندهاش".
(Charles R. Darwin, The Descent of Man [London: J. Murray, 1874], 609-19.)

المتكررة تشير إلى أن البشر يميلون ميلًا طبيعيًا إلى الاعتقاد بالكائنات الروحية. ومثل اللغة، فإن هذه الميول الإدراكية تجد تعبيرًا محددًا تحديدًا ثقافيًا، ومع ذلك يشيع التمييز الثابت بين العالم الروحي والعالم المادي في كل ثقافة تقريبًا.

ومثل الانتشار الواسع لمعتقدات الإدراك الحسي والذاكرة، يشير التكرار الواسع النطاق للمعتقدات الدينية إلى أن اكتسابها يرجع إلى عمل الملكات الإدراكية التي تحدث طبيعيًا. فكما أن اكتساب اللغة أمر طبيعي، كذلك اكتساب المعتقدات الدينية أمر طبيعي. وتعتبر المعتقدات الدينية طبيعية من حيث سهولة اكتسابها (عادة دون تفكير أو حجة) ولأنها تنشأ مع القليل من المدخلات الثقافية. فنحن نميل إلى المعتقدات الدينية ميلًا طبيعيًا.

وخشية أن يفهم القارئ أن علوم الإدراك (أو توضيحي لعلوم الإدراك) تقدم دعمًا (أو نوعًا من الاعتذارات) لأي دين معين، أقول إنه ينبغي على المرء أن يلاحظ أننا كما نميل إلى اكتساب لغة (وليس الإنجليزية على سبيل التحديد) كذلك أيضًا نميل تمامًا إلى اكتساب المعتقدات والممارسات الدينية (وليس المسيحية على سبيل التحديد). فلا وجود لحتمية جينية أو إدراكية ههنا. إن امتلاك نزعة طبيعية لاكتساب لغة يترك الكثير للثقافة (ليس لجيناتنا) للتأثير على تحديد اللغة التي ستكتسب، وامتلاك نزعة طبيعية لاكتساب معتقدات/ممارسات دينية يترك الكثير كذلك للثقافة (ليس لجيناتنا) للتأثير على تحديد أي من المعتقدات/ الممارسات الدينية المعينة سيتبناها الإنسان.

يوجد تلاقي بين الفليسوف ريد وعلوم الإدراك؛ فنحن مجبرون إدراكيًا على الاعتقاد بالفاعلين والعقول الأخرى (نعتقد أن هناك أشخاصًا آخرين، ونشكل معتقدات موثوقة إلى حد ما حول أفكار ومشاعر ورغبات الآخرين). وفي حين أن جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM قد تطورا استجابة لمشاكل التكييف في سيرينجيتي لإنتاج معتقدات بخصوص الحيوانات والأصحاب والأعداء، إلا أنهما أنتجا أيضًا معتقدات في الآلهة. يفترض البشر أحيانًا فاعلين غير عاديين يتمتعون بقوى غير عادية وتعمل لأسباب غير عادية من خلال معجزات ظاهرة أو فيضانات أو رعد. مثل هؤلاء الفاعلين الكبار والأقوياء لديهم أسباب كبيرة للأشياء

الكبيرة التي يقومون بها. وبمجرد أن يكتسب الإنسان اعتقادات في فاعلين يتجاوزون البشر ويتصفون بصفات فائقة، على سبيل المثال: قدرات خارقة وعلم كلي شامل، يكون لديه تفسير جاهز لأسباب الأحداث الخارقة.

باختصار، أنتج كل من جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM اعتقادات في فاعلين عاقلين خارقين للطبيعة ذي إمكانات ثرية لشرح بعض أمور الحياة المهمة جدًا (كالطقس على سبيل المثال، أو النجاح في الحرب). إن جهاز كشف الفاعليين ADD ونظرية العقل ToM هما ملكات إدراكية طبيعية للغاية، تولد بسهولة - إلى جانب الملكات الإدراكية الأخرى المذكورة في الفصل السابق - اعتقادات طبيعية وعادية جدًا في الآلهة. فهل هذه الاعتقاد التي تحدث طبيعيًا عقلانية؟

العقل والاعتقاد في الله

إذا كانت لدينا ملكة الاعتقاد بالله، وإذا كان الموقف العقلاني صحيحًا فإن معتقدات الله بريئة (عقلانية) حتى تثبت إدانتها (غير عقلانية). هذه هي خلاصة القول على أي حال. سندافع عن هذا الادعاء بسرعة ثم سننظر في الدفاع المسهب.

هناك ثلاثة أسباب على الأقل للاعتقاد بأنه قد يكون من المناسب أو المنطقي أن يقبل الإنسان الاعتقاد بالله على أنه تسليم لسلطة ملكة الاعتقاد بالله دون الحاجة إلى الحجة:

السبب الأول والأهم: أنه نظرًا إلى أن الاعتقاد يبدأ بالثقة في ملكاتنا الإدراكية (ما لم تثبت أو حتى تثبت عدم موثوقيتها) فينبغي علينا إذن أن نمد هذا الامتياز إلى ملكة الاعتقاد بالله (ما لم يثبت أو حتى يثبت أنها غير موثوق بها أو يهزم اعتقاد المرء بالله من خلال معتقدات أخرى). فإذا كان مسموحًا لنا، كما جادلت، الوثوق في ملكاتنا الإدراكية، وكانت ملكة الله واحدة من تلك الملكات = فعندئذٍ يُسمح لنا أن نثق في ملكة الاعتقاد بالله ونقبل المعتقدات التي تنتجها. ولذلك إذا كان اعتقاد الإنسان بالله ناتجًا - في ظل الظروف المناسبة - عن ملكة

الاعتقاد بالله فعندئذ يكون من العقلانية قبول هذا الاعتقاد ما لم أو حتى يكون لدى الإنسان سبب كافٍ للتخلي عن هذا الاعتقاد. وقبل أن نستثمر كثيرًا في التفكير في ملكة الاعتقاد بالله على أنها ملكة إدراكية خاصة، وربما معيبة (فوفقًا لدوكينز هي "آلية اللاعقلانية المضمنة في الدماغ")[6] = نحتاج إلى تذكير أنفسنا بأن اسم "ملكة الاعتقاد بالله" ليس أكثر من تسمية فاخرة لجهاز كشف الفاعليين ADD ونظرية العقل ToM العاديين تمامًا والطبيعيين جدًا والموثوق بهما عمومًا (جنبًا إلى جنب مع الملكات الأخرى التي تمت مناقشتها في الفصل الثاني). يعد كل من جهاز كشف الفاعليين ADD ونظرية العقل ToM جزءًا لا يتجزأ من مجموعة الملكات الإدراكية لدينا والتي تنتج عادةً معتقدات صادقة. وكما أننا نثق (بعقلانية) في الذاكرة، والحواس، والشهادة، فيمكننا بل وينبغي علينا (عقلانيًا) أن نثق في ملكة الاعتقاد بالله، وبالتالي في مخرجاتها (ما لم يكن لدينا سبب كافٍ للتوقف عن الاعتقاد بمخرجاتها).

ثانيًا: تلعب الحجج عادةً دورًا صغيرًا في حياة معظم الأشخاص العقلاء العاديين[7]. وفي حين أن الفلاسفة مغرمون بالترويج للحجج الداعمة لالتزاماتهم الفلسفية، مثل: الإرادة الحرة أو طبيعة الأخلاق، فإنه ليس من متطلبات العقل أن يبني الناس العاديون وجهات نظرهم في الإرادة الحرة أو طبيعة الأخلاق على أساس الحجج الفلسفية. وبينما طور الفلاسفة عددًا جيدًا من الحجج الداعمة

---

(6) Richard Dawkinš The God Delusion (Boston: Houghton Mi'in, 2006), 184.

(7) لقد أظهرت هيلين دي كروز Helen De Cruz أن الحجج المؤيدة لوجود الله / الآلهة تنشأ فقط في ظل ظروف ثقافية محددة للغاية - أي في وجود طبقة مرفهة أو الإلحاد أو اتصال مع أطر دينية منافسة. ولذلك نجد الحجج في اليونان القديمة والهند القديمة، وما شابه. ولو كانت الحجج تلعب دورًا أساسيًا في إنتاج المعتقدات الدينية، لكان ذلك محيرًا، لأنه لن يفسر لماذا ينتشر التدين بين الناس عبر الثقافات. انظر:
Helen De Cruz, "Cognitive Science of Religion and the Study of Theological Concepts," Topoi 33.2 (2013): 487-97.
يصف روبرت ماكولي Robert McCauley المعتقد الديني بالطبيعي، وما يسمى باللاهوت الطبيعي يصفه بأنه غير طبيعي، وفقا لعلم الدين المعرفي.
Why Religion Is Natural and Science Is Not (Oxford: Oxford University Press, 2011).

للإرادة الحرة وطبيعة الأخلاق فإنه لم تثبت قوة إقناع هذه الحجج. أضف إلى ذلك أن ثمة حججًا فلسفيةً مضادةً لأي موقف فلسفي دافع عنه فليسوف وهي حجج جيدة بنفس القدر (أو كما قد يرى المرء "غير مقنعة بنفس القدر") وطورت من قبل فلاسفة لا يقلون في الكفاءه عن خصومهم. ولكن حتى الفلاسفة لديهم آراء ميتافيزيقية وأخلاقية جوهرية لم يؤسسوها على دعائم تشبه تلك الدعائم التي للعلم الطبيعي أو على حجة مقنعة أو حتى على أي حجة مطلقًا (المزيد حول ذلك سيأتي في الملحق). وحتى لو افترضنا أن لدى الفلاسفة حججًا مقنعةً حول الإرادة الحرة والأخلاق، فهناك عدد محدود من الأشخاص الذين لديهم إمكانية الوصول إلى معظم الحجج الفلسفية أو لديهم القدرة على تقييمها. ولذلك من الصعب أن نتخيل أن يكون مطلب الأدلة من متطلبات العقلانية (حتى بالنسبة للفلاسفة). بالإضافة إلى ذلك فإن الفلاسفة، على الرغم من حسن نواياهم وجهودهم لا يعتقدون، على سبيل المثال، بالعالم الخارجي أو بأشخاص آخرين على أساس الحجة. فإذا كان الاعتقاد بالله مشابهًا على نحو وثيق للإيمان بالإرادة الحرة والأخلاق والعالم الخارجي، فإن الاعتقاد بالله الذي تقدمه ملكاتنا الإدراكية لا يحتاج إلى دعم من حجة كي يكون عقلانيًا.

يوافق الفيلسوف العسير الفهم عادةً جورج فيلهلم فريدريش هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel على أن الاعتقاد العقلاني بالله لا يتوقف على فهم الحجة التأليهية، يقول:

لقد عُوملت البراهين الميتافيزيقية لوجود الله (والتي تعتبر الآن عتيقة إلى حد ما)، على سبيل المثال، كما لو أن المعرفة بها والاقتناع بنتائجها هما الوسيلتان الأساسيتان الوحيدتان لإنتاج الاعتقاد والقناعة بوجود إله. ويناظر ذلك القول بأن الأكل كان مستحيلًا قبل أن نكتسب معرفة بالخصائص الكيميائية والنباتية والحيوانية لطعامنا؛ وعلينا تأخير عملية الهضم حتى ننتهي من دراسة التشريح وعلم وظائف الأعضاء[8].

---

(8) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, Encyclopaedia of the Philosophical Sciences, 3rd ed., trans. William Wallace (1830).

كان هيجل ليحتفل بعقلانية جدتي المؤمنة إيمانًا نموذجيًا غير فلسفي. وكانت ستضحك بعلو صوتها لو أني أخبرتها أن اعتقادها بالله غير عقلاني لأنها لم تتجشم فهم الحجة الأنطولوجية لوجود الله. وتخيل كيف كانت حياتها لتكون لو أنها وافقت على مطلب الدليل التنويري. لنفترض أنني قد جرحت نفسي وذهبت إليها مبتغيًا السلوى، فقالت: "آسفة يا عزيزي، لست متأكدة أنك شخص حقيقي، وأنا لا أعانق أو أواسي إلا الأشخاص الحقيقيون. فإلى أن أحصل على دليل جيد على كونك شخصًا حقيقيًا، فإن العناق والعزاء لن يكونا واردين".

قد يعتقد المرء أنني قد قيّدت تقييدًا غير عادل مفهوم الدليل إلى مجموعات من القضايا يُؤخذ بعضها (المقدمات) لدعم قضية أخرى (النتيجة) باستخدام نظام منطقي صوري. إن مثل هذا المفهوم للدليل سيكون في الواقع تقييديًا بلا داع. فمن الممكن أن تكون الأدلة أكثر حدسية وضمنية أو استقرائية. ولكني أنظر إلى المعتقد الديني من منظور الإنسان الذي لا يعتقد على أساس حجة صورية منطقية أو ضمنية أو استقرائية. يجد هذا الرأي دعمًا تجريبيًا في العلوم الإدراكية المعاصرة، ويبدو أنه لا يتصف بكونه استثنائيًا.

ثالثًا: الاعتقاد بالله أقرب إلى الاعتقاد بشخص منه إلى الاعتقاد بنظرية علمية. تذكر أن الفرضيات العلمية تُبرر من خلال قدرتها على التفسير والتنبؤ. ولكن القليل من معتقداتنا يكتسب تبريره من خلال القدرة على التفسير والتنبؤ. فأنا أتذكر شرب القهوة منذ فترة وجيزة، وقد رأيت شجرة عبر نافذتي ولاحظت من خلالها أن الشمس تشرق، وشعرت بقليل من البرد لذا قمت لأرتدي سترة، ورأيت صورة حديثة لخسوف القمر. ونتيجة لذلك، كونت معتقدات متنوعة: "شربت القهوة في وقت سابق اليوم"، "أرى شجرة"، "أشعر بالبرد"، و"حدث خسوف للقمر". هذه المعتقدات غير العلمية (الذاكرة، الإدراك الحسي، الشهادة) مبررة من خلال ملكاتي الإدراكية التي تعمل على نحو صحيح. ولا أعتقد في أي من هذه المعتقدات بسبب كونها التفسير الأفضل لخبرتي، ولا استخدمهم لعمل تنبؤات. بل لقد تكونت على الفور في ظروف متنوعة من قبل ملكاتي الإدراكية التي تعمل على

نحو صحيح. وهكذا، فإن اعتقادي بالله أيضًا هو اعتقاد عقلاني (مثل اعتقادي بالأشخاص الآخرين) إذا حدث على الفور في ظروف مختلفة بسبب ملكاتي الإدراكية التي تعمل على نحو صحيح.

لنفترض أن الله شخص وليس فرضية علمية. أو بصورة أدق، افترض أن الاعتقاد بالله أكثر شبهًا بالاعتقاد بأشخاص آخرين من الاعتقاد بالفرضيات العلمية. النهج العلمي - الذي يقرر الشك أولاً ثم وضع جميع الأدلة المتاحة في الاعتبار ليأتي التصديق لاحقًا - يبدو غير ملائم أو غير مناسب على الإطلاق عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الشخصية. وما يبدو معقولًا بصورة واضحة للفيزيائيين في مختبراتهم يكون قاصرًا جدًا عندما يتعلق الأمر بالعلاقات الإنسانية. فالعلاقات الإنسانية تتضمن - بل تتطلب - الثقة والالتزام والإيمان. وإذا كان الاعتقاد بالله أقرب إلى الاعتقاد بوجود أشخاص آخرين من الاعتقاد بوجود الذرات فإن الثقة المناسب تواجدها بين الأشخاص ستكون مناسبة لله. فلا يمكننا ولا ينبغي لنا أن نصر إصرارًا تعسفيًا على أن الطريقة العلمية مناسبة لكل نوع من أنواع الممارسات البشرية. فذلك العالم شديد التدقيق التي لا يستطيع التخلي عن مطلب الدليل سيجد نفسه عند مغادرته مختبره معزولًا عن العلاقات التي كان بإمكانه الحفاظ عليها بعقلانية مع الأصدقاء والعائلة وربما مع الله.

الاعتقاد بالله إذن عقلاني بموجب كونه اعتقادًا مباشرًا تنتجه مجموعة من الملكات الإدراكية التي تعمل على نحو صحيح. ويمكننا بل وينبغي علينا أن نمنح المعتقدات الدينية الاحترام الذي نمنحه للمعتقدات الدنيوية التي تنتج بصورة مباشرة كالاعتقاد بالعالم الخارجي أو الإيمان بالعقول الأخرى. ينبغي أن نتعامل معِها بطريقة ممثالة لتلك التي نتعامل بها مع معتقداتنا الفلسفية الأخرى. وحتى لو كان للفلاسفة متطالبات ذات دور محدد أن لا يعتقدوا بالإرادة الحرة والأخلاق والله إلا على أساس من حجة مقنعة (وهذا ما أشك فيه) فإن الناس العاديين لا يفعلون ذلك. ولا يوجد سبب لإثقال عاهل جميع الناس في جميع الظروف بمطلب الدليل الذي يلح عليه الفيلسوف أو العالم كما فعل كلفورد. إن الاعتقاد

بالله إذا تم إنتاجه بصورة مباشرة من قبل ملكاتنا الإدراكية فهو - عند النظرة الأولى - عقلاني[9].

ماذا عن النظرة الثانية أو حتى الثالثة التي يقترحها الموقف العقلاني؟ هل يوجد دليل يدعم الاعتقاد بالله؟ هل يوجد دليل ضد وجود الله؟ هل رجحان الأدلة، سواء المؤيدة أوالمعارضة، يؤكد أو يقوض العقلانية المبدئية لاعتقاد الإنسان بالله؟ وأخيرًا، وبالعودة إلى موضوع الكتاب، هل تقدم الاكتشافات في علم الدين الإدراكي سببًا للتوقف عن الاعتقاد بالله أو عدم الثقة في ملكة الاعتقاد بالله؟ إذا كان الأمر كذلك، على الرغم من كل الوعود المبدئية، فربما يكون الاعتقاد بالله غير عقلاني.

وهم الإله

يطرح كل من جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM مشكلة علاء الدين بخصوص الاعتقاد العقلاني بالله، حتى على الرغم من اعتبارهما ملكتين طبيعيتين. نتذكر من الفصل السابق أن مشكلة علاء الدين الإدراكية تكمن في أن المدخلات الخبراتية صغيرة جدًا في حين أن المخرجات الاعتقادية هائلة. نحن البشر مبتلون بفقر المحفزات؛ فرؤيتنا عن العالم تتجاوز بكثير ما يمكن أن نختبره أو نجادل له على أساس تلك الخبرة. ولقد قدمنا المفهوم الريدياني للعقلانية كحل لمشكلة علاء الدين المعرفية. فلا بأس أن نثق في ملكاتنا الإدراكية المضمنة فينا والتي تساهم بدرجة كبيرة في تصورنا للعالم. ولكننا نعلم أن هذه الملكات تخدعنا في بعض الأحيان وفي ظروف معينة؛ فنحن نرى واحات في الصحراء حيث لا توجد واحات، ونعتقد جميعًا أن المجموعات التي ننتمي إليها من الناس أفضل من مجموعات الناس الأخرى (وفي بعض الأحيان يتبع ذلك عواقب مروعة). وأما ملكة الاعتقاد بالله فتبدو أكثر عرضة لمشاكل علاء الدين. فعندما (تفرك) سحابة على

(9) وفقًا للدليلية القوية، فإن إيمان المرء بالله المكتسب على الفور لن يكون عقلانيًا ما لم يدعمه أو حتى يدعمه بحجة سليمة لوجود الله.

شكل "وجه" أو (تفرك) محاصيل قد دمرها فيضان (مصباح) جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM يخرج عندئذ الإله!

تشير عناوين العديد من الكتب والمقالات الحديثة التي تتناول علم النفس الإدراكي والتطوري للدين إلى أن الله هو شيء مستحث تطوريًا، اختلقه خيالنا. فلم يكن كتاب وهم الإله *The God Delusion* لريتشارد دوكينز وكسر التعويذة *Breaking the Spell* للكاتب دانيال دينيت سوى عنوانين بارزين من بين العديد من العناوين. ومن بين أكثر الكتب صراحةً كتاب لودوفيتش كينيدي Ludovic Kennedy "الأمر كله في العقل: وداعًا لله" *All in the Mind: A Farewell to God* و "ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار: الأصول التطورية للمعتقدات" *Six Impossible Things before Breakfast: The Evolutionary Origins of Belief* للويس ولبرت Lewis Wolpert. ويقدم كتاب "تفسير ظاهرة الدين: الغرائز البشرية التي تشكل الآلهة والأرواح والأسلاف" *Religion Explained: The Human Instincts That Fashion Gods, Spirits, and Ancestors* للكاتب باسكال بوير Pascal Boyer رسالة أكثر براعة، لكن بالنظر إلى تعريفه للدين بأنه "وهم فارغ" فربما كان أكثر دقة لو أنه عنون كتابه بـ"تقويض الدين".

فما الذي جعل الإله وهمًا؟ وما الذي كسر تعويذة الدين؟ تكمن الإجابة بإيجاز في التفسيرات الإدراكية والتطورية للمعتقد الديني. فقد أظهر العلم، أو هكذا يُزعم، أن الإله هو خيال أو وهم جمعي. ومن هنا يقرر بوير أنه: "في سياق ثقافي تفضح فيه الطريقة [العلمية] ذات النجاح الساحق في فهم العالم زيفَ ادعاءات خوارق الطبيعة واحدًا تلو الآخر= يوجد دافع قوي [لدى المؤمنين الدينيين] للعثور على مجال واحد على الأقل يكون لهم فيه الغلبة على رجال العلم الطبيعي. لكن التطور وعلم الأحياء الدقيقة سحق كل هذا"[10]. يُزعم أن التطور وعلم الوراثة قد بينا وهَن الاعتقاد بالله، وسحقا الإيمان العقلاني.

فبحسب الرؤية التطورية النموذجية للدين - الرؤية التي تعتبر الاعتقاد الديني

(10) Pascal Boyer, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books, 2001), 76.

منتجًا ثانويًا - فإن ملكة الاعتقاد بالله (تقريبًا جهاز كشف الفاعلين شديد الحساسية HADD بالإضافة إلى نظرية العقل ToM) تنتج المعتقد الديني كمنتج ثانوي لملكاتنا الإدراكية. (وفي حين أن HADD و ADD هما مصطلحان متكافئان، إلا أنني سأستخدم في الغالب تعبير "ADD" الأكثر حيادية.) يتم إنتاج المعتقد الديني بواسطة ملكات إدراكية تستهدف أنواعًا أخرى من المعتقدات - على سبيل المثال: تحديد الأعداء أو الأصدقاء وتحديد نواياهم، هل هي معادية أو ودية. ولقد أدى ادعاء علوم الإدراك بأن الإله منتج ثانوي تطوري إلى ادعاء البعض باتضاح عدم عقلانية الاعتقاد بالله. فيُزعم أن التفسيرات التطورية لتطور هذه العمليات بينت أن قوى البقاء، وليس كائنًا خارقًا للطبيعة، تسببت في خلق معتقدات وممارسات دينية مختلفة. وقد أنتجت هذه القوى أجهزة كشف الفاعلين التي صُممت لحملنا على القتال أو الفرار عندما نشعر بالقلق من مشهد أو صوت مريب. باختصار، لقد صُممت في الأصل لحملنا على التصرف على نحو مناسب عند مواجهة حيوان مفترس أو عدو محتمل. وإن كان لابد من إنتاج أي شيء عن طريق الاعتقاد فيجب أن يكون الاعتقاد في حيوان أو منافس بشري. ولكن عندما يحول جهاز الكشف عن الفاعلين شديد الحساسية (HADD) الحد الأدنى من المعتقدات إلى نظرية العقل (ToM)، يتم إنتاج معتقدات مفرطة وغير مقصودة في فاعلين وقوى روحية. فالمعتقدات الروحية أو الدينية هي نتيجة ثانوية عرضية لوحدات إنتاج سلوك فعّالة[11]. وعندما تُطبق خارج مجالها تصبح

---

(11) وتشترك النسخ الأكثر أكاديمية من حجج الدحض التطورية في الادعاء بأن الملكات المنتجة للمعتقدات في الفاعلين الغيبيين إما أنها لا يوثق بها (لأنها تنتج في الغالب معتقدات خاطئة) أو أنها غير حساسة للحقيقة (أساس حقيقة الاعتقاد لا ينتج عنه الاعتقاد). وعادةً تُقدم حجج الدحض التطورية ضد عقلانية المعتقدات الأخلاقية أو الدينية (ويتوسع نطاقها لتشمل على سبيل المثال: الإيمان بالإرادة الحرة، والإيمان بدوام النفس، وما إلى ذلك). ووفقًا لجي كاهانا Guy Kahane، تشترك حجج الدحض التطورية في البنية التالية:

المقدمة السببية: اعتقاد(س) أن (ق) يفسره (ص) .

المقدمة الإبستمولوجية: (ص) هي عملية خارج المسار.

وينتج أن اعتقاد (س) أن (ق) غير مبرر.

ينحصر قصدي في هذا النوع من الجدل. وبالنسبة للمدافعين الأكاديميين عن حجج الإبطال التطورية ضد الإيمان بالله، انظروا: =

ملكة الاعتقاد بالله - كما يدعي دينيت - "آلة غريبة الصنع لتوليد الخيال"[12]. ويوافق دوكينز قائلاً: "عدم عقلانية الدين هو نتيجة ثانوية لآلية لاعقلانية محددة مضمنة في الدماغ"[13].

المعارضات

إن الادعاء بأن المستجدات في علم النفس الإدراكي والتطوري أثبتت أن الاعتقاد بالله ينشأ من آلية أو مجموعة من الآليات الإدراكية غير الهادفة في الأصل

Paul E. Griffiths and John S. Wilkins, "Evolutionary Debunking Arguments in Three Domains: Fact, Value, and Religion," in A New Science of Religion, ed. Greg Dawes and James Maclaurin (New York: Routledge, 2012), 133-46; Guy Kahane, "Evolutionary Debunking Arguments," Nou45 (2011): 103-25.

وللإطلاع على المعارضين الأكاديميين لحجج الإبطال التطورية ضد الإيمان بالله، انظر:
Michael J. Murray and Andrew Goldberg, "Evolutionary Accounts of Religion: Explaining and Explaining," in The Believing Primate: Scientific Philosophical and Theological Reflections on the Origin of Religion, ed. Michael J. Murray and Jeffrey Schloss (Oxford: Oxford University Press, 2009), 179-99; Joshua Thurow, "Does Cognitive Science Show Belief in God to Be Irrational? The Epistemic Consequences of the Cognitive Science of Religion," International Journal for Philosophy of Religion 74: (2013) 77-98; Jonathan Jong, "Explaining Religion (Away?): Theism and the Cognitive Science of Religion," Sophia 52 (2012): 521-33; Erik Wielenberg, "Evolutionary Debunking Arguments in Religion and Morality," in Explanation in Ethics and Mathematics, ed. Uri Leibowitz and Neil Sinclair (Oxford: Oxford University Press, 2016), 83-102; and Matthew Braddock, "An Evidential Argument for Theism from the Cognitive Science of Religion," in New Developments in the Cognitive Science of Religion: The Rationality of Religious Belief, ed. Hans van Eyghen, Rik Peels, and Gijsbert van den Brink (New York: Springer, 2018).

(12) Daniel C. Dennett, Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon (New York: Viking, 2006), 120.

(13) Richard Dawkins, The God Delusion (Boston: Houghton Mi'in, 2006), 184.

يؤكد المعترضون الملحدون مثل دوكينز ودينيت أن الحجج التأليهية غير سليمة وأن الأدلة ضد الله تطغى على الأدلة الإيجابية القليلة التي قد يجدها المرء لصالح الله. إنهم دعاة إثبات ويدعون أن الأدلة تتعارض مع المعتقد الديني العقلاني. وبالطبع، يعترض دعاة الدليلية الدينية. وبالنسبة لأتباع الدليلية القوية، التأليهي منهم أو الإلحادي، فإن قضية عقلانية/ لاعقلانية الاعتقاد بالله تتوقف على تحليل الحجج التأليهية والحجج المضادة. وفيما يلي، قد يفكر المرء في قيام الملحد بطرح هذا السؤال: نظرًا إلى انتشار الكثير من الاعتقادات غير المدعومة عقلانيًا بالله، لماذا يؤمن العديد من الناس (إيمانًا غير عقلاني) بالله؟

للحقيقة يتطلب بعض التفكيك. فلدينا مجموعة متنوعة من الآليات أو الملكات الإدراكية التي يستهدف بعضها الحقيقة. لدينا على سبيل المثال ملكات الذاكرة والحس التي تنتج معتقدات مثل: "تناولت فنجانًا من القهوة هذا الصباح" و "السماء زرقاء". ولدينا أيضًا ملكات أو ميول نفسية تجعلنا نعتقد أن "أطفالنا أذكى وأجمل (أو في حالة عدم كونهم الأكثر ذكاءً وجمالًا، فهم الأكثر توازنًا) من الأطفال الآخرين"، أو "أنني أفضل مظهرًا وأكثر ذكاءً من معظم الناس (وإذا لم يكن ذلك صحيحًا، فسأعتقد أنني أكثر توازنًا)". تقصد المجموعة الأولى من الملكات الإدراكية الحقيقة، وليس ذلك هدفًا للمجموعة الثانية. ولكن الملكات الإدراكية في كلتا الحالتين نشأت (على الأرجح) من خلال عمليات تطورية استجابةً للضغوط البيئية المختلفة.

والاعتقاد بالله من هذه الزاوية مماثل لاعتقاد إنسان أن قدراته فوق قدرات الإنسان المتوسط. فلدينا ميل طبيعي لمثل هذه المعتقدات - نعتقد بطبيعة الحال أننا متفوقون على الآخرين - ولكن هذا الميل لا يهدف إلى الحقيقة. فمهما يكن من أمر لا يمكننا، على عكس سكان بحيرة وبيجون، أن نكون جميعًا فوق المستوى المتوسط. ربما احتاج أسلافنا البدائيون إلى الشعور بأنهم متفوقون على أعضاء الجماعات الخارجية من أجل الحصول على الدعم النفسي اللازم للفوز في المنافسة على الموارد النادرة مع مجموعات خارجية متساوية نسبيًا؛ لقد كان العنصر الأساسي في المجموعات الناجحة هو هذا التعزيز النفسي الذي امتلكه أسلافنا (والذي تم نقله بعد ذلك إلى الأجيال اللاحقة). ومن الممكن أن يقوض اكتشاف الأصول التطورية لحاجتنا إلى الشعور بالتفوق عقلانية اعتقاد المرء بأنه متفوق بالفعل. ولذا، وبالمثل، بينما قد أكون عقلانيًا في بادئ الأمر بخصوص اعتقادي بأنني فوق المتوسط فإن معرفة أن هذا الاعتقاد أنتجه ملكة إدراكية لا تقصد الوصول للحقيقة (ولم ينتجه أهليتي وجدارتي الفعلية) من شأنه أن يهزم عقلانيتي.

يستخدم الفلاسفة مصطلح "المعارض" للدليل الذي يقوض عقلانية المرء. تأمل في المثال التالي: نفترض أنني دخلت إلى معرض فني يعرض اللوحات

الأصلية (الخيالية بالكامل) لمكافحة المخدرات لنانسي ريجين في معرض يحمل عنوانًا "فقط قل لا". ونظرًا إلى موضوع المعرض، فقد تشكل لدي اعتقاد مبدئي أن نانسي ليست من متعاطي المخدرات. لنفترض أيضًا أنه عند دخولي المعرض رأيت نانسي بمفردها في غرفة، وفي نفس الوقت شممت رائحة مخدر الماريجوانا. هنا عارضان على الأقل لاعتقادي الأصلي (العقلاني) بأن نانسي ليست متعاطية للمخدرات: إنها فنانة (مرتبطة بصورة نمطية باللجوء للمساعدة الكيميائية طلبًا للإبداع)، ويبدو أنها كانت وحيدة في غرفة عندما شممت رائحة الماريجوانا. ولذلك، بينما كنت مبررًا في البداية في اعتقادي أن نانسي لم تكن ممن يتعاطى المخدرات (بناءً على دعوة المعرض لمكافحة المخدرات) فقد عورض هذا التبرير الأولي بالأدلة الجديدة.

إن الحصول على الدليل المعارض للعقلانية المبدئية لا يعني أنه من غير الممكن إثبات عقلانية الاعتقاد الأصلي في نهاية المطاف. فلنفترض أنني قابلت الآن زوج نانسي، وهو قاضٍ صارم عندما يتعلق الأمر بجرائم المخدرات، وأنني أرى، قاب قوسين أو أدنى، شخصية غير طبيعية مع سجارة ملفوفة في يده. إذا أخذت مجموعة البيانات الخاصة بي (نانسي فنانة، والفنانين لا يبتعدون عن تدخين الماريجوانا على الأرجح، وأشم رائحة الماريجوانا) وأضفت إلى ذلك معتقداتي الجديدة (نانسي متزوجة من قاضٍ صارم في جرائم المخدرات، وهناك شخصية ذات مظهر غير طبيعي مع سجارة ملفوفة في يده)، ومن ثم فإن اعتقادي الأولي (نانسي ليست متعاطية للمخدرات) من المرجح أن ينجو من الأدلة المقلقة مبدئيًا. إن رؤيتي للقاضي والتعرف على كراهيته لمتعاطي المخدرات يعيد لي ثقتي الأولية بأن نانسي ليست ممن يتعاطى المخدرات. ومرة أخرى، إذا كان دليلي الوحيد هو أن نانسي هي الفنانة الوحيدة في غرفة أشم فيها رائحة الماريجوانا، إذن (ربما) يتضاءَل اعتقادي الأولي، في حالة كانت كل الأشياء متساوية. لكن كل الأشياء ليست متساوية، ولذلك عند النظر في هذا الدليل الجديد، استعدت اعتقادي الأولي في نانسي بأنها ليست ممن يتعاطى المخدرات.

وبالمثل، يمكن للإنسان أن يستعيد عقلانية اعتقاده بأنه أعلى من المتوسط في

الأمر المعين. فإذا كنت تعتقد أنك سائق فوق المتوسط فقط بسبب ما تحدثه ملكة "أنا فوق المتوسط" الإدراكية لديك، فإن معرفة أن هذه الملكة لا تهدف إلى معرفة الحقيقة من شأنه أن يقوض عقلانية اعتقادك. ولكي يكون اعتقادك أنك سائق فوق المتوسط عقلانيًا فيجب أن تحصل على بعض الأدلة التي تثبت أنك في الواقع سائق فوق المتوسط (ربما بأن تحصل على الدرجة النهائية من أشد المحكمين صارمة في التصحيح وإعطاء الدرجات في مدرسة فوق متوسطة لتعليم للقيادة). فبعد أن يتعلم الإنسان أن ملكة "أنا فوق المتوسط" الإدراكية لا تهدف إلى معرفة الحقيقة معرفةً موثوقًا بها، فإن معتقداته بخصوص كونه فوق المتوسط ستنقض ما لم أو حتى يتمكن من الحصول على بعض الأدلة المستقلة لدعم معتقده بأنه فوق المتوسط. وهكذا يدعي البعض أننا اكتشفنا الأصول التطورية الخسيسة للملكة الإدراكية التي تنتج الاعتقاد بالله. فهذه الملكات لا تهدف إلى الحقيقة، وبالتالي فإن معرفة الأصول الأولية لمعتقد المرء بالله يقوض أو يعارض عقلانية الاعتقاد بالله.

معتقدات المنتج الثانوي

لدى البشر تجاعيد على مفاصل أصابعهم وينتشر الدم الأحمر في جميع أنحاء أجسادهم. ولكن لا التجاعيد الموجودة على أصابعنا ولا احمرار دمائنا قد تم انتخابهم من أجل التطور، بل هما منتجان ثانويان لصفات أخرى تم انتخابها[14]. ولا تعد الصفة التي هي منتج ثانوي صفة تكيفية، ولكنها صفة تصحب صفة أخرى تتسم بأنها تكيفية. فالكائنات الحية ذات الصفات الوراثية التي تسمح بإنتاج المزيد من النسل (أكثر من أولئك الذين يفتقرون إلى هذه الصفات) = من المرجح عمومًا

(14) هذه الصفات، التي حددها لأول مرة ستيفن جاي جولد وريتشارد سي ليونتين، غالبًا ما تسمى سباندرل Spandrel. انظر:
"The Spandrels of San Marco and the Panglossian Paradigm: A Critique of the Adaptationist Programme," Proceedings of the Royal Society B: Biological Sciences 205 (1979): 581-98.

أن تنتقل فيها تلك الصفات إلى الأجيال القادمة. فقد كانت صفة مرونة الأصابع على نحو متزايد، والإبهام المعاكس، والقلب النابض، وتدفق العناصر الغذائية التي تمنح الحياة عبر الدم من الصفات التكيفية بكل تأكيد. وكذلك كانت الأصابع المرنة المغطاة بجلد ذي صلابة وقابليته للتمدد وسمكه المعين مفيدة جدًا من الناحية التكييفية. وقد ساعد هذا المزيج البشر الأوائل في الحصول على الفاكهة والأدوات والرفقاء والنسل. وعندما يتم فرد الأصابع يتجمع الجلد حول مفاصل أصابعنا بطريقة متجعدة وهذا أحد الآثار الجانبية لانحناء الإصبع ومرونة بشرتنا. التجاعيد إذن هي نتاج ثانوي للصفات التكيفية المتعلقة بالأصابع. وبالمثل فإن إحمرار الدم ليس له وظيفة تكيفية، بل هو بالأحرى نتاج عارض لحقيقة أن الدم يحمل الهيموجلوبين (الذي هو تكييفي).

وكما لا يوجد إشكال في التجاعيد والدم الأحمر، فكذلك لا يوجد إشكال في المعتقدات التي هي منتج ثانوي بحد ذاتها. فالمعتقدات التي تصنف كمنتج ثانوي ليست بطبيعتها خاطئة أو غير عقلانية أو منحصرة كلها في ذهن الفرد. فمجموعة المعتقدات التي تؤسس العلم الطبيعي الحديث، على سبيل المثال، وربما معتقداتنا الأخلاقية أيضًا = هي معتقدات خرجت كمنتج ثانوي.

العلم الحديث - بما في ذلك، على سبيل المثال، القول بمركزية الشمس للكون والنظرية الذرية - هو اعتقاد ناتج ثانوي (أو بالأحرى مجموعة من المعتقدات) التي تصنف كمنتج ثانوي للملكات الإدراكية التي تم تطويرها منذ وقت طويل، لنقل على سبيل المثال قبل 1600 سنة. وكما يقرر نعوم تشومسكي فإن: "الخبرات التي شكلت مسار التطور لا تقدم أي تلميح للمشاكل التي يتم مواجهتها في العلوم. ومن المستبعد أن تكون القدرة على حل هذه المشاكل عاملاً في التطور"[15]. إن العلم الحديث يتعارض تمامًا مع ما نراه ونسمعه ونشعر به. فنحن نرى الشمس تشرق وتغرب، ولا نشعر بدوران الأرض، ولا نسمع أو نشعر بأن الرياح تندفع بسرعة آلاف الأميال في الساعة (والذي كان من الممكن لنا أن نتوقعه

(15) Noam Chomsky, The Essential Chomsky (New York: New Press, 2008), 248.

إذا كانت الأرض تندفع مسرعة عبر الفضاء في مدار حول الشمس). والظاهر لي أن الكرسي الذي أجلس عليه صلب وغير قابل للاختراق وثابت، وليس كتلة من جسيمات غير مرئية تطن بسرعة فائقة في مساحة أغلبها فراغ! لقد أنتجت ملكاتنا الإدراكية إنتاجًا طبيعيًا للفيزياء الشعبية - كون فيه الأرض مركزية و ذو أشياء عادية بحجم الكرسي - وليس العوالم الذرية والمركزية الشمسة المنافية للحدس منافاة شديدة.

يعتمد العلم الحديث، الذي ظهر متأخرًا جدًا على مشهد التطور البشري، اعتمادًا كبيرًا على قدراتنا الرياضية وقدراتنا على التفكير المجرد والسببي. وقد نشأت قدراتنا الرياضية من قدرتنا على العد، ونشأ التفكير المجرد من قدرتنا على التفكير بطريقة معاكسة. والقدراتان (في أبسط مستوياتهما) كانتا بالتأكيد قدرتين تكييفيتين. ضع في اعتبارك كيف نشأ العد: كم عدد الأعداء تحديدًا؟ وكم عدد الأطفال لدي؟ قد يكون سوء الحساب في كلتا الحالتين ضارًا بالنجاح الإنجابي للفرد. إن القدرة على العد - واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة - ستساهم إلى حد كبير عند دمجها مع طرق تفكير أكثر تجريدية في اكتشافات الهندسة وحساب التفاضل والتكامل. ولكن هذه التطورات الرياضية، التي، مرة أخرى، ظهرت في وقت متأخر جدًا في تاريخ البشرية كانت نتاجًا ثانويًا لملكات إدراكية أبسط تهدف إلى التعامل مع ضغوط بيئية أبسط.

يتعارض العلم الحديث، برفضه لمركزية الأرض وتأييده للواقع الكمومي، بشدة مع الحدس المشترك. فنظرًا إلى أننا لا نشعر بأن الأرض تدور أو تندفع عبر الفضاء، وبما أن الصخرة تبدو لنا وكأنها شيء صلب غير قابل للاختراق = فإن تطور العلم الحديث تطلب قدرة انضباطية عالية على التفكير بطريقة معاكسة (أو التفكير عكس الطرق المعتادة لتصور الحقائق). ومن الأرجح أن أسلافنا الذين طوروا القدرة على التفكير بطريقة معاكسة - من خلال التفكير في بدائل للعالم الواقعي ثم عرض سيناريوهات مختلفة لعواقب هذه البدائل ذهنيًا - تفوقوا في منافستهم على أولئك الذين لم يملكوا قدرات تكييفية كافية. "ماذا سيحدث إذا أردنا مهاجمتهم من هذا الاتجاه بدلاً من طريقتنا المعتادة؟" "ما الذي سيحدث إذا

قمت بضرب هاتين الصخرتين المسببتين للشرر بالقرب من بعض الأوراق الجافة جدًا؟" "ماذا يمكن أن يحدث إذا، استبدلنا رمي الحجارة بأيدينا العارية بأن نثبتها بطريقة ما في نهاية عصا طويلة؟" إن القدرة على التفكير بأسئلة "ماذا لو؟" مكنت من اتخاذ إجراءات معقدة على نحو متزايد ومن التخطيط تحسبًا لمختلف السيناريوهات المحتملة في بيئة الأجداد. وقد استفاد العلماء المعاصرون من التفكير المضاد بطرق منافية للحدس. وعندما يتم دمج التفكير بطريقة معاكسة، مع تمثيل الواقع في معادلات رياضية، ومع مجموعة من الملكات الإدراكية الأخرى التي لم تهدف إلى نشأة العلم الطبيعي الحديث، مثل التفكير السببي = نحصل (ومرة أخرى في وقت متأخر جدًا من تاريخ البشرية) على مركزية الشمس والنظرية الذرية والنسبية العامة. إن قدراتنا الإدراكية المطورة - والتي تطورت لقطف التوت وجلب الأزواج - لا تعرف شيئًا عن العلم الحديث. فالعلم الحديث هو منتج اعتقادي ثانوي (نتاج ثانوي رائع، ولكنه في نهاية الأمر نتاج ثانوي).

يزعم البعض أن الأخلاق أيضًا ناتج ثانوي. يؤكد الفيلسوف جيسي برينز Jesse Prinz، على سبيل المثال، أن قدرتنا على إصدار أحكام أخلاقية هي "عارض تطوري"[16]. ويرفض برينز وجهة النظر القائلة بأن الأخلاق البشرية كانت تكيفية. ويجادل بأنه لو كان ثمة غريزة أخلاقية فطرية، لكان للبشر معتقدات أخلاقية عالمية. لكنه يدعي عدم وجود مسلمات أخلاقية عالمية. ويختم بأن: "الأخلاق... منتج ثانوي للقدرات التي تم تطويرها لأغراض أخرى... فلا توجد آلية مكرسة خصيصًا لاكتساب المعايير الأخلاقية"[17]. يذهب برينز أنه لا وجود لملكات إدراكية فطرية أو أصيلة مكرسة للأخلاق. بل نشأت الأخلاق من ملكات إدراكية أخرى غير أخلاقية مثل: العاطفة والتقليد وتشكيل القواعد. فالأخلاق هي نتيجة ثانوية لتِحالف مشاعر معينة - لنقل من الاشمئزاز أو الخزي مثلًا - مع ميلنا إلى وضع القواعد. الأخلاق إذن هي مشاعر تم ضبطها لتتناغم مع القواعد.

---

(16) Jesse J. Prinz, "Against Moral Nativism," in Stich and His Critics, ed. Michael Bishop and Dominic Murphy (Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2009), 168.

(17) Prinz, "Against Moral Nativism," 168.

والعلم الحديث هو بالتأكيد مجموعة من معتقدات النتاج الثانوي. وقد تكون الأخلاق مجموعة من معتقدات النتاج الثانوي. والدين، كما يرى البعض، هو اعتقاد نتاج ثانوي. إن سبب نقاشي لمعتقدات النتاج الثانوي هنا هو إثارة سؤال مهم: هل الدين، على القول بأنه منتج اعتقادي ثانوي، عقلاني أم غير عقلاني؟ هذا - جزئيًا - وظيفة المعتقدات الدينية المعينة التي تدور في ذهن المرء والمدى الذي يحكم عليه المرء بأنه مشابه بمعتقدات المنتجات الثانوية الأخرى مثل العلم أو الأخلاق. على سبيل المثال: هل يشبه الاعتقاد بالله نظرية علمية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يتمتع بالتبرير الذي يتمتع به العلم الحديث؟ وإذا لم يكن له تلك التبريرات، فهل يجب أن يبرر كما تبرر الاعتقادات العلمية؟ أم أن الاعتقاد بالله يشبه أحكامنا الأخلاقية؟ وهل له مبررات مشابه لمبررات معتقداتنا الأخلاقية؟ وإذا لم يكن كذلك، فهل له معايير تبريرية تختلف عن معايير تبرير المعتقدات الأخلاقية؟ وفي جوار المعتقدات الأخلاقية، كيف يؤثر الخلاف الديني على تبرير الفرد لمعتقده الديني (بطرق مشابهة لأحكامنا الأخلاقية)؟

حتى لو كان المعتقد الديني هو اعتقاد نتاج ثانوي، فلن يكون ذلك في حد ذاته برهانًا لعدم عقلانية المعتقد الديني. فعلم الدين الإدراكي نفسه (وفي الواقع كل العلوم الإدراكية) هي منتجات اعتقادية ثانوية؛ فلا هي تكيفية، ولا هي تمتلك وظائف تطورية، ولم يتم إنتاجها مباشرة من خلال الانتخاب الطبيعي. إن علم الدين الإدراكي وأي استنتاجات يتوصل إليها الإنسان عن طريق هذا العلم بخصوص حقيقة أو زيف وعقلانية أو لاعقلانية المعتقدات الدينية هي كلها منتجات اعتقادية ثانوية. دعونا إذن نعمل بحذر وبدون تسرع في الحكم.

معارضة الاعتقاد بالله

هل يُظهر الكشف عن سبب المعتقدات الدينية أنها تعبيرات خيالية لآليات إدراكية خفية؟ ماذا لو أنك شكلت اعتقادًا بأنك اكتسبت معتقدك في الله من خلال عمليات لا تتضمن تفكيرًا عقلانيًا ولا تحريضًا إلهيًا، بل تم إنتاج الاعتقاد بالله،

كما تنتج الاعتقادات في الجنيات والعفاريت، من قبل ملكات إدراكية قد امتدت خارج نطاقها الشرعي إلى ما بعد نقطة الانهيار؟

لنتأمل في مثال آخر يبين كيف أن معرفة الإنسان بأن اعتقاده قد تم إنتاجه من خلال عملية إدراكية لا تهدف الحقيقة يقوض عقلانيته (وفي المقابل يبين هذا المثال أن الاعتماد على ملكات إدراكية قاصدة للحقيقة يدعم عقلانية الفرد).

افترض أن داثان أقام حفلة عيد ميلاد لأخيه كارستن. وقبل بدء الحفلة مباشرة، مرر داثان خفيةً إلى كارستن حبة باراك أوباما؛ وهي حبة تنتج إحساسًا بصريًا جليًا بباراك أوباما (والتي من شأنها أيضًا أن تجعل الإنسان غير قادر على رؤية باراك أوباما الحقيقي في الوقت الذي يكون فيه قادرًا على رؤية كل شيء آخر). ويبدو الإحساس البصري لباراك أوباما واقعيًا لدرجة أنه لا يمكن تمييزه من الناحية الظاهراتية عن الإدراك الحقيقي. يبدو حقيقيًا مثل أي إحساس بصري حقيقي، ولكن تذكر أنه يمنع المرء من رؤية باراك أوباما الحقيقي (حتى لو كان يقف أمامه مباشرة). إن الإحساس البصري بأوباما الناجم عن حبة باراك أوباما يبدو حقيقيًا تمامًا مثل الإدراك الحقيقي الذي لدي الآن لقطتي الجالسة في حضني.

ولنفترض أن داثان قد دعا باراك أوباما إلى حفل كارستن. وعندما دخل باراك من الباب، هتف كارستن مبتهجًا (تذكر: بدون رؤيته فعليًا): "باراك أوباما في حفلتي! هذا أفضل حفل على الإطلاق! شكرا لك أخي داثان". وضحك داثان بشدة.

ولنفترض أنه تم إخبار كارستن في اليوم التالي عن حبة باراك أوباما. ففي اللحظة التي يعلم فيها أن اعتقاده بأوباما قد تشكل من قبل حبة باراك أوباما (وليس من قبل حضور أوباما نفسه) يتم تقويض ومعارضة وإزالة عقلانية كارستن. فمعرفة أن اعتقاده كان بسبب العمليات العصبية التي تسببها حبة باراك أوباما يجعل كارستن غير عقلاني، حتى لو كان لدى كارستن اعتقاد صادق (وهو ما حصل - فقد ظهر أوباما في الحفل)، فإن العملية التي أسفرت عن اعتقاده الحسي الظاهر لم تهدف إلى الحقيقة. وبمعرفة أن اعتقاده بأوباما نتج عن عملية لا تهدف إلى الحقيقة (بفعل مستحضر كميائي)، يتم تقويض عقلانيته الأولية. قال داثان لكارستن: "لقد

اعتقدت أن باراك أوباما كان في حفلتك بسبب حبة باراك أوباما (التي لا تهدف إلى الحقيقة)".

فإذا تشكل لدى إنسان اعتقاد بأن ملكة الاعتقاد بالله مثل حبة باراك أوباما فسيتم تقويض العقلانية المبدئية لاعتقاده في الله. وعلى الرغم من إمكان وجود الإله، تمامًا كما كان من الممكن أن يكون أوباما في الغرفة، فإن الاعتقاد بالله لم يعد خيارًا فكريًا ناجحًا.

يقول دوكينز للمؤمن المتدين: "أنت تعتقد بالله فقط بسبب ملكة الاعتقاد بالله (غير الهادفة إلى الحقيقة)".

معارضة المعارضة

قد يكون أحد الردود على هذا الاعتراض هو إظهار أن معتقدات الله، بغض النظر عن الظاهر، ليست حقًا مثل اعتقاد كارستن في أوباما. دعونا نفكر مليًا في المشكلة الدقيقة المتعلقة باعتقاد كارستن بأوباما ثم نرى ما إذا كان الاعتقاد بالله يعاني من العيب ذاته. ومن أجل صياغة رد على الادعاء بأن علم الدين الإدراكي يقوض عقلانية المعتقد الديني نحتاج إلى فهم أفضل للسبب الذي يجعل اعتقاد كارستن بأوباما مشكلًا.

كيف يختلف اعتقاد كارستن في أوباما عن الاعتقاد الإدراكي الحقيقي (أي الصادق أو الموافق للواقع)؟ عندما أرى باراك أوباما في الحقيقة، فإن قدراتي الحسية (الرؤية البصرية) تنقل المعلومات إلى تلك الأجزاء من مخي التي تعالج المعلومات المرئية (الأحاسيس) ثم تنتقل تلك المعلومات إلى الجزء من عقلي المتعلق بالاعتقاد. ويضاف إلى ذلك، أني في حالة الإدراك الحقيقي أرى باراك أوباما - أي إنني في علاقة صحيحة مع موضوع إدراكي (باراك أوباما)؛ فباراك أوباما هو سبب اعتقادي أنني أرى باراك أوباما.

كان لدى كارستن اعتقاد حسي، لكن حبوب باراك أوباما تحايلت على العمليات الإدراكية الصحيحة لإنتاج معتقدات حسية. بالإضافة إلى أن كارستن لم

يكن على علاقة سببية صحيحة مع موضوع تصوره الظاهري (باراك أوباما)؛ فالحبوب، وليس باراك أوباما ذاته، كانت سبب اعتقاده. وهكذا لما تم إعلامه تمت معارضة عقلانية كارستن الأولية.

يتضمن الإدراك الحقيقي كلاً من العمليات الإدراكية الصحيحة (التي يمكن أن تضعنا في النوع الصحيح من العلاقة مع موضوع الإدراك)، والنوع الصحيح من العلاقة بهذا الموضوع (والأفضل تعبيرًا أن نقول إنه يتضمن كون الموضوع في النوع الصحيح من العلاقة مع ملكاتنا الإدراكية). يجب أن تؤدي العمليات الإدراكية المعنية إلى تكوين معتقدات صادقة عن الموضوع وتجعلنا "على علاقة" مع الموضوع. فاعتقادي أنني أرى أوباما يجب أن يتضمن عمليات إدراكية تمكنني من تصوري لأوباما وتمنحني القدرة على تكوين معتقدات حقيقية عن أوباما، ويجب أن تضعني هذه العمليات في علاقة إدراكية مع الشخص الذي تسبب في الإحساس. ولا يمكنني الاعتماد على السمع أو التذوق لإنتاج الإحساس البصري المطلوب للاعتقاد بأنني أرى أوباما. ولا يمكنني استخدام العقل لإنتاج اعتقادي بأنني أرى أوباما. بل يجب أن تضعني ملكتي البصرية في علاقة بصرية مع أوباما. وأخيرًا، يجب أن يكون باراك أوباما هو مصدر وسبب مشاعري - أي خارج ذهني، هناك في العالم.

ماذا عن أنواع المعتقدات الأخرى؟ ما الذي يجعلها عقلانية؟ توجد عمليات مماثلة متعلقة بإنتاج معتقدات أخرى. دعونا نفكر في اثنين فقط: معتقدات الذاكرة، ومعتقدات الشخصيات[18].

يجب أن تتضمن معتقدات ذاكرتي العقلانية ملكات الذاكرة لدي، والتي يجب أن تضعني في النوع الصحيح من "العلاقة" بشيء حدث بالفعل في الماضي. ولذلك فإن اعتقادي أن ليلة ولادة ابني ويل كانت مظلمة وهبت فيها عاصفة يجب

---

(18) ما أزعمه هنا فقط هو أن الإدراك الحسي العقلاني أو المعتقدات الشبيهة بالإدراك الحسي تتطلب نوعًا صحيحًا من الاتصال السببي مع موضوع هذا الاعتقاد. ولا أزعم ذلك كحقيقة ضرورية.

أن تنتجها ملكة الذاكرة لدي، ويجب أن تكون مرتبطة بطريقة مناسبة بتلك الليلة المظلمة ووجود العاصفة. لنفترض أنه بعد السرد المفعم بالحنان لظروف ولادة ابني على خشبة مسرح لمجموعة كبيرة من الناس سمعت أصوات طرقعة أصابع ثم علمت أن المنوم المغناطيسي قد أدخل هذا الاعتقاد في ذهني قبل لحظات قليلة. في تلك الظروف، لن يكون اعتقاد الذاكرة هذا قابلاً للدفاع عنه (على الرغم من أنه قد يكون صحيحًا).

من الصعب تحديد ما يمكن أن نعنيه بالضبط بـ "النوع الصحيح من العلاقة بالماضي" عند التفكير في معتقدات الذاكرة. فلا تتأتى لنا تلك العلاقة مع الماضي كما تتأتى لنا مع الأشياء في الحاضر. فالماضي ليس هنا الآن أمامنا بالطريقة التي يكون بها الشيء المادي الحاضر؛ ولا يمكننا لمس الأشياء في الماضي أو رؤيتها. ومع ذلك، إذا تم إنتاج اعتقادي من قبل ملكة الذاكرة، وإذا وضعتني هذه الملكة في النوع الصحيح من الاتصال مع حدث في الماضي = فإن اعتقادي بالذاكرة سيكون عقلانيًا. يجب أن يوجد حدث ما، شيء لم يعد لدي أي وصول مباشر إليه، والذي حدث بالفعل، وهذا هو سبب معتقدات الذاكرة لدى. إذا تم إخباري على نحو موثوق أن ليلة ولادة ابني لم تكن مظلمة وعاصفة فإن اعتقاد الذاكرة العقلاني مبدئيًا سوف يُعارض. أو بعبارة أفضل: إذا عرفت أن اعتقادي بأن ليلة ولادة ابني كانت مظلمة وعاصفة نتجت عن عملية غير هادفة للحقيقة (كالتنويم المغناطيسي مثلًا) = فإن اعتقادي العقلاني مبدئيًا سوف يعارض.

والآن لنتكلم عن المعتقدات حول كينونة الأشخاص. تنتج نظرية العقل (ToM) معتقدات عقلانية عندما أتواصل مع فاعليين مشخصين. وتقوم نظرية العقل بهذه الوظيفة بطريقتين مختلفتين تمامًا. أولاً: تنتج نظرية العقل (ToM) في داخلي الاعتقاد بوجود أشخاص آخرين. قد يظن المرء أن إدراك جسم شخص مساو لإدراك ذلك الشخص. ولذا فمن المهم ملاحظة أن ما يجعل الشخص شخصًا ليس هو جسده (الأشياء التي يمكننا رؤيتها) ولكن أفكاره وشعوره ورغباته (الأشياء التي لا يمكننا رؤيتها). ولو كان البدو الظاهري بامتلاك جسم بشري كافياً للحكم على الشيء بأنه شخص، لكانت الروبوتات المجسدة أشخاصًا، ولكن بما أن الروبوتات

تفتقر إلى الأفكار والمشاعر والرغبات فهي ليست أشخاصًا. وحتى بالنسبة للروبوتات المماثلة للأجسام البشرية مماثلة مثالية، فإنها ليست أشخاصًا. والقصد أن امتلاك جسم شبيه بالإنسان لا يعني كون الشيء شخصًا. بل يتطلب كون الشيء شخصًا امتلاك الأفكار والمشاعر والرغبات أو القدرة على ذلك. ولأنني لا أستطيع رؤية أفكار ومشاعر ورغبات شخص آخر (على الرغم من أنني أستطيع رؤية جسد شخص آخر)، فأنا عاجز عن رؤية عين الشئ الذي كان من المفترض أن احتاج إليه لو كان يتوجب عليّ امتلاك أدلة من أجل الاعتقاد بوجود أشخاص آخرين. يمكنني بالطبع معرفة أنني شخص لأن لدي وصول استبطاني مباشر إلى أفكاري ومشاعري ورغباتي، ولكن لا يمكنني رؤية أفكارك ومشاعرك ورغباتك أو الشعور بها. ومع ذلك، ودون انتظار الدليل (الذي لا أستطيع الحصول عليه)، تنتج نظرية العقل ToM بصورة مباشرة معتقدات أشخاص كلما تواصلت مع شخص آخر.

إن نظرية العقل (ToM) لا تنتج فقط الاعتقاد بأنك شخص. ولكنها تنتج أيضًا، دون نظر أو استدلال، بعض المعتقدات حول معتقداتك. وهذا يعني أن ToM تشكل معتقدات داخلي حول أفكارك ومشاعرك ورغباتك. فقد أرى وجهك ويتشكل على الفور الاعتقاد بأنك سعيد، وقد أشاهد طريقة مشيتك وأعتقد فورًا أنك مكتئب، أو قد أتلقى خطابًا وأكون على الفور اعتقادًا بأنك تشعر بالوحدة. يمكن الاعتماد على نظرية العقل بدرجة معقولة لتوليد معتقدات حقيقية حول معتقدات الآخرين. إن نظرية العقل ToM تُفَعّل في اليوم الواحد مرات لا تحصى: أثناء القيادة من وإلى العمل، وأثناء المشي في المركز التجاري، أو أثناء مشاهدة التلفزيون أو الاستماع إلى الراديو. وعلى نحو مباشر ومستمر أجد نفسي مع معتقدات الأشخاص التي تتولد عن نوع من الاتصال مع شخص آخر وتعالج بواسطة نظرية العقل ToM، هذا بالإضافة إلى معتقدات الأشخاص الآخرين ومشاعرهم ورغباتهم (على الرغم من أنني لا أستطيع أن أرى ما في أذهانهم).

تنتج نظرية العقل أيضًا بعض المعتقدات الخاطئة. فعندما كان أطفالي صغارًا كانوا يدخلون غرفة نومهم ليلًا ويذهلون من المظهر الطباشيري لجدهم الأكبر المرسوم على لوحة معلقة بالحائط. كان شاربه المقود وعيناه المركزة بحدة ومظهره

القاتم غير المبتسم = أكثر مما يمكنهم تحمله. وبدأت قلوبهم الرقيقة تنبض بسرعة وشعروا أن هناك من يراقبهم وأنه على استعداد للقفز من الظل ليسحقهم. كانوا يشعلون الضوء بسرعة لتهدأ نفوسهم ويرون أنها مجرد تلك الصورة اللعينة مرة أخرى. وبمجرد أن أدركوا أنهم خائفون من صورة هامدة فإن اعتقادهم بوجود شخص آخر في الغرفة لم يعد عقلانيًا. المشكلة هنا: أن اعتقاد الأشخاص نجم عن صورة وليس عن شخص حقيقي. تنتج نظرية العقل (ToM) معتقدات عقلانية عندما يكون سببها شخصًا حقيقيًا. ولذلك إذا أدركنا أن الاعتقاد في وجود الشخص person belief الذي شكلناه لم يكن بسبب وجود شخص حقيقي فإنه يصبح بالتالي غير عقلاني.

وكما هو الحال مع الذاكرة، يصعب تحديد ما يشكل العلاقة السببية المناسبة مع الأشخاص. أما الحالة النموذجية فهي واضحة - وتكون عندما أنظر إلى إنسان آخر في إضاءة جيدة تمامًا - ولكنها، مرة أخرى، مشكلة (للفلاسفة). تذكر أنني لا أرى عقل شخص آخر حتى في أفضل حالات الضوء؛ ولكني أرى جسد الشخص وحسب. ولذا فأنا لا أدرك حسيًا الأشخاص بالمعنى الدقيق للكلمة. قد يتم تفعيل نظرية العقل (ToM) من خلال إدراك جسم الإنسان في بعض الحالات، ولكنها ليست عملية حسية (لأنني لا أرى الأفكار والمشاعر والرغبات التي تنتج معتقداتي في أفكار الشخص ومشاعره ورغباته). فعندما أرى نوعًا معينًا من الجسد - جسدًا بشريًا - أجد نفسي أعتقد أن هذا شخص (ولذا أعامله بطريقة مختلفة تمامًا عما أعامل، على سبيل المثال، أواني المطبخ، أو الأعشاب في حديقتي، أو كرسي مريح).

بينما قد تقودني نظرية العقل في الحالة النموذج إلى النوع الصحيح من العلاقة مع شخص قريب متواجد بصورة مادية، إلا أن العلاقة بالأشخاص لا يتطلب بالضرورة القرب الجسدي. في الواقع، لست حتى في حاجة إلى رؤية جسم بشري لتشكيل اعتقاد صحيح بوجود أشخاص آخرين أو اعتقادات عنهم. بل يمكنني أن أحصل على علاقة بشخص ما من خلال قراءة رسالة كتبها لي ما أو رسالة بريد إلكتروني أرسلها لي. ويمكن لفتاة أن تميّز نوايا حبيبها بقراءة كتابات كتبها في السماء بدخان أبيض ينبعث من طائرة تتضمن عرضًا بالزواج. وأستطيع أن أعرف أن

زوجتي غاضبة إذا تم تقديم البنجر المعلب البارد على مائدة العشاء أو إذا تم إغلاق الباب بصوت عالٍ في غرفة أخرى. ويمكنني التعرف على الأشخاص من تقارير الصحف أو السيرة الذاتية أو من خلال القيل والقال. وعندما أرى تكوينات إلكترونية على شاشة التليفزيون تصطدم بشبكية عيني، وتحفز العصي والمخاريط، وتنتج الاعتقاد بأن البابا، في منتصف الطريق حول العالم، يهتم بالفقراء بشغف. وتبقى خلاصة القول: أن نظرية العقل (ToM) تعمل عندما تنتج معتقدات حقيقية عن الأشخاص يسببها شخص في النهاية.

نحن الآن في وضع يسمح لنا بتحديد الخطأ الذي حدث مع كارستن تحت تأثير حبة باراك أوباما. لقد عورض اعتقاد كارستن بأوباما - وهو اعتقاد عقلاني مبدئيًا - عندما علم كارستن بأمرين. أولاً: علم أن اعتقاده الحسي لم يتشكل من قبل ملكات الإدراك الحسي على الإطلاق. فقط الملكات الحسية هي التي تنتج معتقدات حسية عقلانية (وليس، على سبيل المثال، العمليات الكيميائية العصبية التي يسببها الدواء). ثانيًا: علم كارستن أن اعتقاده لا ينطوي على علاقة سببية مع موضوع الإدراك؛ فلم يكن سبب الاعتقاد هو باراك أوباما نفسه. وبالتالي، فإن اعتقاد كارستن في أوباما لم يعد عقلانيًا.

والآن نحن في وضع يسمح لنا بالتساؤل: هل معتقدات الله مثل اعتقاد كارستن بأوباما؟ هل صارت معتقدات الله متعذر الدفاع عنها بسبب العمليات الإدراكية المنتجة للمعتقدات؟

الله وباراك أوباما

تؤكد الميمات الرائجة أن الله مثله مثل الكثير من الأشياء. الله مثل كوكاكولا: فهو الشيء الحقيقي[19]. إن الله مثل شركة التأمين أولستايت: أنت في أيدٍ أمينة مع الله[20]. حتى إن الله مثل بطاقات هولمارك: فهو يهتم بما يكفي

---

(19) عبارة "إنه الشيء الحقيقي" كان شعارا تشتهر به شركة كوكاكولا.

(20) الشعار الأصلي لشركة التأمين أنت في يد أمينة مع أولستايت

لإرسال أفضل ما لديه. ولكن إذا كانت معتقدات الله مثل اعتقاد كارستن في أوباما فإن معرفة أنه تم إنتاج هذه المعتقدات من قبل ملكات معرفية لا تهدف للوصول إلى الحقيقة من شأنه أن يقوض عقلانية معتقدات الإنسان عن الله. ويقرر علم الدين الإدراكي أن هناك خبرات أو ظروفًا عادية جدًا وبعض الخبرات الاستثنائية حفزت البشر الأوائل على تكوين معتقدات الله (الآلهة). وبعض هذه الأنواع العادية من الظروف - مثل سماع صوت اصطدام شيء ما بالليل أو سماع حفيف في العشب - يمكن أن ينتج معتقدات في فاعل حيث لا يكون ثمة فاعلين. ويمكن لأشياء غير فاعلة مثل السحب وأنماط الطقس أن تحفز بالمثل الاعتقاد بفاعلين خارقين. يبدو إذن أن ملكة الاعتقاد بالله تقوم بانتزاع معتقدات الله من لا شيء. وإذا لم يكن الله سببًا في انبعاث تلك المعتقدات وتم إبلاغ المرء بذلك فسيكون الاعتقاد بالله قد تم تقويضه مثل اعتقاد كارستن بأوباما.

لنفترض أن هناك إلهًا ارتبطت به معتقدات بعض الناس ارتباطًا صحيحًا في بعض الأوقات. فهل اكتشاف أن الملكات التي تدفعنا إلى الاعتقاد بالله تخفق في مناسبات معينة (أي تنتج الاعتقاد بالله دون أن يكون الله سبب الاعتقاد) تقوض الاعتقاد العقلاني بالله؟

إذا توصل الإنسان إلى العلم بأن الله لم يكن سببًا في إنتاج اعتقاده به فأرى أنه لم يعد بإمكان ذلك الشخص أن يعتقد بالله اعتقادًا عقلانيًا. وكذلك إذا توصل الإنسان إلى الاعتقاد بأن معتقداته عن الله كانت نتيجة عمليات إدراكية لا تهدف إلى الحقيقة فأرى أيضًا أنه لم يعد بإمكانه أن يعتقد بالله اعتقادًا عقلانيًا. ولكن هل أظهر علم الدين الإدراكي أن الله لم يكن سببيًا (ولو غير مباشر) للاعتقاد؟ حتى تثبت أن معتقدات الله تشبه اعتقاد كارستين بأوباما يجب إثبات أن الله لم يكن سببيًا في إنتاج المعتقدات.

وكما قد يتوقع الواحد منا فإن مسألة كيفية تسبب الله في اعتقادنا به اعتقادًا صحيحًا مسألة معقدة. تذكر أنه من الصعب أن تقرر كيف يمكن للماضي أن يتسبب في معتقدات الذاكرة، بل إنه من الصعب تحديد كيفية تسبب الأشخاص في معتقدات الشخص. يمكننا إنشاء علاقة تواصل مع شخص من خلال الرسائل

والبريد الإلكتروني والتلفزيون والراديو والإنترنت وإشارات الدخان والعديد من الطرق الأخرى، لكن تذكر أننا لا نتواصل أبدًا على نحو مباشر مع العقول، ذلك الجانب المميز الذي يجعل الأشخاص أشخاصًا. ولذا، مرة أخرى، من الصعب أن تقرر بدقة كيف يتسبب الأشخاص والماضي في معتقداتنا حول الأشخاص والماضي. لكن على أية حال يجب أن يكون السبب النهائي لاعتقاد الذاكرة حدثًا فعليًا في الماضي، ويجب أن يكون السبب النهائي لمعتقداتي حول الأشخاص هم الأشخاص.

كيف يمكن أن يكون الله سببًا لمعتقدات الله؟ قد يتسبب الله في خلق ميل فطري داخل البشر للاعتقاد به من خلال عمليات تطورية والتي يتم اكتشافها بواسطة علم الدين الإدراكي. ويمكن أن يتسبب الله في خلق خبرة دينية لشخص يصعب وصفها بالكلمات. ومن الممكن أيضًا لأي شخص لديه مثل هذه الخبرة أن يخبر الناس عنها؛ وينتقل تبرير اعتقاده من خلال الشهادة. ومن الممكن أن ترجع سلسة الشهادات الموثوقة لسنوات عديدة وعبر العديد من الأشخاص طالما أنها تنتهي إلى شخص تلقى الخبرة الدينية من قبل الله (وأن الشهادة لم يتم تحريفها من قبل الآخرين). وقد يرسل لنا الله نوعًا من الوحي (على سبيل المثال، رسالة يتم توصيلها من خلال بشر مبلغين) أو يخلق فينا ضميرًا يربطنا بالمصدر النهائي للخير. وإذا كان الله هو موجد الطبيعة أو مصدر الخير الأعظم فمن الممكن أن يستعمل الله ملكاتنا الغائية (تذكر ميلنا البشري لرؤية الغاية في أشياء كثيرة) أو أعمق رغباتنا ليقودنا نحوه. وباختصار، هناك طرق لا حصر لها يمكن أن يكون الله من خلالها سببًا لاعتقاد عقلاني بالله.

وفي حين أن الله ذاته قد لا يكون السبب المباشر لمعتقدات الله فإنه قد يكون مع ذلك السبب النهائي لهذه المعتقدات. فإذا كان الله هو السبب الأول الموجد للكون (بما في ذلك جميع القوانين الطبيعية)، وإذا كان الله قد أرشد أو وجه العمليات التطورية بحيث ينتج عنها ملكة الله حتى يتمكن الناس من تكوين معتقدات حقيقية عن الله وإقامة علاقة مناسبة معه، فإن الله هو السبب النهائي لمعتقداتنا عنه. وبالتالي تكون معتقداتنا عن الله قد نشأت بسبب موضوعها

الصحيح، ألا وهو الله. نعم، قد لا يكون الله متدخلًا تدخلًا مباشرًا في إنتاج معتقدات الله، ولكن لا يجب أن يكون سبب معتقدات الإنسان مباشرًا أو فوريًا. فإذا كان الله هو السبب النهائي للمعتقدات الصادقة عنه فيمكن أن تكون معتقدات الله عقلانية حتى ولو كانت ناتجة عن عمليات طبيعية ولم يكن الله في الجوار المباشر. فالعلم بأن السبب المباشر لمعتقدات الله تنطوي على ملكات طبيعية لا يدل على أن معتقداتنا عن الله غير مبررة في نهاية الأمر. ويتوجب علينا حتى نثبت عدم تبرير معتقدات الله أن نثبت أن الله لم يكن السبب النهائي لهذه المعتقدات. وهذا ما لم يتم إثباته.

إذا كان ثمة إله، فإن إدراك العمليات الطبيعية التي تنتج الاعتقاد به لا يثبت أن الاعتقاد به غير عقلاني. ولذلك، قد لا تكون معتقدات الله مثل معتقدات كارستن بأوباما. فإذا تم إنتاج معتقدات الله من قبل الملكات إدراكية الملائمة لموضوعها وكانت الله هو المتسبب النهائي في تلك المعتقدات فمن الممكن للمرء أن يعتقد بالله اعتقادًا عقلانيًا. وإذا كان يوجد إله فإن معرفة العمليات الطبيعية التي أنتجت هذه المعتقدات لا تسلب عقلانية معتقدات الله.

ومن أجل أن نعرف أو نعتقد اعتقادًا عقلانيًا أن الله ليس هو السبب النهائي لمعتقدات الإنسان عن الله سنحتاج إلى أن نعرف أو نعتقد على نحو عقلاني أن الله غير موجود (وليس فقط إظهار أن العمليات الطبيعية متورطة في إنتاج معتقدات الله). لكن دوكينز ودينيت والآخرين لم يقوموا بذلك، ولم يقوموا بأكثر من إظهار أن العمليات الطبيعية متورطة في إنتاج معتقدات الله. ولكن هذا لا يكفي لتقويض عقلانية معتقدات الله، ولإثبات عدم العقلانية سيحتاجون إلى تقديم حجة مقنعة ضد وجود الله، وهذا ما لم يفعلوه. وحيث أنهم لا يعتقدون بوجود الله فهم كذلك لا يعتقدون أن الله هو سبب معتقدات الله. ولكنهم لم يثبتوا أن الله ليس موجودًا، ولا يمكنهم فعل ذلك ببساطة من خلال الإشارة إلى أن معتقدات الله تنطوي على عمليات طبيعية. إذن، ليس من اليسير إظهار أن المعتقدات الدينية غير عقلانية.

تأمل حالة مماثلة ضد الاعتقاد بعقول الآخرين. لنفترض أن عالِمًا في علوم الإدراك، دعنا نسميه فانييل فينيت، جادل بأن البيانات الصادرة عن علوم الإدراك

وعلم الأعصاب وعلم التطور بخصوص معتقدات العقل تُظهر أن الاعتقاد بعقول الآخرين وأشخاصهم هو نتيجة لعملية الانتخاب الطبيعي لما تسببه من فائدة تكيفية. وأضاف البروفيسور فينيت أن لدينا ملكات إدراكية خاصة، والتي تمنحنا في ظل الظروف العادية مثل هذه المعتقدات، وأننا نعرف الكثير عن بنية المخ التي تقوم عليها هذه الملكات. وخلص البروفيسور فينيت إلى أن لدينا الآن معارض للاعتقاد بعقول الآخرين، وبالتالي فإن الاستمرار في الاعتقاد بهم هو أمر غير عقلاني.

ولكن إذا كانت لدينا ملكة إدراكية، وليكن على سبيل المثال نظرية العقل (ToM)، التي تنتج معتقدات صادقة حول أفكار الآخرين ومشاعرهم ورغباتهم، معتقدات سببها أشخاص آخرون وتم انتاجها من خلال عملية إدراكية صحيحة، فإن معرفة أن نظرية العقل أنتجت طبيعيًا لا تقدم الكثير لإلحاق الهزيمة بأمر تلك المعتقدات.

فلا يمكننا معرفة ما إذا كانت نظرية العقل معيبة حتى نعرف بالفعل أن الأناس الآخرين يفتقرون إلى العقول. وبالمثل، لا يمكننا معرفة ما إذا كانت ملكة الله معيبة حتى نعلم بالفعل أنه لا يوجد إله. وإذا كان الإنسان لا يعتقد بالله، فسيعتقد أن الله ليس السبب النهائي لمعتقدات الله، ولكن هذا الجزء اليسير من السيرة الذاتية تخبرنا أكثر عن المعتقدات الخاصة للملحدين أكثر مما تخبرنا عن منطق الموقف ذاته. ونادرًا ما تشكل معتقدات الملحد الخاصة في هذا الشأن دليلاً على عدم وجود إله. فما لم يكن للمؤمن أدلة كافية مضادة للاعتقاد بوجود الله فلن يكون لديه سبب للاعتقاد بأن الله ليس هو السبب (النهائي) لاعتقاده. (قد يجادل غير المؤمنين بأن التفسير الطبيعي الخالي من عنصر الله أفضل من التفسير الطبيعي الذي يحتوي عليه، لأن الأول أبسط [أو قد يجادل بأن إضافة الله كسبب نهائي هو أمر خاصَ أو فائض غير ضروري]).

وبالنسبة للمؤمن، فإن معرفة أن معتقداته ومعتقدات الآخرين تنطوي على ملكات إدراكية طبيعية جدًا (حتى تلك التي نشأت تطوريًا ومصادفة) لا تكفي لهزيمة عقلانيتها.

يمكن لخبرة الإنسان عن الله أن تمتد لترسخ اعتقاده العقلاني بالله حتى لو أدرك الإنسان العمليات الطبيعية المشاركة في إنتاج وتغذية اعتقاده بالله. بالإضافة إلى أن الخلاف، حتى بين الأذكياء العباقرة، بشأن هذه المسألة لا يستلزم تقويض اعتقاد الإنسان العقلاني بالله. دعونا ننظر في بعض الأمثلة.

لنفترض أنك قرأت أن الديوك الرومية البرية خرجت منذ زمن طويل من ولاية ميشيغان. وكل كتاب تقرأه في هذا الصدد يعطيك سببًا وجيهًا للاعتقاد بأن الديك الرومي البري قد اختفى من الولاية. وبناءً على الدليل القضوي الذي حصلت عليه من الكتب، التي سطرت من قبل السلطات المعرفية المختصة، يكون من المعقول الاعتقاد بأن الديوك الرومية البرية لم تعد موجودة في ولاية ميشيغان. لكن لنفترض أنك استيقظت مبكرًا وخرجت إلى الفناء الخلفي الخاص بك في ميشيغان لتجد نفسك وجهًا لوجه مع قطيع من الديوك الرومية البرية. في تلك اللحظة سيكون لديك سبب جيد مبني على الخبرة للاعتقاد بأن الديوك الرومية البرية تعيش في ولاية ميشيغان. وهذا السبب ليس قضويًا، بل هو خبراتي (فأنت ترى ديكًا روميًا). إن سببك ليس حجة (إلا إذا كان بإمكانك تحويل "الذي أراه هو كذا، أو أرى كذا" إلى حجة). فأنت ببساطة ترى ديكًا روميًا بريًا وتجد نفسك تعتقد أن ثمة ديكًا روميًا بريًا أمامك. ويرتكز اعتقادك على نحو معقول ومستقل على خبرتك البصرية، وليس على حجة قضوية. تنشط الديوك الرومية البرية ملكاتك الإدراكية بطريقة تعمل على إنتاج الاعتقاد بوجود الديوك الرومية البرية على الفور ومن غير استدلال. وفي حين قد يختلف معك الكتّاب الخبراء في كتبهم ومقالاتهم عن الديوك الرومية البرية فإن لديك الحق أن تقول "وليكن!" فهم لم يروا ما رأيت. وعلى الرغم من اختلافهم فإن كلاكما عقلاني (إلى أن يأتي الخبراء ويروا بأنفسهم الديوك الرومية التي رأيت).

ولنقترب أكثر من قضية الله، افترض أن والدتك أخبرتك أنت وأخوك وأختك أن والدك غرق بسفينته في البحر وأظهرت لكم جميعًا مقالة إخبارية تفيد بوفاة

والدكم. وبعد بضع سنوات، وبينما أنت تمشي على شاطئ في بنما رأيت والدك منتفعًا فخورًا من عملية الاحتيال على شركة التأمين. فتقدمت إليه وتحدثت معه. وبينما يعتقد أخوك وأختك في المنزل اعتقادًا عقلانيًا أن والدهما لم يعد على قيد الحياة فإن خبرتك لرؤية والدك والتحدث معه تؤسس لاعتقادك بأن والدك حي بالفعل. ليس لديك حجة على أن والدك على قيد الحياة، ولست بحاجة إلى حجة. قد لا تتمكن من إقناع أخيك وأختك، ولكن ليكن؟ فإن عدم قدرتك على إقناعهم لا يمنعك من اعتقادك العقلاني بأن والدك على قيد الحياة. لذا فأنت توافق على عدم الاتفاق معهم بكل احترام وعقلانية. وباختصار، إذا كان لدى شخص خبرة بالله أو إذا كان الله هو السبب النهائي لاعتقاده به، فيمكن لهذا الشخص أن يظل عقلانيًا حتى لو تم التوسط في هذا الاعتقاد من خلال عملية طبيعية، وحتى لو كان الأشخاص الأذكياء حقًا (الذين لا يمتلكون نفس الخبرة) يعارضون.

البساطة؟

قد يذهب الملحد الفلسفي philosophically reflective non-theist بأن مبدأ البساطة يتطلب من الإنسان أن يرفض رفضًا عقلانيًا أي دور خارق للطبيعة في تفسير معتقدات الله. قد يعتقد غير التأليهي أنه إذا كان التفسير الطبيعي للمعتقد الديني يفسر المعتقد الديني فلن يعود بإمكان الإنسان أن يعتقد اعتقادًا عقلانيًا بتفسير خارق للطبيعة. باختصار، وفقًا للملحد الفلسفي فإن علم نفس الدين الإدراكي والتطوري الناجح تمامًا يقوض الاعتقاد العقلاني بالله.

وبالطبع لم نصل بعد لتلك المرحلة. فلدينا فقط بعض الأفكار حول كيفية تشكل المعتقدات والممارسات الدينية من خلال عمليات إدراكية طبيعية للغاية، ولدينا بعِض الأفكار حول كيفية قبول وتشكيل العقل لمعتقدات الله. وأكثر من مجرد بعض التخمينات المدروسة بدقة، لا نعرف الأصول الطبيعية أو غير الطبيعية للمعتقدات الدينية المبكرة. بالإضافة إلى أننا، كما سنرى في الفصول اللاحقة، لا نعرف أصول معتقدات أي فرد، طبيعية كانت أو غير طبيعية. فليس لدينا الكثير من الموارد بخصوص الفترات الأولى من تاريخ البشرية، وليس لدينا الكثير من

الوصول إلى نفسية أي شخص آخر. ولذلك ليس لدينا الكثير من الإدراك لكيفية اكتساب الدين على المستوى العام أو الخاص. ولكن لنفترض أن بعض العلوم المستقبلية ستطور تفسيرًا طبيعيًا مناسبًا تمامًا ومقبولًا عالميًا للمعتقدات الدينية، فهل تتطلب البساطة من الإنسان أن يتخلى عن معتقداته الدينية فرارًا من اللاعقلانية ؟

تكمن قيمة البساطة في التنظير العلمي في منع التعقيدات والتفسيرات التي لا داعي لها. فمن الناحية الرياضية، تُفضل النظريات البسيطة المتأنقة على النظريات الأكثر تعقيدًا. وبصورة أقرب لموضوع نقاشنا، بمجرد أن تُفسير مجموعة معينة من البيانات تفسيرًا مناسبًا من قبل كيانات نظرية متباينة فلا ينبغي للمرء أن يفترض أي كيانات إضافية على الإطلاق (حيث لا حاجة إلى ذلك). على سبيل المثال: إذا كان من الممكن تفسير الظواهر الكمومية تفسيرًا كاملًا ومناسبًا من خلال الذرات فلا تبحث عن أي شيء إضافي لتفسير الظواهر الكمومية؛ ليست هناك حاجة لملء العالم بجسيمات دخيلة أو فائضة غير مرئية - بالطبع ما لم تكن هناك بيانات إضافية تتطلب منا التعمق أكثر في الواقع لأنواع أخرى من الكيانات من أجل شرح البيانات الجديدة. فقد أجبرت البيانات الجديدة الفيزيائيين على افتراض مكونات الذرات: البروتونات والنيوترونات والإلكترونات (ولاحقًا، تم إضافة المزيد من الجسيمات دون الذرية مثل الكواركات). ولكن لا ينبغي للعلماء أن يفترضوا أو يقبلوا أي كيانات إضافية ما لم تتطلبها البيانات. ولذلك، وكما تقرر شفرة أوكام[21]، يجب على العلماء ألا يضاعفوا التفسيرات بما يتجاوز الضرورة.

---

(21) نصل أو شفرة أوكام Ockham's razor، ويطلق عليه أيضا: مبدأ اقتصاد الفكر the principle of parsimony، هو مبدأ ينشد الانحياز إلى البساطة في بناء النظريات والتصورات، عن طريق الاستعانة بأقل قدْر من المسلمات لتفسير الوقائع المثبتة. وقد كان هذا المبدأ هو سلاح أوكام المفضل في معاركه الميتافيزيقية، وهو كذلك سلاح الملحدين الجدد المفضل في معاركهم مع المؤلهين؛ حيث (يقطعون) فكرة الحاجة إلى إله في تفسير الظواهر الكونية بدعوى الاكتفاء بالتفسيرات العلمي، وفي المقابل ظهر مبدأ آخر لخصوم مبدأ نصل أوكام، وهو: مبدأ ضد القطع anti-razor، ونصه: افترض الأكثر حيثما كانت الأشياء القليلة غير كافية. انظر: Robert Audi,The Cambridge Dictionary of Philosophy, Second Edition (Cambridge University Press), p.629; Richard Dawkins, The God Delusion, (Bantam Press, 2006), p.347.

وفيما يتعلق بملكة الاعتقاد بالله، قد يجادل المرء بأنه إذا كان هناك تفسير طبيعي تام للاعتقاد الديني فقد تم إذن بيان تفسيره، وانتهى الأمر. وبينما يمكن للمرء أن يضع غطاءًا لاهوتيًا على العمليات الطبيعية التي تنتج الاعتقاد فإنه لا ينبغي للمرء أن يأتي بما هو خارق للطبيعة ما لم يكن مطلوبًا على نحو عقلاني؛ فلا ينبغي على المرء فعل ذلك لأنه ليس في حاجة إلى إحضار ما هو خارق للطبيعة.

وبحسب ما أرى، لا يوجد سبب لمناشدة إله لتفسير أي من البيانات في علم الدين الإدراكي. واتباعًا لشفرة أوكام، ينبغي ألا تقر الممارسة العلمية لعلم النفس الإدراكي للدين بوجود الله في نظرياتهم العلمية المتعلقة بملكة الاعتقاد بالله. هذا أمر أتفق معه.

وفي حين أن مناشدات ما وراء الطبيعة ليست ضرورية علميًا لتفسير معتقدات الله، فإن السؤال الذي يطرحه هذا الكتاب لا يتعلق بكيفية ممارسة العلم على أفضل وجه أو ما يجب على المرء أن يعتقد به كعالم. فالعلماء يتوجب عليهم عند ممارسة العلم أن يستدعوا مبدأ البساطة ويلتزموا به، وبالتالي فإن مناشدات ما وراء الطبيعة لا مكان لها في العلم. ولا يمكن للمرء أن يمارس العلم ما لم يقيد نطاق التفسيرات المسموح بها بهذه الطريقة. فالبساطة، إلى جانب مجموعة من القيم الأخرى مثل القدرة التنبؤية والخصوبة، هي التزام منهجي للعلم.

العلم أيضًا بحكم طبيعته طبيعي المنهج. أي أنه يبحث عن العمليات الطبيعية التي تعمل داخل الطبيعة، متجنبًا أي شيء ينم عن خارق للطبيعة. وقد حقق العلم فهماً عميقاً للعمليات الطبيعية التي تنطوي عليها الطبيعة بوضعه جانباً كيانات وقوى خارقة للطبيعة عند تحقيقاته في العالم الطبيعي، وهو محق في ذلك. ولكن وضع ما هو خارقِ للطبيعة جانبًا في البداية لا يمكن أن يؤكد في النهاية تأكيدًا عقلانيًا أنه قد تم دحض ما هو خارق للطبيعة.

لنفترض أن مجموعة من علماء الرياضيات اللامعين قد قرروا استبعاد الأرقام الفردية في جميع حساباتهم. ولنفترض أنه بعد سنوات وسنوات من التطورات الرياضية المثمرة أبلغ أحد علماء الرياضيات مجموعة من الطلاب الجامعيين

الشباب سريعي التأثر بأن الرياضيات قد قوضت الأرقام الفردية. فإن مثل هذا التصريح سيعامل، وينبغي أن يعامل، بسخرية. فإذا كنت متبعًا منهجية رياضية ما تقضي باستبعاد الأرقام الفردية فلن ينتهي بك الأمر بأرقام فردية.

إذا افترض شخص منذ البداية أنه لا يوجد إله فلا ينبغي أن يكون مفاجئًا إذن عندما تخلو نظرياته عن تضمين الآلهة.

وأخيرًا، فإن الله بالنسبة لمعظم الناس لا يعتبر فرضية تقدم تفسيرًا علميًا أفضل أو أكمل للمعتقدات الدينية. الله، بالنسبة لمعظم الناس، ليس فرضية علمية على الإطلاق. وكما هو الحال مع معظم التنظير غير العلمي، لا ينطبق مبدأ البساطة هنا. ففي حين أن مبدأ البساطة مفيد داخل وخارج مجال العلم، إلا أنه لا ينبغي أن يحكم حياتنا الاعتقادية.

لنفترض أننا مطالبون عقلًا باتباع مبدأ البساطة في جميع مجالات البحث البشري. حينئذ لا ينبغي علي أن أصدق بوجود أي أشخاص آخرين. فيمكنني تفسير بيانات الأشخاص الآخرين تفسيرًا كاملًا من خلال الاعتقاد بأنهم مجرد تمثيلات ابتدعها ذهني (دون الاعتقاد بوجودهم وجودًا مستقلًا عن ذهني). فقد أرى وجهك وألاحظ عبوسك وأسمع أنين صوتك الحزين، ولكن أبسط فرضية هي أنني أنا فقط هو الموجود وأنك و"الناس" الآخرين مجرد نسج من مخيلتي. إذا كان بإمكاني تفسير معتقدات الأشخاص من خلال الاعتقاد بشخص واحد فقط - شخصي أنا - فإن البساطة تتطلب عدم افتراض وجود كيانات أخرى (مثلك). ولذا عندما يتعلق الأمر بالأشخاص الآخرين فأنا لا أبحث عن أبسط تفسير، ولكني أعتقد ما يبدو صحيحًا (حتى ولو كان يزيد من تعقيد صورتي الميتافيزيقية عن العالم).

البساطة ليست هي الفضيلة الوحيدة التي يجب مراعاتها عند تطوير نظام اعتقاد عقلاني.

خذ معتقداتنا حول العالم الخارجي. ليست هناك حاجة لتفسير معتقداتي حول العالم من خلال افتراض وجود عالم مادي دائم خارج ذهني. الرؤية الأبسط هي أنني أنا وحدي الموجود وأن أحاسيسي المتعلقة بالألوان والقوام والأصوات ليست

أكثر من كونها أحاسيسي (أحداث عقلية). لست بحاجة إلى تجاوز الأحداث العقلية لافتراض أكثر تعقيدًا عن الأسباب المادية لتلك الأحداث؛ لست بحاجة إلى تجاوز أحاسيس الشجرة إلى الشجرة.

هذه هي مادة البساطة: أنا فقط موجود - لا ضرورة لوجود أشخاص آخرين وعالم خارجي. ولكن، مرة أخرى، أنا لا أبحث عن أبسط نظرية لتفسير أحاسيسي. أنا ببساطة أعتقد بما يبدو لي أنه حقيقي. أعتقد في الأشخاص الآخرين والعالم الخارجي.

ومع ذلك، إذا كنت سآخذ الأشخاص الآخرين والعالم الخارجي كفرضيات شبه علمية مقدمة لتفسير بيانات أحاسيسي عن الأشخاص والعالم = فإن مبدأ البساطة من شأنه أن يعوق القبول العقلاني لهذه الفرضيات. إذا كان بإمكاني تفسير الخبرات ذات الصلة دون اللجوء إلى أي شيء سوى نفسي، وإذا كان علي ألا أضاعف الكيانات بما يتجاوز الضرورة فيجب علي أن أعتقد بأنني أنا فقط الموجود.

قد أذهب أبعد من ذلك. فما أنا في نهاية الأمر إلا ذاتًا واعية تستمر عبر الزمن (من خلال مجموعة من التغييرات الجسدية). ولكن أبسط من ذلك أن أعتقد أن أحاسيسي فقط هي الموجودة، لا ذاتًا واعية دائمة. تعتبر الذوات، وفقًا لبعض الفلاسفة والعلماء، خيالًا ملائمًا لا يتناظر مع أي شيء في الواقع. وإذا كان من الأسهل، من الناحية العددية، الاعتقاد في وجود شخص واحد فقط لديه العديد من الأحاسيس، فإن ما هو أكثر سهولة من ذلك أن أعتقد أنه لا وجود لأي شخص على الإطلاق وأن هناك أحاسيس فقط.

ولكنني لا أصل إلى اعتقادي بالآخرين أو بذاتي المستمرة وفق المنهج العلمي. وكسياسة عامة للاعتقاد، لا شيء يبدو أكثر سخافة من ذلك، ولذا فأنا لا أقوم بذلك.

لا أعتبر الأشخاص الآخرين أو نفسي أو العالم الخارجي بمثابة فرضيات تفسر مجموعة من البيانات. ولا أقبل معتقدات الأشخاص الآخرين أو معتقدات

العالم الخارجي على أساس الاستدلال الافتراضي مع مناشدة البساطة. في الواقع، لا أستدلال لذلك على الإطلاق، بل أعتبرها معتقدات صحيحة (على الرغم من أنني لا أستطيع إثباتها وعلى الرغم من أنها ليست أبسط الفرضيات). وحتى العلماء يفترضون وجود أشخاص آخرين وأنفسهم والعالم الخارجي - على الرغم من أن هذه الافتراضات ليست هي أبسط الفرضيات التي تفسر البيانات تفسيرًا ملائمًا.

دعني أقدم مثالًا آخر. أعتقد أنه من الخطأ القتل والسرقة ومخالفة الوعود وأنه من الصواب أن نكون كرماء وأن نظهر التعاطف وأن نشجع ازدهار الإنسان. يرى بعض العلماء أن معتقداتنا الأخلاقية هي خدعة مارستها علينا جيناتنا؛ ذلك أن القوى التطورية زودتنا بالمعتقدات الأخلاقية لأن المجموعات التي لديها تلك المعتقدات كانت أكثر نجاحًا (من حيث التكاثر والبقاء) من المجموعات التي لم يكن لديها تلك المعتقدات. لقد كانت المجموعات ذات المعتقدات المؤيدة لقيام المجتمع أكثر تعاونًا من المجموعات التي كانت تنقصها تلك المعتقدات. وهكذا اكتسبت المجموعات ذات المعتقدات الأخلاقية فوائد تعاونية: - تربية الأطفال المشتركة، والعمل معًا لتربية المحاصيل وتخزينها، وتقسيم العمل، والنجاح في الحرب. وكلما كانت المجموعة أكثر تعاونًا، زاد احتمال حصول المرء على ما يكفي من الغذاء والمأوى والملبس والحماية من الأعداء. وبما أن الأخلاق تفضي إلى التعاون فهي مفيدة من الناحية التطورية. فهل يجب علي إذن أن أفكر في الأخلاق على أنها مجرد خيال؟

إنني أبذل قصارى جهدي من ناحية الاستجابة الإدراكية لمختلف خبرات الأخذ والرد للواقع والحياة كما تقدم نفسها لي لأفهم ما هو في العالم مما هو خارج نفسي. فأتوصل إلى فهمي للعالم من خلال ملكاتي الإدراكية، مفترضًا أن ما تقدمه لي هذه الملكات هو الحقيقة الواقعية إلا إذا كان لدي سبب لرفض ما تقرره. وأعتقد أن ملكاتي الإدراكية تقدم لي الأشخاص الآخرين والعالم الخارجي والماضِ البعيد، على الرغم من عدم امتلاكي حججًا جيدة لكل ذلك، وعلى الرغم من أن رؤيتي الميتافيزيقية للعالم ستكون أبسط بدونهم. وفي محاولتي لفهم العالم بكل ثرائه، لا أبحث عن أبسط تفسير لتجربتي. فأنا شخص أبذل قصارى جهدي

لفهم العالم من خلال بنية الإنسان المعروف عنها المحدودية وعدم العصمة، ولست عالمًا في مختبر يطور أبسط تفسير شامل لمجموعة من البيانات.

بالنسبة لمثل هذا الشخص، ستكون البساطة غير ذات صلة بالأحكام المتعلقة بالله كما هي غير ذات صلة بالأحكام المتعلقة بالأشخاص الآخرين أو العالم الخارجي.

تنبيه أخير

هل معرفة علم الدين الإدراكي يقوض عقلانية المعتقد الديني لدى الإنسان؟ إذا توصل الإنسان لتشكيل اعتقاد بأن الاعتقاد بالله ليس سوى نتاج ملكات إدراكية مخفقة فعليه أن يتخلى عن إيمانه بالله هروبًا من وسم اللاعقلانية. ولكن علم الدين الإدراكي لم ولا يمكن أن يظهر أي شيء من هذا القبيل على الإطلاق. يمكن لعلم الدين الإدراكي أن يُظهر ما هي الملكات الإدراكية المنخرطة في عملية التفكير في الله، ويمكن أن يشير إلى كيفية نشأة المعتقدات الدينية في بعض المجتمعات البشرية المبكرة. لكنه لم يُظهر، و لا يمكن أن يظهر، أن الله ليس السبب النهائي لاعتقاد المرء بالله.

بالإضافة إلى ذلك، لا يعرف علم الدين الإدراكي، على الأقل في هذه المرحلة، إلا القليل عن أصل المعتقدات الدينية ومصدر قوتها، لنقل على سبيل المثال، عند العبرانيين القدماء، أو بولس، أو محمد، أو كونفوشيوس، أو جدتي. فعلى الرغم من أننا قد نعلم أن معتقداتهم قد تمت بوساطة جهاز كشف الفاعلين ADD و نظرية العقل ToM، فإننا لا نعرف سوى القليل عن ذلك. وليس لدينا أي فكرة عما إذا كان أصل معتقداتهم هو اختلال جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM، أو التفكير في طبيعة الكون، أو الاتصال الإلهي. إذا كان المرء ملحدًا، فسيرفض الخيار الأخير. وليكن! فالمعتقدات الشخصية للملحد لا علاقة لها بعقلانية المؤمن المتدين.

نحن نفكر في الله بأدمغتنا (عقولنا). وعليه فلا ينبغي أن يكون كشف العلم

للأجزاء الخاصة من أدمغتنا المنخرطة في معتقدات الله مفاجأة. قد تنتج بعض أجزاء من أدمغتنا أحيانًا، بدون تحريض إلهي، معتقدات الله. ولكن معرفة إمكانية الخطأ العرضي للملكة الإدراكية التي - في الأصل - يعتمد عليها يوثوق بها لا يهزم عقلانية الفرد في التمسك بالمعتقدات التي تنتجها تلك الملكة. قد ينتج عن ملكاتي أحيانًا هلوسات حسية، لكنني لست في حاجة إلى رفض ما تأتيني به ملكاتي الحسية. ولا يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان جهاز كشف الفاعلين ADD ونظرية العقل ToM دائمًا مخفقين فيما يتعلق بمعتقدات الله إلا عرف بالفعل أنه لا يوجد إله. فمن أجل تقويض عقلانية المؤمن، يجب إظهار أن الملكات الإدراكية المعنية قد أخفقت وأنه لا يوجد إله.

الفصل الخامس

ضد المذهب الطبيعاني

هل كل شيء على ما يرام حقًا؟

كثيرا ما يُسلم بتفوق من يملك الخبرة على من يملك الحجة. وفي حين أن البعض قد يكتسب اعتقاده بالله عن طريق الحجج الفلسفية، فإن معظم الناس لا يفعلون ذلك. إن خبرة وجود الله عند معظم الناس، مهما كانت هذه الخبرة محدودة أو غير جديرة بالملاحظة، غالبًا ما تسبق، أو على الأقل تتوازى مع، الحجة الفلسفية. والأهم من ذلك حقيقة أن التسليم الفكري غالبًا ما يكون عقيمًا بدون الخبرة. ومن المعقول أن نعتقد أنه لو كان يوجد إله خلق البشر بدافع الحب وأعطاهم القدرة في المقابل على معرفته ومحبته فإنه لن يرضى بمجرد الاعتراف الفكري بوجوده.

ومع ذلك يريد المؤمنون، بوصفهم باحثين عن الحقيقة، معرفة ما إذا كان ما يشعرون به حقيقيًا أم لا؛ يريدون أن يعرفوا ما إذا كانوا قد اتصلوا بالله حقيقة أم أن الأمر ناتج عن قشرتهم الدماغية وحسب. لقد ألقت العلوم الإدراكية والتطورية بتحديات دفعت المعتقدين إلى الرغبة في معرفة ما إذا كان الاعتقاد بالله كالاعتقاد في بابا نويل.

وفي مواجهة هذه التحديات قد يرى المؤمنون أنه من الممكن أن يكونوا عقلانيين في اعتقادهم بالله (بافتراض وجود الله وأنه قد تم استيفاء العديد من الشروط الأخرى، إلخ، إلخ)، لكن المؤمنين في بعض الأحيان يريدون المزيد. هل

يوجد أي سبب للاعتقاد بأن الله موجود بالفعل؟ أم أن الله ليس سوى تشنج دماغي ورَّثه لنا أسلافنا البدائيون الطائشون الذين لم يكن لهم حول ولا قوة؟

يبدأ الاعتقاد بالثقة؛ لدينا الحق عقلانيًا بقبول المعتقدات التي تقدمتها لنا ملكاتنا الإدراكية، هذا أمر مفهوم. ولدينا ملكة الاعتقاد بالله، ويمكننا الوثوق بها وبالمعتقدات التي تمنحنا إياها ما لم يكن لدينا دليل صحيح على بطلانها، وهذا مفهوم أيضًا. لكن شبح استبعاد وجود الله يلوح في الأفق كثيرًا وقريبًا؛ حيث بدا الإله أكثر ارتجاجًا عندما تطلب العلم مساعدة إلهية. وحتى لو نبذنا الاعتقاد بالله كفرضية علمية منافسة مع فرضيات علمية طبيعانية (غير إلهية) أفضل، فإن الله، مثل ابتسامة القطة تشيشاير Cheshire cat العريضة، يبدو وكأنه يختفي عن المشهد ببطء شديد.

بوصفنا باحثين عن الحقيقة، يجب أن نكون مستعدين لمراجعة معتقداتنا في مواجهة الأدلة المضادة. وعلى الرغم من ذلك، فقد جادلت حتى الآن، أنه من الممكن لبعض الناس الذين يؤمنون بالله أن يحافظوا على ثقة التزاماتهم الأولية بالرغم من التحديات المزعومة لهذا الاعتقاد التي يطرحها علم النفس الإدراكي والتطوري للدين. كما يقول بعض أصدقائي الأصغر سنًا، "كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام".

ولكن هؤلاء الأصدقاء عادةً ما يقولون: "كل شيء على ما يرام" عندما لا يكون كل شيء على ما يرام. في الواقع، يبدو أنهم يقولون ذلك فقط عندما يكون الأمر سيئًا للغاية. فما يقصدونه حقًا هو: "ليس كل شيء على ما يرام (وربما يكون سيئًا)، لكنني سأتصنع وجهًا راضيًا وأثابر". قد يخرج بعض المؤمنين المتدينين من مصارعِتِهم مع الفلاسفة وعلماء الطبيعة الذين حاولوا دحض الاعتقاد بالله غير منهزمين ومع ذلك قد يكونوا غير معافين من جروح دامية. وبينما قد يقولون: "كل شيء على ما يرام" فقد يشعرون بداخلهم كما لو أن الأمر ليس كذلك، آملين في أن يكون هناك المزيد ليقال لصالح الاعتقاد بالله. قد لا يحتاجون إلى تأكيد فكري ليكونوا عقلانيين، ولكنهم يريدون بعض هذا التأكيد. إنهم يريدون أكثر من مجرد

إمكانية أن يكونوا عقلانيين - فهم يريدون بعض التأكيد على أنهم قد ربطوا عربة إيمانهم بنجم الحقيقة.

وبوصفنا باحثين عن الحقيقة، فنحن نحب الحصول على أدلة داعمة لأعز المعتقدات لدينا. وتزداد رغبتنا في الحصول على تلك الأدلة الآن أكثر من أي وقت مضى نظرًا لوجود كل هؤلاء العلماء الطبيعيين اللامعين الذين يسعون لدحض الاعتقاد في الآلهة. ومرة أخرى، قد لا نحتاج إلى الدليل الداعم رغبة في أن يكون اعتقادنا بالله عقلانيًا. ولكن، اللعنة! نحن نريد ذلك الدليل. فهل يوجد أي سبب للاعتقاد بأن اعتقادنا بالله صادق؟ هل من دليل يؤيد المعتقد الديني؟ إذا اعتقد الإنسان بالله نتيجة لاستثارة ملكة الاعتقاد بالله في الظروف المناسبة - مثل أن تكون لازمة عن خبرة دينية، أو الشعور بالذنب والشعور اللاحق بالمغفرة، أو سماع عظة جيدة، أو شعور غامر بأن الله خلق كل ما هنالك - وقد نجا من تحديات العلوم الإدراكية = فقد يكون هناك أيضًا دليل متاح لتقوية اعتقاده الأولي. مثل هذا الدليل سيكون علامة أو تأكيدًا على صدق الاعتقاد.

سأتناول في هذا الفصل كيف يمكن أن يعزز الإنسان منطقيًا معتقده الفعلي بالله عن طريق التطور، من بين كل الأشياء الأخرى. فلقد رأينا في الفصول السابقة أن الاعتقاد العقلاني بالله لا يقتضي مناقضة نظرية التطور. ولكن حتى لو ضمنا ذلك، فقد نظل نرى أنه عندما يتعلق الأمر بمقارنة المزايا النسبية للنزعة التأليهية والطبيعانية في ضوء نظرية التطور، فإن أفضل ما يمكن أن تأمل فيه النزعة التأليهية Theism هو التعادل. يبدو المذهب الطبيعاني في نظر الكثيرين نظيرًا طبيعيًا لنظرية التطور. وإذا كان التطور قد جعل المذهب الطبيعاني محترمًا فكريًا، فكيف يمكن استخدام التطور لمجادلته؟

الدليل المؤكد

لم يقم أي فيلسوف على الإطلاق بتطوير حجة استدلالية صحيحة أو استقرائية قوية لدعم المعتقدات بأن العقول الأخرى موجودة أو أن العالم الخارجي موجود أو أن

المستقبل سيكون مثل الماضي (والمخرجات اللازمة عن هذا الاعتقاد تتجاوز تجاوزًا عظيمًا مدخلاته المعلوماتية أو الدليلية). وإذا اعتمدنا على التفكير لتبرير اعتقادنا تبريرًا عقلانيًا بوجود عقول أخرى، أو أن العالم الخارجي موجود، أو أن المستقبل سيكون مثل الماضي فينبغي علينا أن نكون متشككين بشأن كل هذه المعتقدات. ولكن لحسن حظنا، قد تم تزويدنا بالملكات الإدراكية التي تنتج على نحو مبرر ومباشر الاعتقاد بالعقول الأخرى، والعالم الخارجي، وأن المستقبل مثل الماضي.

ومع ذلك، فإن كل إيماءة وكل كلمة وكل عمل يقوم به شخص آخر سيؤكد الاعتقاد الأصلي بوجود عقول أخرى الذي اعتقدناه ابتداءً من خلال نظرية العقل. وفي حين أن معاينة المرء سلوكًا شبيهًا بالسلوك الصادر من الأشخاص لا يشكل حجة قاطعة على وجود عقول أخرى، إلا أنه يؤكد اعتقاد الإنسان الفعلي بوجود العقول الأخرى. وعلى الرغم من أن الطرق على طاولة أو الوخز بدبوس لا يمكن أن يبرهن على وجود العالم الخارجي، فإن مثل هذه التجارب الدنيوية تؤكد اعتقاد المرء الموجود فعلًا وبعمق بالعالم الخارجي. وعندما يفترض أحد العلماء أن المستقبل سيكون مثل الماضي (بمبدأ الاستقراء)، فإن كل تنبؤ ناجح يؤكد ذلك الالتزام الأصلي (الذي لا يستطيع أحد برهنته). وباختصار، قد تؤكد الأدلة اعتقادًا لا يمكن لأحد أن يبرهن عليه بأي حال.

يمكننا أن نتعلم ديناميكا تأكيد الاعتقاد من المسلسلات البولسية الشائعة. لنفترض أن شرطيًا لديه إحساس مبدئي باتهام شخص بجريمة ما بناءً على شهادة شاهد عيان (ولنقل أن الشاهد قد اختار ذلك الشخص من بين صف من المشتبه بهم). بالنظر إلى عدم موثوقية شهود العيان، فإن هذا الشعور المبدئي باتهام الشخص أبعد ما يكون عن اليقين. ولكن مع كل قطعة من الأدلة المتراكمة يزداد فيها تأكيد تورط المشتبه فيه - بصمات الأصابع، والحمض النووي، والشهود الإضافيين، والدافع، والأدلة الظهارية، وأنواع أخرى مختلفة من أدلة الطب الشرعي. فمع كل دليل يأتي تزداد إدانة الشرطي الأولية حول ذنب الجاني شيئًا فشيئًا. وإذا كُللت سلسلة أدلة الإدانة بالاعتراف فإن إدانة الشرطي بالذنب تكون قد اكتسبت اليقين تقريبًا.

إن الدليل المؤكِّد يقوي من الناحية النفسية ويزيد من الناحية الدليلة من ثقة المرء في معتقده الأصلي. وبينما يذكرنا علماء النفس (وهم على حق في ذلك) بإغراء السعي إلى إيجاد "دليل" مؤيد لمعتقداتنا المرغوب فيها -وهو إيجاد سهل للغاية - (مثلا: صوت صرير في الدور الأعلى من البيت "يؤكد" الاعتقاد بالأشباح؛ التعليق الفاتر لمعلم شخص "يؤكد" الاعتقاد بـ عبقرية هذا الشخص) = لكن هناك طرق موضوعية لتقييم قوة الأدلة التي تدعم الاعتقاد. ولذلك، من أجل تجنب هذا النوع من الانحياز التأكيدي الذي يذهب لعقلنة اعتقاد سخيف على أسس واهية، سنعتمد على أدلة موضوعية وأساليب استدلال سليمة فلسفيًا - مع الاعتراف بأن التأكيد لا يرقى إلى مستوى البرهان القاطع.

فهل يوجد دليل قد يؤكد ويقوي الاعتقاد العقلاني ابتداء بالله الذي لم يصل إلى درجة اليقين؟ دعونا نفكر - دعماً لتأكيد هذا المعتقد، وفي حدود ما يتاخم الموضوعات التي تم تناولها في هذا الكتاب - في الحجة التطورية ضد المذهب الطبيعاني.

التفسير والتوقع

قبل أن ننتقل إلى الحجة نفسها، نحتاج أولاً إلى التفكير في كيفية فهم الأدلة المؤكدة. كيف نحكم على الفرضيات المتنافسة، خاصة بين فرضيات الإله أو اللا إله؟ في حين أن هناك طرق عدة لتقييم الفرضيات المختلفة في ضوء مجموعة الأدلة لكل طريق فإننا سوف نستخدم طريقة حدسية معقولة ومدعومة على نطاق واسع تسمى مبدأ التوقع.

دعونا نشرع من خلال ضرب مثال:

إذا كنت تمشي في الخارج ولاحظت شخصًا ذا شعر طويل وبنطلون جينز متسخ، وقد خُيط على جيب البنطلون شارة فرقة جراتفُل ديد[1] Grateful Dead وكان

---

(1) فرقة غناء أمريكية تغنى الروك، تشكلت في كاليفورنيا عام 1965. (المترجم)

يستمع إلى موسيقى جراتفل ديد من مشغل الموسيقى الملقي على كتفه، ففكرت في نفسك وقلت: "وهاهو واحد من معجبي جراتفل ديد" = فأنت قد قمت باستخدام مبدأ التوقع.

دعونا ننظر إلى مبدأ التوقع على نحو صوري أكثر. وفقًا لمبدأ التوقع، فإن مجموعة من البيانات (ب) تُفَضِّل فرضية واحدة (ف$_1$) على فرضية أخرى (ف$_2$) في ظل الشروط التالية:

إذا كانت (ف$_1$) صحيحة، فينبغي أن يتوقع المرء أن تكون (ب) صحيحة.

إذا كانت (ف$_2$) صحيحة، فلا ينبغي أن يتوقع المرء أن تكون (ب) صحيحة.

يطرح مبدأ التوقع السؤال التالي: "تحت أي فرضية ينبغي أن يكون توقع الإنسان بصحة البيانات أكثر وقوعًا؟" إن التفسير الجيد لبعض مجموعات البيانات هو الذي قد يقودك إلى توقع حدوث البيانات. في المثال الأول، قمت بتأكيد فرضية "معجب جراتفل ديد" بسرعة على أنها الفرضية التي ستقودك إلى توقع البيانات (وربما لم تكن بحاجة إلى التفكير في أي بدائل أخرى).

وهناك - للتأكيد - ما هو أكثر من مجرد مبدأ التوقع. تأمل في مثال آخر. تتوقف عند منزل صديقتك جان لتعيد إليها قرصًا مدمجًا كانت قد أعارته إياك. فرأيت في فناء منزلها عشرات من علب طلاء اللون الأصفر، وسُلمًا مسنودًا على حائط منزلها. دعونا نأخذ البيانات:

ب: العشرات من علب الطلاء في فناء منزل جان، وسلم مسند بجانب منزلها.

والآن دعونا نفحص فرضيتين متنافستين بالنظر إلى مجموعة الأدلة ب:

ف$_1$: جان تطلي منزلها.

ف$_2$: جان لا تطلي منزلها.

تحت أي فرضية يكون توقعنا أكثر لحدوث ب؟ ف$_1$ بالطبع. فإذا كانت جان تطلي منزلها، فإننا نتوقع رؤية علب الطلاء وسلمًا. وإذا لم تكن جان تطلي منزلها

(ف$_2$)، فلن نتوقع بالتأكيد أن نرى سلمًا مسندًا على حائط منزلها مع اثنتي عشرة علبة طلاء. ولذلك، وفي ضوء هذه البيانات، لدينا سبب لقبول ف$_1$ بدلاً من ف$_2$، أو بصورية أكثر قليلاً، تؤكد البيانات ف$_1$ على ف$_2$.

ولكن ألا توجد مجموعة من الفرضيات المتاحة، كل واحدة منها تقودنا بالتساوي إلى توقع البيانات؟ في حين أن مبدأ التوقع من شأنه أن يلغي بالتأكيد بعض الفرضيات - تلك التي لن تقودنا إلى توقع البيانات - هناك فرضيات لا حصر لها من شأنها أن تقودنا إلى توقع البيانات. كيف يفترض بنا أن نقرر الفرضية المقبولة بين هذه الفرضيات المنافسة؟

يقودنا هذا إلى ضرورة مهمة عند تقييم الفرضيات المتنافسة: يجب أن يكون للفرضيات قيد الدراسة احتمالية لأن تكون صادقة بغض النظر عن البيانات. تأمل في هذه الفرضية الثالثة:

ف$_3$: تقوم جان ببناء برج من علب الطلاء لدرء حشد من كائنات فضائية غزاة يخافون اللون الأصفر.

ستقودنا ف$_3$ إلى توقع البيانات. لكن هل تؤكد البيانات ف$_3$؟ لا، لأن ف$_3$ ليست فرضية قابلة للتطبيق؛ إن افتقارها إلى الجدوى يمنعها (كما يمنع الفرضيات الشبيهة التي لا تعد ولا تحصى) من الوصول إلى طاولة التفكير العقلاني. فما لم نعلم مسبقًا أن جان لديها تخوف غير عقلاني من الفضائيين، فلن يكون للفرضية ف$_3$ احتمال لأن تكون صادقة مستقلة عن البيانات. نحن نحكم حكمًا روتينيًا على المعقولية الأولية النسبية للفرضيات في ضوء خلفيتنا المعرفية العامة : معتقداتنا الأساسية حول كيفية عمل الأشياء في الكون (وعادة بدون حتى أن نعي ذلك). ولذا في حين أن الأشباح والعفاريت يمكن أن يقدموا تفسيرا للأشياء التي تتعثر في الليل، فإنهم يفشلون في اختبار الاحتمالية السابق لأنهم لا يتطابقون مع مفهومنا عن الواقع. إن النظر في الاحتمالية المستقلة للفرضية يلغي معظم الفرضيات من أن تؤخذ في الاعتبار.

سيتم تأكيد إحدى الفرضيتين المتنافستين من خلال البيانات، على افتراض أن

كلاهما يتمتع ببعض المعقولية الأولية التي تجعلنا نأخذها على محمل الجد كفرضيات مرشحة للاعتبار = إذا كان ذلك سيقودنا إلى توقع البيانات ذات الصلة (والفرضية الأخرى لن تفعل ذلك). وسيكون الاعتقاد الذي نجا من هذين الاختبارين هو الأقوى؛ بسبب الفحص الذي شمله.

وبالتالي سيكون مسلحًا نوعًا ما بمبدأ التوقع، والآن دعونا ننتقل إلى الحجة التطورية ضد المذهب الطبيعي ونرى ما إذا كان يمكن أن يؤكد اعتقاد الإنسان الأولي بالله.

التطور والطبيعانية

تحاول الحجة التطورية ضد المذهب الطبيعي إثبات أن لدى الطبيعاني الذي يقبل نظرية التطور سبب للشك في مصداقية ملكاته الإدراكية، وبالتالي في صحة معتقداته. وتكمن المشكلة، كما سيتبين، في المذهب الطبيعاني وليس في نظرية التطور. ولكن التزامنا بمصداقية ملكاتنا الإدراكية وصدق العديد من معتقداتنا (بما في ذلك الاعتقاد بنظرية التطور) ينبغي أن يكون أقوى من التزامنا بصدق أي وجهة نظر فلسفية، بما في ذلك المذهب الطبيعاني. وإذا كان فهم التطور في إطار المذهب الطبيعاني يستلزم أن نكون متشككين بشأن معظم معتقداتنا، فالمذهب الطبيعاني إذن، وليس التطور، هو الذي ينبغي علينا أن نهجره.

تتمحور الطبيعانية حول دعوى إنكار أي غاية للكون؛ ويترتب على تلك الدعوى المحورية ضرورة أن ملكاتنا الإدراكية ليس لها غاية تهدف إلى تزويدنا بمعتقدات صادقة؛ بل هي مجرد ملكات لا غاية لها على الإطلاق. إن رفض الطبيعانية للغاية يعني أن التطور غير الموجه لا يكترث بالمعتقدات الصادقة. فلا "يهتم" التطور غير الموجه إلا بالسمات والسلوكيات التي تساعد على البقاء. فبالنسبة للطبيعاني، فإن التطور ليس له غاية يهدف إليها ولا خطة تصميم لأي شيء، لكن بعض المخلوقات تنجو وتبقى وتتكاثر بدرجة أفضل من غيرها. ثم تنتقل السلوكيات والسمات التي سمحت لهم بالبقاء والتكاثر إلى الجيل التالي. وكما قرر

ستيفن ستيش[2] Stephen Stich: فإن "الإنتخاب الطبيعي لا يهتم بالحقيقة، بل يهتم بالنجاح الإنجابي وحسب. وبالنظر للنجاح الإنجابي، فإنه غالبًا ما يكون من الأفضل أن تكون آمنًا (ومخطئًا) من أن تكون آسفًا"[3].

لم يطور الغزال الأمريكي قرونًا ليكون لديه سلاح عملي في المتناول، ولم يطور الخفاش أجنحة ليكون الثدي الوحيد الطائر، ولكن تطوير قرون الغزال مكنه من إصابة أو قتل الأعداء وبالتالي العيش لفترة أطول، ومكنت القدرة على الطيران الخفافيش من الوصول إلى مصادر أعلى من الطعام وبالتالي العيش لفترة أطول (أطول، على الأقل، من أسلافهم الذين لم يمتلكوا قرون - كما في حالة الغزال - أو أجنحة - كما في حالة الخفافيش - وبالتالي لم يتمكنوا من زيادة نجاحهم الإنجابي). لا يوجد "لكي" بحسب المذهب الطبيعي؛ فلا توجد غاية، ولكن فرصة عمياء وحسب. وكما يقرر دوكينز: "إن الإنتخاب الطبيعي، تلك العملية العمياء اللاواعية التلقائية التي اكتشفها داروين، والتي نعرف الآن أنها تفسير الوجود وكل أشكال الحياة التي تبدو ظاهريًا غائية = ليس له أي غاية. فليس له عقل ولا قوة لتكوين الصور الذهنية. إنه لا يخطط للمستقبل. وليس له رؤية، ولا بعد نظر، ولا بصر على الإطلاق"[4]. لا يرى الطبيعاني أن هناك" لكي " في الطبيعة؛ بل تحدث الأشياء كيفما اتفق. وبدون وجود الله أو الغاية الكونية، لا يمكن أن يكون لأنظمتنا الإدراكية أي غاية على الإطلاق، ناهيك عن غاية تهدف إلى إمدادنا بمعتقدات صادقة.

والنتيجة: أنه إذا كانت ملكاتنا الإدراكية هي نتاج تطور غير موجه، فإن وظيفتها التطورية هي البقاء على قيد الحياة. فلم تتطور هذه الملكات حتى نتمكن من الحصول على معتقدات صادقة. بل إن التفسير الأكثر رجحانًا هو أننا طورنا

---

(2) فليسوف أمريكي مهتم بفلسفة العقل والإبستمولوجيا وعلوم الإدراك، يشغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة روتجز الأمريكية Rutgers University.

(3) Stephen Stich, The Fragmentation of Reason (Cambridge, MA: MIT Press, 1990), 60.

(4) Richard Dawkins, The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe without Design (New York: W. W. Norton, 1986), 5.

ملكاتنا الإدراكية لأنها حسَّنت اللياقة الإنجابية لأسلافنا. ولكن وفقًا لذلك سيكون لدينا سبب وجيه للشك في أن تكون وظائف الملكات الإدراكية إنتاج معتقدات صادقة.

أعرب داروين نفسه عن مخاوف مماثلة بشأن مصداقية ملكاتنا. ففي الرسالة المشهورة التي أسرَّها إلى صديق له، قال: "ينشأ الشك المريع دائمًا من التساؤل فيما إذا كانت قناعات عقل الإنسان، التي نشأت من عقل الحيوانات الدنيا، ذات قيمة أو جديرة بأي ثقة على الإطلاق. هل هناك أي شخص يثق في قناعات عقل القرد إن كانت ثمة أية قناعات في مثل هذا العقل؟ " إذن حتى داروين كان قلقًا بشأن قدرة الإنسان على فهم الحقيقة، نظرًا إلى العمليات التطورية العمياء ظاهريًا[5].

قد نميل في البداية إلى الاعتقاد بأن العكس هو الصحيح وأن التطور سيختار للمعتقدات الصادقة. فرغم كل شيء، أنى لمعرفة الحقائق أن تؤثر سلبًا على أرجحية بقاء المخلوق على قيد الحياة؟ إذا كان ثمة تأثير فيبدو أن معرفة المزيد من الحقائق لن تكون إلا ميزة تكاثرية. فإذا كنت، على سبيل المثال، صيادًا جامعًا وأبحث عن غذائي، فسيبدو من المعقول افتراض أن معرفة الحقائق حول مختلف الأمور، مثل عدد الحيوانات المفترسة التي تطاردني أو النباتات السامة، سوف تعطيني ميزة على زملائي البشر في عصور ما قبل التاريخ. وربما إذن يتوجب علينا اتباع ويلارد فان أورمان كواين[6] Willard Van Orman Quine الذي رأى أن "المخلوقات التي تخطئ في استقراءاتها لها ميل للموت قبل أن تتكاثر وهو ميل مثير للشفقة ولكن جدير بالثناء"[7]. .بعبارة عامية: يميل الأشخاص الذين لديهم معتقدات كاذبة إلى الموت قبل أن ينجبوا أطفالًا.

---

(5) Charles Darwin, letter to William Graham, July 3, 1881, available at https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml.

(6) فيلسوف ومنطقي أمريكي متخصص في الفلسفة التحليلية شغل كرسي إدجر بيرس للفلسفة في جامعة هاردفرد من عام 1956 إلى 1978 وتوفي عام 2000. (المترجم)

(7) Willard Van Orman Quine, "Natural Kinds," in Ontological Relativity and Other Essays (New York: Columbia University Press, 1969), 126.

أليس من المعقول أن نفترض مع كواين أن التطور قد اختار المعتقدات الصادقة؟ فنحن هنا، وقد تمكنا من البقاء، ونعتقد بالكثير من الحقائق (حقائق اعتمد عليها جنسنا البشري لتصل بنا إلى هذه المرحلة). ولذلك فلابد وأننا قد طورنا ملكات إدراكية حساسة للحقائق. أليس من المعقول أن نعتقد أن أفضل حصن لدينا ضد ضغوط البقاء كان المعتقدات الصادقة؟ ألا نتوقع إذن أن ينتج التطور فينا ملكات إدراكية تفضي بنا إلى الحقيقة؟

لدينا، من ناحية، كواين الذي يدعي أن التطور كان يشكلنا بملكات إدراكية تفضي للحقيقة، ومن الناحية أخرى لدينا داروين الذي يخشى من كون التطور تربة مجدبة للمعرفة البشرية (وكذلك أيضًا ريتشارد رورتي[8] Rorty Richard، وفريدريك نيتشه[9] Friedrich Nietzsche، وباتريشيا تشيرشلاند[10] Patricia Churchland، ومايكل جيزلين[11]، كما سنرى في الأقسام التالية). وبالطبع، يمكننا أن نجد آخرين إلى جانب كواين، والفلسفة ليست ديمقراطية. فهل يمكننا القيام بما هو أفضل لتأكيد قلق داروين ورفض التأكيد الجريء لكواين؟

إحدى طرق الاحماء الفكري لهذه المشكلات تتمثل في تذكير أنفسنا بأن لدينا بالفعل بعض المعتقدات التكيفية الكاذبة. على سبيل المثال، أظهرت الدراسات أن الرجال يبالغون في تقدير مدى رغبة النساء فيهم (ورغبة المرأة في ممارسة الجنس معهم)، بينما تبالغ النساء في تقدير رغبة الرجل بالبقاء معها ورعاية الطفل (بعد ممارسة الجنس)[12]. وليس من الصعب فهم المزايا التكيفية للمعتقدات المختلفة.

---

(8) فليسوف البرجماتية الأمريكية الجديدة المشهور بانتقاده لنظرية التطابق في الصدق وانتقاده للمفهوم الحديث للفلسفة كمشروع شبه علمي يهدف إلى اليقين والحقيقة الموضوعية، توفي عام 2007 بكاليفورنيا. (المترجم)

(9) فليسوف وشاعر ألماني اشتهربنقده و كشفه للدوافع التي تكمن وراء الدين والأخلاق والفلسفة في الثقافة الغربية التقليدية، وتوفي عام 1900. (المترجم)

(10) فليسوفة أمريكية تحليلية من أصول كندية معروفة بإسهاماتها في الفلسفة العصبية وفلسفة العقل وتشغل منصب رئيس قسم الفلسفة بجامعة كاليفورنيا. (المترجم)

(11) عالم أحياء ومؤرخ لعلم الأحياء وفليسوف أمريكي. (المترجم)

(12) Antonia Abbey, "Sex Differences in Attributions for Friendly Behavior: Do Males Mis-

واسمحوا لي أن أقدم مثالًا أكثر احترامًا: إن إسناد خصائص اللون للأشياء، إذا صحت النظريات المعاصرة للرؤية، باطل منهجيًا ومع ذلك فهو مفيد بدرجة ملحوظة. تأمل احمرار الوردة. تؤكد فيزياء اللون أن الوردة (وعلى وجه التحديد إلكتروناتها) تمتص معظم موجات الضوء التي تصطدم بها وتعكس فقط الجزء الأحمر من طيف الضوء؛ ثم نحن بدورنا نخلع على الوردة اللون الأحمر (الذي هو ليس من خصائص الوردة). لقد طورنا القدرة للتعرف على أطوال موجية مختلفة من الضوء ثم عرضها على أشياء مثل الورود، ورغم ذلك فإن -الوردة بالمعنى الدقيق للكلمة - ليست حمراء. ومن المؤكد أن قدرتنا على التمييز بين الألوان على الوجه الذي نقوم به قد رفعت من قدرتنا على القتال والتغذية والفرار والتكاثر. ولكن ما نقوم به من إسناد اللون هو أمر خاطئ حرفيًا (وإن كان مفيدًا إفادةً واضحةً). ويمكننا تقديم حالة مماثلة للأصوات والأذواق.

ولذلك من الممكن، وعلى نطاق واسع، أن يكون لديك معتقدات كاذبة ولكنها مفيدة تكيفيًا. ولكن الخطأ في بعض الحالات، حتى وإن كانت واسعة النطاق، لا يعني أننا قد نكون مخطئين بشأن أغلب معتقداتنا أو جميعها. فلا ينبغي لهذه النوعية القليلة من الأمثلة أن تقوض ثقتنا في ملكاتنا الإدراكية الأخرى.

ولذا، ودفاعًا عن قلق داروين، يجب أن ننظر نظرًا عميقًا: هل يوجد أي سبب يتجاوز هذه الأمثلة القليلة للقول بأننا ربما نكون مخدوعين خداعًا منهجيًا؟ أو بتعبير أفضل: مع وجود سبب للشك في بعض ملكاتنا الإدراكية المستحثة تطوريًا، هل من الممكن للتطور أن يقوض كل ثقة لدينا في ملكاتنا الإدراكية؟

نحتاج إلى تحريك مياة الفلسفية الراكدة أكثر قليلاً قبل أن نتمكن من معالجة هذا الموضوع بصورة مباشرة. فقد تكون مشكلة التطور والمعرفة أكثر تعقيدًا مما

perceive Females' Friendliness?," Journal of Personality and Social Psychology 42 (1982): 830-38; Martie G. Haselton, "The Sexual Overperception Bias: Evidence of a Systematic Bias in Men from a Survey of Naturally Occurring Events," Journal of Research in Personality 37 (2003): 43-47; Martie G. Haselton and David Buss, "Error Management Theory: A New Perspective on Biases in Cross-Sex Mind Reading," Journal of Personality and Social Psychology 78 (2000): 81-91.

تبدو عليه للوهلة الأولى. وقد يتغير فهم الإنسان للتطور وعواقبه المعرفية رأسا على عقب اعتمادًا على الرؤية الكونية التي يتضمنها فهمه. وفقًا لألفين بلانتينجا، فإن مشكلة المعرفة التي كنا نناقشها ليست مع التطور نفسه ولكن مع التطور المضمّن في الرؤية الطبيعانية للعالم. ويجادل بلانتينجا بأن التطور الطبيعاني يشكل مشكلة للمعرفة.

فما هي الطبيعانية؟

تذهب الطبيعانية الميتافيزيقية Metaphysical Naturalism إلى أنه لا وجود لشخص مثل الله أو أي شيء يقربه. لا يوجد - وفقًا للطبيعانية - سوى الزمكان، والأشياء والأحداث المادية في الزمكان. ولأنه لا يوجد شيء يتجاوز الطبيعة، أي يتجاوز الزمكان، فلا وجود لما هو خارق للطبيعة. وبذلك يلزم عن الطبيعانية أن لا وجود لغاية عظمى أو تصميم في الطبيعة؛ ذلك لأنها تنكر وجود أي مريد لغاية أو مصمم.

والتطور - بالنسبة لمعتنق المذهب الطبيعاني وكما ذكر أعلاه - يستبعد وجود الغايات. فالمخلوقات يعيش بعضها ويتكاثر أفضل من البعض الآخر وحسب، وقد تنتقل السمات والسلوكيات التي تساعدها على البقاء والتكاثر إلى الأجيال القادمة، هذا كل ما في الأمر. ولم يحدث شيء من ذلك لغاية.

لنضرب مثالًا بما قد أشرنا إليه سابقًا: وفقًا للتطور الطبيعاني فإن البطة لم تطور أقدامًا ذات أغشية بين الأصابع حتى تتمكن من السباحة، ولم تطور الزرافة رقبة طويلة حتى تتمكن من الوصول إلى الأوراق الأعلى في الأشجار. بل إن نمو الأغشية في أقدام البط والممنوح بلا سبب أدى إلى تمكين البط من السباحة بدرجة أسرع ومن ثم العيش لفترة أطول، كما أن زيادة طول الرقبة مكن الزرافات من الوصول إلى مستوى أعلى لجمع المزيد من الطعام ومن ثم العيش لفترة أطول؛ وكان البط ذو الأغشية والزرافات ذات العنق الأطول أكثر قدرة على التكاثر من أقرانهم الأقل تكيفًا وأكثر تمريرًا لجيناتهم إلى الأجيال التالية. ولكن هذه الأشياء لم تحدث لكي يتمكنوا من تمرير جيناتهم. فكما قررت أعلاه، لا يوجد وفقًا

للمذهب الطبيعاني "لكي"، ولا وجود لأي هدف أو غاية. الطبيعانية لا تحدث الأشياء لغاية، بل تحدث الأشياء دون سبب.

وإذا كانت الطبيعانية صحيحة، فإن البشر إذن لم يطوروا ملكات معرفية كي تمكنهم من اكتساب معتقدات صادقة. إن رواية تطور الإنسان تختلف تمامًا من وجهة نظر الطبيعانية، فهي تذهب إلى أن أسلافنا قد اتفق لهم أن طوروا ملكات إدراكية مختلفة، وكان سبب تطوير تلك السمة، مثل أي سمة أخرى، هو تحسين لياقتهم الإنجابية. ففيما يتعلق بالملكات الإدراكية، لم يضع التطور الاعتقاد الصادق في الحسبان (لأنه لا عقل له، فلا يفكر في شيء). ولذلك لم تشكل الطبيعانية (بسبب عجزها) ملكاتنا الإدراكية من خلال التطور لكي نتمكن من الوصول إلى نطاق أوسع للحقيقة. فالطبيعانية محايدة بخصوص إنتاج أو إمكان انتاج ملكاتنا الإدراكية للمعتقدات الصادقة. إن ملكاتنا الإدراكية وفقًا للفرض الطبيعاني لم تتطور لكي تنتج معتقدات صادقة؛ بل تطورت السمات التي تناسبنا بدرجة أفضل للنجاح الإنجابي من تلك التي امتلكها أسلافنا الأقل حظًا. هكذا يبدو تطور ملكاتنا الإدراكية من المنظور الفلسفي للطبيعانية الميتافيزيقية. إنها قصة تقوض أي ثقة قد تكون لدينا في ملكاتنا الإدراكية.

ومن الناحية الأخرى، كيف لنا أن نفهم عملية تطور ملكاتنا الإدراكية إذا كان الله قد خلق من خلال التطور؟ دعونا ننظر في حجة ألفن بلانتينجا. يؤكد بلانتينجا على اعتقاده بالتطور موضحًا أن حجته لا ينبغي أن تُؤخذ كحجة ضد التطور. ويقول إن التطور ليس هو المشكلة، بل المذهب الطبيعاني هو المشكلة، وفيما يتعلق بالمعرفة فإن النزعة التأليهية تتفوق على النزعة الطبيعانية. إن حجة بلانتينجا التطورية الشهيرة ضد الطبيعانية تجعل أنصار التطور المناصرين أيضًا أنصار للطبيعانية الميتافيزيقية يشكون في أمرين:

1 - أن تكون الغاية من أنظمتنا الإدراكية هي إمدادنا بمعتقدات صادقة؛

2 - أن ملكاتنا الإدراكية تزودنا في واقع الأمر بمعتقدات يغلب عليها الصدق.

إذا أنكر الطبيعاني أي غاية للكون، فإن إنكار (1) يلزمه ضرورةً. فإذا لم

توجد غايات كونية، فإن أنظمتنا الإدراكية لا يمكن أن يكون لها غاية، ناهيك عن الغاية من تزويدنا بمعتقدات صادقة. وعليه، إذا افترضنا صحة الطبيعانية فلن يكون من غرض أنظمتنا الإدراكية تزويدنا بمعتقدات صادقة. وفي ذلك ما يكفي.

لكن ماذا عن (2)؟ هل لدى الطبيعاني التطوري أي سبب للاعتقاد بأن ملكاتنا الإدراكية تنتج في الغالب معتقدات صادقة؟ هل يعتقدون ذلك في واقع الأمر؟

تكمن المشكلة في أن التطور غير الموجه (أي ذلك التطور المفهوم في إطار الرؤية الكونية للمذهب الطبيعاني) يهتم بعمق بالسمات والسلوكيات التي تساعد على البقاء ولكنه غير مهتم إطلاقًا بالمعتقدات الصادقة. ومرة أخرى، الطبيعانية لا تكترث؛ لأنها خالية عن الاهتمامات (والغايات). وكما يجادل الفيلسوف الطبيعاني ريتشارد رورتي: لم يهيئنا التطور "لنفهم الأشياء بصورة صحيحة". يعمل الانتخاب الطبيعي على السمات أو السلوكيات التي تمكّن الكائن الحي من التحرك على نحو صحيح، ووضع أجزاء جسمه في الأماكن الصحيحة - على سبيل المثال: فتح الأفواه لابتلاع الطعام في الوقت الذي نبقي أجزاء الجسم بعيدة عن أفواه الحيوانات المفترسة. فلا يضمن التطور إلا أن نتصرف بطرق معينة معززة للبقاء، ولا يهتم التطور كثيرا بالمعتقدات. السمات الناجحة إذن هي تلك التي تساعدنا على الأكل والقتال والهرب وممارسة الجنس. وإذا كانت ملكاتنا لإدراكية ناتجة عن التطور الطبيعاني، فإن وظيفتها ببساطة هي البقاء. وإذن، لدينا وفقًا للطبيعانية سبب وجيه للشك في أن تكون وظيفة الملكات الإدراكية إنتاج معتقدات صادقة.

وبينما قد يكون السلوك تكيفيًا، فلا يلزم الشيء نفسه بالنسبة للمعتقدات. فقد تكون معتقداتنا صادقة، وقد لا تكون كذلك. يدعي الفيلسوف ستيفن ستيتش "أن أنظمة تكوين المعتقدات ذات الدقة القصوى (التي تكون معتقداتها أقرب ما يكون لتمثيل الواقع الخارجي) لا يلزم أن تكون ضرورية لزيادة احتمالية البقاء: الانتخاب الطبيعي لا يهتم بمعرفة الحقائق ولكنه يهتم فقط بالنجاح الإنجابي"[13] قد تكون

(13) Stich, *The Fragmentation of Reason*, 62.

معتقداتنا صادقة، ولكن التطور إذا فُهم في إطار الطبيعانية لا يعطينا أي سبب للاعتقاد بأنها كذلك. وهكذا نعتقد أن معتقداتنا صادقة، ويبدو تمثيلها للعالم كله أنه صادق بالنسبة لنا، ولكن لا يوجد سبب تطوري لكونها صادقة. والذنب يقع على عاتق الطبيعانية، لا التطور.

التطور والصدق

قدم فريدريك نيتشه في كتابه العلم المرح The Gay Science تقديرًا قاتمًا للمعرفة الإنسانية؛ حيث ناقش آفاق اكتساب الحقيقة من خلال ملكاتنا الإدراكية التطورية. وقرر أن: "العقل لم ينتج على مدى فترات طويلة من الزمن سوى الأخطاء. وقد ثبت في بعضها أنها كانت مفيدة وساعدت على الحفاظ على النوع: أولئك الذين طوروا تلك الأخطاء المفيدة أو ورثوها كان لديهم حظ أفضل في كفاحهم من أجل أنفسهم ومن أجل ذريتهم"[14]. لا شك أن اختبار وخطأ التطور هي عملية غربلة عويصة، ولكنها - وهنا النقطة المحورية - تستبقي بحكم التعريف بما هو فقط مفيد للبقاء (وليس بما يؤدي إلى معرفة الحقائق). وإذن، فيما يتعلق بملكاتنا الإدراكية والمعتقدات التي تنتجها، فإن البشر استقروا، وفقًا لنيتشه، على بعض الأخطاء المريحة والمميزة التي أثبتت فائدتها لبقائهم على قيد الحياة.

ويجادل نيتشه بأن هذه الأخطاء متأصلة بعمق لدرجة أننا نعتبرها الآن حقائق واضحة أو بديهية أو لا تقبل الشك. فما نأخذه على أنه معتقد يقيني ليس إلا حاصل عملية الصدفة هذه (أي ميراثنا التطوري). ولكن إذا كان التطور قد شكَّل الإدراك البشري من خلال عملية تصادفية تهدف فقط إلى البقاء (وليس لمعرفة الحقيقة على الإطلاق) فإن نتاج عقولنا، وفقًا لنيتشه، متجذر في الخطأ. ثم يفترض بعد ذلك فيَ تلك الأخطاء العميقة والمنهجية التي شكلت ميراثنا المعرفي التطوري أنها تمثيلات لنماذج معرفية (براديم). يقول نيتشه: "وتتضمن أركان الإيمان الخاطئة

---

(14) Friedrich Nietzsche, *The Gay Science: With a Prelude in Rhymes and an Appendix of Songs* (New York: Vintage, 2010), 169.

تلك، التي لا تزل تُورث باستمرار حتى صارت تقريبًا جزءًا من الملكة الأساسية للبشر، ما يلي: هناك أشياء دائمة؛ هناك أشياء متساوية؛ هناك أشياء، ومواد، وأجساد؛ الشيء على ما يبدو عليه؛ إرادتنا حرة؛ ما هو جيد بالنسبة لي هو أيضًا جيد في ذاته"[15]. فالملكات الإدراكية التي ناقشناها في الفصول الافتتاحية - على سبيل المثال: الاعتقاد بوجود عالم خارجي وأن الأشياء تبقى عبر الزمن - ليست، وفقًا لنيتشه، بريئة حتى تثبت إدانتها؛ فقد أظهر ميراثنا التطوري أن هذه الملكات، أو "أركان الإيمان الخاطئة"، مذنبة. وعلى الرغم من أن ملكاتنا الإدراكية قد تكون مفيدة تكيفيًا، فإن حساسية التطور للنجاح الإنجابي أو الميزة التكيفية لا تمنح الثقة في صدق مخرجاتها الاعتقادية. إن حساسية التطور الشديدة للبقاء هي، بحكم الضرورة، سبب عدم حساسيتها للحقيقة.

وتسليمًا بعواقب ما يعتبره نيتشه عملية عمياء (أي طبيعاني)، يكون نيتشه بين خيارين: فإما أن لا نثق في شيء نعتقده، أو أن نعرِّف الحقيقة بما يجعلها تتغير بتغير غايات الفرد (وهذا الخيار الأخير هو ما يؤكده نيتشه بجرأة). ويجادل نيتشه بأن فهمنا لميراثنا التطوري يقوض أي ضمانة قد تكون لدينا بخصوص اقتراب ملكاتنا الإدراكية من الحقيقة (كما هو مفهوم تقليديًا).فيمكننا أن نثق في إدخال أجزاء أجسامنا أو إخراجها من وإلى الأماكن الصحيحة، ولكن التطور يزيل أي أسس للثقة بأننا أدركنا العالم إدراكًا صحيحًا.

والسبب في ذلك يتعلق بالطريقة بما تلقيه نظرية التطور، عند اقترانها بالمذهب الطبيعاني، من شكوك حول مصداقية ملكاتنا الإدركية. تذكر أن الطبيعانية تنفي وجود أي شيء آخر غير الزمكان والأشياء المادية في الزمكان. وبالتالي، فبالنسبة لمؤيدي الطبيعانية لا يوجد خالق ذو غاية أو مصمم موجود خارج العالم الطبيعي. وعليه، فإن عملية التطور عملية غير موجهة: فالطبيعانية لا "تكترث" بما ينتج عن الانتخاب الطبيعي، وكذلك لا تكترث بالحقيقة.

ومؤخرًا، جادلت باتريشيا تشيرشلاند Patricia Churchland بأن علم الأحياء

---

(15) Nietzsche, *The Gay Science*, 169.

يتحدى الفكرة البدهية القائلة بأن الوظيفة الأساسية للدماغ هي اكتساب معارف قضوية عن العالم. وترى تشرشلاند، من وجهة نظر تطورية، أن "الوظيفة الأساسية الوتيرية للجهاز العصبي هي جعل أجزاء الجسم بحيث يجب أن تكون حتى تتمكن الكائنات الحية من البقاء على قيد الحياة.... تمنح التحسينات في التحكم الحسي الحركي ميزة تطورية: أسلوب التمثيل الأكثر أناقة يكون مفيدًا طالما أنه قد تم تجهيزه بما يتناسب وأسلوب حياة الكائن الحي وتعزيز فرص بقائه. أما معرفة الحقيقة، أيما كانت، فتقبع بالتأكيد في ذيل الاهتمامات"[16]. وتوضيحًا لهذا الكلام فإن التطور، بالنسبة لتشرشلاند، يمارس ضغوطه الانتخابية على طرق تفكيرنا وتمثيلنا لتعزيز البقاء، دون ضمانة تتعلق بإنتاج طرق تفكيرنا للحقيقة. وعليه ينبغي أن يدفعنا التطور، الذي يهتم بالتكاثر لا الحقيقة، إلى الشك في صحة معتقداتنا. وتفصل تشيرشلاند قليلاً في بيان قلق داروين وشكية نيتشه مبينةً أن التطور يهدف إلى البقاء، وليس الاعتقاد الصادق، كما قال مارتي جي هاسلتون Martie G. Haselton ودانيال نيتل Daniel Nettle: "يُظهر العقل البشري تصميمًا جيدًا، على الرغم من أنه تصميم لتحقيق أقصى قدر من اللياقة، لا لصون الحقيقة"[17].

ويُصدِّق عالم الأحياء مايكل جيزلين Michael Ghiselin على ذلك قائلاً: "من الوارد أن نكون أي شيء إلا كوننا آلية تم إنشاؤها لإدراك الحقيقة لذاتها. بل لقد طورنا نظامًا عصبيًا يعمل لصالح أجهزتنا التناسلية، متوافقًا مع وسائل التنافس التناسلي. فإذا كان الحمقى أكثر خصوبة من الحكماء، فإن الانتخاب الطبيعي سيفضل الدرجة من الحماقة التي تحقق خصوبة أكثر. وإذا كان الجهل يساعد في الحصول على رفيقة أو رفيق، فإن الرجال والنساء سيميلون إلى الجهل"[18]. من المؤكد أن التطور يعطينا "وسائل التنافس الإنجابي"، ولكنه بذلك يعطينا أيضًا

---

(16) Patricia Churchland, “Epistemology in the Age of Neuroscience,” Journal of Philosophy 84.10 (1987): 548-49.

(17) Martie G. Haselton and Daniel Nettle, "The Paranoid Optimist: An Integrative Evolutionary Model of Cognitive Biases," Personality and Social Psychology Review 10 (2006): 63.

(18) Michael Ghiselin, *The Economy of Nature and the Evolution of Sex* (Berkeley: University of California Press, 1974), 126.

سببًا للشك في صحة معتقداتنا. وإذا كان التطور صحيحًا، كما يجزم جيزلين، فعلينا جميعًا أن نكون متشككين - أي، كما أشرت سابقًا، منكرين، على سبيل المثال، لمعتقداتنا حول الماضي، والعالم الخارجي، والمستقبل، والأشخاص الآخرين، وحتى الآلهة.

ولكننا لسنا متشككين. فنحن نفترض الثقة في ملكاتنا الإدراكية، وبالتالي نفترض صدق غالبية معتقداتنا. ونحن نعرف، أو على الأقل ندعي أننا نعرف، ما هو الوقت الآن، وما الذي تناولناه على الإفطار، ومن سنلتقي على العشاء. ونفترض مع كل هذا وجود العالم الخارجي/ المادي، والماضي، وأن المستقبل سيكون مثل الماضي، وأنه يمكننا التعرف على أشخاص آخرين. ونعتقد أن العالم - هذا العالم المجسم المادي الحقيقي - كان موجودًا حقبًا طويلة في الماضي وسيمتد في الوجود لحقب طويلة في المستقبل (وبطرق يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير). ونؤمن بوجود أشخاص آخرين، ونخطط لمصادقتهم والتزاوج معهم وتجنبهم. ومرة أخرى، نحن نفترض في كل ذلك أن ملكاتنا الإدراكية تعمل على نحو صحيح - أي تنتج على الأغلب معتقدات صادقة. فنحن نعتمد على تلك المعتقدات لنشق طريقنا في العالم.

ولكن هل علينا أن نثق في ملكاتنا الإدراكية؟ هل لدينا ما يبرر تمسكنا بهذا الافتراض؟ أم يجب أن نعتبر أن "العقل البشري يُظهر تصميمًا جيدًا، على الرغم من أنه تصميم لتحقيق أقصى قدر من اللياقة، لا لصون الحقيقة"[19]، ونعترف بالعواقب البغيضة لإرثنا التطوري؟ باختصار، هل من الممكن أن يقوض التطور الثقة في ملكاتنا الإدراكية، ومن ثمَّ يقوض تطلعاتنا إلى المعرفة؟

المعتقدات والبقاء

من الصعب أن نتخيل أن غالب معتقداتنا ليست صادقة؛ ومن الصعب تخيل وجود سبب وجيه للاعتقاد بأن بعض ملكاتنا الإدراكية قد تكون غير موثوق بها.

---

(19) Haselton and Nettle, "The Paranoid Optimist," 63.

ولكن أبناء عمومتنا من الرئيسيات الثديية ناجحون للغاية في البقاء على قيد الحياة دون امتلاك مجموعة غنية من المعتقدات أو ربما دون أي معتقدات على الإطلاق. وحتى لو كان لدى الرئيسيات بعض المعتقدات (وثمة تصاعدًا في الاعتقاد أن بعض الرئيسيات، على سبيل المثال القرود، لديهم على الأقل بعض المعتقدات) فما عليك سوى النزول حلقة أو حلقتين في سلسلة الكائنات العظيمة إلى أي نوع آخر من الكائنات التي تمكنت من البقاء بنجاح باهر دون معتقدات. لقد طورت جميع الأنواع الناجحة تقريبًا - باستثناء البشر وعدد قليل من أنواع الثدييات الأخرى - سلوكيات تساعد على البقاء دون توجيه أو مناشدة المعتقدات. إن امتلاك معتقدات صادقة ليس ضروريًا لبقاء الأنواع، ويعتبر من الناحية التطورية - على أفضل تقدير - الإستثناء وليس القاعدة.

بل حتى في الجنس البشري، لا تتطلب معظم السمات الضرورية لبقائنا على قيد الحياة معتقدات. فلسنا نقرر، ولا نحتاج إلى أن نقرر، فعل التنفس أو ضخ الدم أو هضم الطعام أو نمو الجلد. لقد رأت الطبيعة أنه من الأفضل عزل مثل هذه الأفعال لتكون ضمن الغرائز اللاواعية واللاإرادية. وتخيل لو أن الطبيعة لم تفعل ذلك. تخيل لو كان يتوجب عليك أن تقرر في كل مرة أن تستنشق الكمية المناسبة من الهواء، وأن تضغط الدم من القلب إلى الأطراف ولكن ليس كثيرًا أو قليلًا، وأن ترسل الأحماض والإنزيمات لهضم الطعام الذي أمرت فمك للتو أن يمضغه وأمرت المريء لينقل الطعام من الفم إلى المعدة. لن يمكنك أبدًا النوم في تلك الحالة، وسوف ينفجر دماغك من الحمل المعرفي الزائد.

تشير الاكتشافات الحديثة إلى أنه من الممكن، في بعض الحالات، فصل المعتقد عن الفعل البشري. مثال ذلك، بعض الأشخاص الذين عانوا من تلف في الدماغ ولدِيهم على الرغم من ذلك ما يطلق عليه "الرؤية العمياء". ففي حين يعجز هؤلاء المكفوفون عن الإبصار أو تكوين معتقدات معينة حول الأشياء من حولهم، فإن خاصية الرؤية العمياء تمدهم بالقدرة على تحديد موقع الأشياء والإمساك بها. فلا يحتاجون أن يكونوا واعين أو لديهم معتقدات حول هذه الأشياء من أجل التصرف. واجه طبيب الأعصاب لورانس ويسكرانتز Lawrence Weiskrantz في

السبعينيات مريضًا، يُعرف باسم "دي بي"، مصابًا بتلف في الدماغ مع بعض المناطق البصرية العمياء. عندما أظهر له ويسكرانتز نمطًا من الخطوط المقلَّمة ليصفها، اعترض "دي بي" بأنه غير قادر على رؤيتها على الإطلاق. ولكن عندما طلب ويسكرانتز من "دي بي" تخمين عدد الخطوط المقلَّمة التي كانت عمودية، أصاب دي بي بنسبة 90 % تقريبًا من المرات. وعلى ما يبدو، كان دماغه يدرك الخطوط بينما كان عقله غير واع بها[20].

وحتى الأدمغة السليمة قد تقودنا إلى معتقدات خاطئة. أحد الأمثلة على ذلك يتعلق بمعتقداتنا فيما يتعلق بالإرادة الحرة. إن الطريقة التي يفكر بها معظمنا عن العملية التي تؤدي إلى الفعل البشري تشبه ما يلي: "فكر أولاً، قرر ثانيًا، تصرف ثالثًا". ومع ذلك، فقد تم التشكيك في هذا الفهم الشائع من خلال سلسلة من التجارب التي أجراها عالم الفسيولوجيا العصبية بنيامين ليبت Benjamin Libet في السبعينيات من القرن الماضي. حيث طلب ليبت من المشاركين أداء عمل تطوعي - نقرة بسيطة من معصمهم - في أي وقت يختارونه للقيام بذلك. ووجد أن الوعي الذاتي بالإرداة للأشخاص المشاركين في القيام بالفعل حدث قبل 200 مللي ثانية من حركة العضلة، وهو أمر منطقي تمامًا. ومع ذلك، فقد وجد ليبت أيضًا أنه حتى قبل وعي الفرد الذاتي بإرادته في القيام بالفعل، أطلق ما دون الوعي من الدماغ استعدادًا للفعل. وقد حدث هذا الإطلاق قبل حوالي 550 مللي ثانية من حركة العضلة[21]. إن ما تحاول هذه التجارب تُظهره هو أن العمليات الكهربائية اللاواعية في الدماغ تأتي أولاً، قبل اتخاذ قرارات واعية لأداء (ما يبدو لنا) أفعالًا إرادية[22]. يأتي الشعور بالتحفيز

---

(20) Arash Sahraie et al., "Consciousness of the First Order in Blindsight," Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America 49.107 (December 2010): 21217-22; DOI:10.1073/pnas.1015652107.

(21) B. Libet et al., "Time of Conscious Intention to Act in Relation to Onset of Cerebral Activity (Readiness-Potential): The Unconscious Initiation of a Freely Voluntary Act," Brain 106 (1983): 623-42.

(22) بينما قد طرحنا بعض الأسئلة حول التجارب التي تتبع نهج ليبت في الفصل السابق، فإنه لا يوجد سبب لرفض الادعاء بأنه في بعض الحالات أو حتى العديد من الحالات نتحرك للعمل أولاً ثم نشكل اعتقادا واعيًا لاحقًا.

الواعي للقيام بفعل ما بعد الفعل المحرك اللاواعي؛ ثم نفكر، بأثر رجعي ولكن على نحو خاطئ، أن معتقداتنا قد حفزت الفعل - فتحن نسقط دافعنا على السبب الأول. وفي تجارب تتبع نفس خطى ليبت، تعتبر المعتقدات مرافق شكلي، غير ضروري للقيام بالفعل.

لا أعرف ما إذا كانت استنتاجات ليبت الشاملة صحيحة (في الواقع، أعتقد أنها ليست كذلك)، ولكن النقطة المهمة هي أنه من الممكن أن يكون الوضع كذلك. فكان من الممكن أن يهيئنا التطور للعمل أولاً ثم تكوين المعتقدات ثانيًا (بل وكان من الممكن حتى بالنسبة لتلك المعتقدات أن تكون غير مرتبطة بالفعل).

وإذا كانت المعتقدات ضرورية لبقاء الإنسان، فنحن النوع الوحيد (أو أحد الأنواع القليلة جدًا) التي تتمتع بهذه السمة. ولكن حتى في الحالة الإنسانية، فإن المعتقدات غير ضرورية لقدر كبير من سمات وسلوكيات البقاء على قيد الحياة لدينا، وربما تكون - بناء على حالات الرؤية العمياء وأمثلة ليبت - منتج فائض غير ضروري.

ثم تطرأ الفكرة: هل من الممكن أن يكون التطور غير الموجه (الطبيعانية + التطور) قد أنتج شيئًا باهظًا مثل المعتقدات الصادقة؟ أما فيما يتعلق بالصفات والسلوكيات فلا إشكال في فهم دواعي ذلك، لكن أينتج معتقدات صادقة؟ إن المعتقدات الصادقة (أو كثير من المعتقدات الصادقة) ليست ضرورية لبقاء الإنسان. وإذا كانت كذلك، فنحن النوع الوحيد (أو ربما أحد الأنواع القليلة) الذي يتمتع بهذه السمة. وبينما ترتبط السمات والسلوكيات ارتباطًا واضح بالبقاء، فإن المعتقدات الصادقة ليست كذلك. بالإضافة إلى أن الملكات الإدراكية المطلوبة للوصول إلى الحقيقة تستغرق وقتًا وطاقة. فإذا لم تكن هذه المعتقدات ضرورية أو حتى مفيدة لبقاء الإنسان خصوصًا، فلماذا يفضلها التطور؟

وأخيرًا، يوجد سبب آخر للاعتقاد بأن التطور غير الموجه (الطبيعانية + التطور) غير مهتم بإنتاج المعتقدات الصادقة وهو حقيقة أن التطور يبدو أنه قد أنتج بعض المعتقدات أو أنتج الميل لاعتناق معتقدات خاطئة تمامًا. ولقد ذكرنا بالفعل مثالين في الإحماء الفكري. وسواء كان ذلك بسبب خلل إدراكي أو عدم دقة، لقد

قمنا بتطوير بعض المعتقدات المميزة ولكنها مع ذلك كاذبة. لدينا ميول طبيعية للمعتقدات الخاطئة تعمل على نحو صحيح. فجميعنا يميل، مثل مواطني بحيرة وبيجون، إلى الاعتقاد بأننا أفضل من المتوسط. ولا شك في أن المبالغة في تقدير قدراتنا وذكائنا كان شيئًا جيدًا لأسلافنا في الأراضي العشبية في إفريقيا: فالتعزيز الخادع للذات يمكن أن يبقي المتفائل مستمراً في الوقت الذي يكون المتشائم فيه مستعدًا للاستسلام.

جادل كل من علماء النفس هوغو ميرسير Hugo Mercier ودان سبيربر Dan Sperber بأن التكيف التطوري الذي تخدمه قدراتنا الاستدلالية لا يتمثل في القدرة على إيجاد الحقيقة. بل لقد طورت هذه القدرات للسماح لنا بالفوز في الحجاج وإقناع الآخرين بالآراء التي نتمسك بها. و قد أكدا أن الوظيفة التطورية للاستدلال هي الإقناع وليس معرفة الحقيقة. وفي حين أن الحجج المؤيدة لهذا الادعاء هي إلى حد ما تخمينية، فإنه إذا ما كانت صحيحة فإن هذا سيضيف المزيد من الأدلة إلى الموقف القائل بأن التطور غير الموجه لا يهتم بالحقيقة.

وخلاصة القول: أن التطور، إذا وجد موطنه في الطبيعانية، فستضمحل آمالنا بأن تكون ملكاتنا الإدراكية تفعل أكثر من مجرد مساعدتنا على البقاء على قيد الحياة.

تطبيق مبدأ التوقع

قد يظن المرء أن الحالة التي توصلنا إليها حتى الآن - أي حالة كون التطور غير الموجه لن يقودنا إلى توقع معتقدات صادقة - مبنية على أمثلة لأشخاص ينزعون لامتلاك معتقدات كاذبة. لست أحاجج على أن التطور غير الموجه من شأنه أن يهيئنا لامتلاك معتقدات كاذبة. ولكني أحاول وحسب إظهار أنه من الممكن لنا أن نعيش ونتصرف على نحو جيد تمامًا مع معتقدات كاذبة أو حتى مع عدم وجود معتقدات على الإطلاق. وقد أعطيت هذه الأمثلة لتخفيف حدسنا الذي لا يكاد يقهر بأننا بحاجة إلى معتقدات صادقة للبقاء على قيد الحياة. أعتقد أن لدينا معتقدات صادقة في الغالب، ولكن، كما في حالة الأسماك والديدان المفلطحة، كان من

الممكن أن نتطور للبقاء على قيد الحياة دون توجيه من المعتقدات الصادقة. وحتى لو كانت لدينا معتقدات، كان من الممكن أن نتطور بحيث (أ) تكون المعتقدات غير صادقة و(ب) أن لا تكون من وظائف المعتقدات مساعدتنا على البقاء على قيد الحياة. ولكن معظمنا، بمن فيهم أنا، يعتقد أننا طورنا معتقدات صادقة تساعدنا على البقاء. ولذا فإن هذه الأمثلة تساعدنا على التفكير في "ماذا لو؟".

هذه الأمثلة، بالطبع، لا تثبت أن التطور غير الموجه لن يؤدي إلى القول بعدم صدق معتقداتنا عمومًا. ربما اكتسبنا معتقدات صادقة من خلال عملية تطور غير موجه. نحن لم ندحض هذا الاحتمال، ولكن حتى لو كان هذا ممكنًا، فهل من المرجح أن يكون كذلك؟

المذهب الطبيعاني، عندما يقترن بالتطور، يقودنا إلى توقع لا شيء بشأن اكتساب المعتقدات الصادقة. إنه يقودنا إلى توقع أن الأنواع التي خلفت أسلافنا الرئيسيين كان لها سلوكيات وخصائص بقاء مختلفة، بل وأكثر فاعلية، أما المعتقدات فقد تكون أو لا تكون ذات صلة بالبقاء. إن الطبيعانية لا تهتم بالمعتقدات الصادقة، وذلك لأن الطبيعانية في المقام الأول لا تهتم بأي شيء على الإطلاق. وعليه فإن التطور غير الموجه يقودنا عقلانيًا إلى عدم توقع أي شيء عن ملكاتنا الإدراكية وصدق أو كذب مخرجاتها.

ولكن، إذا كان يوجد إله، فقد نتوقع أن الله يخلقنا بملكات إدراكية تنتج معتقدات يغلب عليها الصدق. فإذا كنا خلقنا على صورة الله وكان الله عالمًا، فقد نتوقع أن يكون البشر أيضًا عالمين. وإذا كان خيرنا الأعظم موجودًا في المجتمع مع بعضنا البعض ومع الله، فقد نتوقع معتقدات تؤدي إلى خيرنا الأعظم: المعتقدات الأخلاقية والروحية التي تساعدنا على العيش معًا في مجتمع، مع بعضنا البعض ومع الله.

وحتى نستخدام مبدأ التوقع مرة أخرى، دعونا نأخذ البيانات:

ب = الملكات البشرية الإدراكية المتطورة فعالة في اكتساب الحقيقة.

ودعنا نأخذ ما فوق الطبيعانية Supernaturalism والطبيعانية Naturalism على أنهما فرضيتين متنافستين:

م = ما فوق الطبيعانية: يوجد كائن يتمتع بقدرات كافية ويهتم بالمخلوقات القادرة على اكتساب الحقائق.

ط = الطبيعانية: لا يوجد شيء سوى الزمكان والأشياء المادية والأحداث الواقعة في الزمكان، ولا وجود لكائنات خارقة للطبيعة.

نظرًا إلى أن توقع حدوث البيانات ب مع الفرضية م أكثر بكثير من توقعها مع الفرضية ط، فإن لدى الإنسان سببًا أكبر للاعتقاد في م عن الاعتقاد في ط. وبالتالي لدينا سبب وجيه لتفضيل ما فوق الطبيعانية على الطبيعانية.

إذا كنا قادرين على استيعاب الحقيقة إلى حد كبير فما هي الرؤية الكونية التي يمكنها تفسير ذلك على أفضل وجه؟ تجد ملكاتنا الإدراكية موطنها الفكري في رؤية ما فوق الطبيعانية الكونية، بينما لا ترحب الرؤية الكونية الطبيعانية من الناحية الفكرية بملكات إدراكية موثوق بها.

ويستطيع التأليهي The theist وينبغي عليه أن يتعرف على الطرق النموذجية التي توقعنا في الخطأ غالبًا (في الواقع، قد أكد معظم التأليهيين تاريخياً على عدم عصمة الإنسان؛ فنحن في نهاية الأمر مخلوقات لا آلهة). ولكن التأليهي، على عكس الطبيعاني، لديه سبب مستقل للثقة في أنه على الرغم من هذه الأمثلة فإننا ما زلنا قادرين على الوصول إلى الحقيقة ويجب ألا نشكك في غالبية معتقداتنا.

فنحن لا نشكك في مصداقية ملكاتنا الإدراكية، ولا نشكك في صدق العديد، وربما معظم، معتقداتنا عن العالم. ويبدو أننا قادرون عمومًا على استيعاب الحقيقة. فأنا أعرف أنني عندما أحمل كتابًا بين يدي، وأتعرف على ابنتي عندما تدخل الغرفة، وأعتقد أن باراغواي موجودة حقًا عندما أراى موقعها على الخريطة. فأي من الرؤى الكونية أفضل في تفسير مصداقية ملكاتنا الإدراكية؟ تعطينا النزعة التأليهية سببًا للاعتقاد بأن لدى البشر قدرات معرفية يمكن الاعتماد عليها وهي توصل بالفعل إلى معرفة حقائق مهمة. ومن ناحية أخرى، تقودنا الطبيعانية إلى عدم توقع

أي شيء عن ملكاتنا الإدراكية. ويضاف إلى ذلك أننا عندما نجمع بين الطبيعانية والتطور نجد أسبابًا وجيهة للشك في مصداقية ملكاتنا الإدراكية. وهكذا، تبدو الرؤية الكونية الطبيعانية للعالم غير مرحبة فكريًا لقبول مصداقية ملكاتنا الإدراكية.

تعقيدات

لنفترض أننا نعتقد أن ملكاتنا الإدراكية قد تشكلت من خلال تطور غير موجه. نحتاج في ظل هذا الافتراض للنظر في نسبة ما هو صادق من معتقداتنا مقارنة بما هو كاذب. فإذا كانت معظم معتقداتنا العادية صادقة، فهذا يعني أن التطور غير الموجه عمومًا يؤدي إلى معتقدات صادقة. وقد جادلت بأن النزعة التأليهية، لا النزعة الطبيعانية، هو الذي يوفر لنا سببًا مستقلاً للاعتقاد بأنه سيكون لدينا معتقدات صحيحة في الغالب. ولكن ألا تمتلك الطبيعانية مثل هذا السبب المستقل أيضًا - أعني كأن يكون في المعتقدات الخاطئة ضرر على بقاء تلك المخلوقات القادرة على الاعتقاد عمومًا ؟ إظهار أن هذا غير صحيح في بعض الحالات لا يقوض هذا الادعاء الأكثر عمومية. ولذا يحتاج الدفاع المتكامل عن الحجة التطورية ضد الطبيعاني إلى دحض هذا الادعاء.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الأدلة على أن لدينا ميولا لتكوين معتقدات كاذبة في بعض المجالات تتعارض مع النزعة التأليهية؛ ذلك أنه إذا كان الله هو من خلق عقولنا، فإنه خلقها بما فيها من آليات لتكوين الاعتقاد والتي تنتج على نحو منهجي معتقدات كاذبة. ومرة أخرى، يتوجب علينا للحصول على دفاع متكامل عن هذه الحجة أن يؤخذ هذا الاعتراض في الاعتبار.

وتتضاعف المشكلة. فكر في الأمثلة التي قد تذهب ضد فرضية النزعة التأليهية أنه في حالة وجود معتقدات صادقة لدينا بشأن الأمور المهمة فذلك يعني أن الله يعتني بنا. على سبيل المثال: إذا كان الله يقوم على أمرنا بعناية فائقة لدرجة أننا نصل إلى معتقدات صادقة حول الأمور المهمة، فلماذا يوجد الكثير من المعتقدات الدينية والأخلاقية المتباينة على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم؟ فمن غير الممكن أن يكونوا جميعًا على حق.

يحتاج التأليهي للدفاع المتكامل عن هذه الحجة إلى تطوير ردود على تلك الحجج المضادة. ويجب أن يقدم الدفاع التام والكامل عن الحجة التطورية ضد الطبيعانية تفسيرًا لآليات تكوين المعتقدات غير الموثوقة، بما في ذلك، وربما على نحو خاص، تلك التي تنتج معتقدات دينية وأخلاقية كاذبة. أعترف بهذه المشاكل ولكني سأمضي قدماً دون معالجتها.

الأرجحية الأولية للنزعة التأليهية

اسمحوا لي ألا أبالغ في ما جادلت عليه. لقد بدأت الفصل بفكرة مفادها أنه من الجيد العثور على دليل يدعم معتقدات المرء حتى ولو كانت تلك المعتقدات مبررة تبريرًا مباشرًا. ثم جادلت بأن ملكاتنا الإدراكية الموثوقة تقدم هذا النوع من الأدلة الداعمة للاعتقاد التأليهي. أنا لم أدحض الطبيعانية ولم أرفض التطور. لقد جادلت فقط، مستخدمًا مبدأ التوقع، أنه، وبالأخذ في الاعتبار حقيقة التطور، فإن الملكات الإدراكية الموثوقة للفرد تؤكد بقوة اعتقاد المرء بالله الحاضر فعليًا على منافسه الفكري الرئيسي: الطبيعانية.

لنفترض أنك سمعت للتو حجة مماثلة "تؤكد" اعتقاد صديق لك بوجود الأشباح. ولنفترض أنك وبينما كنت تتناول عشاءً متأخرًا في منزل صديقك سمعت عواءًا عاليًا لا يمكن تفسيره قادمًا من إحدى غرف النوم. فأخبرك صديقك أن لا داعي للقلق؛ فالضوضاء تصدر من شبح شخص قُتل في تلك الغرفة في نفس اليوم من الأسبوع وفي نفس الوقت الذي سمعت فيه العواء. وفي الواقع، لقد علمت أنه بإمكانك سماع هذا العواء كل أسبوع في نفس الوقت بالضبط. إن التفكير في وجود الأشباح أمر مستبعد للغاية، ولذلك ضحكت ساخرًا. فأصر صديقك وقال: "لا، هذا حقيقي، إنه شبح. لقد أغلقنا الغرفة تمامًا بسداد شقوق، فنحن نعلم أنها ليست الريح، وأتينا بسباك ليصلح المواسير، فنحن نعرف أنها ليست عيوب السباكة، وأتينا باختصاصي المبيدات لطرد جميع الحيوانات، فنحن نعلم أنها ليست القوارض".

وبانتهاء صديقك من كلامه كان قد أجهز على كل الفرضيات البديلة لديك

التي كنت تراها أكثر رجحانًا أو عقلانية لتفسير الحدث. ولم يبق على ما يبدو سوى فرضية الأشباح، التي إذا كانت صحيحة، فستتوقع سماع ذلك الضجيج الغريب. فطلب صديقك منك أن تتفق معه؛ فالدليل - كما يؤكد - لا جدال فيه. وصرخ: "يجب أن تصدق!"

هل أنت، كما يصر صديقك، ملزمًا عقلًا (وبموجب مبدأ التوقع) بقبول فرضية الشبح؟ لا أعتقد ذلك، حتى ولو كانت الأدلة مذهلة، وحتى لو كنت غير قادر على التفكير في تفسير بديل معقول. تكمن المشكلة في أن مبدأ التوقع ليس هو المبدأ العقلاني الوحيد المؤثر على حكمك. فأنت ملزم أيضًا بالتعامل مع الأحكام الاحتمالية السابقة. وأنت لا تؤمن بالأشباح. بل لا سبيل لطرح هذه الفرضية على الطاولة حتى ولو كنت تفتقر إلى تفسير أفضل.

وعلى الرغم من أن مبدأ التوقع قد يؤدي بك إلى توقع البيانات، فإن حكمك المستقل عن الأدلة على احتمالية وجود أشباح يثقل كاهل فرضية الأشباح. في الواقع، لأن معظم قراء هذا الكتاب يميلون بشدة إلى عدم تصديق الأشباح، فإن حكمنا على الاحتمالية المبدئية لعدم وجود الأشباح يحسم الأمر تمامًا وبعقلانية. أما الأدلة فهي ببساطة ليست قوية بما يكفي لتثنينا عن عدم اعتقادنا حتى في حالة عدم وجود بديل فعَّال.

هل الحجة التي قدمتها لتأكيد الاعتقاد بالله تشبه حجة صديقك حول الأشباح؟ هل تعاني حجتي من مشاكل مماثلة تتعلق بعدم معقولية أولية؟ هل ينبغي القضاء على فرضية الله في مهدها من البداية مثل فرضية الشبح؟ لا أعتقد ذلك. وأفضل من ذلك أن أقول: إن ذلك يعتمد على الشخص.

تأمل الفرق في المثال التالي: حاول صديقك إقناعك بوجود شبح في المنزل. وبغض النِظر عن تقييمك للمعقولية الأولية، يعتقد صديقك أن الأدلة تتطلب منك الاعتقاد في الأشباح. أما أنا فلم أقم بتقديم حجة تسعى لإقناع جميع القراء بأنه ينبغي عليهم الاعتقاد بالله. بل قدمت حجة للشخص الذي يؤمن فعليًا بالله، شخص لم يستبعد وجود الله منذ البداية، شخص يعتبر الله خيارًا حيًا له. ولأجل هذا الشخص، جادلت أن ملكاتنا الإدراكية المفضية إلى الحقيقة يمكنها تأكيد أو تقوية

درجة اعتقادهم الأولية. فلم تكن حجتي في أن غير المؤمن قد وقع تحت إلزام ما يوجب عليه الإيمان الآن. لقد جادلت فقط أن المؤمن المتدين كثير التفكير - ذلك الشخص الذي يفكر في المعرفة والله والتطور والملكات الإدراكية وعلم النفس التطوري - يمكنه أن يجد في متناول يده تأكيدًا على صحة اعتقاده.

ومن ناحية أخرى، يعتقد غير المؤمن الطبيعاني أن الاحتمالية الأولية للنزعة التأليهية منخفضة حقًا، بل وربما مستحيلة. ونظرًا إلى عدم اعتقاده الأولي، فلا ينبغي أن نتوقع أن يجعل شيئًا مما قلته الاعتقاد بالله عقلانيًا صالحًا بالنسبة إليه.

ولكن لا ينبغي للتأليهي أن ينزعج من آراء الطبيعانيين هنا. ففي حين أن آراء الطبيعاني حول الاحتمال الأولي لوجود الله قد تحسم الأمر عقلانيًا بالنسبة إليه، لكنها لا تحسم الأمر بالنسبة إلى أولئك الذين لديهم تقييمات مختلفة للاحتمال الأولي لوجود الله. وبالنسبة إلى أولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد بوجود الله، فإن الحجة التطورية ضد الطبيعانية قد تدفعهم عقلانيًا من اللاأدرية إلى التأليهية أو، لنبقى أكثر صلة بمناقشتنا، قد تؤكد اعتقادهم التأليهي الموجود لديهم بالفعل.

وبالرجوع إلى البداية: يبدأ الاعتقاد بالثقة. فلا يعتقد معظمنا، على أي حال، بالأشخاص الآخرين أو العالم الخارجي لكون هذه المعتقدات هي أبسط الفرضيات، أو لكونها فرضيات علمية، أو لكونها تفسيرات مبنية على الأدلة الخبراتية (على الأقل ليس من النوع التقني الذي يحتفي به الفلاسفة). فنحن لا نؤمن بأشخاص آخرين أو بالعالم الخارجي كفرضية علمية أو كتفسير على الإطلاق، بل نجد أنفسنا ببساطة مع هذه المعتقدات (بسبب آليات الإدراك الداخلية، تلك التي نأمل أن نكون قد استوعبناها الآن بدرجة أفضل مما كان الوضع عليه عندما بدأنا هذا الكتاب). ومع ذلك، فإن كل ابتسامة وكل دمعة، وكل جبل وكل بحر يؤكد هذه المعتقدات الراسخة. وبالنسبة إلى أولئك الذين وجدوا أنفسهم يعتقدون بالله، فإن ثقتهم يمكن أن تستمر بل ويمكن أن تتبنى تفسيرات علم النفس التطوري للدين. وإذا كان الله قد خلق البشرية بالفعل، فلا يمكن اختزال

المعتقد الديني دون وجود بقايا من دوافع نفسية. وإذا اعتقد المؤمنون أنهم يعرفون أشياء، فيمكن لإيمانهم أن يزداد تأكيدًا (مع اعتبار كون التطور حقيقة) مما كان عليه قبل أن يقرأوا الحجة في هذا الفصل.

ويمكن العثور على أدلة وجود الله - بعيدًا عن الحجة التطورية ضد الطبيعانية - في الحجة الكونية أو الحجة الأنطولوجية. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن استخدام الوعي والأخلاق وإدراك الجمال لدعم الاعتقاد بوجود الله بدرجة أكبر. وعلى الرغم من أن تاريخ المؤمنين الذين زعموا أنهم أقاموا علاقة شخصية الإله لا يمكن أن يثبت وجود الله، فإن شهاداتهم تعمل كدليل يعزز الأرجحية المسبقة لصحة الفرضية.

وأخيرًا، إذا كان يوجد إله، فإن كل فرح وكل حياة تؤكد قناعة المؤمن الراسخة بالفعل. إنها لطريقة شعرية أن تقول إن عالم المؤمن هو عالم مختلف تمامًا عن عالم غير المؤمنين. ولئلا أكون بليغًا جدًا، يجب أن أعترف بأن المعاناة يمكن أن تقدم دليلًا ضد تأكيد وجود الله. ولو كنت أكتب كتابًا مطولاً أو كتابًا لا يركز على الاعتراضات التطورية على الإيمان بالله، لكنت ذكرت المزيد عن الخبرات أو الأدلة المضادة لوجود الله.

الإيمان بالله

لقد تغير المشهد الفكري لما بعد داروين، غيَّرَنا ذلك إلى الأبد. إن تراثنا اللاهوتي وضع البشرية تحت الملائكة. قد لا يزال هذا صحيحا، ولكن يجب علينا الآن أن نعترف بأننا فوق القردة بقليل. نحن حيوانات بشرية، لكننا في نهاية الأمر حيوانات بالتأكيد. كما يذكرنا داروين برزانة:

"ولكن يجب أن نعترف، كما يبدو لي، أن الإنسان بكل صفاته النبيلة، ومع التعاطف الذي نشعر به مع أكثر الناس انحطاطًا، ومع الإحسان الذي لا يمتد إلى الآخر الإنسي فحسب، بل يمتد إلى أكثر الكائنات الحية تواضعًا، ومع ذكائه الإلهي الذي اخترق حركات وبنية النظام الشمسي - مع كل هذه القدرات السامية -

لا يزال الإنسان يحمل في إطاره الجسدي بصمة أصله المتواضع التي لا تمحى"[23].

وبالمثل، فإن العقل البشري يحمل طابع أصله المتواضع الذي لا يمحى. لقد "تغلغل" عقلنا الإلهي "في حركات وبنية العقل والقوى التي شكّلته. قد نكون أكثر بكثير من حصيلة مجموعات الدفع والسحب التطورية، لكننا لسنا أقل من حصيلة تلك المجموعات.

يقترح علم النفس الإدراكي وعلم النفس التطوري أن نفس عمليات الدفع والسحب التي تدفعنا إلى الأصدقاء وتسحبنا عن الأعداء تدفعنا أيضًا إلى الآلهة والأشباح. إن الاعتقاد بالآلهة هو التعبير الطبيعي للغاية والعادي للغاية لملكاتنا الإدراكية الطبيعية للغاية. ومع ذلك، فإن نفس هذه الأمور العادية، ونفس هذه الأمور الطبيعية هي التي تهز قناعاتنا وتجعلنا نخشى أن يكون الله فرضية لا يمكن الدفاع عنها إلا بقدر ما يمكن الدفاع عن الأشباح. نريد أن نصدق أننا مميزون وأن هناك شيئًا فريدًا ومميزًا حول معتقداتنا الدينية. إن ملكة الاعتقاد بالله، مثل إبهام اليد المقابل لباقي الأصابع، ليست شيئًا خاصًا وفي نفس الوقت هي أمر رائع استثنائي، في حال كون النزعة التأليهية صحيحة. ولكننا نخشى أن تكون ملكة الله مجرد أداة ريفية أخرى لحرث الأرض، وغير مناسبة لاستكشاف السماء.

ولأننا نحمل في داخلنا بصمة أصلنا المتواضع التي لا تمحى، فإننا نتعلم ببطء، وببطء شديد، ما يعنيه أن نكون مخلوقات. نحن نطمح إلى أن نكون آلهة مفكرة نحلق بعقول شامخة مستعلية فوق العالم، ولكننا في هذا العالم ومن نفس هذا العالم الذي نسعى إلى فهمه والسيطرة عليه. نحن إذن لسنا آلهة، لا في عقولنا ولا في غيره. ولأننا مخلوقات في هذا العالم ومنه، خلقنا من ترابه، فيجب أن نستخدم معداتنا الإدراكية الترابية بأفضل ما نستطيع لفهم كل ما في الواقع.

لقد شكلت عملية التجربة والخطأ معداتنا الإدراكية الترابية على مدى دهور والتي كانت تهدف - إذا كانت تهدف إلى أي شيء على الإطلاق - إلى النجاح

---

(23) Charles R. Darwin, The Descent of Man (London: J. Murray, 1874), 619.

الإنجابي - وهو كل ما يساعد على إيصالنا إلى أحضان الأحبة وإبعاد أجسادنا عن الأفواة الجائعة. وليس: كيف كنت فاعلًا لو قمت بالأمر بطريقة مغايرة. ولذلك بينما نجيد عد بعض العصي التي قد نكون شكلناها في ملجأ، فإننا لا نجيد استنتاج جميع الكسور العشرية للعدد piأو استيعاب اللانهاية. يمكننا بسهولة رؤية الأسود والنمور والدببة، ولكن لا يمكننا رؤية ما داخل الذرات أو مركز الشمس. نحن ننظر إلى النجوم لتحديد الفصول، لكننا بالكاد نستطيع تخيل المجرات البعيدة والثقوب الدودية. ويمكننا فهم ما يكفي من الأشخاص الآخرين للتزاوج وتكوين الصداقات وبناء التحالفات وتجنب الأعداء؛ ولكننا لم نأت إلى وصفة للسلام العالمي. إن معداتنا الإدراكية الترابية جيدة جدًا في بعض الأنشطة العادية الرتيبة، أما الباقي فيعد اتساعًا.

ومع ذلك، فقد قمنا بحساب piحتى الرقم n، وتعمقنا في البنية الذرية للواقع، ونقلنا عقولنا إلى حافة الكون، وأصبحنا أفضل الآن بدرجة كبيرة مما فعلناه قبل 10000 عام فقط. نعم، معداتنا ترابية قاصرة، ولكننا قمنا بتوظيفها في بعض الاستخدامات الرائعة وغير المتوقعة.

إذن، ماذا عن الانطلاق من جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل للوصول إلى الآلهة؟ هل معرفة الآلهة على قدم المساواة مع الإلكترونات والمادة المظلمة؟ أم أنها تشبه إلى حد كبير اعتقاد الجميع في ذواتهم أنهم أعلى من المتوسط أو الاعتقاد في بابا نويل؟

لقد أعطيت أسبابًا للثقة في ملكة الاعتقاد بالله على الرغم من ادعاءات أولئك الذين ينفون وجود الله. وقدمت دليلاً - وهو ملكاتنا الإدراكية الموثوق بها - لتأكيد الاعتقاد بالله. لم أقم بتقديم حجة تتطلب حصول الاعتقاد الديني للجميع، أو تثبت عدم عقلانية غير المؤمنين، أو من شأنها أن تحسم مسألة وجود الله حسمًا نهائيًا. لقد جادلت فقط أنه بإمكان المؤمن المتدين أن يجد قوة في الدعم المستفاد من الحجة المقدمة في هذا الفصل.

يفعل المؤمنون وغير المؤمنين نفس الشيء: نحن نستخدم معداتنا الإدراكية التي شكلها التطور لنبذل قصارى جهدنا لفهم العالم، ذلك العالم الذي لا يفصح

بسهولة عن أسراره. إن عقولنا أقل شبهاً بالآلهة مما اعتقده أسلافنا، وأكثر شبهاً بالحيوان مما يعترف به معظمنا عن طيب خاطر. عندما نتفرع إلى ما وراء التزاوج والصيد والتجمع (والقليل من الحساب الأولي) إلى الفلسفة والفيزياء، فإننا عرضة للخطأ. هذا متفق عليه. ولذا يتوجب علينا أن نهيأ أنفسنا لسماع تعليقات وانتقادات أولئك الذين يختلفون معنا. وكما ورد في الفصل الأول: كلنا يريد الحقيقة. كل ما في الأمر أنه من الصعب حقًا أحيانًا أن نكتشفها.

الفصل السادس

الإلحاد والاستدلال ومستوى الذكاء

من العناوين الرئيسية

يمكن للفلاسفة توفير الكثير من الوقت من خلال أخذ منطلقاتهم من عناوين الأخبار. ففي السنوات الأخيرة أعلنت عناوين الصحف أن العلم قد أثبت عقلانية عدم الإيمان ولا عقلانية الإيمان ومن تلك العناوين: "دراسة حديثة: المنطق يدحض المعتقد الديني"[1]. وأعلنت مجلة ساينتفك أمريكن المرموقة Scientific American: "عندما تفقد دينك: التفكير التحليلي يمكن أن يقوض الإيمان"[2]. ثم هناك علاقة مزعومة بين معدل الذكاء المرتفع والإلحاد. ففي حين أن الاعتقاد بالله قد يكون متغلغلًا في جيناتنا، فإن عدم الإيمان، كما يُزعم، هو المجال الحصري للأذكياء. أعلنت صحيفة الجارديان ليبرتي فويس The Guardian Liberty Voice: "دراسة حديثة: الملحدون أكثر ذكاءً من المؤمنين"[3]، بينما فضلت صحيفة الإندبندنت صياغة العكس المستعلي: "المتدينون أقل ذكاءً من الملحدين". ونقرأ

---

(1) Miron Zuckerman, Jordan Silberman, and Judith A. Hall, "The Relation between Intelligence and Religiosity: A Meta-Analysis and Some Proposed Explanations," http://psr.sagepub.com/content/early/2013/08/02/1088868313497266.full.

(2) https://www.scientificamerican.com/article/losing-your-religion-analytic-thinking-can-undermine-belief/.

(3) http://guardianlv.com/2013/08/atheists-more-intelligent-than-religious-believers-says-new-study/.

في ميدكال ديلي Medical Daily: "بالبرهان: الملحدون أكثر ذكاءً من المتدينين"[4].

سنقوم في هذا الفصل بفحص بعض الأسس الإدراكية للإلحاد. ففي حين اكتسب علم الدين الإدراكي أرضية صلبة، كان الإلحاد بعيدًا عن التمحيص إلى حد كبير. وأظن ذلك يرجع إلى أن الغالبية العظمى من أولئك الذين يعملون في هذه الموضوعات هم ملحدون أو لا أدريون يرون أن المعتقد الديني معتقد باطل، بل وغريب، وقد عفا عليه الزمن. وبناء على تلك الرواية، انحصر مشروع النقد الاجتماعي والنفسي للدين في الإجابة على السؤال التالي: كيف أمكن لأشخاص عقلانيين - فيما عدا موقفهم من الاعتقاد الديني - أن يعتنقوا معتقدات واضحة الكذب. وعلى العكس من المعتقد الديني، فإن معتقداتهم (اللاأدرية أو الإلحاد)، كما تقول الرواية، هي نتاج تأمل عقلاني: انتصار للعقل على الخرافات. المشروع إذن هو البحث عن الخلل الذي ينتج المعتقدات الدينية، أما الإلحاد فلا حاجة له بمثل هذا البحث.

ليس ثمة نقص في الأدلة القصصية لدعم هذه الرواية. يُظهر العديد من علماء علوم الإدراك، الذين يفترض في أعمالهم من حيث المبدأ أن تكون محايدة فيما يتعلق بحقيقة المعتقد الديني، اعتقاد راسخًا بالتفوق العقلاني للإلحاد. إن إلقاء لمحة خاطفة على المفاهيم المتنوعة لممارسي علوم الإدراك عن الدين تكشف عن موقفهم: فالدين على نحو واضح بعيد الاحتمال، ومن حيث الحقيقة محال[5]، إنه هذيان فارغ[6]. ربما لم يكن للمرء أن يظن وجود كل هذه الطرق للتعبير عن "خطأ" الدين. فما الذي يمكن أن يقود العقل البشري ليأنس ويتكيف مع معتقدات بينة الكذب؟ يستمر سرد الرواية: بالنظر إلى سخافة معتقدات الله المثيرة للشفقة، التي مع ذلك تتمتع بوفرتها وكثرتها، فإن الجاني لابد وأن يكون آليات توليد

(4) http://www.medicaldaily.com/proved-atheists-more-intelligent-religious-people-250727.

(5) Scott Atran, In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion (Oxford: Oxford University Press, 2002), 4.

(6) Pascal Boyer, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books, 2001), 2, 330.

الاعتقاد التي لا تهدف إلى اقتفاء أثر الحقيقة. ومع اكتشاف هذه العلل الإدراكية الخسيسة، يمكن أخيرًا كشف القناع عن المعتقد الديني لتظهر حقيقته الحمقاء اللاعقلانية التي نعرفها جميعًا. وعلى الجانب المقابل، الإلحاد ليس نتاج تلك العلل الخسيسة، بل هو نتاج التفكر الرصين في الأسباب. وإذن، فإن ما يفضح زيف المعتقد الديني هو حقيقة كونه ناتجًا عن علل نفسية غير مفضية للحقيقة، في حين أن عدم الإيمان عقلاني لأنه يقوم على التفكير العقلاني في أسباب وجيهة.

سننظر في هذا الفصل في تلك الادعاءات التي تشير إلى أن الإلحاد إنجاز فكري قويم (الملحدون أكثر ذكاءً، وأكثر استعمالًا للاستدلال، وما إلى ذلك)، وأن النزعة التأليهية مشتبه فيها من الناحية الفكرية[7]. وسنقف عند نقاط مختلفة على طول الطريق لنسأل: ماذا الذي يلزم من هذه الدراسات الرائعة فيما يتعلق بالإلحاد والإيمان على حد سواء؟

الإلحاد ومعدل الذكاء

أظهر تحليل فريق ريتشارد لين[8] Richard Lynn للعديد من الدراسات الفردية في مقال "معدل متوسط الذكاء يتنبأ بمعدلات الإلحاد في 137 دولة" أن الأشخاص الأذكياء يميلون إلى أن يكونوا أقل ميلًا للإيمان بالله[9]. وتأتي البيانات في أشكال وأحجام عديدة. على سبيل المثال: يرتبط معدل الذكاء المرتفع في المجتمعات الغربية بانخفاض معدل الاعتقاد بالله، ومن غير المرجح

---

(7) تأخذ هذه الدراسات التفكير التحليلي كمرادف للتفكير الاستدلالي (وليس كما يأخذه الفلاسفة عادةً، على أنه الاعتماد على الأحكام البديهية). ولأن الجمهور المستهدف من هذا المقال هم الفلاسفة، فلن أتبع علماء النفس وسأستخدم بدلاً من ذلك المصطلح الفلسفي "استدلالي". وسوف أذكر القارئ أثناء ذلك بكيفية أستخدامي للمصطلحات.

(8) عالم نفس بريطاني وأستاذ فخري سابق لعلم النفس في جامعة أولستر Ulster University، معروف بتأييد العنصرية العلمية وتفوق الجنس الأبيض في الذكاء. (المترجم)

(9) Richard Lynn, John Harvey, and Helmuth Nyborg, "Average Intelligence Predicts Atheism Rates across 137 Nations," Intelligence 37 (2009): 11-15; all subsequent Lynn quotations are from this short piece.

للنخب العلمية أن تؤمن بالله. وعندما يكبر الأطفال وينمو ذكاءهم، تقل احتمالية اعتقادهم بالله. وفي القرن العشرين نرى انخفاض المعتقد الديني مع زيادة معدل الذكاء. وأخيرًا، فإن الدول التي تتمتع بعدد أكبر من أصحاب معدل الذكاء العالي لديها عدد أكبر من الملحدين. يقول لين: ثمة عامل وحيد يفسر الإلحاد: "أعتقد أنه مجرد مسألة ذكاء". وفي حين أن هناك بعض الأسباب الداعية للشك في وجود تلازم بين معدل الذكاء العالي والميل نحو عدم الإيمان[10]، فإننا حتى مع افتراضنا صحة هذا التلازم سيبقى لدينا السؤال التالي لنجاوب عنه: ما هو التفسير الأكثر منطقية لهذا التلازم؟ هل ارتفاع معدل الذكاء يحول الناس إلى ملحدين؟[11].

أخذ بعض الملحدين هذا التلازم لتأكيد انتصار العقل على الخرافة. ويالها من راحة يشعر بها الملحد حين يفكر قائلًا: زملائي في الإلحاد هم الأكثر ذكاءً وتحليلاً وعقلانية، وهم الأكثر حساسية للأدلة واهتمامًا بالحقيقة من المؤمنين. يقتبس فريق لين تأكيد السير جيمس فريزر[12] James Frazer في كتابه الغصن الذهبي The Golden Bough التي يؤكد فيها أنه مع تطور الحضارات "آلت العقول الأكثر ذكاءً إلى رفض النظرية الدينية للطبيعة باعتبارها غير كافية... لقد استبدل الدين، الذي يُنظر إليه كتفسير للطبيعة = بالعلم". وقد بدأ فريق لين مقالهم بما يلي: "يشير كتاب دوكينز الأخير، وهم الإله، إلى أن الاعتقاد بوجود الله ليس من أفعال الذكاء. سنقوم في هذه الورقة بفحص الأدلة على هذا الادعا ". فهل أثبت لين أن "العقل الأكثر ذكاءً" هو المحرك إلى الكفر؟

لنفترض أن هناك تلازمًا بين الإلحاد ومعدل الذكاء المرتفع. فهل يثبت هذا

---

(10) Frederick Hale, "Religious Disbelief and Intelligence: The Failure of a Contemporary Attempt to Correlate National Mean IQs and Rates of Atheism," Journal for the Study of Religion 24.1 (2011): 37-53.

(11) فكرة أن معدل الذكاء هو مقياس لكل ما يعنيه أن تكون ذكيًا هي فكرة مثيرة للجدل. فهناك العديد من أنماط الذكاء، مثل: الذكاء الاجتماعي والعاطفي، يتجاهلها معدل الذكاء التقليدي IQ.

(12) انثروبيولوجي اسكتلندي مهتم بدراسة الأساطير ومقارنة الأديان، معروف بأطروحتة حوال نشأة الدين عن السحر وإحلال العلم الحديث مكانه. توفي عام 1941م. (المترجم)

التلازم أن التفكير الذكي في الدليل هو علة عدم الإيمان؟ ثمة تفسيرات أخرى ممكنة ومعقولة للبيانات.

وتشير أكثر النظريات عقلانيةً إلى أن السبب الشائع لارتفاع معدل الذكاء مع عدم الإيمان هو زيادة الوضع الاقتصادي والاجتماعي. ونحن نعلم أن هذا الأمر صحيح تمامًا: فمستويات الذكاء تزداد مع زيادة الثروة المادية، وقد قل معدل الإيمان في الدول الغربية (باستثناء الولايات المتحدة وهو استثناء جدير بالملاحظة) مع زيادة الثروة المادية. ويضاف إلى ذلك، أن أولئك الذين هم في أعلى المراتب الاجتماعية والاقتصادية في مختلف الدول يميلون أيضًا إلى عدم الإيمان. فإذا كانت هناك دوافع وجودية للمعتقدات الدينية - تلك الدوافع التي تصل لذروتها بسبب الجوع والمرض والموت - وأمكن لبعض المجتمعات أن تلبي حاجات تلك الدوافع من خلال التقدم الاقتصادي = فمن المرجح أن تشهد تلك المجتمعات انخفاضًا في المعتقد الديني (ويوازي ذلك ارتفاع في معدل الذكاء، مع تحسن الصحة وإمكانية الحصول على التعليم). وإذن يغيب التفكير العقلاني بدرجة ملحوظة في هذا التفسير لظاهرة عدم الإيمان. وتعترف ورقة لين بهذا الاحتمال ولكن الورقة تمضي متجاهلة إياه. ولكن كما كتب فيل زوكرمان[13] Phil Zuckerman: "تأتي إحدى النظريات الرائدة من نوريس Norris وإنجلهارت Inglehart اللذين جادلا بأن المجتمعات التي تتميز بتوزيع وافر للطعام، والرعاية الصحية العامة الممتازة، والإسكان الذي يمكن الحصول إليه على نطاق واسع = يتضاءل فيها التدين. وعلى العكس من ذلك، ففي المجتمعات التي يندر فيها الغذاء والمأوى، وتكون الحياة أقل أمنًا عمومًا يكون المعتقد الديني فيها قويًا"[14]. إن إشباع الحاجات الاجتماعية، وليس التفكير النقدي في فرضية الله، هو أفضل تفسير موثق به لظاهرة عدم الإيمان الديني في

---

(13) عالم اجتماع أمريكي معاصر بكلية بيتزر Pitzer College بكلاريمونت، كاليفورنيا. ومهتم بدراسة علم اجتماع العلمانية. (المترجم)

(14) Phil Zuckerman, "Atheism: Contemporary Numbers and Patterns," in *The Cambridge Companion to Atheism*, ed. Michael Martin (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 55. See Pippa Norris and Ronald Inglehart, *Sacred and Secular: Religion and Politics Worldwide* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004)..

المجتمع الحديث. وإذا كان زوكرمان على حق، فإن كلا من الإلحاد والإيمان يتوسطهما المخاوف الوجودية (وتنفيس تلك المخاوف)[15]. وبما أن تنفيس القلق الوجودي لا شأنه له بتقصي الحقيقة في ذات الأمر، فإن الملحد ليس في موقع متميز عقلانيًا عن المؤمن.

ماذا عن القرار الواعي بعدم الإيمان بالله بين الأكاديميين على وجه العموم والعلماء البارعين على وجه الخصوص؟ وفقًا للين، يؤمن 7% فقط من أعضاء الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم بالله و 3,3% فقط من زملاء الجمعية الملكية. يدعي لين أن هؤلاء الأشخاص ذوي معدل الذكاء المرتفع، عندما يكبرون ويتفكرون في المعتقدات الدينية ينزلقون إلى الشك وعدم الإيمان. أليس هذا دليلًا على أن معدل الذكاء المرتفع (الذي يأخذه لين كاختصار لـ "الأشخاص ذوي المهارات النقدية الثقافية العالية الذين يتفكرون بعمق في جميع معتقداتهم، وليس فقط في معتقداتهم العلمية") ينتج عنه عدم إيمان تأملي؟

مرة أخرى، لا يُظهر التلازم العلة. فقد تكون هناك تحيزات أساسية تدفع الأكاديميين - دفعًا غير مبني على التفكر إلى عدم الإيمان. وغالبًا ما تُنشط مثل هذه التحيزات دون وعي، ثم عند النظر في المعتقدات الناتجة عن التحيزات بعد ذلك تقدم التبريرات العقلية لهذا الاعتقاد (ونفترض بصدق أننا اكتسبنا هذا الاعتقاد على أساس تلك الأسباب الوجيهة). فعلى الرغم من أن الأكاديميين يتوهمون أنفسهم محصنين ضد التحيزات النفسية الطبيعية التي تؤثر على أي شخص آخر، فإنهم في الحقيقة ليسوا محصنين ضد هذه التحيزات وما يترتب عليها من عقلنة أو عدم عقلنة[16]. دعني أقدم مثلا لتحيز واحد من المحتمل أن

---

(15) هذه التلازمات تتعلق بالمجموعات البشرية، وليس الأفراد. فمن المؤكد أن بعض الملحدين قد تحولوا إلى عدم الإيمان من خلال التفكير العقلاني.

(16) وجدت دراسة حديثة أن الفلاسفة، على الرغم من تدريبهم العالي على التحليل النقدي والتفكير الأخلاقي، كانوا عرضة لنفس التحيزات التي يتعرض لها غير الفلاسفة عند تقييم المشكلات الأخلاقية.
http://www.faculty.ucr.edu/~eschwitz/SchwitzPapers/Stability-150423.pdf.

يؤثر على انتشار الإلحاد في المجال الأكاديمي: ذلك هو تحيز المسايرة conformity bias.

إذا وجدت نفسك في مكان تفعل ما يفعله أهله (على سبيل المثال: تحتسي قهوة إسبريسو في وقت متأخر من الليل بعد تناول الآيس كريم اللذيذ - وهو ما لم تكن لتفعله أبدًا لو كنت في منزلك؛ نظرًا إلى نظامك الغذائي ونفورك من الكافيين قبل النوم) = فأنت على الأرجح قد استسلمت لتحيز المسايرة. لدى البشر ميل قوي وفطري ودقيق للتوافق مع الأعراف المجتمعية. وربما لا يكون هذا الكلام مفاجئًا هنا: فنحن نساير بغير شعور واع منا، على سبيل المثال، معايير الجمال المختلفة، بما في ذلك أحدث صيحات الموضة في الملابس أو تصفيفة الشعر. نحن لا نسلك المسايرة عادةً بطريقة واعية، بالضبط كما أننا لا نقرر لأنفسنا ما هو جميل أو رائع. بل تخبرنا ثقافتنا بما هو جميل ورائع، ثم نقبل دون وعي. عندما نكون في المتجر، نجد أنفسنا ببساطة نرغب في هذا النمط الجديد من السترة أو أحدث هاتف محمول، وقد يتطور الأمر إلى درجة شراء المرغوب فيه.

وفي حين أن المسايرة عادة ما تؤثر على السلوكيات، فإننا نساير أيضًا فيما يتعلق بالمعتقدات. لقد أظهر سولومون آش[17] Solomon Asch من خلال سلسلة من الدراسات مدى صعوبة أن يحافظ الفرد على إيمانه وسط مجموعة تجهر برأي مخالف[18]. ففي إحدى التجارب، عُرض على أشخاص صورة لخط مستهدف، جنبًا إلى جنب مع مجموعة من الخطوط بثلاثة أحجام مختلفة، وسُميت: (أ)، (ب)، و (ج)، وسُئل الأشخاص أي من الخطوط الثلاثة كان بنفس طول الخط المستهدف. وكان لهذه المهمة الإدراكية البسيطة إجابة صحيحة واضحة ويمكن التحقق منها بسهولة - لنقل: (ج) - والتي سيختارها الأشخاص على نحو صحيح.

---

(17) عالم نفس أمريكي من أصول بولندية وأحد رواد علم النفس الاجتماعي، وكان مهتمًا بدراسة تحيزات الهيبة والمسايرة، وتوفي عام 1996م. (المترجم)

(18) Solomon E. Asch, "Opinions and Social Pressure," *Scientific American* 193.5 (1955): 31-35; and Asch, "Studies of Independence and Conformity, I: A Minority of One against a Unanimous Majority," *Psychological Monographs: General and Applied* 70.9 (1956): 1-70.

ومع ذلك، عندما أصر جميع الأعضاء الآخرين في المجموعة على أن الإجابة الصحيحة هي، على سبيل المثال، (أ)، غير 75 % من الأشخاص المجرى عليهم الاختبار اعتقادهم إلى الإجابة الخاطئة. وتزداد المسايرة عندما تكون المشكلة المعنية أقل وضوحًا ويكون الأعضاء الآخرون في المجموعة في وضع اجتماعي أعلى؛ فعندما ينظر الأفراد إلى الآخرين في المجموعة على أنهم الأكثر قوة أو نفوذاً أو معرفة منهم، يكون من المرجح أن يسايروا معتقدات تلك المجموعة.

هذا هو تحديدًا الوضع الذي نواجهه في الأكاديميا. إذا كانت الأغلبية في مجموعة محبوبة للغاية تحمل وجهات نظر أو تظهر ممارسات معينة، فعليك أن تتوقع من المرشحين التواقين للالتحاق بتلك المجموعة أن تقلد تلك المعتقدات والممارسات. ومهما يكن من مصادمة أساتذة الجامعة للثقافة السائدة في بعض الأحيان، فإنك لا ترى العديد من الذكور منهم يتبعون طريقة الموليت[19] mullets في تصفيف الشعر أو يرتدون التنانير الأسكتلندية. ولكن إذا كان غالبية المجتمع العلمي ملحدًا أو لا أدريًا، فعليك أن تتوقع وجود مسايرة مع المعتقدات (أو بتعبير أدق مسايرة مع عدم الاعتقاد). فأولئك الذين يتطلعون إلى أن يكونوا أعضاء في هذا المجتمع سيجدون أنفسهم يقلدون الأغلبية في عدم الاعتقاد على أساس تلبية ذلك الميل للمسايرة (وليس على أساس التفكير العقلاني). لا يدعي علم الدين الإدراكي أن كل فرد يميل إلى الإيمان لدرجة أنه قد يجود بنفسه من أجل إيمانه، بل يدعي وحسب أنه، باعتبار بعض المؤثرات الثقافية أو البيئية الأخرى، يميل الناس إلى اكتساب المعتقدات والممارسات الدينية والحفاظ عليها بسهولة. وقد يكون المعتقد الديني واسع الانتشار وسطحي العمق. ولذا قد يميل الناس، بسبب ميول إدرَاكية أخرى وأمام مواجهة مؤثرات ثقافية أو بيئية أخرى، إلى عدم الإيمان. قد يكون المؤمنون وغير المؤمنين على حد سواء قد اكتسبوا معتقدهم الديني / عدم

---

(19) طريقة لتصفيف الشعر كانت منتشرة في ثمانينيات القرن الماضي وفيها يكثف الشعر في مقدمة الرأس ويخفف من الجانبين ويترك ليطول قليلا من الخلف. (المترجم)

المعتقد من خلال عملية إدراكية غير تأملية وغير مفضية من حيث الأصل للحقيقة، أي ليس على أساس تفكير عقلاني.

وقد يتساءل الإنسان كيف يبدأ عدم الإيمان من الأساس؟ قد يُظن، لأننا نتحدث عن علماء أو أساتذة جامعيين، أن ذلك لابد وأن يكون من خلال التفكير العقلاني. ولكن هناك تفسيرات معروضة أقل إثارة. كما تقول الأنشودة الشعبية المسيحية بحق: "لا يتطلب الأمر سوى شرارة لإشعال النار". فما هي أولى شرارات الإلحاد؟ كل ما يتطلبه الأمر هو عالِم ملحد مشهور هنا وهناك لإشعال الحريق (وربما يكون ذلك مقرونًا باعتقاد ديني قد طرح أرضًا بسبب ظهور الطبيعانية المنهجية[20] أو بسبب مدرس خبيث من مدرسة يوم الأحد[21]. وعادة ما يترسخ تحيز المسايرة في أعقاب تحيز الهيبة. وتحيز الهيبة، الذي يتجلى في التفضيل اللاواعي للأفراد ذوي المكانة العالية، هو أيضًا على الأرجح عامل في غرس عدم الإيمان. فالناس يجتهدون عن قصد في المجتمعات الأكاديمية شديدة التنافس بجميع أنواع التزلف للتمكن من الوصول إلى عالم "مشهور". فإذا عرَّف العلماء المشهورون أنفسهم على أنهم غير مؤمنين، فإن التأثير على العلماء المبتدئين والطامحين يتعاظم. مرة أخرى، تلبية تحيزات الهيبة والمسايرة ليست عملية واعية. ومن المرجح ألا يعرف الإنسان أن هذا هو سبب اعتقاده بما يعتقد.

---

(20) أنا أؤيد الطبيعانية المنهجية. انظر:
Kelly James Clark, "Atheism and Analytic Thinking," in The Science and Religion Dialogue: Past and Future, ed. Michael Welker (New York: Peter Lang, 2014), 245-56.
تؤكد الطبيعانية المنهجية على أن العلماء لا ينبغي لهم أن يناشدوا الكيانات الخارقة للطبيعة (مثل الآلهة أو الأشباح) أو القوى (مثل تشي) في ممارستهم للعلم الطبيعي. ومع ذلك، فإن "المنهجية" لا تفترض ولا تشير إلى الطبيعانية الوجودية (الادعاء بأن الكيانات الخارقة للطبيعة، مثل الله والأرواح، غير موجودة).

(21) مدارس الأحد هي اسم للمدارس الدينية غير الحكومية في الغرب التي تعمل يوم الأحد - وهو يوم الأجازة في المدارس النظامية الحكومية - وتكون غالباً للأطفال والمراهقين، وتتم بواسطة المؤسسات الدينية (كالكنائس أو المساجد). (المترجم)

إنّ الضغوط الاجتماعية ضد المعتقد الديني في الأوساط الأكاديمية ليست خيالية. كان لي صديق بارز في العلوم الاجتماعية وقد اعتنق المسيحية وهو شخص بالغ. وقد أبقى صديقي على قناعاته سرية في الغالب، ولم يشر إليها أبدًا في عمله الأكاديمي أو أثناء العروض التقديمية. ولكن عندما تسربت أخبار اعتناقه المسيحية، أخذ الزملاء يسألونه على نحو روتيني أثناء وجبات الطعام أو حتى أثناء تقديم العروض العامة عما إذا كانت قصص اعتناقه صحيحة (وعادةً ما كان يتبعها تعليق ساخر وتساؤل: كيف أمكن أن يصدق شيئًا مثيرًا للسخرية؟!). وكان زملاؤه والجمهور يضحكون لأنه يبذل قصارى جهده لتقديم رد. والآن تخيل تأثير السخرية العامة من المعتقدات الدينية لهذا العالم المحترم على الطلاب أو العلماء الأصغر سنًا. لقد تلقوا الرسالة.

ليس بالضرورة أن تكون التعبيرات عن عدم الإيمان علنية. فمن اختيار النصوص المعادية للدين في واجبات المواد الدراسية إلى رفع حاجب العين بصورة متغطرسة تتضح بوفرة تأكيدات عدم الإيمان، ويتعلم الطلاب ما يمكن طرحه من الأسئلة وما لا يمكن طرحه، وما الذي يمكن قوله وما لا ينبغي. إن ضحكة صاخبة في التوقيت المناسب، والتعليق الهامس بعد المحاضرة أثناء شرب البيرة، والشخير الساخر أكثر فاعلية من حجة مطولة في مجلة علمية. وباختصار، عندما يجتمع تحيز الهيبة مع تحيز المسايرة، فإن عدم الإيمان في الأكاديميا يكون أمرًا متوقعًا[22]. وعندما يكون لدى غالبية الناس اعتقاد معين، يخبرنا تحيز المسايرة بمدى صعوبة مقاومة الرغبة في المسايرة، وذلك على كل شخص تقريبًا. وفيما يتعلق بالآراء المخالفة، ستتردد أصداء الضحكات الصاخبة عليها قريبًا في كل مكان.

تذكر التلازم بين معدل الذكاء المرتفع وعدم الإيمان. يتمتع الأكاديميون بمعدلات ذكاء أعلى بكثير في المتوسط من عامة الناس، ومن المرجح بدرجة كبيرة أن يكون الأكاديميون ملحدين أو لا أدريين. فهل هذا التلازم بين معدل الذكاء المرتفع وعدم الإيمان ناتج عن ذكاء الأكاديميين؟ إذا كان زعمي صحيحًا، فإن

---

(22) بالإضافة إلى ذلك، تولد هذه التحيزات وتثبت تحيزات التوظيف.

العامل الرئيسي لعدم الإيمان في الأكاديميا ليس الذكاء؛ بل إن عدم الإيمان، على الأقل في جزء منه، هو نتيجة الرغبة اللاواعية في المسايرة.

وبالطبع لن يعتقد الأكاديميون أن عدم اعتقادهم الديني ناتج عن رغبة نفسية غير واعية. (يقول المؤمن لعالم ملحد: "ما رفضتَ الإيمان بالله إلا لأنك ترغب بشدة أن تقبلك تلك المجموعة"). لا أحد يفعل ذلك. ومع ذلك فنحن جميعًا - أكاديميون وغير أكاديميين، وبمعدلات ذكاء مرتفع ومنخفض - عرضة للإلحاحات النفسية اللاواعية. لا أحد منا محصن ضد التحيزات، بما في ذلك الدافع للمسايرة.

اسمحوا لي أن أقدم مثالاً آخر على تحيز المسايرة في الأكاديميا والذي يضفي بعض المصداقية على ادعائي فيما يتعلق بالمعتقد الديني. أظهرت دراسة أجريت عام 2010 وجود علاقة طردية بين الليبرالية السياسية ومعدل الذكاء المرتفع من ناحية، والمحافظة السياسية وانخفاض معدل الذكاء بدرجة كبيرة من ناحية أخرى. ووجدت الدراسة أن متوسط درجة ذكاء الليبراليين هو 106,42، في حين أن متوسط درجة ذكاء المحافظين هو 94,82[23]. فهل الليبراليون إذن أذكى من المحافظين؟ وهل الليبرالية بالتالي أكثر احتمالًا أن تكون صحيحة؟ تشير دراسة حديثة إلى أن 11,5% فقط من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة يعتبرون محافظين سياسياً، في حين أن 62% يعتبرون ليبراليين سياسيًا أو يساريين متطرفين. فإذا كان هناك عدد غير متكافئ من أساتذة الجامعات اليبراليين سياسيًا، فإن عددًا غير متكافئ من معدلات الذكاء المرتفعة سيكون من نصيب الليبرالية السياسية. وإذا كان عدد غير متكافئ من أساتذة الجامعات ليبراليين سياسيًا، فيجب علينا أيضًا أن نتوقع تحيزًا للهيبة والمسايرة من جانب طلابهم، مما سيؤدي إلى بهم اعتناق الليبرالية السياسية. وبما أن أولئك الذين حصلوا على تعليم جامعي لديهم، في المتوسط،

---

(23) Gordon Hodson and Michael A. Busseri, "Bright Minds and Dark Attitudes¤ Lower Cognitive Ability Predicts Greater Prejudice through Right-Wing Ideology and Low Intergroup Contact," *Psychological Science* 23 (2012): 187-95.

أحد أسباب توخي الحذر بشأن كيفية تفسير درجات اختبار الذكاء هو أن الإلمام بنوع الاختبار وبعض طرق التفكير المكتسبة (بسبب البيئة الاجتماعية والتعليم وما إلى ذلك) يمكن أن يؤدي إلى خطأ في القياس.

معدلات ذكاء أعلى من أولئك الذين ليس لم يحصلو على التعليم الجامعي، فسوف نجد أن الليبرالية مرتبطة بارتفاع معدل الذكاء، وإن لم يكن ارتباطًا عليًّا ضروريًا.

فما هو أفضل تفسير لليبرالية السياسية في الأكاديميا؟ أهي التقييمات المتأنية المنطقية للحجج المؤيدة والمعارضة؟ أشك في ذلك لسببين: (أ) الحجج في الفلسفة السياسية ليست حاسمة بما يكفي لكي نتوقع إجماعًا عقلانيًا لصالح الليبرالية السياسية، و (ب) لأن معظم الأكاديميين لا يقضون وقتهم في التقييم الدقيق لحجج الفلسفة السياسية (بل يفعلون ذلك فقط في علم الأحياء أو الأنثروبولوجيا). فما الذي قد يساهم إذن في هيمنة الليبرالية السياسية في الأكاديميا؟ إنه على الأرجح تحيز المسايرة وتحيز الهيبة (مع بعض التحيز في التوظيف). فإذا كان معظم الأساتذة ليبراليين فإن درجات الذكاء ستميل إلى الليبرالية (ولكن ليس لأسباب مفضية إلى الحقيقة). ويضاف إلى ذلك أنه إذا كان عدد غير متكافئ من الأساتذة ليبراليين سياسيًا، فإن طلابهم (الذين سيكون لديهم معدل ذكاء أعلى من أولئك الذين لا يلتحقون بالجامعة) سوف يميلون، بسبب تحيز المسايرة، نحو الليبرالية السياسية. إذن، العلاقة بين معدل الذكاء المرتفع والليبرالية السياسية تُفسَّر (جزئيًا على الأقل) بالهيبة والمسايرة، وليس بالذكاء أو العناية الدقيقة بالحجج.

قد يصر بعض الأكاديميين على أنهم أقل عرضة لتحيزات المسايرة مقارنة بعامة الناس. ربما يكونون كذلك. فإنه التأمل والتفكر المتأني - وتلك هي الأشياء التي يشتغل بها أساتذة من أجل لقمة العيش - هما الذان يساعدان على اكتشاف طرق جديدة في التفكير والسلوك. ولذلك، وفي حين أنه قد يكون هناك بعض تحيز المسايرة الذي يمثل جزءًا من الاختلاف، ربما لا تكون هذه هي القصة الكاملة. دعونا نسلم بأن الأساتذة أقل عرضة للمسايرة من الشخص العادي. ولكن هناك تفسير آخر لإلحادهم الذي يبلغ في انتشاره مستوى أعلى من المتوسط: إذا كانت مخاصمة التفكير العادي علامة على الذكاء العالي لممارسيه؛ لأنهم استطاعوا تجاوز المسايرة (على الأقل في بعض الحالات)، وإذا كان التفكير العادي هو الإيمان بالنزعة التأليهية، فقد يرفض البعض الايمان إذن بحكم كونه غير ملتزم

بالمسايرة. وقد تكون هناك ديناميكية مماثلة تتجلى عند أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بمعدلات ذكاء عالية حقًا تجعلهم أكثر رجحانًا أن يعتقدوا أنه لا يوجد عالم خارجي، وأن السببية هي وهم، وأن العقول ليست حقيقية، وأن البشر ليسوا أحرارًا، وأنه لا يوجد الحقائق الأخلاقية.

يضاف إلى ذلك، أن هذه المناقشة بأكملها تسلم بأن أساتذة الجامعة يتمتعون بمعدلات ذكاء أعلى من غيرهم من المهنيين. على الرغم من أن الأساتذة يتمتعون بمعدلات ذكاء أعلى من الشخص العادي، فإننا لا نعرف ما إذا كان لديهم معدل ذكاء أعلى من غيرهم من المهنيين (الذين تقل احتمالية كونهم غير مؤمنين).

وحتى لو كان هناك تلازم بين معدل الذكاء المرتفع وعدم الإيمان، فإنه لا يلزم من ذلك أن الذكاء أو التقييم العقلاني للحجج يتوسط أو يؤدي إلى عدم الإيمان؛ فمن الممكن أن ينتج عدم الإيمان بسبب دوافع المعتقدات اللاواعية، مثل: الحد من القلق الوجودي أو تحيز المسايرة.

الإلحاد والتفكير الاستدلالي

إذا كان المعتقد الديني متكررًا ثقافيًا وطبيعيًا وبديهيًا (غير استدلالي)، فيجب أن نتوقع أن يكون عدم الإيمان نادرًا نسبيًا وغير طبيعي واستدلاليًا[24]. وقد أظهرت الدراسات وجود علاقة بين التفكير الاستدلالي وعدم الإيمان. تأمل في عنوان قناة الأخبار ABC News: "دراسة تؤكد المؤمنون يفتقرون إلى المنطق"[25]. نيكولاس

(24) الحديث هنا من حيث الميول العامة، لا من حيث الضرورات الإدراكية. ولذلك، على سبيل المثال، في حين أننا (كبشر) قد نميل عمومًا إلى معتقد ديني حدسي، فإن ذلك لا يعني أن يكون كل فرد مؤمنًا متدينًا بالضرورة، ولا يعني أن يكون كل مؤمن بالضرورة قد اكتسب معتقداته الدينية بطريقة غير استدلالية. إن الادعاء بأننا (كبشر) مؤمنون في الأصل إيمانا طبيعيا غير استدلالي لا يتعارض مع وجود ملحدين ومؤمنين استدلاليين.

(25) http://abcnews.go.com/blogs/health/2012/04/26/logic-linked-to-religious-disbelief-study-implies/.

إيبلي[26] Nicholas Epley يدعي أن المعتقد الديني هو "شعور أكثر منه فكرة"[27]. ونقرأ في مجلة ساينتفك أمريكن Scientific American، عن "كيف يفقد المفكرون الناقدون إيمانهم بالله" (ويفهم ضمنيًا أن المؤمنين مفكرون غير نقديين)[28]. ويدعي روب بروكس Rob Brooks، أستاذ علم البيئة التطورية بجامعة نيو ساوث ويلز بأستراليا، أنه قد أصبح "واضحًا أن الدين، في بعض النواحي، هو مقلوب التفكير العقلاني"[29]. هل تُظهر مثل هذه الدراسات، كما تؤكد هذه العناوين الرئيسية، أن العقلانيين هم الملحدون دون المؤمنين؟ هل يبرهن ذلك على التفوق العقلاني للإلحاد على النزعة التأليهية؟

الإلحاد في الحقيقة نادر نسبياً. يعتبر حوالي 2,4% فقط من البالغين الأمريكيين ملحدين (وتبلغ نسبة الرجال في تلك النسبة 67% والمزيد عن ذلك في الفصل التالي)[30]. وبحسب استطلاع أجرته مؤسسة جالوب WIN-Gallup لعام 2012 فإن نسبة الملحدين في جميع أنحاء العالم يبلغ 13%[31]. وربما كان الرقم قريبًا من الصفر فيما قبل القرن العشرين.

فماذا عن كون الإلحاد طبيعيًا؟ إذا كان الإيمان بالله، كما يقرر علم الدين الإدراكي، أمرًا طبيعيًا مثل الاستمتاع بالموسيقى، فإن الإلحاد يبدو غير طبيعي مثل بغض الموسيقى. ولكن من الصعب معرفة ما إذا كان هذا الاعتقاد أو ذاك طبيعيًا أم غير طبيعي دون وجود بعض المحددات لما يعنيه أن يكون الاعتقاد طبيعيًا.

دعونا ننتقل إلى تصور لماهية "الطبيعي" عن طريق القياس: يبدو الدين

(26) أستاذ جون تمبلتون كيلر للعلوم السلوكية وباحث في علم الاجتماع الإدراكي - وفيه يدرس طرق استنباط الناس لأفكار ونوايا الآخرين - ومدير كلية مركز أبحاث القرار في كلية بوث للأعمال بجامعة شيكاغو. (المترجم)

(27) http://news.sciencemag.org/2012/04/keep-faith-dont-get-analytical/.

(28) http://www.scientificamerican.com/article/how-critical-thinkers-lose-faith-god/.

(29) http://theconversation.com/analytic-thinking-erodes-religious-belief-6709/.

(30) http://www.pewresearch.org/fact-tank/2013/10/23/5-facts-about-atheists/.

(31) http://redcresearch.ie/wp-content/uploads/2012/08/RED-C-press-release-Religion-and-Atheism-25-7-12.pdf.

طبيعيًا بنفس الطريقة التي تبدو بها اللغة طبيعية. يتمتع البشر بالقدرة الفطرية على تطوير لغة تطويرًا طبيعيًا إذا كانوا في البيئة المناسبة. إن التَرَعْرَعَ بين الذئاب في الغابة ليس هو البيئة الأمثل لاكتساب اللغة، ولكن التَرَعْرَعَ في مجتمع بشري في أي مكان في العالم كذلك. فما عليك إلا أن تمنح طفلًا وقتًا، وستكسبه ميوله الإدراكية الفطرية القدرة على التحدث بطلاقة باللغة الصينية أو التركية، على سبيل المثال. ولا يقرر الطفل اكتساب لغة، بل يحدث اكتساب اللغة الأم طبيعيًا، مع القليل من الجهد الواعي من جانبه أو بدونه.

وهكذا، فنحن نميل معرفيًا عندما ننضج لاكتساب المعتقدات الدينية لعائلتنا أو ثقافتنا بجهد إدركي ضئيل أو معدوم من قبلنا؛ فهي تنشأ طبيعيًا. وفي حين أننا نميل إدراكيًا إلى مطلق المعتقدات والممارسات الدينية، فإن نوعية المعتقدات والممارسات الدينية التي يكتسبها المرء تعتمد كليًا على ثقافته (وينطبق الشيء نفسه على اللغات). فالدين، مثله في ذلك مثل اللغة، هو أمر طبيعي: أي إنه تعبير يكتسب بسهولة وبصورة مباشرة ودون وعي من خلال الملكات الإدراكية الكلية في البيئة المناسبة.

أما عدم الإيمان فليس طبيعيًا بهذا المعنى، أو على الأقل لا تظهر طبيعيته ظهورًا واضحًا. بالطبع، إذا نشأ الإنسان في مجتمع يفتقر إلى المحفزات الدينية النموذجية، فمن غير المرجح أن تُحفيز الميول الطبيعية للمعتقد الديني بالدرجة المناسبة (وبالتالي من غير المرجح أن يكتسب الإنسان معتقدات وممارسات دينية). ومن المرجح أن يكون الطفل السويدي الذي نشأ في السويد لأبوين ملحدين سويديين غير مؤمن على نحو طبيعي. فازدهار المعتقدات الدينية التي تحدث على نحو طبيعي يتطلب بيئة مزدهرة دينياً، تمامًا كما يتطلب الاكتساب الطبيعي للغة السويدية نوعًا مناسبًا من البيئة لتزدهر فيه.

وحتى لو كان المعتقد الديني طبيعيًا وكان عدم الإيمان غير طبيعي، فليس في ذلك شيئا مميزًا يحسب لصالح المعتقد الديني؛ فكون المعتقد طبيعيًا ليس في ذاته فضيلة ولا رذيلة. فيمكن أن يكون الاعتقاد الطبيعي عقلانيًا أو غير عقلاني، صادقًا أو كاذبًا، لوثة دماغية أو وحيًا من السماء. على سبيل المثال: يمكن لعالم

الحشرات الذي يدرك تمامًا أن الأنواع السامة من العناكب حوالي اثنتي عشر نوعًا فقط من بين عشرات الآلاف من أنواع العناكب أن يظل لديه خوف طبيعي من العناكب (وهو في ذلك غير عقلاني لعلمه بتلك المعلومات). ومن ناحية أخرى، قد أعتقد على نحو طبيعي وعقلاني أنني أفضل من متوسط قدرات الفرد البشري وهذا شيء يميل جميعنا إلى تصديقه بطبيعة الحال)، وقد يكون ذلك صحيحًا (بمعنى أو آخر). ومع ذلك، بمجرد أن أدرك أن جميع البشر لديهم نزعة إدراكية للاعتقاد في أنفسهم أنهم فوق المتوسط ولا يمكن أن نكون جميعًا على صواب في إصدار مثل هذه الأحكام)، فإن اعتقادي يكون غير عقلاني. ولكن إذا لم أكن على دراية بهذا الميل الإدراكي، أو إذا لم أعي أنه لا يمكننا أن نكون جميعًا على صواب في إصدار مثل هذه الأحكام، فسيكون اعتقادي، بقدر ما أعلم، عقلانيًا. ويمكنني ضرب المزيد من الأمثلة. والشاهد: أن ما يجعل المعتقدات عقلانية أو غير عقلانية، أو صادقة أو كاذبة، لا علاقة له بكونها طبيعية أو غير طبيعية.

ومع ذلك، فإن بعض المعتقدات - الطبيعية منها - تنشأ بسهولة إلى حد ما ودون تفكر واعٍ في كل شخص تقريبًا وذلك بسبب بنيتنا الإدراكية وفي ظل الأنواع المناسبة من المحفزات.

ماذا عن الإلحاد؟ إذا كان البشر يؤمنون بالله على نحو نموذجي دون بذل أي جهد استدلالي، فقد يحتاج بعض الناس إلى التفكير وبذل جهد استدلالي لينتهي بهم الأمر إلى عدم الإيمان.

تأمل هذا القياس مع الفيزياء الشعبية، والتي، مثلها مثل المعتقد الديني، تتميز بأنها بديهية ومتكررة ثقافيًا وطبيعية[32]. الفيزياء الشعبية أو الفيزياء الساذجة هي فهمنا الحسي غير التأملي للعالم المادي. وقد تتضمن الفيزياء الشعبية تعميمات بسيطة وحقيقية مثل: "الصخور الهابطة تسقط على الأرض" و "إلقاء الصخور بقوة كافية على النوافذ يكسرها". وتتضمن أيضًا عبارات حدسية تتعارض مع الفيزياء

---

(32) Robert N. McCauley, Why Religion Is Natural and Science Is Not (Oxford: Oxford University Press, 2011).

المعاصرة التي تفترض مجموعة من الكيانات غير القابلة للرصد مثل الذرات والفوتونات (بل وربما تفترض أيضًا أن مفاهيمنا الطبيعية عن الماضي والمستقبل وهمية). ويتطلب الانتقال من الفيزياء الشعبية إلى الفيزياء المعاصرة قدرًا هائلاً من الجهد الاستدلالي، جهدًا كافيًا ليتجاوز على الأقل بعض حدسنا الطبيعي والعميق[33]. إن الفيزياء المعاصرة، والتي تتطلب تفكيرًا تجريديًا ورياضيات معقدة، تخالف الحدس مخالفة عميقة وتتعارض مع ما نلاحظه. وإذن، الاعتقاد بالنظريات الفيزيائية المعاصرة يتطلب تفكيرًا استدلاليا. وبالمثل، فإن رفض معتقداتنا الدينية الطبيعية للغاية قد يتضمن تفكيرًا استدلاليًا[34].

إن هذا النوع من التفكير هو الذي وجه ويل إم جيرفيه[35] Will M. Gervais وآرا نورينزايان[36] Ara Norenzayan لتحديد تأثير التفكير الاستدلالي (وهو ما أطلقوا عليه "تحليلي") على المعتقد الديني وعدم الإيمان من خلال سلسلة من الدراسات[37]. قدم جيرفيه ونورينزايان سلسلة من المحفزات الاستدلالية لتحديد تأثيرها على المعتقد الديني وعدم الإيمان. وقد افترضوا أن التفكير الاستدلالي يتجاوز أكثر ميول المرء الإدراكية بداهة وطبيعة تجاه المعتقد الديني. ولأن العناوين المذكورة أعلاه اعتمدت على دراساتهم، فسوف أقف معها بشيء من التفصيل[38].

---

(33) بالنظر إلى الارتداد المتكرر إلى الفيزياء الشعبية، قد يعتقد المرء أنه لا يمكننا التغلب تمامًا على ميولنا الطبيعية.

(34) مرة أخرى، أتحدث هنا عن عموميات. فقد يعتقد المرء أن E = mc2 لأنه أخبر بذلك وليس نتيجة للتفكير الاستدلالي (رغم أنني أشك، في مثل هذه الظروف، أن يفهمها المرء فهما جيدًا على الإطلاق) بالإضافة إلى ذلك، قد يكون المرء ملحدًا لأن والديه علماء في سن مبكرة أنه لا يوجد إله (الأمر الذي لا يتطلب أي تفكير استدلالي من جانبه).

(35) أستاذ علم النفس بجامعة كنتاكي الأمريكية مهتم بدراسة الإلحاد الاعتقادات في الخوارق والدين. (المترجم)

(36) أستاذ علم النفس بجامعة بيرتش كولومبيا، مهتم بدراسة علم نفس الاجتماعي وتطور الأديان والثقافات. (ألمترجم)

(37) Will M. Gervais and Ara Norenzayan, “Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief,” Science 336 (2012): 493-96.

(38) على الرغم من أن دراسات جيرفيه ونورينزايان تصدرت عناوين الصحف، فقد قاوموا =

في الدراسة الأولى عرض الباحثون ثلاث مسائل مستخدمين اختبار التأمل الإدراكي The Cognitive Reflection Test (CRT) الذي طوره شين فريدريك[39] Shane Frederick[40]. وتتضح دراستهم إذا توقفت وفكرت في حل المسائل قبل الشروع في قراءة تحليلهم للدراسة. وهاهي المسائل المعروضة:

1 - إجمالي تكلفة مضرب الكرة مع الكرة هو 1,10 دولار. ويكلف المضرب بمفرده 1,00 دولار أكثر من ثمن الكرة. فكم تبلغ تكلفة الكرة؟ ____ سنتًا.

2 - إذا استغرقت 5 آلات 5 دقائق لصنع 5 أدوات، فكم تستغرق 100 آلة لصنع 100 أداة؟ ____ دقيقة

3 - توجد رقعة من أوراق زنابق الماء في بحيرة. وفي كل يوم، يتضاعف حجم الرقعة. فإذا كانت تغطية البحيرة بالكامل بأوراق الزنبق الماءتستغرق 48 يومًا، فكم من الوقت ستستغرق الرقعة لتغطية نصف البحيرة؟ ____ أيام

في كل مسألة من هذه المسائل، تكون الإجابة البديهية السريعة والسهلة غير صحيحة، بينما تكون الإجابة الاستدلالية المتأنية صحيحة[41].

ثم رُصدت إجابات المشاركين فيما يتعلق بالمعتقد الديني وعدم الإيمان لعبارات مثل ما يلي:

أشعر بالحضور الإلهي في حياتي.

= تلك الاستنتاجات المثيرة السابق ذكرها. فهما يصرحان: "وأخيرًا، نحذر من أن الدراسات الحالية صامتة في المناقشات طويلة الأمد حول القيمة الجوهرية أو العقلانية للمعتقدات الدينية، أو حول المزايا النسبية للتفكير التحليلي والحدسي في تعزيز اتخاذ القرار الأمثل" (Gervais and Norenzayan, "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief," 496).

(39) أستاذ في علم النفس بجامعة يال الأمريكية، مهتم بدراسة الطرق الإدراكية لصناعة القرار. (المترجم)

(40) Shane Frederick "Cognitive Reflection and Decision Making" Journal of Economic Perspectives 19 (2005): 25-42.

(41) الرد السريع والبديهي والخطأ للمسألة رقم (1) هو 10 سنتات، بينما الإجابة المتأنية التحليلية الصحيحة هي 5 سنتات. والإجابة الخاطئة للمسألة رقم (2)، تساوي 100 بينما الإجابة التحليلية هي 5؛ و الإجابة الخاطئة للمسألة رقم (3) هي 24 بينما الإجابة التحليلية هي 47.

لا يهم كثيرًا ما أؤمن به طالما أنني أعيش حياة أخلاقية.

أنا أؤمن بالله.

أنا فقط لا أفهم الدين.

الله موجود.

الشيطان موجود.

الملائكة موجودة.

وجد جيرفيه ونورينزايان علاقة عكسية بين النجاح في اختبار التأمل الإدراكي CRT وتأكيد المعتقد الديني؛ وزعموا أن التفكير الاستدلالي مرتبط ارتباطًا سلبيًا بالمعتقد الديني. ولذلك، ووفقًا لمصطلحيهما، خلص جيرفيه ونورينزايان إلى أن: "هذه النتيجة أظهرت أن... الميل إلى تجاوز الحدس من خلال التفكير التحليلي كان مرتبطًا بعدم الاعتقاد الديني"[42].

وثمة مجموعة ثانية من الدراسات تضمنت الأوليات اللاواعية، مع سلسلة من المحفزات المصممة لتحريض التفكير الاستدلالي. دعونا نتناول واحدًا فقط من تلك الأوليات من أجل التوضيح، وذلك هو: أولية عدم الطلاقة[43]. تتضمن أولية عدم الطلاقة خطوطًا ضبابية بدلاً من الخطوط الكبيرة الواضحة للمجموعة الضابطة. يدعي جيرفيه ونورينزايان أن الاضطرار إلى اكتشاف خط غامض يؤدي إلى تفكير استدلالي بطريقة لم تكن متطلبة عند قراءة الخطوط الكبيرة والواضحة. أكمل المشاركون مرة أخرى رصدًا للإيمان بالله / التدين. ومرة أخرى، خلص جيرفيه

(42) Gervais and Norenzayan, "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief," 494.

(43) تضمنت الدراسات الأخرى أوليات ضمنية وأوليات فنية. أما الأوليات الضمنية فتضمنت ترتيب كلمات في جمل؛ أعطيت المجموعة الأولية مصطلحات فكرية ("العقل"، "التحليل"، "التأمل"، إلخ.)، بينما تم إعطاء المجموعة الضابطة كلمات غير مرتبطة ("المطرقة"، "الأحذية"، "القفز"، إلخ.). أما المشاركون في المجموعة الضابطة في الفن فقد حدقوا في صورة "محايدة" مثل التمثال اليوناني القديم للشاب الرياضي The Discobulos، في حين تم تحضير الباقي بالتحديق في تمثال "المفكر" The Thinker (وهو عمل فني يصور شخصًا في وضع التفكير التأملي).

ونورينزايان إلى أن مجموعة الدراسات تعزز الفرضية القائلة بأن العملية الاستدلالية تتسبب في انحسار المعتقد الديني.

تؤكد أكثر الدراسات حداثةً الفرضية القائلة بأنه إذا كان المعتقد الديني أكثر حدسية وغير استدلالي، فعدم الإيمان إذن يجب أن يكون نتاجًا للتفكير الاستدلالي. وقد أجرى كل من أميتاي شينهاف Amitai Shenhav وديفيد ج. راند David G. Rand وجوشوا د. جرين Joshua D. Greene دراسة لاختبار تأمل إدراكي مشابهة لتلك التي أجراها جيرفيه ونورينزايان مع أكثر من ثمانمائة مشارك (من سكان الولايات المتحدة) بمتوسط عمر يبلغ 33 عامًا، وكانت الإجابات البديهية مرتبطة بعلاقة طردية مع المعتقد الديني بينما ارتبطت الإجابات الاستدلالية ارتباطًا طرديًا مع عدم الإيمان[44]. وتتحد دراستان أخريان مع هذه الدراسة لإظهار التلازم بين التفكير الحدسي والإيمان بالله، والتفكير الاستدلالي (التحليلي) وعدم الإيمان.

أخذ جوردون بينيكوك Gordon Pennycock وجيمس ألان شاين James Allan Cheyne وبول سيلي Paul Seli وديريك جيه كوهلر Derek J. Koehler وجوناثان إيه فوجيلسانغ Jonathan A. Fugelsang عينات من أكثر من مائتي شخص في جميع أنحاء الولايات المتحدة بمتوسط عمر يبلغ حوالي 35 عامًا[45] وقد قاسوا أسلوب التفكير الاستدلالي (ومرة أخرى أطلقوا عليه اسم "النمط الإدراكي التحليلي analytic cognitive style" أو ACS) بطريقتين: الأولى باستخدام نسخة متغيرة من اختبار التأمل الإدراكي، والثانية باستخدام مسائل تعارض المعدل الأساسي base-rate conflict (BRC) (المسائل التي تحتوي على تعارض بين الصورة النمطية والمعلومات الاحتمالية)[46]. ولأنه من المحتمل أن يكون النشاط الديني مرتبطًا بالمعتقد

---

(44) Amitai Shenhav, David G. Rand, and Joshua D. Greene, "Divine Intuition: Cognitive Style Influences Belief in God," Journal of Experimental Psychology¤ General 141 (2012): 423-28.

(45) Gordon Pennycock et al., "Analytic Cognitive Style Predicts Religious and Paranormal Belief," Cognition 123.3 (2012): 335-46.

(46) والمثال الوارد في الدراسة كالتالي: "في إحدى الدراسات، تم اختبار 1000 شخص. وكان من بين المشاركين 995 ممرض وممرضة و 5 أطباء. تم اختيار جاك عشوائيًا من =

الديني، فقد قاسوا المعتقد وفقًا لمستوى مشاركة الفرد في الكنيسة والصلاة على سبيل المثال. كما رصدوا المعتقدات الدينية من خلال درجة اعتقاد الفرد في الجنة، والجحيم، والمعجزات، والحياة الآخرة، والملائكة، والشياطين، والروح غير المادية. وأخيرًا، سألوا المشاركين عن نوع الإله الذي يؤمنون به، إن وجد: وقد تراوحت الإجابات من الإيمان بالله إلى الإلحاد. وبينما أنتج الباحثون العديد من النتائج الدقيقة، فقد أكدوا عمومًا على الحدس القائل بأن المفكرين الاستدلاليين من المرجح أن يكونوا غير مؤمنين أكثر من المفكرين البديهيين. قدمت الدراسة الأولى، على سبيل المثال، دليلًا على وجود "ميل تحليلي [استدلالي] لتجاهل أو تجاوز الاستجابات الحدسية الأولية"[47]. وخلصوا إلى أن العملية الاستدلالية تقلل من احتمالية الاعتقاد في الخوارق.

= بين المشاركين في هذه الدراسة .يبلغ جاك من العمر 34 عامًا، ويعيش في منزل جميل في ضاحية فاخرة. وهو متحدث جيد ومهتم للغاية بالسياسة. ويستثمر الكثير من الوقت في حياته المهنية. ما هو الاحتمال الأكثر رجوحًا؟

(أ) جاك ممرض

(ب) جيك طبيب.

يوجد هنا نوعان من المعلومات المتضاربة: احتمالية المعدل الأساسي لعضويته في المجموعة (أي احتمال أن يكون جاك ممرضًا بنسبة 99,5%) والمعلومات التشخيصية التي تشير إلى استجابة حدسية تستند إلى معتقدات نمطية عن الأطباء والممرضين (أي أن جاك طبيب) .يختار العديد من الأشخاص الاستجابة البديهية ويهملون أو يقللون من أهمية معلومات المعدل الأساسي. أولئك الذين هم أكثر استعدادًا (النمط الإدراكي) والأكثر قدرة (القدرة الإدراكية) على خوض المعالجة التحليلية هم أقل عرضة لاختيار الاستجابة البديهية .لاحظ أنه، على عكس CRT، لا توجد استجابة صحيحة موضوعية لمشكلات المعدل الأساسي هذه. يشير الأداء إلى نسبة الاستجابات غير البديهية (المتوافقة مع المعدل الأساسي) المختارة.Â المترجم) انظر:

Gordon Pennycook et al., "Analytic Cognitive Style Predicts Religious and Paranormal Belief," Cognition 123.3 (2012): 338.

(47) Pennycook et al., "Analytic Cognitive Style Predicts Religious and Paranormal Belief," 339.

يدرك جيرفيه ونورينزايان أنه ليس كل الملحدين استدلاليين (وليس كل المؤمنين مناهضين للاستدلال). وقد حددوا، بالإضافة إلى الإلحاد التحليلي (الاستنتاجي)، أربعة أنواع إضافية على الأقل من الملحدين. ولعل الأكثر إثارة للاهتمام هو إلحاد عمى العقل الذي يظهر في الأفراد الذين يفتقرون إلى القدرة على قراءة العقل - لمعالجة أو التعرف على العقول أخرى[48]. وعادة ما يكون هؤلاء الأفراد مصابين بطيف التوحد حيث يفتقرون بدرجات متفاوتة لما نطلق عليه نظرية العقل (انظر القسم التالي). وكلما ارتفعت درجة الشخص المتوحد في طيف التوحد (أي، كلما كان الشخص أقل قدرة على التعرف على الأشخاص) كلما قل احتمال اعتقاده بإله شخصي. فإذا كانت المعتقدات التأليهية تنطوي على الاعتقاد بشخص إلهي، فإن أولئك الذين يفتقرون إلى القدرة على معرفة الأشخاص من المحتمل أيضًا أن يفتقروا إلى الاعتقاد بشخص إلهي (المزيد حول هذا في نهاية هذا الفصل).

يفتقر بعض الملحدين، الذين يسميهم جيرفيه ونورينزيان بالملحد "الرافض للاعتقاد inCREDulous"، إلى المدخلات الثقافية الكافية والملائمة لتشكيل المعتقدات الدينية. فالأديان تشتمل عادةً على عروض قابلة للملاحظة ومكلفة يقدمها المتدين لتعزيز المصداقية (CREDs) مثل: الصيام والعشور والعفة بل وحتى الاستشهاد[49]. ويبدو أن مثل هذه الأفعال التي يصعب القيام بها تصنعًا، والتي تشير إلى التزام الفرد بالتعاون مع أعضاء المجموعة = تساهم في مصداقية وقبول الدين داخل الثقافة[50].

---

(48) Gervais and Norenzayan, "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief."

(49) Joseph Henrich, "The Evolution of Costly Displays, Cooperation, and Religion: Credibility Enhancing Displays and Their Implications for Cultural Evolution," Evolution and Human Behavior 30 (2009): 244-60.

(50) Joseph Bulbulia, "Religious Costs as Adaptations That Signal Altruistic Intention," Evolution and Cognition 10 (2004): 19-38; and Richard Sosis, "Does Religion Promote Trust? The Role of Signaling, Reputation, and Punishment," Interdisciplinary Journal of Research on Religion 1 (2005): 1-30.

وفي ثقافة تفتقر إلى تلك العروض (كما في ثقافات أوروبا الشمالية على سبيل المثال)، قد يجد المرء ببساطة أن المعتقد الديني أمر غير قابل للتصديق. وتنتج **اللاكترائية** عادةً عن اللامبالاة تجاه الله التي تنشأ من الأمان الوجودي؛ اللاإكترائيون راضون عن أمنهم الوجودي ونتيجة لذلك لا يهتمون كثيرًا بالإيمان بالله.

لقد ناقشت بالفعل تأثير انحياز المسايرة والهيبة على الإلحاد. ويضاف إلى ذلك، وهذا مما لم يذكره جيرفيه ونورينزايان، أن بعض الملحدين يريدون بشدة ألا يكون الله موجودًا. على سبيل المثال: لم يكن جان بول سارتر يريد هذا النوع من السلطة الكونية التي يمكن أن يتمتع بها قاضي يتصف بأنه عالم بكل شيء. ولم يكن يريد أن يوجد إله يعرف كل فكره وعمله (ويقاضيه وفقًا لذلك).

ومثلما توجد دوافع نفسية وثقافية غير مفضية في الأصل للحقيقة متضمنة في المعتقد الديني، كذلك هناك دوافع نفسية وثقافية غير مفضية في الأصل للحقيقة متضمنة في عدم الإيمان. ولذلك لا يمكن للمرء أن يستنتج من الادعاء بأن الملحدين كمجموع يتمتعون بأسلوب تفكير أكثر استدلالية أن الملحد المعين قد اكتسب اعتقاده عن طريق الاستدلال.

الإلحاد والتوحد

تطرقنا في الأقسام السابقة إلى التلازم بين الإلحاد من ناحية، وبين فضيلة إدراكية (وهي التفكير الاستدلالي) وتفوق إدراكي (معدل الذكاء المرتفع) من الناحية الأخرى. ويؤكد جيرفيه ونورينزايان أن العلاقة بين التفكير الاستدلالي والإلحاد هي أكثر من مجرد تلازم. وبينما يعترفان بوجود تفسيرات بديلة، فهما يزعمان أن التفكر الاستدلالي "يفسر كل هذه النتائج في إطار واحد مدعوم دعمًا جيدًا بالنظرية الحالية المتعلقة بالأسس الإدراكية للاعتقاد الديني وعدمه"[51]. وبعبارة أخرى، عندما يتم إشراك العمليات الاستدلالية، فإنها تتفوق على / وتصحح / وتضعف /

---

(51) Gervais and Norenzayan, "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief," 495.

وتحجب المعتقدات الدينية المفترضة على نحو حدسي وغير نقدي. ويحدث هذا بالتأكيد في بعض الحالات: لأن الأبحاث تشير إلى أننا نميل إدراكيًا إلى تكوين معتقدات في الآلهة والأرواح، فقد يظهر الإلحاد عندما تتعرض هذه المعتقدات الطبيعية للنقد أو يبطلها التفكير الاستدلالي، سواء كان ذلك صوابًا أو خطأً. ولكن ربما في بعض الحالات لا تكون علاقة التفكير الاستدلالي (وحتى معدل الذكاء المرتفع) بعدم الإيمان هي علاقة السبب بالنتيجة؛ فربما يتوسط كلاهما سبب أساسي مشترك[52].

قدمت سابقًا بعض الأسباب الشائعة لهذه التلازمات - أعني تحيزات المسايرة والهيبة. دعونا، في هذا القسم، نفكر في سبب آخر: وهو التوحد. سأستكشف في هذا القسم سمات التوحد التي من المحتمل أن تقوم بدور الوساطة بين كل من الإلحاد والتفكير الاستدلالي (ومعدل الذكاء المرتفع). سأقدم الدراسات التي تشير إلى أن العلاقة بين الإلحاد والتفكير الاستدلالي يتوسطهما القيود التعقيلية في التوحد[53].

أظهرت الدراسات أن الإلحاد واللاأدرية تلازمهما وتتوسطهما في بعض الحالات القيود التعقيلية التي هي شائعة لدى الأفراد الذين يعانون من اضطراب طيف التوحد. فإذا كنا نتصور الله على أنه عقل غير مادي، فيجب أن يُتوقع من أولئك الذين يعانون من قيود التعقيلية ظهور درجات أعلى من عدم الإيمان بإله شخصي، ومرة أخرى في بعض الحالات، علينا أن نتوقع الإلحاد[54].

---

(52) إليك طريقة مغرضة لصياغة هذا الأمر: فبدلاً من التلازم بين الإلحاد ومثل الخيرات الإدراكية، لنفترض أن هناك علاقة بين الإلحاد وبين خلل إدراكي.

(53) يقصد بالتعقيل *Mentalization* القدرة على فهم الحالات العقلية للنفس وللآخرين, والقيود التِعقيلية هي العوائق التي تحد من هذه القدرة. (المترجم)

(54) وبالمثل يمكن أن تتأثر المعتقدات الأخلاقية بالعديد من السلوكيات وأوجه القصور الإدراكية. ترتبط الحسابات الرائعة التي تتطلبها النفعية بـ "المواقف الأنانية وتقليل المعرّف الإنساني"، كما ترتبط سلبًا بالإيثار. انظر:
Guy Kahane, "Evolutionary Debunking Arguments," *Nou* 45 (2011): 103-25.
وتشير دراسات أخرى إلى أن الحكم النفعي يرتبط بالسمات المعادية للمجتمع مثل =

لفت عمل كاثرين كالدويل-هاريس[55] Catherine Caldwell-Harris وزملاؤها الانتباه أولاً إلى العلاقة بين التوحد عالي الأداء high-functioning autism HFA والإلحاد[56]. وقد اقترح بحثهم أن الأفراد المصابين بالتوحد عالي الأداء يميلون إلى عدم الإيمان. وجادل نورنزايان Norenzayan، وجيرفيس Gervais، وكالي هـ ترزيسنيوسكي Kali H. Trzesniewski بأن العجز التعقيلي الذي يميز الأفراد المصابين بالتوحد عالي الأداء يدفعهم نحو الإلحاد. وبينما قاموا بتكرار دراسة كالدويل-هاريس، التي أظهرت أن أولئك الذين هم في مستويات أعلى من التوحد هم أقل عرضة للإيمان بإله شخصي[57]، كانوا أيضًا قادرين على عزل ثم استبعاد ملكات

= السيكوباتية. انظر:

Daniel M. Bartels and David A. Pizarro, "The Mismeasure of Morals: Antisocial Personality Traits Predict Utilitarian Responses to Moral Dilemmas," *Cognition* 121.1 (2011): 154-61; Andrea L. Glenn et al., "Moral Identity in Psychopathy," *Judgment and Decision Making* 5 (2010): 497-505; Michael Koenigs et al., "Utilitarian Moral Judgment in Psychopathy," *Social, Cognitive and Affective Neuroscience* 7.6 (2012): 708-14; and Katje Wiech et al., "Cold or Calculating? Reduced Activity in the Subgenual Cingulate Reflects Decreased Aversion to Harming in Counterintuitive Utilitarian Judgment," *Cognition* 126 (2013): 364-72.

كما تشير الدراسات إلى أن الحكم النفعي يرتبط أيضًا بسمات معادية للمجتمع مثل تقلص الاهتمام التعاطفي. انظر:

So Young Choe and Kyung-Hwan Min, "Who Makes Utilitarian Judgments? The Influences of Emotions on Utilitarian Judgments," *Judgment and Decision Making* 6 (2011): 580-92; and Molly J. Crockett et al., "Serotonin Selectively Influences Moral Judgment and Behavior through Effects on Harm Aversion," *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 107 (2010): 17433-38.

(55) أستاذة علم النفس أمريكية بجامعة بوسطن مهتمة بعلم النفس الإدراكي وخاصة فيما يتعلق باللغة. (المترجم)

(56) التوحد عالي الأداء (HFA) هو تشخيص يتداخل مع متلازمة أسبرجر. مقارنةً بتشخيص (DSM IV) السابق لاضطراب التوحد، يتمتع الأفراد في كلا المجموعتين بذكاء متوسط أو أعلى من المتوسط ولكن قد يختلفون في سن البداية، وتطور اللغة المبكر، والمهارات الحركية.

Catherine L. Caldwell-Harris, Caitlin Fox Murphy, and Tessa Velazquez, "Religious Belief Systems of Persons with High Functioning Autism," in Proceedings of the 33rd Annual Meeting of the Cognitive Science Society (Austin: Cognitive Science Society, 2011), 3362-66.

(57) أجريت دراسات نوريتزايان للتوحد رقم 3 و 4 على عينة واسعة من الأمريكيين.

Ara Norenzayan, Will M. Gervais, and Kali H. Trzesniewski, "Mentalizing Deficits Con-

أو ميول إدراكية أخرى التي قد تتوسط أو تجعل الشخص يميل نحو الإلحاد[58].

تضمن الجزء الأول من دراسة كالدويل-هاريس تحليل محتوى منشورات عن الدين والفلسفة في منتديات على مواقع شبكة الانترنت والتي كانت كالتالي: (أ) موقع (wrongplanet.net) للأفراد ذي التوحد عالي الأداء HFA و(ب) موقع (golivewire.com/teen)[59] للأفراد غير المصابين بالتوحد عالي الأداء (النمط العصبي الطبيعي neurotypical[60]. وشُفرت المنشورات لتحليل المحتوى، ووكل إلى الأفراد موضوعات من فئات المعتقدات الدينية المختلفة، بما في ذلك، على سبيل المثال، معتقدات لاأدرية وإلحادية ومسيحية. وكان المشاركون المصابون بالتوحد عالي الأداء HFA أقل احتمالية بدرجة ملحوظة لتشفير المعتقدات التوحيدية وأكثر عرضة بدرجة ملحوظة لتشفير الإلحاد واللاأدرية. على سبيل المثال، في حين أن حوالي 37% من السكان ذوي النمط العصبي الطبيعي مشفرون للمسيحية، فإن أقل من 17% من السكان من ذويي التوحد عالي الأداء HFA فعلوا ذلك. وقد كان

---

strain Belief in a Personal God," PLOS One 7.5 (2012).

وقد وجدوا في دراستهم رقم1 أن "نسبة المشاركين المصابين بالتوحد الذين كان من المحتمل أن يؤيدوا الاعتقاد بالله بقوة كانوا 11% فقط وذلك مماثل للمجموعة الضابطة ذي النمط العصبي الطبيعي".

(58) يجب أخذ الحيطة والحذر بداية من التسرع في الحكم هنا. فحيث إن التوحد معقد للغاية، فيستحيل على الأرجح القول بأن التوحد بحد ذاته يتوسط الإلحاد. في أحسن الأحوال، قد تعزل الدراسات صفة معينة شائعة في التوحد، مثل قيود التعقيلية. بالإضافة إلى ذلك، وكما رأينا في الأقسام السابقة، فإن عدم الإيمان بالله الشخصي لا يرقى إلى الإلحاد. يتطلب الإلحاد عدم الإيمان بالقوى الشخصية وغير الشخصية المتجاوزة (وربما الأخلاقية).

(59) موقع WrongPlanet هو منتدى للنقاش ذو شعبية يستخدمه الأفراد المصابون بالتوحد أنشئ عام 2004.، وأما موقع goLiveWire فهو منتدى للنقاش العام أنشئ عام 2000 وكان يتمتع بَشعبية. (المترجم)

(60) يطلق مصطلح النمط العصبي الطبيعي على الأفراد غير المصابين بالتوحد عالي الأداء. (المترجم) انظر:

Jordan, Chloe Jennifer and Catherine Caldwell-Harris. "Understanding Differences in Neurotypical and Autism Spectrum Special Interests through Internet Forums." Intellectual and Developmental Disabilities 50, no. 5 (10, 2012): 391-402.

المناقشون ذوو التوحد عالي الأداء أكثر عرضة بنسبة 50% لأن يُصنفوا كملحدين وبنسبة 70% على الأرجح لأن يُصنفوا كلا أدريين.

اشتملت دراسة ثانية على استبيان عبر الإنترنت قُدِّم إلى 61 فردًا ممن عرَّفوا أنفسهم بأنهم يعانون من حالة طيف التوحد. وعدد 105 من طلاب المرحلة الجامعية الأولى من المجموعة الضابطة ذات النمط العصبي الطبيعي. وحددت درجة المشاركين على مقياس التوحد من خلال ثلاثة اختبارات تشخيصية، و تقييم معتقدهم الديني ذاتيًا[61]. وفي حين أن أصحاب التوحد عالي الأداء HFA والأفراد ذوي النمط العصبي الطبيعي كانوا تقريبا متساويين في النسبة للاأدرية (حوالي 14 %)، كان الأفراد من أصحاب التوحد عالي الأداء أكثر عرضة بثلاث مرات لأن يكونوا ملحدين (34% مقابل 10 %). بالإضافة إلى أنه في حين كان أكثر من 50% من الأفراد ذوي النمط العصبي الطبيعي مسيحيين ويهود، حُدِّد 28% فقط من أفراد التوحد عالي الأداء على أنهم مسيحيون أو يهود. وأخيرًا، كلما حصل الشخص على درجات أعلى في درجة طيف التوحد زادت احتمالية أن يكون ملحدًا. وباختصار، لقد أكدت نتائج استبيان الإنترنت نتائج تحليل محتوى منشورات المنتديات. ولكن بينما أكدت كالدويل هاريس وزملاؤها وجود صلة بين التوحد عالي الأداء HFA والإلحاد، فإنهم لم يتمكنوا من تحديد مصدر هذه الصلة[62].

(61) الاختبارات التشخيصية الثلاثة هي درجة التوحد لبارون كوهين Baron-Cohen's autism quotient، واختبار "قراءة العقل في العين"، ودرجة المنهجية. للأول انظر:

Simon Baron-Cohen et al., "The Autism-Spectrum Quotient (AQ): Evidence from Asperger Syndrome/High-Functioning Autism, Males and Females, Scientists and Mathematicians," Journal of Autism and Developmental Disorders 31.1 (2001): 5-17.

وللثاني والثالث انظر:

Baron-Cohen et al., "The Systemizing Quotient: An Investigation of Adults with Asperger's Syndrome or High Functioning Autism, and Normal Sex Differences," Philosophical Transactions of the Royal Society 358 (2003): 361-74.

(62) دعوني أقدم بعض الملاحظات التحذيرية عند هذه النقطة. لا تكشف الاستبيانات عن الفروق الدقيقة والأمور الملتبسة. على سبيل المثال، غالبًا ما تخفق هذه الدراسات في التمييز بين الآلهة الشخصية وغير الشخصية. وحيث إن الإلحاد هو عدم الإيمان بالآلهة الشخصية وغير الشخصية، فإن تقديم أو الإيحاء بأن الإلحاد هو مجرد عدم إيمان بإله شخصي هو أداة =

سعت دراسات نورينزايان إلى عزل القصور التعقيلي كوسيط لعدم الإيمان. واستنادًا إلى درجات طيف التوحد التي حُصل عليها من تقرير استبيان ذاتي، ادعى نورينزايان وزملاؤه أن القصور التعقيلي توسط في زيادة الميول نحو الإلحاد واللاأدرية. فإذا كان الله إلهًا شخصيًا[63]، فإن نظرية العقل، التي تعمل في العادة، ستكون مرتبطة بالاعتقاد بالله كفاعل مريد. ولذلك يبدو أن القصور التعقيلي من العوامل المحتملة المساهمة في عدم الإيمان. وقد خلصوا إلى أن: "المقاربات الإدراكية للدين تؤكد أن الآلية الإدراكية التعقيلية الاجتماعية المتطورة والموثوق بها - أو نظرية العقل - هي الأساس الرئيسي الذي يدعم الفهم الحدسي لله أو الآلهة. تدعم النتائج الحالية هذه الفرضية، وتوضح كذلك أن قصور التعقيل الاجتماعي لا تقوض الفهم الحدسي لله فحسب، بل وتقوض الاعتقاد أيضًا". وإذا كان الحال كذلك، فإن الأفراد المصابين بالتوحد الذين يعانون من صعوبات تعقيلية حادة قد يكونون غير قادرين إدراكيًا على تصور إله قد يتعرف عليه الأفراد ذوو النمط العصبي الطبيعي على نحو حدسي على أنه شخصي ومريد[64].

= فجة للغاية للوصول إلى المزيد من المعتقدات (وعدم المعتقدات) محكمة النسج. يضاف على ذلك، أنه بينما قد يقول بعض الناس في الاستبيانات "أنا لست متديناً"، فإنهم في المقابلات الشخصية يتحدثون عن جوانب دينية من حياتهم. ونادرا ما يعلم المرء مثل هذه التفاصيل الدقيقة من خلال الاستبيانات.

(63) والمقصود بالإله الشخصي Personal God: الإله المتعين ذو الهوية والمشخصات (الصفات) التي تميزه عن غيره؛ فالإله الشخصي هو الإله الحر ذو الإرادة الذي يسمع أدعيتنا، ويعلم أحوالنا ويهتم بشؤوننا، وهو الإله المتعالي الذي يشار إليه بالضمير thou للفاعل العاقل، وليس مجرد كينونة يشار إليه بالضمير it. ويعبر معظم اللاهوتيين عن الله بالشخصي لا بالشخص نظرًا؛ لأن التعبير الأخير قد يوحي بتصور الإله كفرد إنساني ضخم، ويطلق على مثل هذا التصور: التشبيه Anthropomorphism وهي كلمة يونانية تعني حرفيا: على شكل الإنسان (المترجم).

(64) الدراسات الحديثة ليست واثقة من العلاقة بين الملحدين والتوحد. انظر:
Rachel S. Brezis, "Autism as a Case for Neuroanthropology: Delineating the Role of Theory of Mind in Religious Development," in The Encultured Brain: An Introduction to Neuroanthropology, ed. Daniel H. Lende and Greg Downey (Cambridge, MA: MIT Press, 2012), 291-31; Hanneke Schaap-Jonker et al., "Autism Spectrum Disorders and the Image of God as a Core Aspect of Religiousness," International Journal for the Psychology of Religion 23.2 (2012): 145-60; Paul Reddish, Penny Tok, and Radek Kundt,

وإذا كان كالدويل-هاريس ونورينزايان على صواب، فإن وساطة التوحد للإلحاد توفر تفسيرًا للعلاقة بين الإلحاد من ناحية ومعدل الذكاء المرتفع والتفكير الاستدلالي من ناحية أخرى. وحيث إن الأفراد المصابين بالتوحد (كمجموع) لديهم معدل ذكاء أعلى وأساليب تفكير استدلالية أكثر من الأفراد غير المصابين بالتوحد (كمجموع) = فإن التوحد يوفر أرضية مشتركة بين الإلحاد، من ناحية، ومعدل الذكاء المرتفع والتفكير الاستدلالي، من الناحية الأخرى. ومن خلال عدد كافٍ من الحالات لشرح الاختلافات، يمكن القول بأن التوحد يتوسط الإلحاد والتفكير الاستدلالي (بدلاً من القول بأن التفكير الاستدلالي يتوسط الإلحاد عادةً). ونظرًا إلى لاختلافات الطفيفة نسبيًا بين المؤمنين وغير المؤمنين، فإن التحليل الأكثر دقة للبيانات التي تربط بين عدم الإيمان، من ناحية، ومعدل الذكاء المرتفع والتفكير الاستدلالي، من الناحية الأخرى = يمكن تفسيره بالكامل تقريبًا بانتشار الأفراد المصابين بطيف التوحد في الدراسات ذات الصلة، سواء شُخص على أنه مصاب بالتوحد أم لا.

وأخيرًا، يرتبط التوحد بكون المرء أكاديميًا وعالِمًا[65]. النساء، من حيث العموم، أقل عرضة للإصابة بطيف التوحد، في حين أن الرجال أكثر عرضة من أربعة إلى خمس مرات للإصابة بالتوحد. وأساتذة الجامعة، من حيث العموم، أكثر عرضة لأن يصنفوا كمصابين بالتوحد من بين مجموع الرجال، والعلماء أكثر احتمالًا. ويرتبط هذا المقياس ارتباطًا حدسيًا بالحساسيات الدينية. فالنساء، من حيث المجموع، أكثر تديناً من الرجال، والرجال من حيث المجموع أكثر تدينًا من

"Religious Cognition and Behaviour in Autism: The Role of Mentalizing," International Journal for the Psychology of Religion (2015): 95-112.

(65) من المؤكد أن اضطراب طيف التوحد (ASD) له درجات تتراوح من المشاكل الاجتماعية واللغوية والسلوكية العميقة التي تميز اضطراب التوحد إلى متلازمة أسبرجر الأكثر اعتدالًا. لا يدعي هذا التلازم، على سبيل المثال، أن يكون جميع العلماء أو معظمهم مصابون بالتوحد التام. تستند الإدعاءات في هذه الفقرة على
Baron-Cohen et al., "The Autism-Spectrum Quotient (AQ)"; Baron-Cohen, Richler, Bisarya, Gurunathan, and Wheelwright, "The Systemizing Quotient"; and Simon Baron-Cohen et al., "Mathematical Talent Is Linked to Autism," Human Nature 18 (2007): 125-31.

أساتذة الجامعة، والعلماء أكثر من الأساتذة[66]. وإذا كان هذا الربط صحيحًا، فإن التوحد يمكن أن يعلل جزئيًا الإلحاد أو اللاأدرية التي نجدها في الأكاديميا وبين العلماء.

الخاتمة

لا يَسلم عند التدقيق الادعاء بأن الملحدين أكثر ذكاءً، وأكثر انتباهاً للحجج، وبالتالي أكثر عقلانية من المؤمنين. قد يكون لدى الملحدين معدلات ذكاء أعلى وأساليب تفكير استدلالية أكثر من المؤمنين، ولكن هذا لا يجعلهم أكثر عقلانية.إن معدل الذكاء المرتفع والتفكير الاستدلالي والإلحاد قد يشتركوا جميعًا في الانبثاق عن علل غير مفضية في الأصل إلى الحقيقة. وحيث إن معدلات الذكاء المرتفعة تتجمع حول الجامعات، فإن تحيز المكانة والمسايرة الذي يشكل المناخ الجامعي يفسر جزءًا من شيوع الإلحاد في الجامعات. وكذلك تؤدي زيادة الثروة إلى ارتفاع معدل الذكاء وتخفيف القلق الوجودي مما يشكل دعمًا لبعض حالات عدم الاعتقاد الديني. وأخيرًا، يرتبط التوحد ارتباطًا وثيقًا بكل من الإلحاد واللاأدرية من ناحية ومعدل الذكاء المرتفع والتفكير الاستدلالي من الناحية الأخرى. يتوسط القصور التعقيلي للفرد المتوحد في كلايهما. وباختصار، ففي حين يرفض بعض الناس وجود الله بعد دراسة متأنية للحجج بالتأكيد، فإنه يمكن تفسير عدم الإيمان في كثير من الحالات بنفس النوع من التحيزات النفسية التي ينسبها البعض إلى المؤمنين. الأمر معقد بالطبع. ولكننا نعرف القدر التالي: يرتبط الإلحاد واللاأدرية بنفس أنواع التحيزات النفسية التي ينسبها الملحدون إلى المؤمنين.

(66) لدى إلين إكلوند Elaine Eklund أفضل الأعمال بخصوص المعتقد الديني من بين العلماء. للإطلاع على ملخص العمل، انظر http://religion.ssrc.org/reforum/Ecklund.pdf .

الفصل السابع

الإلحاد والتوحد والتواضع الفكري

ما تعتقد بذلك إلا لأنك... (منقح)

لقد وصلنا إلى نقطة في الكتاب حيث نكون قد تعلمنا ما يكفي من علوم الإدراك لنكون خطرين. الملحد والمؤمن على حد سواء مسلحون بما يكفي للشروع في رمي الوحل على أولئك الذين يختلفون معهم؛ يجب أن نلاحظ أيضًا أن رماة الطين من المحتمل أن يتسخوا.

يمكننا إذن أن نتخيل طالبًا ملحدًا في السنة الثانية من دراسة الفلسفة (أو ريتشارد دوكينز) يعلن أن المؤمنين غير عقلانيين وأغبياء ومخدوعون، وأن الملحدين في المقابل عقلانيون وأذكى وأكثر حساسية للأدلة.

ويمكننا أن نتخيل في المقابل طالبًا مؤمنًا في السنة الثانية من دراسة الفلسفة يعلن أن السر الكامن خلف معدل ذكاء الملحد العالي وتفكيره الاستدلالي يرجع إلى أنواع من التحيزات والعيوب الإدراكية الدنيئة - على سبيل المثال: تحيزات الهيبة والمسايرة، والنقطة الفاصلة التي هي التوحد.

والآن قد يعتقد المؤمن والملحد على حد سواء أن اعتقاد الآخر ما هو إلا وهم: نتاج لآلية طبيعية داخلية غير عقلانية.

قد نتخيل المحادثة التالية:

الملحد: "أنت لم تؤمن بالله إلا بسبب آلية لاعقلانية داخلية لديك".

المؤمن: "هل تقصد بالآلية اللاعقلانية جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل؟"

الملحد: "نعم".

المؤمن: "لكن كلاهما ملكات إدراكية طبيعية تمامًا. الإيمان بالله أمر عادي وطبيعي".

الملحد: أتفق معك أنه أمر عادي وطبيعي. ولكنه خطأ".

المؤمن: "أقر بأنني قد أكون مخطئًا بشأن وجود الله. فمن الصعب أن نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت بعض معتقداتنا صادقة".

الملحد: "ليس من الصعب معرفة ذلك. في الواقع، إن أذكى الناس في العالم ملحدون. ويمكنهم إخبارك".

المؤمن: "ماذا تقصد أن أذكى الناس في العالم ملحدون؟".

ملحد: "حسنًا، تُظهر الدراسات أن أولئك الذين لديهم معدل ذكاء أعلى هم ملحدون".

المؤمن: "قد يكون الأمر كذلك، ولكن هذا لا يعني أنك أذكى مني، أليس كذلك؟".

يجيب الملحد في نفسه بالإيجاب، ولكنه يردف قائلا: "لا أظن ذلك".

المؤمن: "أليس معدل الذكاء المرتفع مرتبطًا بالثروة؟ ألا تخفف الثروة بعض المخاوف الوجودية الداعمة للمعتقدات الدينية، على الأقل لبعض الناس؟"

الملحد: "أظن ذلك. لم أفكر في ذلك من قبل!".

المؤمن: "ربما يرجع سبب رفضك للإيمان بالله إلى أن مخاوفك الوجودية قد تلاشتِ وليس لأنك أذكى مني. بالطبع، من الطبيعي أن تؤمن على أساس تخفيف بعض الإلحاحات النفسية، ولكن هذا لا يجعل اعتقادك عقلانيًا. ومن الطبيعي أن تعتقد أنك شخص جيد حقًا، وبالتالي تخفف من مخاوفك الوجودية، ولكن هذا لا يجعل تقييمك الذاتي الأخلاقي عقلانيًا. أنا لا أقول بالطبع إنك لست شخصًا جيدًا".

الملحد: "أنا متأكد من أن عدم إيماني ليس بسبب شيء تافه للغاية. فالملحدون لا يتمتعون بمعدل ذكاء أعلى وحسب؛ ولكن لدينا أيضًا أساليب تفكير استدلالية أكثر مما لدى غيرنا. لقد اعتدنا أن نبني معتقداتنا على التقييم الدقيق للأدلة والحجج. أما المؤمنون فبالإضافة إلى أنهم يمتلكون معدل ذكاء أقل؛ فلديهم أيضًا أساليب تفكير تتسم بأنها أكثر اندفاعية وحدسية. أنا مُقيِّم للأدلة، ولهذا أعتقد أنني عقلاني وأنت لست كذلك. فما آمنتَ بالله إلا لأنك لست ذكيًا أو حساسًا للأدلة مثلنا نحن الملحدون".

المؤمن: "إذن أنت أذكى وأكثر تأملاً مني؟"

يقول الملحد في نفسه: "نعم"، ولكنه يردف: "حسنًا، أعني يتمتع الملحدون في المتوسط بمعدلات ذكاء أعلى وأساليب تفكير استدلالية أكثر. ولست متأكدًا أين نقع أنا وأنت".

المؤمن: "هل تعتقد حقًا أنني لو كنت أذكى واعتمدت على الاستدلال أكثر مما أقوم به الآن، فسأرى الأشياء بالطريقة التي ترها أنت؟"

الملحد: "نعم بالطبع. فأذكى الناس في العالم، أساتذة الجامعات والعلماء، هم الأقل تدينًا".

المؤمن: "إذن، أنت تعتقد أن الأساتذة والعلماء ملحدون لأن لديهم بعض البصيرة الخاصة وكما أنهم يهتمون خصوصًا بالحجج المؤيدة لوجود الله والمعارضة له؟".

ملحد: نعم، فأساتذة الجامعة والعلماء مدربون جيدًا على استخدام المنطق والعلم. ولذلك فهم أكثر ميلًا إلى تأسيس كل معتقداتهم على الأدلة".

المؤمن: "نعم، ولكن ألم يلاحظوا في تدريبهم هذا كل أنواع القرائن والإشارات من معلميهم التي تفيد بأن الإيمان بالله ما هو إلا كلام فارغ؟ وبما أنهم حريصون على إيجاد مكان لهم في المهنة، ألا تعتقد أن بعض معتقداتهم الدينية ستتلاشى دون أن يلاحظوا ذلك، دون أي تفكير عقلاني على الإطلاق؟ إن أساتذة الجامعة والعلماء يعتقدون أن الله غير موجود فقط لأنهم استسلموا للضغوط

الاجتماعية. فالأساتذة والعلماء هم بشر أيضًا كما تعلم، وليسوا محصنين ضد التحيزات التي تعتري الأشخاص الأقل تعليمًا. فقد يكونون أكثر ذكاءً وقد يكونون أكثر استدلالًا، ولكن سبب عدم إيمانهم هو تحيز المسايرة بوضوح وبكل بساطة".

الملحد: "حسنًا، أقر بأنه من الممكن أن يكون بعض الأساتذة والعلماء ملحدين لأنهم امتثلوا للمعايير الاجتماعية، لكن معظمهم يتفكرون بهدوء وعقلانية في الكون ويستنتجون أن الله غير موجود".

المؤمن: "تفكر هادئ وعقلاني، أليس كذلك؟ قد تكون على حق فيما يتعلق بالهادئ. ألم تظهر الدراسات علاقة بين الإلحاد والتوحد؟ أليس الأساتذة والعلماء هم الأكثر عرضة للإصابة بنوع من التوحد؟".

الملحد: "لم أسمع عن ذلك، ولكن في الكلام بعض المعقولية. فلم يكن أساتذتي دائمًا الأفضل في التعرف على الإشارات الاجتماعية والاستجابة لها".

المؤمن: "هذه علامة على مرض التوحد عالي الأداء. ويبدو أن السبب الأساسي هو نوع من القصور التعقيلي. فالأفراد الذين يعانون من التوحد لا يجيدون الحكم على أفكار الآخرين أو مشاعرهم أو رغباتهم. ولذا فهم لا يعرفون كيف يستجيبون بدرجة مناسبة. إليك وجهة نظري حول المعتقد الديني - إذا كان هناك إله شخصي يتواصل من خلال خليقته، فمن غير المرجح أن يصل إليه الشخص الذي يعاني من قصور تعقيلي. إن الأساتذة والعلماء لا يؤمنون بوجود الله لأنهم لا يستطيعون، وذلك لأنهم متوحدون".

الملحد: "ربما هذا صحيح بالنسبة إلى البعض، لكن لديهم معدلات ذكاء أعلى ومهارات تفكير أفضل".

المؤمن: "صحيح. ولكن يمكن أن يكون سبب معدل الذكاء العالي ومهارات التفكير هو مرض التوحد. فالأفراد المتوحدون لديهم معدلات ذكاء أعلى ويميلون أكثر إلى التفكير الاستدلالي. التوحد هو سبب شائع للثلاثة جميعًا: معدلات الذكاء العالية والتفكير الاستدلالي والإلحاد. أساتذة الجامعة والعلماء ليسوا ملحدين لأنهم أذكى، بل هم ملحدون لأن لديهم قصورًا إدراكيًا". أهـ

أراك قد استوعبت الآن نقطة "أنت تؤمن بهذا فقط لأنك..." لدينا ميل مؤسف لتفسير معتقدات وسلوك الآخرين وفقًا لقصور أساسي نفسي أو إدراكي. فعندما نلتقي بمن يختلفون معنا في أمور مهمة، نجد أنفسنا غالبًا نقول (أو على الأقل نفكر في أنفسنا قائلين): "إنهم مجانين!" وبالطبع، نحن لا ننسب أبدًا معتقداتنا وسلوكياتنا إلى مثل هذه العيوب - فنحن نعتبر أنفسنا نماذج للعقلانية.

اقرأ أي افتتاحية سياسية - حول الإصلاح من أجل الرخاء، على سبيل المثال، أو تغير المناخ على يد الإنسان - وانظر كم هو سهل ويسير على الكاتب أن يعتقد أن وجهة نظره تدعمها الأدلة على نحو جيد وأن أولئك الذين يختلفون معه يتجاهلون أساس الأدلة، وغير قادرين على اتباع التفكير المنطقي البسيط، إنهم أداة بيد الشركات، لا يهتمون بالفقراء، إنهم غرقون في الخداع. وبالكاد يستطيع الكاتب إخفاء ازدرائه. وإذا أمكن للكاتب أن يخفي ازدائه، فاقرأ التعليقات المجهولة أسفل الافتتاحية، التي تعج بالازدراء ,والسخرية والإهانة. التعليقات على كلا الجانبين تكشف عن مواقفنا تجاه أولئك الذين يختلفون معنا: فهم ليسوا مخطئين فحسب، بل ولا عقلانيين ولا أخلاقيين ومجانين.

ولكني، إذا كنت طبيعيًا، سأعترض أني لست مثلهم. أنا الروح الديكارتية الحرة التي تحلق على نحو محايد فوق الصراع الاجتماعي التاريخي مستنتجة النظريات من بديهات البدهيات، أنا إله ابستمولوجي. أما عن الحثالة بأسفل مني فهم مجرد مخلوقات مجسدة تخضع للشروط الاجتماعية والعواطف والقصور الإدراكيين الأرضيين.

ولكن على الرغم من ذلك فإني بكل أسف مثلهم؛ فلست ماهرًا في معرفة ما الذي يوجه معتقداتي حقًا ويحفز أفعالي. والأهم من ذلك، بل وأعمق من ذلك، أنني مثلهم في كوني لست ذلك المفكر المستقل الحر الوعي ذاتيًا العقلاني الذي أرى نفسي إياه. ربما أطلق أرسطو على البشر حيوانات عقلانية، ولكننا حيوانات أكثر من كوننا عقلانيين.

وبينما نعتقد أننا قد اكتسبنا إيماننا أو عدم إيماننا بالله من خلال وعينا الفردي وتفكيرنا العميق وإقرارنا المعتبر للأسباب الوجيهة، فلا أحد منا هو ذلك

المفكر المنعزل الرصين العقلاني الذي ندعيه لأنفسنا. ونادرًا ما نعتقد ونتصرف فقط بعد التفكير الصارم والشامل والمحايد في الأدلة المنقحة والراجحة على نحو صحيح. قد نرفض ثنائية ديكارت حول العقل والجسد، لكننا نتعامل مع أنفسنا كما لو كنا عقولًا تحلق بعيدًا بمعزل عن مؤثرات الأجساد والمجتمعات والثقافات والتاريخ الموهنة معرفيًا. ونعتبر أنفسنا حاسبات عقلانية تستنتج الحقيقة وتبدأ بأدلة لا يعتريها التحيز. يقول الإنسان: أعتقد أن أجهزتي الإدراكية أفضل من تلك الخاصة بالآخرين (على الأقل أعلى بكثير من المتوسط) وإدراكي للبيانات ذات الصلة أكثر وضوحًا. وهكذا، بناءً على عملي الجاد، فإنني في وضع فريد فيما يتعلق بالحقيقة. وإذا كنت لا تتفق معي، فلأنك لست كذلك. أنت متحيز، ومهاراتك النقدية أقل شحذًا ؛ أنت طفل ثقافتك، عرضة للانحيازات بل وربما للأوهام. أنا عقلاني أما أنت فغير عقلاني، وربما مجنون.

ما تظهره الدراسات

لقد حركنا المياه الراكدة بدرجة كبيرة. إن بعضنا (تبًا، بل جميعنا)، في بعض الأحيان وفي بعض الظروف، نكون كالدمى تحركها خيوط التحيزات والرغبات الدفينة. وتظهر لنا الدراسات بعض هذه الدوافع والتحيزات. وفيما يتعلق بالمعتقد الديني وعدم الإيمان، فنحن نتأثر، من بين أشياء أخرى كثيرة، بنظرية العقل (ToM) وجهاز كشف الفاعلين ADD وتحيزات لمسايرة والتوحد. فهل تدعم علوم العقل إذن أحكام اللاعقلانية و/ أو الجنون؟ ما الذي تظهره الدراسات حقًا؟

كل ما نعرفه من هذه الدراسات هو شيء يتعلق بالناس من حيث العموم. نحن لا نعرف أي شيء على الإطلاق بخصوص الأفراد المعينين. وبالنظر إلى ما نعرفه من حيث العموم، فإننا نعلم أنه إذا كان الفرد مصابًا بالتوحد، فمن المرجح إحصائيًا أن يكون هذا الفرد ملحدًا أو لاأدريًا أكثر من الفرد ذي النمط العصبي الطبيعي. وإذا كان الفرد ذي نمط عصبي طبيعي، فمن المرجح إحصائيًا أن يكون هذا الفرد مؤمنًا دينيًا أكثر من الفرد المصاب بالتوحد. بالإضافة إلى ذلك، نحن نعلم أيضًا أنه يُرجح إحصائيًا أن يكون الملحد أو اللاأدري مصابًا بالتوحد أكثر من

ذي النمط العصبي الطبيعي، وأنه من المرجح إحصائيًا أن يكون المؤمن ذي نمط عصبي طبيعي أكثر من المتوحد. وفيما وراء هذه العموميات، لا نعرف شيئًا على الإطلاق بخصوص الأفراد المعينين ذي نمط العصبي الطبيعي أو المصابين بالتوحد؛ ولا نعرف أي شيء على الإطلاق عن الملحد المعين أو المؤمن المعين. فلا يمكن للمرء - حتى مع التسلح بهذه المعلومات - أن تتكون لديه أي فكرة عما إذا كان ريتشارد دوكينز ذي درجة عالية في طيف التوحد أو أن الأم تيريزا ذات درجة منخفضة في طيف التوحد.

لا يمكن للإنسان أن يعرف عند التعيين ما إذا كان عدم إيمان الملحد أو اللأدري المعين ناتجًا عن قصور تعقيلي (حتى لو علمنا أنه ذو درجة عالية في طيف التوحد). وفي الواقع، لا يمكن للمرء أن يعرف مدى التأثيرات الإدراكية والثقافية على معتقد أي فرد معين. فهناك مجموعة من المصادر المحتملة لعدم الإيمان، من مشكلة الشر إلى التأثر بمعلم سيء في مدرسة يوم الأحد أو بعلاقة سيئة مع والد المرء.

يمكننا توضيح هذه النقطة بمثال متوازٍ. لنفترض أن القول بأن الرجال أفضل من النساء في الرياضيات هو أمر ثابت صحيح على نحو مثير للجدل[1]. يستند هذا الادعاء عادةً على درجات مجموعة من الاختبارات المعيارية، مثل اختبار السات SAT. ففي الآونة الأخيرة، في عام 2013، كانت درجات الذكور أعلى بمعدل 32 نقطة في جزء الرياضيات في اختبار السات SAT على الرغم من الجهود المبذولة لتقليص الفجوة. ويزداد الأمر دهشة عند النظر في اختلافات الدرجات النهائية؛ فعلى مدار العشرين عامًا الماضية ظلت نسبة الذكور إلى الإناث الذين سجلوا أعلى 5% في درجات رياضيات المرحلة الثانوية ثابتة عند اثنين إلى واحد[2]. لنفترض، مرة أخرى على نحو مثير للجدل، أن هذه الاختبارات تعكس اختلافًا بين الجنسين

(1) Gijsbert Stoet and David C. Geary, "Sex Differences in Mathematics and Reading Achievement Are Inversely Related¤ Within -and Across-Nation Assessment of 10 Years of PISA Data," PLOS One (2013).

(2) Yu Xie and Kimberlee A. Shauman, Women in Science: Career Processes and Outcomes (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003).

في القدرات المتعلقة بالرياضيات، فما الذي يظهره هذا الاختلاف حقًا؟ إنه يُظهر كيفية أداء مجموعة من الأشخاص في اختبار الإنجاز؛ لكنه لا يخبرنا شيئًا عن أي فرد معين على الإطلاق. ولا يظهر أن كل رجل هو أفضل من كل امرأة في الرياضيات. ولا يمنحني رخصةً لأن أفكر، عندما أرى امرأة، أنني أفضل منها في الرياضيات. وإذا رأيت درجة عالية مذهلة في الرياضيات، فليس لدي سبب لإسناد هذه الدرجة العالية إلى رجل (أو إسنادها إلى امرأة في حال كانت الدرجة منخفضة). إن طريقة تأدية مجموعات من الناس في اختبار ما لا تخبرني شيئًا عن أداء أي فرد معين من أفراد تلك المجموعة. وأخيرًا، نظرًا إلى أن معظم الدرجات تتداخل في الغالب، فإن الرجال والنساء، عمومًا، متساوون تقريبًا في القدرات الحسابية.

إن الحكم على أي فرد معين بناءً على هذا التعميم يتجاهل التفاصيل العارضة المكونة لكل شخص خاضع للاختبار مثل: قدراته الإدراكية الطبيعية (والإعاقات)، وتعليمه، ووضعه الاجتماعي والاقتصادي، ووضع والديه (ووضع تعليم والديه)، والتحيزات الجنسانية في الفصول الدراسية[3]، والمجهود المبذول في فصول الرياضيات، والشخصية (المزاج). إن أداء فردي في اختبار إنجاز ما يعكس مزيجًا فريدًا غير معروف من القدرة الطبيعية والثقافة والشخصية. ولسنا في وضع يسمح لنا بفرز ما إذا كانت القدرة الإدراكية وحدها لفرد معين هي التي تحدد درجة اختباره أم لا. ولسنا في وضع يسمح لنا بالاستدلال على القدرة الإدراكية الطبيعية (وحدها) من خلال درجة الاختبار.

---

(3) أظهرت بعض الدراسات أن الناس "يتخازلون" متأثرين بالصور النمطية. على سبيل المثال، إذا كانت النساء على دراية بالصورة النمطية المتعلقة بالرياضيات، فإن أداؤهن سيكون سيئًا في اختبارات الرياضيات. ومن ذلك أن أداء الذكور البيض سيكون أسوأ إذا اعتقدوا أنهم سيقارنون بالذكور الآسيويين مما لو اعتقدوا أنهم سيقارنون بالرجال البيض الآخرين. ومن هنا يمكن أن يقع الأداء في شرك الحلقة المفرغة: ضعف طفيف في مجال ما (بسبب المعاملة التفاضلية في المنزل والتي تم توريثها تاريخيًا على سبيل المثال) يمكن أن تخلق فرقًا صغيرًا ولكن ملحوظًا ينتج عنه صورة نمطية تؤدي بعد ذلك إلى الخضوع لتلك الصورة النمطية المؤكدة للاختلاف، وهكذا.

وإذا رجعنا إلى المعتقد الديني / أو عدم المعتقد الديني. فإن ما تعلمناه عن المجموعات لا يخبرنا بشيء عن الآليات النفسية التي ينطوي عليها عدم إيمان أي فرد معين. ولأننا لا نعرف شيئًا عن أسباب عدم إيمان الأفراد المعينين، فإننا لا نعرف شيئًا عن عقلانية هذا الشخص أو لاعقلانيته. وفي ظل افتقار الوصول إلى وعي أي فرد معين، يجب أن نكون متوقفين بشأن مصادر عدم إيمان الفرد، ومن ثم عقلانيته أو لاعقلانيته.

سرديات الإبطال

تذهب رواية الإبطال الإلحادية إلى أن المعتقدات الدينية غير عقلانية لكونها ناجمة عن آليات إدراكية غير موثوق بها، في حين أن الإلحاد عقلاني لأنه نتاج تفكر عقلاني في المعتقدات الصادقة. وقد قدمت العلاقة المزعومة بين الإلحاد، من ناحية، والتفكير الاستدلالي ومعدل الذكاء المرتفع، من الناحية الأخرى، دعمًا سرديًا. لقد قمنا ببيان تعقيد وفضح زيف جزء من هذه السردية: فالإلحاد مرتبط بقصور تعقيلي و(أحيانًا) يتوسط هذا القصور تعقيلي الإلحاد؛ لا أن الإلحاد (دائمًا) يأتي نتيجة التفكر العقلاني. ومن ناحية أخرى، ينتج الإيمان بالله أو يتكون من خلال ملكات إدراكية تعمل على نحو صحيح وموثوق بها، بما في ذلك على الأقل نظرية العقلToM وجهاز كشف الفاعلين ADD. وفيما يتعلق بالأسباب النفسية، يبدو الإيمان بالله متفوقًا على الإلحاد أو اللاأدرية. ولكن علينا أن نقاوم روايات الإبطال التأليهية والإلحادية.

فنحن ببساطة لا يمكننا أن نعرف العمليات الإدراكية المتورطة في أي حالة خاصة تتعلق بأي فرد معين. وحتى لو افترضنا أن أوجه قصور عقلية متسببة في بعض المعتقدات الإلحادية وأن ملكة الاعتقاد الله متسببة في بعض المعتقدات الإيمانية، فما زلنا لا نعرف ما إذا كان اعتقاد الشخص المعين قد نتج عن هذه العمليات أم لا. إذن، معرفة أن آليات إدراكية مختلفة تتسبب عمومًا في إنتاج وتشكيل المعتقد الديني وعدم الإيمان لا يخبرنا بأي شيء على الإطلاق عن معتقدات أي مؤمن أو ملحد معين.

إن الدماغ غامض واسع. وقد بدأنا بالكاد مس مشارف أعماقه. وهكذا الثقافة البشرية واسعة وغامضة، واختزال الأداء الإدراكي إلى عمليات دماغية ثابتة داخل البشر يعني إهمال ما يحدث في الخارج بين الناس. إن التأثيرات الخارجية تغير عوالمنا الداخلية. وبالتالي، من المحتمل أن يكون الاعتقاد الإيماني وعدمه نتيجة لكل من العمليات الإدراكية المعقدة والمؤثرات الثقافية معًا. أما تحديد المؤثرات الدقيقة على المعتقد الديني أو انعدام المعتقد الديني لأي فرد معين فهو، على الأقل في الوقت الحالي، أمر مستحيل.

وفيما يتعلق بعقلانية الإلحاد واللاأدرية، يقدم جيرفيه ونورينزايان وترزيسنيوسكي نصائح حكيمة، قالوا: "نؤكد أن بياناتنا لا تقترح أن عدم الإيمان ينشأ فقط بسبب القصور التعقيلي؛ فمن المحتمل أن تؤدي المسارات النفسية والاجتماعية والثقافية المتعددة إلى ظاهرة معقدة متشعبة المحددات كعدم الإيمان بالله"[4]. وهذا بالتأكيد هو الاستنتاج الذي يجب استخلاصه. هذه الديناميكيات ضرورية أيضًا لتضمينها في دراسات التوحد، لتبني حقيقة أن الأشخاص في طيف التوحد هم أيضًا أفراد.

دعونا الآن نكمل إبطال رواية الإبطال الإلحادي. باستبدل "الإيمان بالله" بـ "عدم الإيمان" و "ملكة الاعتقاد بالله" بـ "القصور التعقيلي" سنحصل على التالي: "نؤكد أن بياناتنا لا تشير إلى أن الإيمان بالله ينشأ فقط بسبب ملكة الاعتقاد بالله ؛ فمن المحتمل أن تؤدي المسارات النفسية والاجتماعية والثقافية المتعددة إلى ظاهرة معقدة ومتشعبة المحددات كالإيمان بالله ". وهذا بالتأكيد هو الاستنتاج الذي يجب استخلاصه بشأن المعتقد الديني أيضًا. فلا يمكننا الإطلاع على ما بداخل عقل الآخرين لنرى معتقداتهم أو عيوبهم العقلية. ويبدو أن التواضع، وليس الأحكام المتغطرسة بخصوص شخصية أو معتقدات الآخرين، هو واجب اليوم[5].

---

(4) Ara Norenzayan, Will M. Gervais, and Kali H. Trzesniewski, "Mentalizing Deficits Constrain Belief in a Personal God," PLOS One 7.5 (2012): e36880.

(5) ممتن لـ Ingela Visuri لتعليقاتها المفيدة على هذا الفصل.

ستكون مقاربتي من الآن فصاعدًا مختلفة تمامًا عن نهج المشككين المبطلين الذين يظنون أنهم قد سلطوا الضوء على الدوافع النفسية التي تحث على الإيمان الديني. وإذا كان للتكافؤ أن يسود، فقد يجادل المرء بأن الإلحاد يتوصل إليه، لا عن طريق التفكير الاستدلالي، ولكن من خلال عيب إدراكي أساسي شائع لدى الأفراد المصابين بالتوحد. ومثل هذه الاستدلالات البسيطة ليست مقبولة نفسيًا أو اجتماعيًا أو ابستمولوجيًا ولا هي واضحة. وبدلاً من اختزال المعتقدات الدينية لشخص آخر إلى دوافع نفسية بدائية (والتي لا يعتقد المرء أنه قد يكون عرضة لها) = سنحاول فهم المعتقدات والممارسات الدينية لشخصين مصابين بالتوحد. وسنسعى إذن إلى الفهم وليس الحكم بالعقلانية أو عدم العقلانية.

فهم التوحد

يعرّف بطل الرواية كريستوفر Christopher نفسه للقارئ في الرواية الأكثر مبيعًا: حادثة الكلب الليلية غريبة الأطوار The Curious Incident of the Dog in the Night-Time، في الفصل الافتتاحي على النحو التالي:

اسمي كريستوفر جون فرانسيس بون. أعرف كل دول العالم وعواصمها وكل عدد أولي إلى 7057.

قبل ثماني سنوات، عندما قابلت سيوبهان Siobhan لأول مرة، أرتني هذه الصورة [لوجه حزين] وعرفت أنها تعني "حزينًا"، وهو ما شعرت به عندما وجدت الكلب الميت.

ثم عرضت لي هذه الصورة [لوجه سعيد] وعرفت أنها تعني "سعيدًا"، وذلك كحالتي عندما أقرأ عن مهمات أبولو الفضائية، أو عندما لا أزال مستيقظًا في الثالثة صباحًا أو الرابعة صباحًا وأتمكن من المشي صعودًا ونزولاً في الشارع والتظاهر بأنني الشخص الوحيد في العالم كله.

ثم رسمت بعض الصور الأخرى... ولكنني لم أستطع أن أقول ما تعنيه هذه الصور.

طلبت من سيوبهان أن ترسم الكثير من هذه الوجوه ثم كتابة ما تعنيه بأسفل منها. احتفظت بقطعة الورق في جيبي وكنت أخرجها عندما يعوزني فهم ما يقوله أحدهم. ولكن كان من الصعب جدًا تحديد أي من الوجوه المرسومة يشبه إلى حد كبير الوجه الذي كانوا يصنعونه لأن وجوه الناس تتحرك بسرعة كبيرة.

وعندما أخبرت سيوبهان أنني أفعل هذا، أخرجت قلم رصاص وقطعة أخرى من الورق وقالت إنه ربما جعل الناس يشعرون هكذا [وجه متموج الفم] ثم ضحكت. لذا مزقت قطعة الورق الأصلية ورميتها بعيدًا. واعتذرت سيوبهان. والآن إذا كنت لا أعرف ما يقوله أحدهم، أسألهم عن مقصدهم أو أذهب بعيدًا[6].

لقد ظل كريستوفر طوال الرواية غير قادر على الحكم على ما يفكر فيه أو يشعر به شخص آخر بناءً على نبرة الصوت (السخرية، على سبيل المثال) أو تعبيرات الوجه. وتشير المهارات الاستدلالية والرياضية الرائعة لكريستوفر إلى جانب الصعوبات التي يواجهها في استيعاب أفكار ومشاعر الشخصيات الأخرى إلى أنه يعاني من نوع من التوحد (وهو ما لم يتم ذكره صراحةً في الرواية). يواجه كريستوفر تحديًا اجتماعيًا مع كونه موهوبًا في الرياضيات في نفس الوقت.

وغالبًا ما يركز تشخيص التوحد على الصعوبات في فهم التواصل الاجتماعي والتواصل اللا لفظي (مثل لغة الجسد وتعبيرات الوجه) والصعوبات في فهم الغموض اللغوي (مثل الاستعارات أو التنغيم)[7]. وغالبًا ما يستخدم مصطلح "عمى

---

(6) Mark Haddon, The Curious Incident of the Dog in the Night-Time (New York: Doubleday, 2003), 2-3.

(7) الرابطة الأمريكية للطب النفسي، الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية، النسخة الخامسة. (أرلينغتون: الجمعية الأمريكية للطب النفسي، 2013)، يشار إليها باسم DSM 5.

- تمت صياغة طيف التوحد قبل ذلك كأربعة تشخيصات منفصلة في DSM IV: اضطراب التوحد، اضطراب أسبرجر (غالبًا ما يشار إليه باسم متلازمة أسبرجر، أو AS)، اضطراب تفكك الطفولة، واضطراب النمو واسع الانتشار غير المحدد. تم استبدال ذلك باضطراب طيف التوحد (ASD)، وهو مصطلح شامل يفترض أن يشمل جميع التشخيصات السابقة، من الأعراض الخفيفة إلى الشديدة. ثم أخذت تسمية التوحد "اضطرابًا" على أنه عمل ازدرائي، خاصة داخل مجتمع المتوحدين، وقد استبدل المصطلح في كثير من الأحيان بحالة طيف

العقل mindblindness" وهو المصطلح الذي وضعه سيمون بارون كوهين Simon Baron-Cohen (1995) لوصف عدم القدرة على "قراءة أفكار" ما يعتقده الآخرون أو يشعرون به أو يرغبون فيه[8]. وعلى العكس من ذلك، فإن الأشخاص ذوي النمط العصبي الطبيعي هم قراء ذهنيون بالسليقة (ينسبون المعتقدات والمشاعر والرغبات إلى الفاعلين البشريين بنجاح إلى حد ما).

والتوحد، كما قد يتخيل الواحد منا، ذو درجات. ومن الاختبارات التي تحدد درجة الإنسان على طيف التوحد هو اختبار "قراءة العقل من خلال العين reading the mind in the eyes " وهو مشابه "للاختبار" الذي أجرته سيوبهان لكريستوفر. يقيم هذا الاختبار البسيط مدى قدرة المرء على "قراءة" مشاعر شخص آخر قراءة جيدة بمجرد النظر إلى صور أعينهم. ستفهم الاختبار فهمًا أفضل إذا توقفت عن القراءة وقمت مسرعًا لأخذ الاختبار[9]. ولكل مجموعة من العيون، يُطلب من المرء أن يختار، من بين أربعة خيارات، المشاعر التي يتم التعبير عنها: الرغبة، أو الغضب، أو المفاجأة، أو الإحراج.

التوحد (ASC)، وذلك أيضًا في هذا النص. يوجد أيضًا اتجاه نحو الحديث عن التوحد بصيغة الجمع، اعترافًا بحقيقة أن الأفراد يتطورون على نحو مختلف تمامًا.

(8) حتى لا يفهم خطأ أن الأفراد المصابين بطيف التوحد يفتقرون إلى التعاطف مع الغير، من المهم أن نلاحظ أن التعاطف يبدو سليمًا، أو ربما يزداد، في بعض الأفراد المصابين بالتوحد. انظر:
Adam Smith, "The Empathy Imbalance Hypothesis of Autism: A Theoretical Approach to Cognitive and Emotional Empathy in Autistic Development," Psychological Record 59.3 (2009): 489-510.
اقترح جيف بيرد Geoff Bird وريتشارد كوك Richard Cook في مقالهم "العواطف المختلطة: مساهمة ألكسيثيميا (نقص الانسجام النفسي Alexithymia) في الأعراض العاطفية للتوحد"
"Mixed Emotions: The Contribution of Alexithymia to Emotional Symptoms of Autism," Translational Psychiatry 3 (2013): 1-8
أن "العمى" العاطفي لدى بعض الأفراد قد يكون في الواقع بسبب ألكسيثيميا، بدلاً من أن يكون سمة أساسية من سمات التوحّد. وألكسيثيميا هي سمة شخصية لا يستطيع فيها الفرد تحديد ووصف المشاعر ذاته. الملامح الرئيسية للكسيثيميا هي اختلال وظيفي في الوعي العاطفي، والتعلق الاجتماعي، والعلاقة الشخصية.

(9) http://socialintelligence.labinthewild.org/mite/.

توجد بعض تعبيرات الوجه النموذجية والعالمية، ويجيد البشر، كمجموع، "قراءة" المشاعر أو الأفكار الكامنة وراء تلك التعبيرات. إن عملية قراءات العقل عملية غير استدلالية؛ فأنت فقط تنظر لترى، إذا جاز التعبير، الفكر أو المشاعر في تعبيرات الوجه. ومع ذلك، يواجه الأفراد المصابون بالتوحد صعوبة في تقييم أفكار الآخرين ومشاعرهم بدقة. ومن المحتمل جدًا أن تكون مثل هذه الصعوبات العقلية مرتبطة بأوجه القصور في القدرات المتعلقة بنظرية العقل (ToM)[10].

يأتي التوحد بنطاق من الأعراض،ف من عدم القدرة الكاملة على التواصل مع الآخرين إلى صعوبة متوسطة في الحكم على مشاعر الآخرين. وقد يكون الشخص المصاب بالتوحد الخفيف ناجحًا نسبيًا في اختبار "قراءة العقل من خلال العين"، في حين أن الشخص المصاب بالتوحد الشديد قد يخفق تمامًا في هذا الاختبار. ولذا فإن التوحد هو طيف، من معتدل إلى شديد، يكون فيه بعض الأفراد المتوحدين قادرين على العمل على نحو جيد للغاية في المجتمع والبعض الآخر ليسوا كذلك.

وأيضًا فإن لدى الأفراد المصابين بالتوحد عالي الأداء رغبة في التنظيم عادة؛ حيث يكون "التنظيم هو الدافع لتحليل واستكشاف النظام لاستخراج القواعد الأساسية التي تحكم سلوك النظام والدافع لبناء الأنظمة". ويدعم الاهتمام المفرط بالتفاصيل وتضييق مساحة تركيز الاهتمام التنظيم من الناحية الإدراكية. يقترح نيك دوبين Nick Dubin وجانيت جريتز Janet Graetz أن الأفراد المصابين بطيف التوحد قد يكون لديهم القدرة على الإبداع المنطقي، أو تكوين رؤية مجسمة عن العالم[11]، وأحيانًا بطرق تدمج التفكير العلمي والديني. ولقد عُثِر على قدرات تنظيمية غير اعتيادية بين أولئك الذين لديهم مواهب فريدة في تطوير أنظمة مجردة

---

(10) Simon Baron-Cohen, Alan M. Leslie, and Uta Frith, "Does the Autistic Child Have a 'Theory of Mind'?," Cognition 21 (1985): 37-46.

(11) Nick Dubin and Janet E. Graetz, "Through a Different Lens: Spirituality in the Lives of Individuals with Asperger's Syndrome," Journal of Religion, Disability and Health 13.1 (2009): 29-39. See also Ingela Visuri, "Could Everyone Talk to God? A Case Study on Asperger's Syndrome, Religion and Spirituality," Journal of Religion, Health and Disability 16.4 (2012): 352-78.

للغاية مثل الفيزياء والرياضيات. وقد يظهر التنظيم أيضًا، على سبيل المثال، في علم التصنيفات الحيوي والجغرافيا وعلم الفلك، والتي يمكن أن تجعل الفهم والترتيب يتحول إلى هوس بالسحالي والجبال والكواكب. وبعض الأطفال المصابين بالتوحد مهووسون بالآلات وبكيفية عملها الداخلي، من أجهزة الإنذار ضد السرقة إلى المكانس الكهربائية. ولا عجب أن يذهبوا إلى الهندسة[12].

وفي حين أن التنظيم هو أداة إدراكية رائعة لفهم الأنظمة المادية، فهو بالتأكيد أداة غير فعالة لفهم والتفاوض بشأن السلوك غير المتوقع للأفراد. ولذلك يحتاج المرء إلى نظرية في العقل تعمل بكامل طاقتها.

وأخيرًا، يرتبط الأفراد ذوو الأداء العالي في طيف التوحد بذكاء متوسط أو أعلى من المتوسط؛ حيث يحصل هؤلاء الأطفال، على سبيل المثال، على درجات أعلى في اختبارات الرياضيات والفيزياء[13].

إن القدرة على التعقيل (التفكير في عقول الآخرين)[14] تسهل فهم معتقدات ورغبات الشخص الآخر (وبالتالي تسهل الاستجابة للأشخاص الآخرين عاطفيًا وبدرجة ملائمة). وتعرف هذه القدرة في علم الدين الإدراكي، كما أشرنا، على أنها الأداة الأساسية لإسناد الفاعلية والقصد لا إلى البشر وحسب ولكن أيضًا إلى الآلهة والأرواح والكيانات غير المرئية الأخرى[15].

---

(12) Simon Baron-Cohen and Sally Wheelwright, "Obsessions in Children with Autism or Asperger Syndrome: A Content Analysis in Terms of Core Domains of Cognition," British Journal of Psychiatry 175 (1999): 484-90.

(13) إن انتشار القدرات العلمية بين الأفراد المصابين بالتوحد، تلك الشبيهة بما جاء في فيلم Rain Man، حوالي 10%، وهي نسبة أعلى بكثير من 1% من إجمالي السكان.

(14) سأستخدم "التعقل mentalizing" بدلاً من "نظرية العقل ToM" خلال هذا الفصل. يرفض بعض باحثي التوحد نظرية العقل لأنهم يعتقدون أنها تفترض فرضية الخلايا العصبية المرآتية (على الرغم من أنني لا أفترض مثل هذا الافتراض في فهمي لنظرية العقل). يوجد أيضًا اتجاه نحو القول إن المصابين بالتوحد لا يمكنهم التعقل (التفكر في عقول الآخرين) بسبب الحمل الزائد الحسي. إن "التعقل" هو المصطلح الأوسع لقدرة يومية، بينما نظرية العقل "ToM" ترتبط بقدرات إدراكية محددة.

(15) Justin Barrett, Why Would Anyone Believe in God? (Lanham: AltaMira, 2004).

وإذا كان التعقيل الفعّال ضروريًا للاعتقاد التأليهي، فإن الخلل فيه قد يمنع الاعتقاد بإله شخصي. فهل يمكن أن يكون الله، المتصور كشخص، غير قابل للتصور لفرد مصاب بالتوحد؟ وما هو التأثير الذي قد يحدثه الدافع للتنظيم على معتقدات المرء وممارساته الدينية؟ دعونا نشرع في الإجابة على ذلك في القسمين التاليين عن طريق الأمثلة.

التوحد والمعتقدات الدينية: تمبل جراندين Temple Grandin

تمبل جراندين، وهي موضوع فيلم حائز على جائزة[16]، مصابة بالتوحد ومدافعة عن التوحد أيضًا. شخصت جراندين في سن الثانية بالتوحد، ويعتقد أنه جاء نتيجة تلف في الدماغ. وقد تغلبت على الصعاب الهائلة والوصمة الاجتماعية لتصبح أستاذة في علوم الحيوان في جامعة ولاية كولورادو، وناشطة في مجال حقوق الحيوان، وأحد مؤلفي أكثر الكتب مبيعًا. ودفعها عدم ارتياحها الاجتماعي إلى إيجاد العزاء بين الحيوانات، وقد كرست حياتها لاكتشاف طرق غير مؤلمة لقتل حيوانات المزارع.

وقد كتبت عن معتقداتها الدينية في سيرتها الذاتية: التفكير بالصور (سبب اختيارها لهذا العنوان هو أنها تفكر في شكل صور كاملة الألوان، تقول: "عندما يتحدث أحدهم إلي، تترجم كلماته على الفور إلى صور"). تكمن رحلتها الروحية بين وصفها الذاتي الافتتاحي، "كشخص منطقي وعلمي تمامًا..."، ورجاءها الختامي في "لحظة صمت نقية". بين نزوعها إلى التنظيم وحساسيتها المفرطة للضوضاء، نجد وصفًا ذاتيًا عميقًا لروحانية توحدية[17].

ترى أي نوع من الروحانية قد يجدها المرء في شخص "يحكم تفكيره المنطق بدلاً منَ العاطفة"؟ قد نسأل بتحديد أكثر: أي نوع الروحانية يمكن أن يجدها المرء

---

(16) http://www.hbo.com/movies/temple-grandin.

(17) تدين جراندين ليس ممثلًا أو نموذجًا أصليًا لروحانية الفرد التوحدي. كما أنها ليست غير نمطية.

في شخص مصاب بالتوحد عالي الأداء، ولديه معدل ذكاء مرتفع، وخلل في نظرية العقل، ونزوع للتنظيم، وحساسية للضوضاء؟

لقد نشأت جراندين في منزل مسيحي حيث الصلوات اليومية والكنيسة الأسبوعية ومدرسة الأحد. وقد بدا لها في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أنه من غير المنطقي أن يكون دين معين أفضل من أي دين آخر فيما يتعلق بالتواصل مع الله وغرس القيم الأخلاقية وتحفيزها. وبينما يعتبر الدين بالنسبة إلى جراندين "نشاطًا فكريًا أكثر منه عاطفيًا"، إلا أنها تشعر بأكبر قدر من التدين، بل بإحساس الرهبة، أثناء الخدمات الكنسية مع موسيقى الأورجن الجميلة والترانيم المتناسقة. والموسيقى بدورها تربطها عاطفياً بذكريات الطفولة. وفي ذلك تقول جراندين:

قد تساعد الموسيقى والإيقاع على فتح بعض الأبواب للعاطفة. لقد قمت مؤخرًا بتشغيل شريط من الترانيم الجريجورية، وكان الجمع بين الإيقاع والنغمة المرتفعة والمنخفضة مهدئًا ومنومًا. ويمكنني أن أنسى نفسي فيه. لم تكن توجد دراسات رسمية حول تأثير الموسيقى، لكن المعالجين يعرفون منذ سنوات أن بعض الأطفال المصابين بالتوحد يمكنهم تعلم الغناء قبل أن يتمكنوا من الكلام. ولاحظ رالف ماور، من جامعة فلوريدا، أن بعض العلماء[18] المصابين بالتوحد يتحدثون بإيقاع الشعر المرسل. لدي روابط موسيقية قوية، والأغاني القديمة تثير ذكريات خاصة بالمكان[19].

بدأت جراندين في تصور الله في المدرسة الثانوية، دون أن يقل إحساسها بالرهبة، كقوة تنظيمية مطلقة تهدف إلى الخير وتواجه القوى المدمرة للقانون الثاني للديناميكا الحرارية، وذلك بدلاً من كونه شخصًا متصورًا على نحو مشابه للبشر. ومثل بطلها أينشتاين، لا تؤمن جراندين بإله شخصي، ولكنها تعتبر نفسها مع ذلك

(18) الكلمة المستخدمة هنا هي savant وهي كلمة تطلق كوصف لبعض حالات القصور العقلي حيث يكون لدى المتوحد قدرة أو قدرات متفوق فيها تفوقًا استثنائيًا في مقابل انخفاض ملحوظ في القدرات الأخرى. (المترجم)

(19) Temple Grandin, Thinking in Pictures: My Life with Autism, expanded ed. (New York: Vintage Books, 2006), 224.

متدينة وتعتبر الدين جزءًا مهمًا جدًا من الحياة. وتتميز نظرتها الدينية بإحساس عميق بالثقة والأمل والامتنان. وهي تعتقد أن العلم لا يقدم ولا يمكنه تقديم جميع الإجابات على أسئلة الحياة، بما في ذلك المعنى والأخلاق والفناء. ومن ناحية أخرى، يمكن للدين ويجب عليه أن يحفزنا لاستخراج الخير البشري الأعلى. وحتى عام 1978، كان لديها أيضًا إيمان راسخ بالآخرة.

وفي العام 1978، سبحت جراندين في وعاء ضار للمواد الكيميائية (الفوسفات العضوي) كحيلة دعائية. لقد كانت التأثيرات السامة للمواد الكيميائية على دماغها مذهلة. تقول جراندين:

لقد اختفى شعور الرهبة الذي كنت أشعر به عندما أفكر في معتقداتي. من المعروف أن الفوسفات العضوي يغير مستويات الناقل العصبي أستيل كولين في الدماغ، كما تسببت المواد الكيميائية في أن أحلم بأحلام حية وجامحة. ولكن سبب تأثيرها على شعوري بالرهبة الدينية لا يزال لغزًا بالنسبة إليّ. كان الأمر أشبه بأخذ كل السحر بعيدًا واكتشاف أن ساحر أوز الحقيقي ما هو إلا رجل عجوز صغير يضغط على الأزرار خلف ستارة[20].

لقد غسلت المواد الكيميائية بداية كل المشاعر الدينية. ثم في وقت لاحق، عاد إليها إحساسها بالرهبة ومشاعر القرب من الله التي تأتي من حين لآخر، أما إيمانها بالآخرة فلم يعد.

لقد قادها العقل / العلم، بعد حمامها الكيميائي، إلى معتقداتها الدينية. بحسب فيزياء الكم، فإن أعدادًا هائلة من الجزيئات دون الذرية، المتشابكة والمهتزة والمؤثرة على جسيمات أخرى قريبة وبعيدة = ترتبط وتتشابك باستمرار مولِدةً أشكالًا جديدة وأعلى من الواقع. تكتب جراندين قائلة: "يمكن للمرء أن يتكهن بأن تشابك هذه الجسيمات يمكن أن يسبب نوعًا من الوعي للكون. هذا هو تصوري الحالي عن الله". إن الإله الأكثر "علميًا" والأقل شخصنةً ليس نادرًا بين الأفراد المصابين بالتوحد. وفي ذلك يقول جيسي بيرنج: "يُقدِّم الله، وهو حجر

(20) Grandin, Thinking in Pictures, 231.

الزاوية في التجربة الدينية لمعظم الناس، في السير الذاتية للأفراد المصابين بالتوحد كنوع من المبادئ أكثر من كونه كيانًا نفسيًا. يبدو الله بالنسبة إلى المتوحدين كقوة في الكون، لا شخصية، مسؤولة مسؤولية مباشرة عن تنظيم البنية الكونية - ترتيب المادة بطريقة منظمة، أو "معالجة" الإنتروبيا - أو يُختزل إلى منطق علمي بارد وعقلاني بالكلية". ومن المرجح أن يرفض المؤمنون بالتوحد كلاً من الدين المنظم والصيغ اللاهوتية التقليدية لصالح نظام معتقداتهم العقلاني.

تتحد قناعات جراندين الأخلاقية العميقة فيما يتعلق بمعاناة الحيوانات مع إيمانها بقوة منبثقة ومتشابكة كميًا وذات ترتيب أخلاقي (الله) ليؤسس فيها إحساسًا بالوعي الكوني: "فعل شيء سيء، مثل إساءة معاملة حيوان، يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة؛ من الممكن لجسيم دون ذري متشابك أن ينال مني. لن أعرف ذلك أبدًا، لكن رباط التوجيه في سيارتي يمكن أن ينكسر إذا كان يتضمن رفيق الجسيم الذي أزعجته بفعل شيء سيء. قد يكون هذا الاعتقاد غير عقلاني لكثير من الناس، ولكنه يوفر لعقلي المنطقي فكرة النظام والعدالة للعالم". إن قوة التنظيم الأخلاقي المنبثقة تمارس نوعًا من العناية الإلهية الكونية، تكافئ الصالح وتعاقب السيئ.

يجد المرء في السيرة الذاتية الروحية لجراندين طريقة واحدة فقط من الطرق التي يجد من خلالها الأسلوب الإدراكي للتوحد تعبيرًا دينيًا. تُعلم القيود التعقيلية إلهًا غير شخصي، ويفضل التنظيم أن يكونِ الإله كقوة مرتبة تقصد الخير، وبالنظر إلى نفور جراندين من الضوضاء الصاخبة، فإنها تنشد السلوى في الصمت.

وأخيرًا، وعلى الرغم من التلميح هنا، فإن النقص في نظرية العقل ToM لدى جراندين يجعل من الصعب عليها تحمل التواصل البشري والمشتتات التي قد يجدها المرء في طقوس العبادة. تجد جراندين، وتلك من المفارقات، حرمها المقدس بين الحيوانات التي تُدفع إلى حتفها، تلك الحيوانات التي تشعر أن الله يدعوها لمحبتها في لحظاتها الأخيرة. تشتهر جراندين بتصميم طرق أكثر إنسانية لذبح الماشية - بصراحة ودون تخفيف حدة اللفظ. إن التفكير من خلال الصور يسمح لجراندين برؤية هذه العملية كما يراها الحيوان، وتسمح لها فرط حساسية التحفيز بتجربة المشاهد والأصوات كما قد يمر بها الحيوان (الماشية، على سبيل

المثال، حساسة لتغيير الضوء). إن اتخاذ "وجهة نظر البقرة" ثم التخفيف من معاناتهم يدفعه ما تتمتع به من روابط التعاطف مع الحيوانات، تلك الروابط التي تفتقر إليها مع البشر[21]. لقد صممت ابتكاراتها التكنولوجية لكي تموت الحيوانات بهدوء وسلام.

إنه في تلك اللحظة المميتة تشعر بأنها أكثر وعيًا بالله. تقول: "عندما ظل الحيوان هادئًا تمامًا، شعرت بإحساس غامر بالسكينة، كما لو أن الله قد لمسني. ولم أشعر بالسوء حيال ما كنت أفعله". عند هذا التقاطع بين الحياة والموت، تشعر جراندين تجاه الحيوانات بما لا تستطيع أن تشعر به تجاه البشر: تعاطف عميق وقوي يدفعها إلى اللطف والرحمة. وتشعر بما يعتريهم من سلام كما لو أنها هي التي تتعرض لهذا السلام. لقد عادت مشاعرها الدينية من خلال سوق الحيوانات إلى الموت السلمي. "لأول مرة في حياتي، غمرت المشاعر المنطق تمامًا وما كنت أعلم أنني أملك هذه المشاعر".

قد نفهم جراندين بدرجة أفضل إذا وضعنا إحساسها بالقداسة ضمن إطار توحدي أوسع. فنحن نعلم أنها تحب الحيوانات وأنها، مثل الأبقار، شديدة الحساسية للضوء والصوت. ونعلم أنها تركز تركيزًا مفرطًا على تفاصيل معينة بينما تتجاهل البقية. ونعلم أنها، بصفتها تواقة للتنظيم، تحتاج غالبًا إلى ترتيب تلك التفاصيل شديدة الفوضى ترتيبًا ذي مغزى. فهي إذن تخلق فضاءًا مقدسًا، من بين كل الأماكن، في المسلخ. وفي كل مستوى من مستويات التخطيط، تسترشد بقدرتها الرائعة على الرؤية كما ترى البقرة. ومن خلال التخلص من أقصى درجات الظلام والنور، فإنها تهدئ الحيوانات وتهدئ نفسها. ويمكن للماشية في المزالق الانضغاطية التي أعادت جراندين تصميمها أن تتنفس طبيعيًا دون أن تتعرض للكدمات أو تؤذي نفسها. وتمنع سلالمها المتعرجة الماشية من الفزع من قبل

---

(21) هذا يتطلب بعض القدرة على التعقيل. ربما لأن الإشارات الاجتماعية من الحيوانات أقل تناقضًا، وأقل "جلبة" من تلك الواردة من البشر، فهي قادرة على ممارسة التعقل معهم بنجاح. راجع: Smith, “The Empathy Imbalance Hypothesis of Autism”، للحصول على مناقشة شيقة حول التعاطف الإدراكي والعاطفي لدى الأفراد المصابين بالتوحد.

العمال أو المسلخ الذي أمامها. لقد خلقت جراندين من فوضى حظائر التسمين والمجازر والموت نظامًا خاليًا من التوتر وهادئًا بل وسلميًا. لقد أصبحت الجسيمات الكمومية التي تشكل جراندين متشابكة مع الجزيئات الكمومية التي تشكل أبقارها. ومن هذه الفوضى ينبثق الخير والسلام. هنالك، في تلك اللحظة الصافية من الصمت الذهني المنظم، يقبع مكانها المقدس.

التوحد والمعتقدات الدينية: دانيال تامت Daniel Tammet

في يوم العدد باي Pi (14 مارس) 2004، سرد دانيال تامت، وهو موهوب[22] مصاب بالتوحد عالي الأداء، العدد pi إلى الموضع العشري رقم 22514[23]. يزعم تامت، "الرجل الدماغ"، ويطلق عليه "الرجل الدماغ"، أنه قرأ كل هذه الأرقام مرة واحدة فقط ثم تلاها من الذاكرة. أما أنت، من ناحية أخرى، فقد تبذل قصارى جهدك لتتذكر من أيام مدرستك أن pi تساوي 3,1415 ثم تتوقف عند ذلك الحد، لقد استنفدت الذاكرة. كيف استطاع تاميت حفظ باي لأكثر من 22000 منزلة عشرية بنظرة واحدة؟ يرى تاميت الأرقام على أنها ألوان وأشكال[24]. يقول: "الرقم 1، على سبيل المثال، أبيض لامع ومشرق، مثل شخص يضيء مصباح يدوي في عيني. والرقم خمسة هو صوت رعد أو صوت أمواج تصطدم بالصخور. والرقم 37 متكتلة مثل العصيدة، بينما يذكرني الرقم 89 بتساقط الثلوج"[25]. وعندما طُلب منه إجراء عملية حسابية كبيرة، تمكن تامت من التغلب على الآلة

(22) الكلمة المستخدمة هنا هي savant وهي كلمة تطلق كوصف لبعض حالات التوحد التي يكون فيها للمتوحد قدرة أو قدرات يتفوق فيها تفوقًا استثنائيًا في مقابل انخفاض ملحوظ في القدرات الأخرى. (المترجم)

(23) وقد استغرق سرده للعدد من ذاكرته خمس ساعات وتسع دقائق متواصلة (المترجم).

(24) هذا هو شكل من أشكال ظاهرة الحس المتزامن synesthesia، وهو خليط من الحواس، حيث تُصور الأشياء مثل الحروف أو الأشكال أو الأرقام على أنها إدراك حسي مثل الرائحة أو اللون أو النكهة.

(25) Daniel Tammet, Born on a Blue Day: Inside the Extraordinary Mind of an Autistic Savant (New York: Free Press, 2007), 2.

الحاسبة الإلكترونية. كيف يفعل ذلك؟ "عند عملية الضرب، أرى العددين كأشكال مميزة. وتتغير الصورة ويظهر شكل ثالث - الإجابة الصحيحة. تستغرق العملية ثوانٍ وتحدث على نحو عفوي"[26]. وعندما كان يتعلم العدد باي، قام بتحويل تلك المجموعة الهائلة من الأرقام إلى منظر طبيعي جميل لا يُنسى (من المفترض أنه منظر ذو مساحة هائلة)، ثم أعاد إنتاج نسيجه الرقمي الجميل عندما أراد.

دانيال أيضًا قادر بدرجة مذهلة على تعلم اللغات. فقد تعلم التحدث باللغة الأيسلندية، إحدى أصعب لغات العالم، في أسبوع واحد فقط، وبلغ ذروته في عرض رائع لطلاقته على التلفزيون الوطني. وخلال أسبوع دراسته، بدا أن عقله يمتص الكلمات، ويمتص معها القواعد والنحو.

دانيال هو أيضًا مسيحي لديه معتقدات وممارسات دينية تعكس مرض التوحد عالي الأداء. ففي حين أنه يعترف بصعوبات في التفكير التعاطفي، ذلك النوع من التفكير المرتبط بالإيمان بإله شخصي، إلا أن هذا لم يمنعه من الاستكشاف الفكري لأسئلة الحياة المطلقة. يقر تامت، كما هو الحال مع العديد من المصابين بالتوحد، بأن "نشاطه الديني فكري في المقام الأول وليس نشاطًا اجتماعيًا أو عاطفيًا"[27]. وبينما نشأ نشأة لا تكترث كثيرًا بالدين، اقتنع تامت بصدق المسيحية من خلال كتابات جي كي تشيسترتونG. K. Chesterton، وهو عالم إنجليزي متعدد اللغات ومدافع عن المسيحية عاش في أوائل القرن العشرين. ومن الصعب أن تقول بالضبط ما الذي حرك تامت مما قاله تشيسترتون، لكن تشيسترتون قد فسر الثالوث بطريقة ما - أن الله علاقة محبة وحياة عميقة (الآب، والابن، والروح القدس) - على نحو جعل الواقع منطقيًا بالنسبة إلى تامت. ومثل العدد pi إلى المنزلة العشرية رقم 22000، تمكن تامت من تصوير الثالوث في رأسه، وكان كل ذلك معقولًا له.

ما جعلني استحضر تامت للمناقشة هو رؤيته حول كيفية إمكان تأقلم الأفراد المصابين بالتوحد مع الدين. كما قد يتوقع الواحد منا في أصحاب القيود التعقيلية،

---

(26) Tammet, Born on a Blue Day, 4-5.

(27) Tammet, Born on a Blue Day, 223.

يجد الأفراد المصابون بالتوحد غالبًا الخدمات الدينية المجتمعية صعبة التفاوض أو حتى التسامح معها. ونظرًا للصعوبات الاجتماعية والمشاكل اللغوية التي يواجهونها، يجد الأفراد المصابون بالتوحد صعوبة في المعاملة التبادلية الاجتماعية (على سبيل المثال: تقدير وقت الدخول في محادثة أو إنهائها) ويجدون في التقاء العيون أمرًا مزعجًا، ويواجه الكثيرون منهم صعوبات في قراءة واستخدام تعبيرات الوجه. ولأن كل هذه السمات تعقِّد المواقف الاجتماعية، فإن الانخراط في التفاعل الاجتماعي يتطلب جهدًا عقليًا لا ينقطع. إن الأبعاد الاجتماعية للدين التي قد تروق للأشخاص غير المصابين بالتوحد يمكن أن تكون مرهقة بل ومهينة لبعض الأفراد المصابين بالتوحد. ولذا فإن تامت ليس من رواد الكنيسة، يقول: "لا أحضر كثيرًا إلى الكنيسة، لأنني قد أشعر بعدم الارتياح لوجود الكثير من الناس الذين يجلسون ويقفون من حولي".[28]

ومثل جراندين، يجد تامت أيضًا الموسيقى مهدئة ومثيرة للذكريات الدينية، يقول: "على قلة المناسبات التي كنت فيها داخل الكنيسة، وجدت التجربة ممتعة للغاية ومؤثرة. وغالبًا ما يكون الطراز المعماري معقد وجميل، وكم أحب وجود مساحة كبيرة فوق رأسي وأنا أنظر إلى السقوف العالية. أستمتع، كما في طفولتي، بالاستماع إلى الترانيم تُغنى. وتساعدني الموسيقى بالتأكيد على تجربة المشاعر التي يمكن وصفها بأنها دينية، مثل الاتحاد والتجاوز. وأغنيتي المفضلة هي "Ave Maria". عندما أسمعها، أشعر بأنني منغمس تمامًا في تدفق الموسيقى"[29].

من المهم أن نؤكد مع ذلك على أن الصعوبات الاجتماعية لا تعني بالضرورة رغبة المصابين بالتوحد في أن يكونوا بمفردهم؛ حيث يعبر العديد من هؤلاء الأفراد عن رغبتهم في الصداقة والاندماج[30]، ولكن يتسبب الارتباك الناتج عن

---

(28) Tammet, Born on a Blue Day, 225.

(29) Tammet, Born on a Blue Day, 225.

(30) Tony Attwood, The Complete Guide to Asperger's Syndrome (London: Jessica Kingsley, 2007).

التفاعل الاجتماعي في تراجعهم[31]. إن الحاجة المستمرة لمعالجة الإشارات الاجتماعية غير المتوقعة والواسعة النطاق دون وجود فعّال لنظرية العقل يمكن أن تكون أمرًا محيرًا ومرهقًا ومجهدًا. وكما يقول تامت: "كانت القدرة على التنبؤ مهمة بالنسبة إلي، فهي طريقة للشعور بالسيطرة في موقف معين، وطريقة لإبقاء مشاعر القلق بعيدًا، على الأقل مؤقتًا"[32].

ولأن القدرة على التنبؤ توفر إحساسًا بالأمان والسيطرة، فإن بعض الأفراد المصابين بالتوحد يقدرون قيمة ثبات الصلوات والطقوس المنظمة تقديرًا كبيرًا. يقول تامت: "في الواقع، يجد الكثيرون من المصابين بالتوحد فوائد في المعتقد الديني أو الروحانية. فتركيز الدين على الطقوس، على سبيل المثال، مفيد للأفراد الذين يعانون من اضطرابات طيف التوحد، حيث يستفيدون استفادةً كبيرةً من الثبات والاتساق". وتتطلب مثل هذه الخدمات المكتوبة مسبقًا والمتكررة بانتظام حدًا أدنى من التفاعلات التلقائية التي تنطوي على قدرات تعقيلية. ويجد البعض أن روتين الطقوس الدينية وبنيتها مثبتة ومقوية من الناحية الإجتماعية. وحيث إن الأفراد المصابين بطيف التوحد يقدرون قيمة التماثل والتكرار بسبب الحمل الحسي الزائد، فقد زُعِم أن الطقوس الدينية يمكن أن تكون مهدئة ومريحة[33]. ويضاف إلى ذلك، أن التواصل الاجتماعي مع الأشخاص الذين يتشاركون الاهتمامات يقلل من القلق والشعور بعدم الكفاءة[34].

ينظر بعض الأفراد المصابين بالتوحد إلى التفاعلات الاجتماعية على أنها مجرد تبادل للمعلومات (دون تدخل من تعبيرات الوجه أو التنغيم الصوتي). قد

---

(31) Smith, "The Empathy Imbalance Hypothesis of Autism."

(32) Tammet, Born on a Blue Day, 67.

(33) Dubin and Graetz, "Through a Different Lens"; Robert N. McCauley, Why Religion Is Natural and Science Is Not (Oxford: Oxford University Press, 2011).

(34) Scott Bellini, "Social Skill Deficits and Anxiety in High-Functioning Adolescents with Autism Spectrum Disorders," Focus on Autism and Other Developmental Disabilities 19 (2004): 78-86; and Scott Bellini, "The Development of Social Anxiety in Adolescents with Autism Spectrum Disorders," Focus on Autism and Other Developmental Disabilities 21 (2006): 138-45.

ينظرون إلى جهة المتحدث، ويتجنبون الاتصال بالعين بأي ثمن. وهم مع ذلك ا
يتجاهلون المتحدث، بل يعالجون المعلومات اللفظية بأفضل وأعمق قدر يستطيعو
(غالبًا بالمعنى الحرفي للكلمة). وإذا أتيحت الفرصة، فقد يتحدث المتوحد مطلقًا
سيلًا من المعلومات حتى يتم إفراغه. كما يقول تامت: "لم أكن أفهم أن الغرض
من المحادثة كان أي شيء آخر غير الحديث عن أكثر الأشياء التي تهمك. وكنت
أتحدث بتفصيل كبير جدًا، حتى أفرغ نفسي من كل ما أريد قوله وأشعر أنني على
وشك الانفجار إذا قاطعني أحد أثناء التدفق"[35]. وعندما كان يفكر في المسيحية
حضر اجتماع الزمالة الأسبوعي حيث غمر أعضاءها بالأسئلة (مع تجاهل شهاداتهم
طوال الوقت). لقد أراد ببساطة معلومات تجيب على أسئلته الفكرية حول حقيقة
المسيحية، حول المعلومات التي وجدها في تشيسترتون متفردًا.

والجانب الأخير المتعلق بالبعد الاجتماعي، يتعامل مع احتياجات المساير
المنخفضة. إن لانخراط في التعقيل يعني الوصول إلى رغبات واحتياجات الآخرين
وتقييمها. وغالبًا ما تتطلب الحياة المجتمعية الصحية الخالية من الإجهاد المساير
مع رغبات واحتياجات الآخرين. وتزيد السياقات الدينية أو الروحية من مطالب
المسايرة - فثمة فاعلين غير مرئيين (عقول أخرى) تحتاج أن تسعدهم. لاحظ كيس
إيزوما Keise Izuma وزملاؤه، في دراسة لتقييم ما يسمى بتأثير الجمهور، أن
"أفعالنا تتأثر بقوة باعتقادنا أن الآخرين قد يرونها ويقيمونها"[36]. طُلب من
المشاركين في لعبة الديكتاتور Dictator Game التبرع بالمال، مرة في ظل وجود
مراقب مجهول ومرة حيث كانوا بمفردهم. أما المجموعة الضابطة ذات النمط
العصبي الطبيعي، فقد كانت هناك زيادة في التبرعات عند وجود المراقب، بينما
كان هناك انخفاض في التبرعات في مجموعة التوحد عالية الأداء. قد يفتقر الأفراد
المصابون بالتوحد إلى الوعي بالسمعة الاجتماعية. وبالتالي، قد يكونوا غير مبالين

---

(35) ammet, Born on a Blue Day, 75.

(36) ›eise Izuma, Kenji Matsumoto, Colin F. Camerer, and Ralph Adolphs, "Insensitivity to ocial Reputation in Autism," Proceedings of the National Academy of Sciences of the 'nited States of America 108.42 (2011): 17302-7.

بفوائد السمعة الاجتماعية التي تكتسب من خلال المعاشرة الاجتماعية والانخراط في مجموعات دينية أو روحية (والتي، وفقًا للنظريات تأثير الجمهو، محفزة لمعظم الناس). وربما، بسبب القيود التعقيلية، يجد الأفراد الذين لا يتأثرون أو لا يدركون الحضور الخيالي للفاعلين غير المرئيين أيضًا صعوبة في المسايرة مع رغبات إله غير مرئي.

وقد تفسر هذه الفردية المتزايدة سبب عدم مشاركة بعض المصابين بالتوحد في طقوس العبادة الجماعية أو اعتناق معتقدات لاهوتية مقبولة على نطاق واسع. قد يتبنى الأفراد المصابون بالتوحد المعتقدات الدينية وفقًا لمنطقهم الخاص (كما تفعل تمبل جراندين)، بدلاً من التوافق مع نظام المبادئ الذي تحدده الجماعات الدينية أو الروحية. وقد يتمسك البعض الآخر على نحو أكثر صرامة بالعقائد الدينية لاكتساب شعور بالتماسك[37]. ومن الممكن ان تساعدنا الفردية المتزايدة أيضًا في فهم ظاهرة انتشار الإلحاد بين الأفراد المصابين بالتوحد. فقد يجد الأفراد المصابون بالتوحد أن الدين لا يتمتع بكبير صلة بحياتهم حيث إنهم لا يمانعون في فقدان الفوائد الاجتماعية المصاحبة للمشاركة في المجتمع الديني.

التوحد والإلحاد

لقد تناولنا المعتقدات الدينية لشخصين معينين مصابين بالتوحد: تمبل جراندين ودانيال تامت. وعلى الرغم من أن السير الذاتية لجراندين وتامت رائعة وكاشفة على حد سواء، فإن مجرد شخصين لا يمكنهما تمثيل المجموعة الكاملة لكل الأفراد المصابين بالتوحد. مؤلفو الكتب هم عمومًا رواة فصيحون بمعدل ذكاء أعلى من المتوسط (الرفقة الحاضرة مستثناة!)، ونادرًا ما يمثلون أي مجموعة ينتمون إليها. إن تكرار قصص جراندين وتامت ينطوي على مخاطر المساهمة في نشر الصورة النمطية للمتوحد الذي يتصف بكونه غير حساس اجتماعياً ولكنه عالم موهوب بارع. يُعتقد أن إجمالي الموهوبين من جميع المصابين بالتوحد يمثلون 10

---

(37) Dubin and Graetz, "Through a Different Lens."

%، وعليه فإن 90% ليسوا كذلك؛ حيث يوجد العديد من المراهقين المصابين بالتوحد الذين يجدون الرياضيات مستحيلة الفهم، ومنهم من لا يتحمس للعلوم - وهؤلاء أكثر بكثير من العكس. لدى كل فرد متوحد مجموعة فريدة من القدرات الإدراكية الخاصة، وقد نشأ في عائلته الخاصة وداخل ثقافته الخاصة، مع مجموعة التجارب الخاصة المشكِّلة للشخصية والمعتقدات. ولا وجود لفرد متوحد نموذجي، ولذلك لا وجود لنوع توحدي نموذجي للمعتقد الديني (أو عدم المعتقد الديني). إذا كنت تريد أن تفهم أي شخص متوحد، فعليك أن تسأله عن قصته.

إن الاختلافات الصارخة في المعتقدات الدينية لهذين الشخصين اللذان يشتركان في التشخيص المرضي تقدم لنا لمحة عن التنوع الهائل للعوامل السببية وأسباب الاعتقاد - أو عدم الاعتقاد - التي يمكن أن تكون ذات أثر على الناس فيما يتعلق بمعتقداتهم الدينية، وكذلك تبدأ في توضيح اتساع نطاق مجموعة المعتقدات الدينية التي يعتنقها الناس. لقد كان بإمكاني نقل عدد لا يحصى من قصص المتوحدين ومعتقداتهم الدينية (أو عدم اعتقادهم، كما في نسبة صغيرة من الحالات)، كان بإمكاني سرد قصص لفيزيائيين مؤمنين وعلماء رياضيات لا يؤمنون، وعن نساء ملحدات ورجال مؤمنين، وعن فلاسفة يهود مخلصين وآخرين معاديين لياهوا Yahweh، وهلم جرا. يجب أن نتقدم بحذر عندما نفترض أننا نعرف ما يعتقده الآخرون ولماذا وكيف وصلوا إلى معتقداتهم.

لقد ركزنا على قصص أشخاص معينين في هذا الفصل لإضفاء الطابع الإنساني والفرداني على كل من التوحد والمعتقدات الدينية. معظم المتوحدين مؤمنون ولديهم معتقدات وممارسات دينية تكونت وتشكلت بطرق متأثرة بأنماطهم الإدراكية. وبعض المتوحدين غير مؤمنين، ومن المحتمل أن يكون بعض ذلك سببه هو العجز التعقيلي. ولكن كل شخص هو فرد ذو بنية إدراكية عرضية للغاية ضمن سياق اجتماعي فريد للغاية. ولذلك يجب معاملة كل متوحد كفرد، لا أن يشخص نفسيًا من خلال وضعه في مجموعة.

إن ما اقترحه هو تحويل المناقشات حول عقلانية المعتقدات الفريدة للفرد، الدينية أو اللادينية، من التقييم المعرفي والنفسي إلى الفهم المتعاطف؛ ذلك لأننا

لا يمكننا الوصول إلى الينابيع الداخلية والآليات التي ينطوي عليها إدراك أي فرد. وإذا كنا نرغب في فهم هؤلاء الأفراد، فعلينا أن نسأل عن قصصهم ونستمع إليها بعناية.

الفصل الثامن

جوجلة الله[1]

Googling God

جوجل Google

لفترة طويلة كان الناس يماثلون العقل بجهاز كمبيوتر. ووفقًا لهذه المماثلة، يشابه العقل أجهزة الكمبيوتر من حيث كونها معالجات للمعلومات تعمل بالكهرباء. حيث تعالج أجهزة الكمبيوتر المعلومات، كما نعلم، باستخدام كل من الأجهزة والبرامج. وبالمثل، فإن العقول تُبِّتت لمعالجة المعلومات بطرق مختلفة (لدينا ملكات إدراكية كلية فطرية تنتج معتقدات مماثلة عبر الزمان وبين الثقافات). ولكن يمكن أيضًا أن تُبرمج الخبراتُ والثقافةُ العقولَ لتعالج المعلومات بطرق جديدة وفريدة. إن المدخلات، التي تتم معالجتها إما باستخدام كمبيوتر معدني أو من شحم ولحم، ينتج عنها مخرجات معلوماتية. ولكن لنفترض أننا غيّرنا الاستعارة قليلاً لنجعل المشابهة بين العقل وأحد محركات البحث - جوجل أو، بصورة أدق، البحث في جوجل.

دعنا نجري بحثًا في موقع جوجل Google حول موضوع هذا الكتاب: "الاعتقاد بالله". عندما أقوم ذلك، أحصل، بالطبع أولاً، على مدخل ويكيبيديا، ثم يأتي بعد ذلك بالترتيب مواقع الويب التي تعرض: "ستة أسباب مباشرة للاعتقاد

(1) المقصود هنا معالجة محرك البحث جوجل للمعلومات عن الله (المترجم).

بأن الله حقًا موجود"، ومحاجة لإثبات وجود الله المتجلي في يسوع المسيح، وقائمة بمنشورات مدونة هافينجتون بوست Huffington Post وفيها: "عندما نرى قدرة الله متجلية" و"الدعاء والمعجزات" و" لأولئك الذين لا يؤمنون... "، ومقال من مجلة المسيحية اليوم Christianity Today بعنوان: "لماذا تؤمن بالله؟ أشعل حرارة إيمانك ". وهذا فقط في الصفحة الأولى من صفحة نتائج البحث. ولكن من هذا الذي يحتاج حقًا (أو يقرأ) أكثر من عدد قليل مما يقدمه جوجل Google من مواقع الويب ليبت بصورة نهائية في الجدال حول إحدى قضايا الحياة الخالدة؟

وبعيدًا عن السخرية، يقدم جوجل Google مساعدة عظيمة. فقد يمنحنا البحث البسيط في الإنترنت الكثير من المعلومات بجانب أدوات قليلة للغاية لفرز هذه المعلومات فرزًا مناسبًا. يوجد الملايين والملايين من حزم البيانات الإلكترونية المشفرة بخصوص الاعتقاد بالله والمخزنة في أجهزة الكمبيوتر وقواعد البيانات المختلفة في جميع أنحاء العالم. ولنفترض أن بحثك قد أتى بكل صفحة تضمنت كلمة "اعتقاد" و "الله" على غير ترتيب معين. فستحصل من ذلك مثلا على موقع، من بين عدد لا يحصى من المواقع الأخرى غير المفيدة، فيه تسجيل صيحة أحد الأشخاص: "يا إلهي، هذا لا يمكن تصديقه!" إن البحث اللائق والجاد عن أفضل المواقع بخصوص الاعتقاد بالله، من شأنه أن يزيل كل إشارة اصطلاحية إلى الله، فيزيل مثلا: "لعنة الله"، و "هبة الله للمرأة"، وكذلك العبارة الرتيبة، مثل: "وبارك الله أمريكا" الموجودة في نهاية خطاب كل سياسي، وكذلك الإشارات الفارغة إلى الأعاصير أو الزلازل على أنها "أفعال الله."

ينتقي جوجل الإحالات إلى "الاعتقاد" و "الله" من بين مليارات المليارات من البيانات (أو بمعنى آخر: أجزاء من جوجل) التي تشكل معًا الويب. ولكن، كما لاحظنا، فإنه حتى مع هذا الانتقاء ستظل هناك كومة ضخمة ومملة من البيانات الفوضَوية وغير المهمة في الغالب. ولكن، شكرًا لجوجل، فقد فرزوا تلك المواقع التي تستحق اهتمامنا.

يبحث جوجل أولاً في كل جزء من البيانات المتاحة لينتقي منها تلك التي تتضمن الجمع بين كلمتي الاعتقاد والله (بعيدًا عن التعبيرات الإصطلاحية)، وهذا

فقط ما يستهل به. وعلى الرغم من تلك الخطوة الأولى - التي تبقي كل استخدام ذي معنى وغير اصطلاحي للجمع بين كلمتي "الاعتقاد" و "الله" - فإننا سنواجه كومة هائلة من البيانات غير المتمايزة. يوجد عدد كبير جدًا من الإشارات إلى كلمتي "الاعتقاد" و "الله" لإجراء عرض وتقييم غير منقح للبيانات لتحقيق أي نتائج ذات مغزى.

إذن، تقدم لنا جوجل معروفًا – فهي تفرز هذه الكومة الهائلة من البيانات غير المفيدة في الغالب، وتختار ما هو أكثر صلة بالموضوع، ثم تسرد المواقع "الأكثر أهمية" أولاً (وما أكثرها من مواقع). نحن نفتقر إلى الوقت والمهارات والقدرة الدماغية على التفتيش عن جميع البيانات المؤرشفة في شبكة الانترنت ذات الصلة بالتقييم العقلاني للاعتقاد بالله. فمن المستحيل لأي إنسان أن يجمع كل تلك الأجزاء من البيانات من شبكة الانترنت العالمية ليختار بعد ذلك تلك البيانات المتعلقة بمسألة الاعتقاد بالله، ثم يحدد أيها يستحق الدراسة. وهذا ما تقوم به خوارزميات جوجل من أجلنا. فيبدأ جوجل من تلك الكتلة غير المتمايزة من البيانات ليستحوذ على البيانات التي يعتبرها مفيدة للباحث. وفي غمضة عين يقوم باستبعاد وتنقيح عدد كبير من البيانات ليصل إلى عدد قليل من البيانات ذات الصلة، ويقديمها مرتبة حسب الأهمية.

ببضع ضغطات على لوحة المفاتيح ونقرة على الفأرة، سيقوم جوجل بكل ذلك من أجلك: ستظهر في أجزاء من الثانية البيانات الأكثر ملاءمة لاستفسارك على شاشتك. والآن كل ما عليك فعله هو قراءة أفضل البيانات مرتبة حسب الأهمية لتتخذ قرارك. فأي سهولة بعد ذلك؟

ولكن سهولة جوجل لا تأتي بغير ثمن. إن معلومات جوجل المنقحة والمرتبة أبعد ما يكون عن النزاهة فيما يتعلق بالحقيقة. كانت خوارزميات جوجل في الأصل تفتش بسرعة من خلال مصطلحات البحث، وتقدم النتائج بناءً على تثمينات الأهمية النسبية للموقع (يُدعى أنها تعكس التقديرات البشرية الحدسية لما هو مهم). وفي حين قد يكون لمؤسسي جوجل نيات نبيلة، إلا أن جوجل قد ابتعدت كثيرا عن سبيل الحقيقة.

يتعلم جوجل، في كل مرة نبحث فيها عن شيء معين ما نفكر فيه، ونحبه، ونقيمه، ونرغب فيه. ثم تُرجع لنا بعد ذلك عمليات البحث الجوجلية المواقع التي تعكس ما نفكر فيه بالفعل، وما نحبه، ونقيمه، ونرغب فيه. وإليك طريقة لتعرف كيف يعمل جوجل: قبل أن أقوم ببحثي عن "الاعتقاد" و "الله"، كان جوجل يعرف بالفعل أنني مؤمن؛ مما أدى بجوجل أن يأتي بالمواقع المواتية للاعتقاد بالله. ولكن لو كان ريتشارد دوكينز، الملحد الشهير، هو الذي بحث في جوجل عن "الاعتقاد بالله"، لكان قد حصل على مجموعة مختلفة تمامًا من المواقع: مواقع من شأنها أن تنتقد المعتقد الديني.

ولنفترض أنك قمت بالبحث في محرك جوجل عن "جورج دبليو بوش". فإذا كان جوجل يعلم قبل ذلك أن لك توجها سياسيًا محافظًا، فسيمدك بالمواقع التي تعلن أن دبليو رئيسًا عظيمًا (صاحب قرار، على سبيل المثال، أو محافظًا اجتماعيًا - وجوجل يعرف أنك محافظ اجتماعيًا أيضًا، ويعلم أيضًا أنك تأخذ هذا الوصف على أنه فضيلة). ولكن إذا كان جوجل يعلم مسبقًا أنك ذو توجه سياسي ليبرالي، فستمدك بمواقع إلكترونية تنتقد بوش (تذكرك، على سبيل المثال، بأنه أوصلنا إلى حرب ظالمة وغير ممولة). وباختصار، يعكس بحث جوجل صورتك اللامعة إليك مرة أخرى؛ فهو يمدك بمواقع تؤكد معتقداتك الراسخة (في الله، على سبيل المثال، أو في بوش) بينما يحميك من المعلومات التي تتعارض مع معتقداتك الراسخة (كتلك التي لصالح الإلحاد، على سبيل المثال، أو الماركسية).

لماذا يقوم جوجل بذلك؟ لا أظن أن جوجل يهدف إلى إرباكنا - فهو يريد منا قضاء الكثير من الوقت في الاطلاع على نتائج البحث التي يطرحها. وبصراحة، لا أعتقد أن جوجل يريد منا أن نتمعن بعناية في تلك الصفحات لأنه يهتم ببحثنا النزيه عن الحقيقة. إن سر جوجل الخبيث هو أنه يريد منا شراء الأشياء. وكلما نظرنا أكثر، كلما زاد احتمال نقرنا على رابط يأخذنا إلى صفحة حيث نشتري شيئًا ما (وحيث يعود جزء من هذه الأرباح إلى جوجل). إن جوجل يستخدم ما عرفه عنا ليُسوِّق لنا شيئا ما (من خلال سَوقنا إلى شراء أشياء من معلنيها). تمعن في روابط الإعلانات المرتبطة بنتائج البحث الخاصة بك - وانظر كيف تتوافق توافقا عجيبًا

مع معتقداتك وقيمك. انقر فوق أي من نتائج البحث وأنظر كيف تتوافق الإعلانات الموجودة على صفحاتها كذلك مع معتقداتك وقيمك على نحو غريب.

وما هو أكثر غرابة أن جوجل يقوم بتفضيل الصفحات التي هي أكثر إغراءً لنا لشراء الهواتف المحمولة وأجهزة الكمبيوتر والكماليات المتعلقة بهذه الأجهزة (والتي بدورها تجر الأرباح على محركات البحث الضخمة)، إنها حلقة مفرغة غير معنية بالحقيقة. إن كل عملية إقناع بالشراء وكل إعلان متلائم معك بدقة- وذلك بناءً على ما يعرفه جوجل مما تفكر فيه وتحبه وتثمنه وتريده.

ترجع لنا عمليات البحث في جوجل المواقع التي تم توليفها وفقًا لمعتقداتنا وقيمنا العزيزة علينا لأننا، في الواقع، لا نحب أن يطعن أحد في معتقداتنا وقيمنا العزيزة؛ بل نريد ما يؤكد معتقداتنا ويحتفي بها ويثني عليها (لا أن تُكذب أو تشوه سمعتها). إذا كنت تحب جورج بوش، فسوف تغلق بسرعة وفي شعور من الغضب صفحة ويب تحتوي على سلسلة من الروابط التي تلقي باللوم عليه في حرب العراق، وأزمة الرهن العقاري، وزيادة العجز. وإذا كنت تحب الله، فمن المحتمل أن تغلق بسرعة صفحة التي فيها روابط لكل من ريتشارد دوكينز، أو الدين كمصدر للعنف، أو احتقار الإيمان بالله. يستنفع جوجل من أفكارنا ومشاعرنا العميقة: ميلنا البشري الطبيعي إلى تثمين الأدلة التي تؤيد معتقداتنا وتجاهل ورفض الأدلة التي تتعارض معها. ويضمن جوجل من خلال العثور على ما نريد سماعه، من خلال "دغدغة آذاننا" = أننا لن نلتفت بعيدًا عن الإعلانات التي تحثنا على شراء الأشياء التي يعرفون بالفعل أننا نحبها.

إليكم هذا الاختبار: اذهب إلى موقع أمازون وابحث عن جهاز "المحراث الدَّوَرانيّ rototiller". قم بعد ذلك بالبحث في جوجل عن باراك أوباما مثلا، وتأمل بعناية نتائج البحث. هل المواقع التي ظهرت لك تدعم إعجابك (أو عدم إعجابك) بباراك أوباما؟ إذا كان الجواب نعم، فقد تبين صدق نصف ما أدعيه. أنظر الآن إلى الإعلانات المدرجة بجانب النتائج (أو على المواقع التي قدمها لك جوجل)، هل تجد في أي منهم إعلانًا لأجهزة الحرث rototillers؟ ربما استغرق الأمر من جوجل

بضعة أيام ليتعرف على مواقفك تجاه أوباما، ولكن الأمر استغرق ثوانٍ فقط ليتعرف على اهتمامك المكتشف حديثًا عن آلات الحرث الدَّوَرانيّ. لقد جمَّع جوجل ما عرفه - عنك وعن أوباما وآلات الحرث- في صفحة منظمة لنتائج البحث والإعلانات فريدة وجذابة. فأنى لك أن تقاوم؟

وعلى الرغم من جميع مزايا جوجل، فإنه لا يبتدر إلى تقديم تلك المعلومات المحايدة البغيضة والمقلقة بخصوص ما نعتقده، أو على الأقل بخصوص معتقداتنا السياسية والأخلاقية والدينية الأكثر عمقًا، بل يقدم على الأرجح ما فيه تأكيدًا لما نعتقده بالفعل. إن مصادقة جوجل على معتقداتنا يخفي وراءه هدف واحد بسيط: أن يتمكن من بيع شيء ما لنا.

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل عيوب جوجل، فإنه واسع الحيلة ومفيد على نحو مذهل، خاصة إذا كنا على دراية بعيوبه وكيفية التعامل معها. لقد استفضت في ذكر عيوب جوجل لتقرير حقيقة أن جوجل لن يكون مفيدًا كمرشد وهادي للحقيقة الأخلاقية والسياسية والروحية؛ إنه ببساطة يقود الإنسان إلى المواقع التي تصادق على معتقداته الأساسية والعزيزة لديه ويبعده عن تلك المواقع التي لا تصادق على معتقداته. ومع ذلك، فإن جوجل يمكن أن يبلغنا بأحدث الأخبار: عن تونس، وآخر استطلاعات نتائج الانتخابات الرئاسية، وعدد المسلمين في أورومتشي (وكيف تقوم الحكومة الصينية بقمعهم). إنه يحتوي على مقاطع فيديو لمناظرة بيل ناي Bill Nye مع كين هام Ken Ham حول التطور والخلق[2]، وآخر صورة معروفة لأدولف هتلر. وبأي سبيل آخر يمكن لك أن تسبق والدة بن أفليك Ben Affleck في

(2) ويليام سانفورد، المشهور بـ بيل ناي رجل العلوم، هو مهندس ميكانيكي ومبسط للعلوم الطبيعية ومقدم برامج أمريكي. من كتبه كتاب (ما لا يمكن إنكاره: التطور والخلق) نشره عام 2014 وهو كتاب يناصر التطور ضد الخلقانية. وأما كين هام فهو مسيحي أسترالي يعيش في الولايات المتحدة. أسس منظمة "الأجوبة في سفر التكوين" وهي منظمة أصولية مسيحية دفاعية تناصر الخلقانية والقول بقصر عمر الأرض. والمناظرة المشار إليها مناظرة مشهورة في أمريكا، أجريت عام 2014 في ولاية كنتاكي ودامت لمدة ساعتين ونصف، ونشرت على موقع اليوتيوب (المترجم)

معرفة خبر انفصاله من زوجته جينيفر جارنر Jennifer Garner[3] ؟ إنها لوفرة حقيقية من المعلومات المبتذلة وغير المبتذلة. ولكنه غير جيد في أمر الاعتقاد بالله. فبينما يمكن لجوجل بالتأكيد أن يساعدنا في تحديد أفضل سيارة من النوع ذي الحجم المتوسط ومعرفة كيفية شرائها بأقل سعر، فإنه لا يصلح كمرشد يوثق به عند البحث عن الطبيعة المطلقة للواقع.

جوجلة العقل

يتشبع العقل في حالة عدم تنقيح المعلومات بمحفزات إدراكية تفوق بكثير ما يمكن أن تطيقه أدواتنا الإدراكية. إن المحفزات التي تنهال علينا ستدخلنا في عبء إدراكي على الفور ما لم تكن عقولنا مجهزة مسبقًا بآليات تنظيمية وفلاتر تحد من المدخلات الخبراتية للعقل وتنظمها. وقد قدمت الأبحاث في علوم الإدراك أدلة وجيهة على عدم دقة وصف العقول البشرية كمعالجات عامة بسيطة وغير مميزة مع بعض الملكات الأساسية مثل "الذاكرة" و "الإدراك" و "التفكير". إن العقول البشرية، بالإضافة إلى قيامها بتلك الأنشطة العامة، تشترك في عدد كبير من الأنشطة المفاهيمية غير الواعية التي تولد المعتقدات والقيم تولدًا تلقائيًا وغير استدلالي لحل المشكلات بسرعة في مجالات معينة من الفكر - ربما كآليات تكيفية تستجيب للضغوط الطبيعية الانتخابية.

خذ قسطًا من الراحة من القراءة، وارفع بصرك عن هذه الصفحة، ولاحظ لون وملمس الجدران من حولك، وأصوات الموسيقى التي تعزف في الخلفية، والملمس الرملي الخشن لغلاف الكتاب (أو الملمس الناعم لجهاز الكمبيوتر لديك) و عَرْف قهوتك. والآن، وبعد أن وجهت انتباهك لبعض الإحساسات في بيئتك المحيطة، لاحظ ما لم يتوجه إليه انتباهك مما هو موجود حولك: لون وملمس السقف والأرضية، وعدد الطوب في الجدار، ودرجة حرارة الهواء، ومظهر أي

---

(3) ممثل ومخرج وكاتب سيناريو أمريكي، وزوجته السابقة، جينفر جارنر، هي كذلك ممثلة ومنتجة أفلام أمريكية (المترجم)

شخص في الغرفة، وأصوات السيارات المارة، وهبوب النسيم (وأشياء أخرى كثيرة).

عندما كنت تقرأ، كان عقلك يغلق، دون أي قرار واع على الإطلاق، دوشة الإحساسات من اللون والصوت والرائحة والذوق والشعور، مما يسمح لك بالتركيز في قراءتك. ولو لم تكن أذهاننا جيدة للغاية في تجاهل معظم التحفيز الحسي، لكنا في مرمى قصف المعلومات الهائلة الكفيلة بأن تصيبنا بالجنون. وإذن تأتي عقولنا الضنينة، مثلها مثل جوجل، مجهزة بأدوات إدراكية تقيد توجيه الاهتمام أو تسمح بدخول المحفزات الصغيرة الثمينة.

وثمة مجموعة أخرى من الأدوات الإدراكية تنظم تلك المعلومات. وتتوافق هذه الأدوات، مثل جوجل، مع الأحكام البشرية الحدسية لما هو مهم (وعلى الأرجح يعود أصل هذه الأدوات إلى عملية المحافظة على البقاء على قيد الحياة). فعلى سبيل المثال: إذا كنت جائعًا، فمن المرجح أنك ستكون حساسًا لمحفزات مصدر الغذاء (الروائح مثلا) وستتصرف على نحو يجلب لك الطعام (من الصيد / أو القطف / أو الركض إلى السوق). وإذا كنت تعاني من البرودة لدرجة كافية لأن تنغص راحتك، فستقوم بتوجيه الاهتمام إلى وضع عدم الراحة ومعالجة المعلومات المتعلقة برفع درجة حرارة الجسم (بناء مأوى أو دخوله مثلا، أو صنع الملابس أو لبسها). وبإمكانك تخيل سيناريوهات مماثلة لحالة الهروب من الأعداء أو محاربتهم، وتجنب الحيوانات المفترسة، والبحث عن شريك الحياة. تثير آليات البقاء التطورية الهامة تلك أذهاننا، والتي بدورها تستخدم أدوات تنظيمية متنوعة ومترابطة لزيادة استراتيجيات البقاء: كالحصول على الطعام، أو الظفر برفيقة، أو اتقاء مفترس، أو صد العدو. وعلى الرغم من أن استجابتنا الأصلية للقتال أو الفرار تثار لأقل محفز، فإن ثمة حاجة إلى أدوات إدراكية مختلفة لتخطيط أفضل طرق الفرار أو اختيار أفضل أنواع السلاح. إن الأدوات الإدراكية الأولية التي تنتج لنا أحكامًا تقيمية سريعة ("أنت في موقف خطر"، "أنت جائع"، "أنت تعاني من البرودة") لا تنتجها بقرار واعي أو تعلم من جانبنا بوعي؛ بل هي مثبتة بالعقل.

ويضاف إلى ذلك، أننا نقوم بمعالجة هذه المعلومات باستخدام معالجات معلومات إدراكية إضافية مثبتة ومترابطة.

نحن ننزع، على سبيل المثال، إلى الفيزياء "الشعبية" السابقة على التفكر. والفيزياء الشعبية هي الطريقة التي ننظم ونفهم بها العالم الطبيعي بصورة طبيعية ودون أي تدريب من أي نوع. ويمكنك أن تجد أدلة على الفيزياء الشعبية حتى عند الأطفال الرضع. فقد أظهرت الأبحاث في الفيزياء الشعبية (التي تسمى أحيانًا "ساذجة") أنه خلال الأشهر الخمسة الأولى من الحياة، يتوقع الأطفال بالفعل أن الأشياء المادية: (1) تميل إلى التحرك فقط عند دفعها من خلال التلامس، (2) وأنها تستمر في مسارها بالقصور الذاتي إذا لم يتم إعاقتها (3) وأنها لا تمر مخترقةً عبر الأجسام الصلبة الأخرى (4) وأنها لابد وأن تتحرك باستمرار في المكان (فلا تنتقل آنيًا من هنا إلى هناك)، (5) وأنها تتماسك ككل محدود (على عكس السحابة أو اللهب أو كومة الورق)[4]. وتقدم ملكة الإدراك الطبيعية التي تنبثق في مرحلة

---

(4) Elizabeth Spelke and Katherine D. Kinzler, "Core Knowledge," Developmental Science 11 (2007): 89-96.

يعتمد هذا النوع من البحث على إشارات سلوكية خفية مثل نظرة العين لتحديد ما "يعرفه" الرضع أو يتوقعونه. على سبيل المثال: إذا عُرض عرضان مختلفان أمام أطفال رضع، وكان الأطفال يفضلون النظر إلى أحدهما دون الآخر، فإن العلماء يستنتجون أن الأطفال يمكنهم التمييز بين العرضين. وبالمثل، إذا شاهد الأطفال عرضًا حتى فقدوا انتباههم (توقفوا عن النظر إليه)، ثم قُدم لهم عرض ثاني استعاد انتباه الأطفال، فإن العلماء يستنتجون أن الأطفال يلاحظون اختلافًا في العرض الثاني. وفي البحث حول فهم الأطفال للأشياء المادية، قد يُعرض على الأطفال عرضًا تتدحرج فيه كرة على منحدر من اليمين إلى اليسار، حيث تختفي وراء شاشة غير شفافة ثم تظهر مرة أخرى على الجانب الآخر. ويتكرر العرض مرارًا وتكرارًا حتى "يعتاد" الأطفال ذلك (أي يشعرون بالملل). ثم يُقَدم نفس العرض للأطفال الرضع مع إزالة الشاشة. لا يسترد مثل هذا العرض عمومًا انتباه الأطفال، وذلك على ما يبدو لأنه يصور ما افترضوا أنه كان يحدث في السابق؛ ولا يقدم شيئًا جديدًا. ولكن عندما يتم تغيير العرض للمقارنة، حيث يُكشف عن حاجز كان مخفيًا بالشاشة - وهو حاجز، من منظور البالغين، من شأنه أن يمنع بوضوح حركة الكرة المتدحرجة - فمن المرجح أن يُسترد انتباه الأطفال. يستنتج العلماء أن الأطفال الرضع "يعرفون" أن الكرات لا يمكنها المرور عبر الحواجز الصلبة. يجد الأطفال المعلومات الجديدة حول وجود عقبة صلبة مفاجئة. وإذن، يقدم بحث من هذا =

مبكرة من عمر الإنسان الالتزامات المتعلقة بخصائص وحركة الأشياء المادية ويحدث ذلك على نحو غير استدلالي.

ومع ازدياد نضوج الإنسان تتطور أيضًا ملكات إدراكية تعمل على تكوين المعتقدات وتنظمها - باستقلال عن الحجج أو التدريب - بخصوص الكائنات الحية (علم الأحياء الشعبية)، وكذلك حول العلاقات الاجتماعية (علم الاجتماع الشعبي)، والأنشطة العقلية (علم النفس الشعبي)، واحتياطات المخاطر (التي تتعلق بتجنب الملوثات والمخاطر البيئية الأخرى)[5]. فلدينا خوف راسخ من الثعابين، واشمئزاز من تقرحات الجسم، وشك في أولئك الذين هم خارج مجموعتنا (أعداء محتملون)؛ وبذلك نتجنب لدغات الثعابين السامة والأمراض التي تنتشر عن طريق التلوث والموت في الحرب. ولدينا أدوات إدراكية مثبتة فينا لجذب رفقاء الحياة المحتملين، وللحصول على الأطعمة الصالحة للأكل، ولتحديد الأصدقاء، كل ذلك يساعد على ازدهار حياة الإنسان في العديد من المستويات. وليس من الصعب أن نفهم من منظور تطوري لماذا ثبتت تلك الأحكام السريعة (التي لا تستغرق الوقت للنظر في الحجج والحجج المضادة) بخصوص تلك الأمور في النفس البشرية.

وعلى الرغم من أن ملكاتنا الإدراكية مفيدة للغاية (خاصة في الحالات المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة)، فإن بعض الأحكام الشعبية التي تنتجها خاطئة.

= النوع دليلًا على أن الأطفال قبل تطور قدرتهم على الكلام ونطق الألفاظ يكون لديهم مجموعة من التوقعات حول الأشياء في بيئاتهم: عندما يتعرف الأطفال على شيء ما على أنه كائن مادي محدود (على عكس كومة من الرمل أو سحابة)، فإنهم تلقائيًا وعلى نحو غير استدالي يتوقعون مجموعة من الخصائص لتطبيقها على الكائن.

(5) Lawrence A. Hirschfeld and Susan A. Gelman, eds., Mapping the Mind: Domain Specificity in Cognition and Culture (Cambridge: Cambridge University Press, 1994), and Dan Sperber, Francesco Cara, and Vittorio Girotto, "Relevance Theory Explains the Selection Task," Cognition 57 (1995): 31-95,

تتضمن أمثلة من البحث العلمي في هذه المجالات

Pascal Boyer and Pierre Lienard, "Whence Collective Rituals? A Cultural Selection Model of Ritualized Behavior," American Anthropologist 108 (2006): 814-28,

فيها تلخيص لأدلة ملكة الحيطة من المخاطر ومناقشة قدراتها المحتملة على تفسير بعض ديناميات الطقوس الثقافية.

فعلى سبيل المثال: تشجع البيولوجيا الشعبية على الاعتقاد بأن كل شيء يحدث لغرض ما، إلا أن علم الأحياء الداروينى يرفض وجهة النظر القائلة بأن الجمل طور سنامًا بغرض السفر عبر الصحاري أو أن الزرافات طورت أعناقًا طويلة بغرض الوصول إلى أوراق أعلى على الأشجار. ويدفع علم النفس الشعبي بعض البشر (بل الكثيرين منهم) إلى إسناد النيات إلى الأنهار والغيوم على سبيل المثال. ولا شك أنه من الأفضل للبشر أن يحكموا باعتبار الأغراض والنوايا (وأن يقوموا بذلك بسرعة وبلا نظر واستدلال)؛ فمن خلال إسناد الأغراض والنوايا إلى الأشياء / الأشخاص يمكننا تخطيط ردودنا وفقًا لذلك. فإذا اعتقدنا أن أسدًا يريد افتراسنا (بدلاً من أن يفر هاربًا)، فيمكننا أن نقرر تسلق شجرة. وإذا قررنا أن الشخص الذي يقترب منا لديه نوايا ودية، فيمكننا الشروع في محادثة بدلاً من ضربه على مؤخرة رأسه بحجر. لقد أتاحت العلوم الشعبية الفرز غير المجهد للمعلومات بطرق تنتقي ما له أهمية أساسية لبقاء الإنسان. ولكن ذلك السهل السريع الهين قد يكون خاطئًا في بعض الأحيان.

يمكننا أن نتعلم الكثير عن ملكاتنا الإدراكية من خلال فهم كيفية توصل هذه الملكات لأحكام صادقة. ويمكننا أيضًا أن نتعلم الكثير عنها من خلال فهم كيفية توصلها لأحكام خاطئة.

دعونا نفكر في بعض الطرق التي تخطئ بها عقولنا أحيانًا مكونة معتقدات كاذبة، ملثما تخطئ عمليات البحث على جوجل. تحاول عقولنا، مثل جوجل، تسويق شيء ما لنا. ونفضل جميعًا معتقداتنا لأنها معتقداتنا وحسب؛ بل إننا نعتقد أننا متفوقون عقلانيًا على الأشخاص الذين يختلفون معنا (حتى لو لم يكن لدينا دليل يدعم معتقداتنا أفضل مما يفعله محاورنا لمعتقداتهم).

فكر في آرائك السياسية. لنفترض أنك ديمقراطي ليبرالي، هل تعتقد حقًا أن الجمهوريين المحافظين متساوون في مدى عقلانية وجهات نظرهم؟ وإذا كنت ملحدًا، فهل تعتقد بصدق أن المؤمنين عقلانيون على حد سواء؟ في الأغلب، ستعتقد، في كلتا الحالتين، أنك أكثر ذكاءً (أو حتى أكثر تفوقًا). عندما نفكر في أولئك الذين يختلفون معنا حول قضايا مهمة، يظهر عفويًا نوع من الغطرسة

والعجرفة الطبيعيين (وتتجلى هذه العجرفة خصوصًا عندما نكون في مجموعات دينية أو سياسية حيث نضحك معًا متعالين على أولئك الذين يرفضون معتقداتنا وممارساتنا). ولا نرى أن أولئك الذين يختلفون معنا مخطئين وحسب؛ بل نراهم غير عقلانيين بل وغير أخلاقيين(6).

قد تقول ساخرًا: "غير عقلاني وغير أخلاقي؟! لا شك أنك تبالغ"

تأمل تقييم المرء لمناظرة الرئاسة الأمريكية. يعتقد الجمهوريون أن مرشحهم فاز بسهولة لبراعته ويعتقد الديمقراطيون خلاف ذلك. ويعتقد كلاهما أن الآخر "لم يصل إلى الفهم الصحيح" (لم يفهموا حقيقة الأمور). وإلا لو فهموا (فهموا حقيقة الأمر كما ينبغي)، لكانوا على نفس معتقدك. فأنت تعتقد أن ثمة نوع من الخلل الإدراكي المتعمد من جانبهم، خلل تعتقد أنه يمنعهم من رؤية ما هو جلي واضح (على سبيل المثال: ذكاء وإنجازات وقيم مرشحك الأخلاقية، وغباء وفشل وفسوق مرشحهم). وتقول مغتاظًا، "لو أنهم فقط كانوا يسمعون... " تعتقد أنهم ليسوا مخطئين وحسب؛ ولكنهم أيضًا غير عقلانيين. وماذا عن الانسلاخ من الأخلاق؟ تتغذى الخلافات السياسية من عمق منابع القيم الأخلاقية للفرد. الجمهوريون، من ناحية، يدعمون الاستقلالية الفردية والمسؤولية الشخصية، بينما يدعم الديمقراطيون الاعتماد المتبادل والعدالة المشتركة.

وما بدا ظاهريًا أنه حجة تستند إلى أسباب نزيهة، كان بمثابة خيانة لبعض قيمنا الأخلاقية الراسخة بل والمحسوسة. إن رفض طريقة الجمهوريين (أو الديموقراطيين)، إذن، هو بالضرورة رفض لقيم المرء الإنسانية، الراسخة عنده بشدة والمحسوسة بعمق. وبالتالي فإن الشخص الذي يرفض وجهة نظرك - بحسب رأيك - ليس مجرد مخطئ وحسب؛ بل هو غير عقلاني، بل وغير أخلاقي(7).

---

(6) لمناقشة كاملة لهذه القضايا، انظر:
Jonathan Haidt, The Righteous Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion (New York: Pantheon Books, 2012).

(7) لمناقشة كاملة لهذه القضايا، انظر:
Jonathan Haidt, The Righteous Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion (New York: Pantheon Books, 2012).

إن ما تبيعه عقولنا لنا في مثل هذه الحالات هو نوع من الرضا الذاتي أو الثقة بالنفس التي لم تؤسس على تفكر أو تسويغ - فهي بالأحرى ثقة زائفة. تبيعنا العقول أيضًا إحساسًا عميقًا وصالحًا بكوننا ضمن أفراد مجموعة (مع نفور مقابل موجه لأولئك الذين هم خارج تلك المجموعة). ومن المرجح أن تعزز الثقة القوية بالنفس النجاح في مهمة الصيد أو تجعلنا أكثر جاذبية للأزواج المحتملين، أما الإحساس العميق والصالح لمن ينتمي إلى مجموعة فمن المرجح أن يكون مفيدًا في القتال مع المجموعات الأخرى (أي الأعداء المنافسين على الموارد النادرة). إن المجموعات التي يحتشد أعضائها حول قضية أو معتقد معين هم أكثر تماسكًا وتصميمًا في المعارك من المجموعات التي تفتقر إلى الالتزامات العميقة المشتركة ولكن كما أنه لا يمكن أن نكون جميعًا فوق المتوسط من حيث التقييم الفردي، فلا يمكن كذلك أن نكون جميعًا على حق (لا يمكن أن تكون كل المجموعات التي تعتمد في حشدها على المعتقد = على حق). فالثقة بالنفس والصلاح الذاتي قد يفوزان في جلب رفقاء الحياة والقتال في المعارك، ولكنهما تربة مجدبة لمعرفة الحقيقة.

ومع ذلك، فإن عقلنا (الجوجلي)، على الرغم من كل عيوبه، واسع الحيلة لدرجة مذهلة، خاصة إذا كنا على دراية بعيوبه وبكيفية معالجتها. لقد شق الإدراك البشري الذرة، وأرسل بشرًا إلى القمر، وزرع القمح. قام البشر بتخمير البيرة الماكرة (بعد معرفة الخميرة)، وبنوا ناطحات السحاب التي تلامس السماء (يبلغ ارتفاع برج خليفة في دبي أكثر من نصف ميل)، وسافروا إلى أعماق البحار العميقة الدامسة الظلام في أرجاء العالم. يمكننا معرفة ألم الآخرين بل والشعور به ثم تخفيفه أو إزالته من خلال المشاركة الإيثارية أو الجراحة الروبوتية أو العقاقير العقلية[8]. لقد استدللنا على وجود العالم الكمي ورجعنا بفكرنا إلى الثواني الأولى

(8) العقاقير العقلية أو psychotropic drugs تطلق على الأدوية أو العقاقير التي تؤثر على عمل المخ مما يحدث تغييرًا في الحالة النفسية أو السلوك أو الأفكار والإدراك أو المشاعر ويشمل ذلك العقاقير العلاجية القانونية كمسكنات الألم وغير القانونية كالمخدرات بأنواعها (المترجم)

من عمر الكون منذ ما يقرب من 14 مليار سنة. ولقد تعلمنا أن جميع الناس خلقوا متساوين وبالتالي فإن العبودية هي أمر بغيض أخلاقياً. ونعرف العديد من مليارات الأشخاص الذين يعيشون في عالمنا: كيف يعيشون وماذا يحبون ومدى مشابهتهم أو اختلافهم عنا (وقد ساعد جوجل على معرفة ذلك). وبالطبع نعرف كذلك الكثير من الأشياء اليومية: ما تناولناه على الإفطار، ولون منزلنا، وأسماء آبائنا وجيراننا القريبين. ونحن نعلم أن الشمس ستشرق غدًا وأن الإمبراطور تشين وحَّد الصين عام 221 قبل الميلاد (يمكنك التحقق من التاريخ على جوجل). وبإمكاني أن أمضي قدما في ذكر ما عرفناه ولكني أظنك فهمت ما أرمي إليه: نحن نعرف الكثير. وهذا الكثير الذي نعرفه عرفناه باستخدامنا لملكاتنا الإدراكية (على الرغم من كونها غير معصومة).

نحصل على بعض هذه المعتقدات الصادقة من خلال الاستخدام العادي والطبيعي وغير الاستدلالي لملكات إدراكية مثل الذاكرة والبصر ونظرية العقل. وتتطلب المعتقدات الصادقة الأخرى، وخاصة المعتقدات العلمية، استخدامًا شديد الانضباط بل وتأديبي لملكاتنا الإدراكية (معتمدين على أشكال معقدة من الاستدلال والتفكير المجرد والرياضيات عالية المستوى). وغالبًا ما تكون المعتقدات العلمية مخالفة للحدس وتتطلب رفضًا للمنتج الفوري المباشر للملكات الإدراكية الأخرى. على سبيل المثال: قد نعتقد عن طريق البصر أن هناك - في السماء - قوس قزح، ولكن النظريات العلمية للضوء واللون تخبرنا أن أقواس قزح موجودة في ذهن الإنسان. ويخبرنا الحس السليم أن المائدة هي شيء واحد وصلب وثابت، بينما يخبرنا العلم أن المائدة تتكون فعليًا من جسيمات لا حصر لها (أو من موجات، أو من جزيئات موجية) ويتخللها مساحات فارغة على الأغلب (والتي تتحد لتكون مظهر الوحدة والصلابة والثبات). وبينما نشعر وكأننا لا نتحرك (تخيل ما تشعر به عندما تكون في سيارة مكشوفة وقد نزل سقفها تسير بسرعة 80 ميلاً في الساعة)، يخبرنا العلم أننا على كوكب يندفع عبر الفضاء بسرعة 483000 ميل في الساعة (ضع يدك على قبعتك ألا تطير!).

هل يمكننا عند النظر في الحقائق الأخلاقية والسياسية والفلسفية والروحية أن نتوقع من ملكاتنا الإدراكية أن تنجح فيما فشل فيه جوجل؟ يبدو العقل مثل جوجل على الأقل في هذا المعنى الجوهري: يتضمن الواقع الكثير من المعلومات، والكثير من التحفيزات، والعديد من الخبرات التي لا تستطيع عقولنا التعامل معها، ويبدو أن ملكاتنا الإدراكية غير مؤلهة لغربلة وتنقيح هذه الكتلة من المعلومات (على الأقل عندما يتعلق الأمر بالحقيقة الأخلاقية والسياسية والفلسفية والروحية). وبالنظر إلى ملكاتنا الإدراكية الترابية، تلك الملكات التي شكلها التطور، ربما يكون لدينا نظرة خاطفة ضئيلة عن الواقع لا تكفي للحصول على إجماع أخلاقي وسياسي وفلسفي وروحي. إن مجموعة المعتقدات المتنوعة حول الإرادة الحرة، على سبيل المثال، والحياة الآخرة تقترح توخي الحذر، إن لم يكن الشك، بشأن قدرتنا على حل الخلافات الفلسفية العميقة. وأخيرًا، وياللأسف، إننا، مثل جوجل، ذوو تحيز نحو التصديق على الأدلة التي تدعم معتقداتنا الأساسية والعزيزة وتحيز ضد الأدلة التي تعارض هذه المعتقدات.

جوجلة الكفر والإيمان

إن ملكاتنا الإدراكية الشبيهة بجوجل هي بمثابة حرَّاس بوابات شديدي الانتقائية ومرشِّحات للمعلومات والخبرة. وبعض هؤلاء الحراس والمرشحات الإدراكية -جهاز الكشف عن الوكالة (ADD) ونظرية العقل (ToM)- يعملون على تشكيل وتعليم الاعتقاد بالله. ووفقًا لدانييل دينيت وريتشارد دوكينز، فإن الله ليس سوى وهم في أذهاننا، وليس أكثر واقعية من أحادي القرن (يونيكورن) أو التنانين أو الغيلان.

تقوم ملكاتنا الإدراكية الشبيهة بجوجل بتعليم وتشكيل عدم الاعتقاد أيضًا. فلا أحد منا محصن من التحيزات المعرفية المختلفة التي تؤثر على معتقداتنا العزيزة إلينا. فهل الإلحاد كذلك وهم؟

إن التطور، كما يحلو لدينيت أن يقول، هو كالحمض الشامل الذي يسبب التآكل لأحب معتقداتنا إلينا ويقوضها، ويتضمن ذلك معتقداتنا حول الله والقيمة

والمعنى والغرض والثقافة والأخلاق والإرادة الحرة[9]. إن التطور - كما يقول - يُظهر أن حياتنا لا هدف لها، وأننا لا نملك إرادة حرة، وأن الأخلاق هي وهم خدعتنا به جيناتنا. وقد خصص كتابًا كاملاً ليجادل على أن التطور يثبت أن الله، مثله مثل الأخلاق، وهم.

ولكن إذا كان التطور حمضًا شاملا فينبغي عليه أيضا أن يسبب التآكل لقواعد الإلحاد كما يفعل مع قواعد الإيمان. فالأحماض الكلية لا تميز؛ إن التطور محايد ويمثل فرصة متكافئة للانقضاض الشره على أي صورة من صور الثقافة.

الإلحاد ليس محصنًا ضد أنواع التفسيرات المقوضة التي يُزعم أن الإيمان عرضة لها.

ما تعتقد بذلك إلا لأنك

عندما يتعلم الإنسان الآليات الإدراكية الطبيعية - الحراس والمرشحات - المتورطة في إنتاج ودعم المعتقد (وعادة يكون ذلك متعلقًا بمعتقدات الآخرين، وليس بمعتقداته هو) فإن نوعًا معينًا من الحالة النفسية التفسيرية "أنت تعتقد بذلك فقط لأن... "= تنبثق. ويؤكد الإنسان جازمًا أنك تعتقد (كذا وكذا من المعتقدات) لا لصدقها ولا لأنك تمتلك أدلة صالحة على ذلك ولكن بسبب خلل نفسي أو أخلاقي وحسب. "أنت تعتقد أن الأخلاق أمر نسبي فقط لأنك تريد ممارسة الجنس مع أي إنسان يعجبك"، "لقد اشتريت تلك السيارة باهظة الثمن فقط لرغبتك في أن يراك الناس رائعًا (أو غنيًا)"، "أنت جمهوري لأنك تهتم بنفسك فقط".

"أنت تؤمن بالله فقط لأن جهاز كشف الفاعلين ونظرية العقل لديك قد أبعدا النُّجْعَةُ".

ولكن إذا كانت الحوافز النفسية تحرك المتدينين، فإنها كذلك على الأرجح

---

(9) Daniel Dennett, Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meanings of Life (New York: Simon and Schuster, 1995).

تحرك غير المتدينين. ففي معركة الطين يتسخ الجميع. وكما أن الدماغ متورط في الإيمان، فهو كذلك متورط في عدم الإيمان.

"أنت ملحد فقط لأنك مصاب بالتوحد".

المؤمن والملحد على حد سواء يتشبثا بزلة الواقع النفسي المتصور للآخر.

وكما أشرت سابقًا، لدينا ميل واضح للحكم على أولئك الذين يختلفون معنا بأنهم غير عقلانيين أو ربما أسوأ. "أنا عنيد، بل أنت متصلب أحمق". وفي حين أننا لا نعتقد أبدًا في أنفسنا أننا غير عقلانيين، فنحن نقوم بتشويه سمعة أولئك الذين يختلفون معنا: نرى أن الذين يختلفون معنا قد اكتسبوا معتقداتهم على نحو غير عقلاني متحديين الأدلة، وملبين لدوافعهم النفسية. وباختصار، إنهم مجانين. ولنتأمل بعض الآراء السياسية التي لا تذهب بعيدًا عن الشكل النموذجي للآراء السياسية: "أوباما ليس مخطئًا فحسب، بل هو أيضًا ماركسي مسلم لا يسعى إلا إلى التدمير الكامل للولايات المتحدة الأمريكية كما نعرفها"، "الجمهوريون ليسوا مخطئين وحسب بشأن ظاهرة الاحتباس الحراري التي يتسبب فيها الإنسان والتطور؛ بل هم معادون للعلم، وأصوليون دينيون حمقى".

ما تعتقد بذلك إلا لأنك...

العقلانية هي المطرقة التي نستخدمها لسحق أولئك الذين يختلفون معنا.

تأمل ما يحدث عندما تصل سيارتان في وقت واحد تقريبًا إلى تقاطع رباعي الاتجاهات وتحتاج كل منهما إلى السير في طريق الآخر. يجب على من يقود السيارة في الولايات المتحدة أن يعطوا أولوية المرور بحسب ترتيب الوصول. وتؤدي عمليات الوصول المتزامنة تقريبًا في بعض الأحيان إلى وضع لعبة الدجاج Chicken game. حيث يتقدم أحدهما آملا أن تعترف السيارة الأخرى بأولويته القانونية في المرور أولا. ولكن في بعض الأحيان يرى الشخص الآخر أنه أتى أولاً فيتقدم أيضًا مؤكدًا أولويته القانونية في المرور أولا، ويترتب على ذلك مواجهة عنيدة. من سيستسلم أولا؟ أظن أنه يوجد العديد من التحيزات النفسية في مثل هذه المواقف. سأقوم بذكر هذه التحيزات بصيغة المتكلم: من المرجح أن اعتقد أنني

وصلت إلى هناك أولاً، وذلك لمجرد أن ذلك هو أنا[10]. ومن المرجح أن أتشبث برأي معاندًا إذا أصر الشخص الآخر على وصوله هو أولا (وكلما أصر الشخص الآخر على نحو أكثر عدوانية، كلما حافظت متحديًا على اعتقادي بأنني وصلت إلى هناك أولاً). وبسبب قناعتي الراسخة بأنني وصلت أولاً، تلك القناعة التي عززها وقواها خلافي مع الطرف الآخر (وهو تعزيز لا يستند إلى مثقال ذرة من دليل جديد) = فسأصر على مطالبة الطرف الآخر باحترام حقوقي. وأخيرًا، حتى لو استسلمت، فسأعتقد أن الطرف الآخر أناني وغير عقلاني، وإذا غضبت بما فيه الكفاية بسبب انتهاكه العدواني لحقوقي، فسأقول هو مجنون. ابتهج فإني لن أمضي صفر اليدين!

يمكن للملحدين والمؤمنين أن يكونوا هكذا. فلا يتمتع أي منا بوضع متميز خاص فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة حول الطبيعة المطلقة للواقع. وهناك أسباب وجيهة للإيمان بالله وعدم الإيمان به. ينتهي الملحدون والمؤمنون إلى الوقوف على مفترق طرق فكري ذي اتجاهات مختلفة ويواجهون بعضهم البعض عبر الانقسام الفكري، وغالبًا ما يلعبون لعبة الدجاجة الفكرية. ويترتب على ذلك مواجهة عنيدة. من سيستسلم أولا؟

لقد رأينا أن هناك العديد من التحيزات النفسية المرتبطة بهذه المواقف. (ومرة أخرى، سوف أذكرها بضمير المتكلم). فحتى لو وضعنا جانباً أسلحة المدافع الكبيرة - أي "الآليات اللاعقلانية" عند المؤمنين والتوحد عند الملحدين - فهناك من التحيزات المتورطة ما هو عادي جدًا وأقل إثارة. فمن المرجح أن أعتقد أنني على حق، ببساطة بسبب كوني محقًا. ومن المرجح أن أتشبث برأي بعناد إذا انتقد الطرف الآخر آرائي (وكلما كان الطرف الآخر عدوانيًا في انتقاده لآرائي، كلما زادت ثِقتي فيها). وبسبب قناعتي الراسخة بأنني على حق، تلك القناعة التي عززها

(10) توجد عوامل اجتماعية واقتصادية معقدة معنية كذلك .ومن المرجح أن يعتقد الأثرياء، أو الأشخاص الذين يقودون سيارات فاخرة، أنهم يتمتعون بامتياز فيما يتعلق بالقانون .انظر:
Elizabeth Norton, "Shame on the Rich," Science, February 27, 2012, http://news.sciencemag.org/2012/02/shame-rich.

وقواها انتقاد الطرف الآخر لي (وهو تعزيز لا يتضمن مثقال ذرة من دليل جديد) فسأصر على طلب الطرف الآخر باحترام معتقداتي. وأخيرًا، وهنا فرق رئيسي، فإني لن أستسلم. وسأعتقد أن الطرف الآخر غير عقلاني، وإذا كنت غاضبًا بما يكفي من انتقاداته العدوانية لمعتقداتي الثمينة، فسأعتقد أنه مجنون. ابتهج فإني لن أمضي صفر اليدين!

إذا أردنا الحق، فإن وسم المخالفين بأنهم مرضى نفسيون، في الوقت الذي نثمن فيه التزاماتنا النزيهة العقلانية المزعومة= من المرجح أن تأتي بنتائج عكسية. ولا شك أن المعتقد الديني أمر عادي وطبيعي، فهل يجعل ذلك الملحدين شاذين ويجعل الإلحاد غير طبيعي؟ ومن المحتمل جدًا أن يكون الإلحاد مرتبطًا بالتفكير الاستدلالي، فهل هذا يعني أن الملحدين أذكى أو أنهم أكثر نفاذًا إلى معرفة الواقع من المؤمنين؟ ما الذي يلزم حقًا عن أي من هذه الدراسات الإيحائية؟ مثلما توجد دوافع نفسية وثقافية وأخرى لا تتعلق باكتساب الحقيقة في ذات الأمر متورطة في المعتقد الديني، فهناك أيضًا دوافع نفسية وثقافية وأخرى لا تتعلق باكتساب الحقيقة في ذات الأمر متورطة في عدم الإيمان. وإنكار هذا سيكون حماقة. ولكن ما الذي يلزم عن ذلك؟

هل نحن جميعاً - المؤمنين وغير المؤمنين على حد سواء - مجانين أو غير عقلانيين؟

جوجلة التواضع

يمكن لجوجل الوصول إلى الكثير والكثير من المعلومات، ولكن ماذا عن المعلومات التي لم يتم إدخالها في النظام الرقمي وتضمينها في شبكة الويب العالمية. فلا يعرف جوجل كم استغرق نومي من الوقت الليلة الماضية، ولا ما الذي غنته أمي لي عندما كنت رضيعًا لمساعدتي على النوم، ولا عدد الشعرات على رأسي، وأشياء أخرى عني لا حصر لها. وما لا يعرفه جوجل عنك (وعن كل إنسان آخر) لا يعد ولا يحصى. وكذلك ما لا يعرفه جوجل عن كل حيوان تقريبًا في عالم الحيوان، وكل كائن غير حي في عالم الجمادات لا يعد ولا يحصى. فلا

يعرف جوجل ما إذا كان هناك عدد زوجي أو فردي من النجوم أو عدد نصال العشب في الفناء الخلفي لمنزلي، هذا بالإضافة إلى ما لا حصر له - في العوالم البعيدة للزمكان، وفي أصغر العوالم الدقيقة (وفي الماضي والحاضر والمستقبل).

يتمتع جوجل بإمكانية الوصول إلى كمية هائلة من البيانات، ولكن ما يمكن لجوجل أن يحتويه هو مجرد جزء صغير من الكم الهائل من المعلومات التي يحتويها الواقع. فلا يقدم جوجل لنا إلا ما رآه بعض الناس في مكان ما مناسبًا لرقمنته. وفيما وراء ذلك، يعجز محرك بحث جوجل عن الوصول إليه.

إن الواقع أكبر بكثير من أجزاء المعلومات المتاحة لجوجل (أو ما يمكن أن يدخل في نطاق جوجل المعلوماتي). فعندما يمدنا جوجل بمعلومات، فإنه لا يبحث في كل الواقع. وعلى الرغم من أن نتائج بحث جوجل مثيرة للإعجاب، فإنها بطبيعتها محدودة للغاية ولا تزيد عن تقديم جزء ضئيل من جزء رقمي صغير من واقع لا نهاية لضخامته. فعلينا ألا نخلط بين البحث الشامل في جوجل والبحث الشامل في الواقع.

عملية البحث في جوجل إذن لا تمثل أفضل الطرق لحسم الأمور بشأن الطبيعة المطلقة للواقع.

وكما هو الحال مع جوجل، يتمتع البشر بإمكانية الوصول إلى جزء صغير جدًا من المعلومات التي تشكل حقيقة. وعلى الرغم من أننا قادرون على الحكم على نحو صحيح على أن لون هذا الجدار أصفر، فإن طيف الضوء المرئي يشكل 0,0035% فقط من الطيف الكهرومغناطيسي بأكمله. وبينما نعلم أن الطيف الكهرومغناطيسي يشمل بالإضافة إلى الطيف المرئي: موجات الراديو، الموجات الدقيقة، وموجات الأشعة تحت الحمراء، والموجات فوق البنفسجية، والأشعة السينيِة، وأشعة جاما = فقد توجد موجات كهرومغناطيسية لا يمكن أن نكون على دراية بها. وبينما نرى العالم بألوان الطيف المرئي (على سبيل المثال الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي ومجموعاتهم)، فإننا لا نعرف كيف سيبدو العالم لو أبصرنا موجات جاما أو الأشعة تحت الحمراء (وهي موجات مرئية لمخلوق لديه مجموعة مختلفة من الملكات الإدراكية). فعلى سبيل

المثال: تحدد الفراشات شريكها من خلال إدراك العلامات فوق البنفسجية، وتستخدم غزال الرنة الضوء فوق البنفسجي لاكتشاف الأشنة الصالحة للأكل. فكيف ترى الفراشات والغزلان العالم؟ إنه أمر لا يمكننا خبرته.

وبالمثل، فإنه يمكننا سماع أقل من 1% من الطيف الصوتي، بينما نعلم أن الخفافيش تستخدم خاصية تحديد الموقع بالصدى (الموجات الصوتية والصدى) كي "ترى" بالصوت، وليس لدينا أي فكرة عما "يراه" الخفاش (أو بمعنى أدق، ليس لدينا ادنى فكرة عن كيفية اختلاف وعي الخفافيش عن الوعي البشري). هل توجد ترددات صوتية تتجاوز ما قمنا بقياسه (التي لم نسمع معظمها ولا يمكننا سماعها)؟ وأخيرًا، بينما لدينا بعض الإحساس بنوع المادة / الطاقة التي يحويها العالم، فنحن لا نعرف أي شيء عن المادة المظلمة المفترضة والطاقة المظلمة اللذان تشكلان معًا 95% من مادة الكون.

لقد أطلنا النظر (من الناحية الاستدلالية) في أصغر العوالم دون الذرية وقدرنا - من بين أكثر الأشياء شهرة في هذه العوالم - وجود البروتونات والنيوترونات والإلكترونات (وأعني بضمير الجمع هنا بعض الأعضاء اللامعين في الجنس البشري وليس أنا تحديدًا). ويبدو أن هناك تجارب إضافية تؤكد وجود جسيمات أصغر، مثل الكواركات واللبتونات. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب، قرأت أن مصادم الهادرون الفائق الضخم اكتشف اليوم جسيمًا دون ذري جديد يسمى بنتاكوارك.

لقد تتبع الفيزيائيون الماضي إلى أكثر من 13,7 مليار سنة ولديهم وعي جيد إلى حد ما ببدايات كوننا بدءًا من الوقت 10^{-43} ثانية. ولكننا مع ذلك، ليس لدينا أي فكرة عما حدث بين الزمن 0 و 10^{-43} ثانية. بالإضافة إلى أننا لا نعرف ما حدث قبل الزمن صفر أو حتى ما قد يعنيه ذلك.

ولكن، وهنا يتضح ما أربو إليه، أليس من الممكن أن يكون هناك المزيد من الواقع دون الذري يفوق قدرة الإنسان المعرفية؟ أليس من الممكن أن يكون قد حدث شيء فائق الأهمية، مذهل للعقل، مغير للرؤية الكونية للعالم على نحو رائع ومفاجئ بين الزمن 0 و 10^{-43} ثانية؟ أليس من الممكن أن يكون هناك ما قبل

وربما الآن أو مجموعة من الآنات (أكوان متوازية؟) تتجاوز تجاوزا هائلًا أي شيء يمكن أن تصل إليه معداتنا الإدراكية التي وإن كانت قوية لكنها مع ذلك ضئيلة؟ فمهما يكن من أمر، لقد تم تشكيل وتكوين معداتنا الإدراكية في أسلافنا من فئة الرئيسيات استجابة للطغوط البيئية القهرية التي وإن كانت ضرورية للبقاء لكنها تافهة عادية (ضغوط من قبيل الحصول على اللحوم ثم مضغها على سبيل المثال، وليس من قبيل اكتشاف أن $E = mc^2$). ويبدو أننا قد نكون أفضل في التزاوج (وإن كنا لسنا بالغي البارعة في ذلك) من اكتشاف طبيعة الواقع المطلق.

ثم هناك كل تلك الأشياء التي لا يعرف عنها العلم شيئًا: الآلهة (إن كان وجودهم واجب)، والإرادة الحرة، والجمال والقبح، والوعي. العلم الطبيعي ممتاز، لكنه، مثل جوجل، ليس كل شيء. يمكننا الوصول من خلال جوجل إلى الكثير من المعلومات ولكن لا يمكننا أبدًا الوصول إلى كل الواقع. والفيزياء، على الرغم من نجاحها، لا يمكنها أبدًا الوصول إلى كل الواقع (بل ربما لا يمكنها الوصول إلى كل العالم الطبيعي؛ من يدري؟).

وعليه ألا نتوقع – مع أخذ ضآلة معداتنا الإدراكية وهشاشة إدراكنا للواقع في الاعتبار - وقوع بعض الخلاف حول الطبيعة المطلقة للواقع؟ إن الاستجابة الملائمة لعدم التناسب بين محدوديتنا الإدراكية ولا نهائية الواقع المذهلة ليس الغطرسة الفكرية التي نحن مفتونون بها للغاية، ولكن التواضع الفكري.

عندما ندرك عدم التناسب بين الواقع اللانهائي، من ناحية، ومعداتنا الإدراكية المحدودة، من ناحية أخرى، يجب أن نقول لجميع الباحثين البشر الذين بذلوا قصارى جهدهم لمعرفة كل شيء ولكنهم انتهوا إلى وجهات نظر متباينة تمامًا: "أنا أحترمك وأجل محاولتك الجادة والشجاعة لفهم طبيعة الواقع ومحاولتك أن تعيش حياتك بإخلاص وفقًا لفهمك للواقع. ساعدني على فهم معتقداتك، وإذا كان لديك وقت، فسأكون سعيدًا أن أشاركك فهمي للواقع". وحتى إذا لم يكن وقت لتوضيح معتقداتك، اخلع قبعتك قبل أن تغادر وانحني بعمق، وعبر عن امتنانك لهم لمشاركتهم نضالهم في سبيل الفهم، ثم اذهب إلى المنزل وفكر في ما تعلمته منهم

(ولا تقلل منهم أبدًا بأن تراهم أقل منك مرتبة سواء من الناحية العقلانية أو الأخلاقية، ولا تظن في نفسك مطلقًا أنك متفوق فكريا وأخلاقيا عليهم).

الأجساد والعقول والآلهة

من اللافت للنظر أن البشر تمكنوا - على الرغم من أصولهم الإدراكية المتواضعة - من التنظير المثمر للعالم التجريبي. تطورت ملكاتنا الإدراكية من أسلافنا من الرئيسيات استجابةً للضغوط الانتقائية الأرضية العادية الداعية إلى الأكل والتزاوج على سبيل المثال. ومع الزيادة المبكرة لمجموعات الإنسان العاقل Homo sapiens، فإن الحاجة إلى فهم أعضاء آخرين في المجموعة وإيصال هذا الفهم لهم ربما أدت إلى زيادة القدرة على التفكير والتحدث بالكلمات. وفي وقت ما، تعلم البشر الممارسة المفيدة للغاية المتمثلة في ربط الأرقام بأشياء مختلفة وطوروا القدرة على التفكير في ماذا لو؟ (أي أننا تعلمنا أن نفكر بطريقة مغايرة للواقع). وفي وقت متأخر جدًا من تاريخ البشرية، أدت زيادة قدرة التفكير وسعته جنبًا إلى جنب مع التفكير العددي والتفكير المغاير للواقع إلى إنتاج علم الكيمياء، وعلم الأحياء، وعلم التشريح، وفي النهاية الفيزياء. قفز البشر بطريقة ما، بعد 200 ألف عام من ظهور الإنسان العاقل لأول مرة، من 1 و 2 و 3 إلى $E = mc^2$.

وبالمثل شكلت تلك القدرات الإدراكية العادية للغاية المعتقدات والممارسات الدينية (وإنكارها). وقد دعت الحاجة إلى العمل بمهارة في مجموعات كبيرة متزايدة إلى فهم الفعل الإنساني فهمًا عميقًا. وأهم من ذلك، أن الحاجة إلى التفاعلات الناجحة في المجموعات الكبيرة دعت إلى القدرة على سرعة استيعاب ما يفكر فيه أو يشعر به الآخرون. البشر مرتابون، كما ترى، ونحتاج أن نعرف (على وجه السرعة) من يمكننا الوثوق به ومن لا يمكننا الوثوق به. إن قدرتنا على قراءة العقول - أفكار الآخرين ومشاعرهم ورغباتهم - كانت ضرورية بلا شك لبقاء الإنسان. وهكذا ظهرت نظرية العقل المتجانسة للغاية التي، باقترانها مع جهاز كشف الفاعلين، تشكل المعتقدات عن الله (جنبًا إلى جنب مع الملكات الإدراكية العادية تمامًا مثل الغائية غير الانتقائية promiscuous teleology). فنحن نعتقد في الله بنفس

الأدوات الإدراكية التي نعتقد بها في الناس، وأحيانًا، الحيوانات كالدولفين؛ لا وجود لشيء مميز ههنا.

وإذا كنا نعتقد في الله بملكاتنا الإدراكية العادية جدًا، فإننا نتخلى عن الاعتقاد في الله بملكاتنا الإدراكية العادية جدًا أيضًا. وإذا كانت لدينا تحيزات معرفية تدفعنا إلى الاعتقاد، فمن المحتمل جدًا أن يكون لدينا تحيزات معرفية تدفعنا إلى عدم الإيمان.

إن إدراكنا أننا، في الأصل، مخلوقون من غبار تطوري لهو أمر مرعب. إن ما يجعلنا بارعين في التفكير في تجنب الحيوانات المفترسة وجذب شركاء الحياة هو نفسه ما يجعلنا غير بارعين في التفكير في الفيزياء وغير بارعين أيضًا بل ولا حتى ممتلكين لقدرات متوسطة للتفكير في الفلسفة (الله، والحرية، والخلود). تأتي أجهزتنا الإدراكية التي يكسوها الغبار مع تحذير صارم: أن لا نتجاوز الحدود. فهل اصطدمنا بحدودنا الإدراكية بالفعل قبل أن نصل إلى الآلهة؟

يبدو لي أن المؤمنين يجب أن يقاوموا على الأقل بعض المخاوف التشكيكية عند التفكير في الأصول المتواضعة لعقولنا المجسدة. يعتقد المؤمنون بأننا خلق الله وأن كل ما خلقه الله خير. وإذا كان ذلك كذلك، فإن أجسادنا خيرة والوجود المتجسد خير. ومهما يكن الرأي في التمييز بين الروح والجسد، فإن الوعي البشري متشابك تشابكًا وثيقًا مع أدمغتنا. فنحن نفكر، لا بأدمغتنا منفردة ولا بأرواحنا منفردة؛ ولكن عندما نفكر فإن أدمغتنا تشارك (وكذلك أجسادنا ومجتمعاتنا). وإذا كان الله يتواصل معنا أو يحبنا، فإننا نقوم بمعالجة كلام الله ومحبته بأدمغتنا. وإذا كان لدينا إيمان، فهناك بنية أساسية في أدمغتنا تقوم بمعالجة اعتقادنا بالله وتثبيته. وإذن، فهم الدماغ هو إحدى الطرق التي يمكننا من خلالها الوصول إلى فهم أفضل لإيماننا. وإذا كان الله قد خلق فينا وعيًا معتمدًا على الدماغ، فإن فهم الوعي القائم على الدَماغ (حتى ولو كان لله نفسه) هو أمر جيد (وبالتالي لا ينبغي الخوف من علوم الدماغ).

وأيضًا ينبغي على المؤمنين أن يكون لديهم شعور قوي بأن البشر ليسوا آلهة. فلسنا عالمين بكل شيء، ولا لدينا نظير للمنظور الإلهي عن كل الواقع المتجاوز

للمكان والزمان. بل نحن، أولاً وقبل كل شيء، مخلوقات (مع كل ما يلزم عن ذلك). نحن موجودون في هذه المرحلة من تاريخ البشرية على هذا الكوكب الصغير الموجود داخل تلك المجرة الواقعة في ركن بعيد من الكون والتي باستثناء وجودنا فيها لا تبدو لها أهمية ما. لدينا ملكات إدراكية - فوق القردة ولكن دون الملائكة (وأقل كثيرًا عن الله). وعندما نجمع بين عرضيتنا المتأصلة ومحدوديتنا الفكرية، فلا عجب أن نقتبس من القديس بولس قوله: إننا "نرى من خلال زجاج غامق".

لقد وصلنا الآن إلى أرضية مألوفه للمؤمن وغير المؤمن على حد سواء: لسنا آلهة. وبما أننا لسنا آلهة، فنحن إذن مخلوقات، وبالتالي فإن أنماط الفهم المحدودة البائدة غير المعصومة تكون هي اللائقة بنا. ولا يمتلك أي منا، مؤمن أم غير مؤمن، منظورًا إلهيا في أي من هذه القضايا؛ ولا يمكننا أن ننظر ما بداخل عقول الآخرين لنرى معتقداتهم أو مواطن القصور العقلية لديهم (ولسنا نتمتع بالنزاهة التامة بشأن معتقداتنا وأوجه القصور الخاصة بنا). التواضع، إذن، وليس التصريحات المتغطرسة على شخصية أو معتقدات الآخرين، هو ما نحتاج إليه في عصرنا هذا. إن القليل من الفكاهة والكثير من الأعمال الخيرية والمزيد من التواضع يبدو مطلوبًا عندما نفكر في أمر عقلانية الإيمان وعدم الإيمان.

الملحق

الاستدلال والحدس والعقلانية

العقلانية، كما أستخدمها في هذا الكتاب: هي أن يبذل الإنسان قصارى جهده في استخدام الملكات الإدراكية لاكتشاف الحقيقة أو لفهم الواقع، وذلك يتضمن استخدام ملكات الحدس والاستدلال معا. ولكن المناقشات حول الاعتقاد العقلاني عادة ما تبالغ في تقدير التفكير الاستدلالي وتحط في المقابل من شأن التفكير الحدسي. يقول ريتشارد دوكينز، على سبيل المثال: "بصفتي عاشقًا للحقيقة، فأنا متشكك في تلك المعتقدات الراسخة التي لا تدعمها الأدلة"[1]. وعادة ما تبالغ الدراسات النفسية عند مقارنة التفكير الحدسي بالتفكير الاستدلالي في تقدير قيمة الأخير على الأول[2]. ويستمر روتين الفلاسفة، وهم أهل تجارة الحجج، في تقدير قيمة المعتقدات المكتسبة عن طريق النظر والاستدلال على تلك المكتسبة على نحو مباشر.

سأجادل أن المفكرين الاستدلاليين (المرتبطين بالإلحاد) ليسوا أكثر عقلانية - على الأقل في الأمور الفلسفية (بما في ذلك الإيمان بالله) - من المفكرين الحدسيين (المرتبطين بالإيمان). وبصيغة أكثر جدلية: الملحد الذي اكتسب عدم الإيمان على أساس حجة (أي عن طريق النظر والاستدلال) ليس أكثر عقلانية من المؤمن الذي آمن على أساس ملكة الاعتقاد بالله فحسب (أي عن طريق الحدس).

---

(1) Richard Dawkins, A Devil's Chaplain: Reflections on Hope, Lies, Science, and Love (Boston: Houghton Mi'in, 2003), 117.

(2) Alexandra L. Varga and Kai Hamburger, "Beyond Type 1 vs. Type 2 Processing: The Tri-Dimensional Way," Frontiers in Psychology 5 (2014): 993.

لا يمكن للبشر بمحدوديتهم وعدم عصمتهم من الوقوع في الخطأ أن يكتسبوا معتقدات صادقة عن العالم دون مجموعة واسعة من المعتقدات الحدسية أو الأساسية. فنحن نعتقد، على سبيل المثال، اعتقادًا حدسيًا وعقلانيًا أن 2+2=4، وأن التسبب في معاناة الأبرياء ظلم، وأن المستقبل سيكون مثل الماضي، وأن هناك عالما خارج أذهاننا. إن التفكير الحدسي ينتج معتقدات تأسيسية واسعة الانتشار، بل وصادقة؛ ولا يمكننا أن نعتقد في شيء دون الاستعانة بهذه المعتقدات الأساسية. ومعظم معتقداتنا العميقة والأكثر انتشارًا هي على الأغلب معتقدات حدسية[3]. وهي معتقدات عقلانية من حيث الأصل (وذلك على الافتراض الحسن، وهو ما ينبغي علينا فعله، بأن المرء قد بذل قصارى جهده لاكتساب الحقيقة). وبالطبع، يعتقد الناس حدسيًا كذلك أن بعض البشر خلقوا ليكونوا عبيدًا، وأن الأرض مسطحة، وأن النساء لسن عقلانيات. وعلى الرغم من أن المعتقدات الحدسية غالبًا ما تكون عقلانية، فإنها غير معصومة من الخطأ.

ولكن ليست كل معتقدات الإنسان - ولا ينبغي أن تكون - مكتسبة عن طريق الحدس، فبعض معتقدات الإنسان العقلانية استدلالية. فيجب على هيئة المحلفين مثلا أن لا تحكم على المتهم بالذنب إلا بعد دراسة متأنية للأدلة المؤيدة والمعارضة؛ وقد يقرر الإنسان شراء شامبو معين بعد قراءة عدة مراجعات حوله؛ وينبغي على عالم الأحياء أن يتريس في اعتناقه النشوء مع التعديل descent with modification[4] بعد قراءة متأنية لكتاب أصل الأنواع؛ ويجب على أينشتاين أن لا

---

(3) Kelly James Clark, *Return to Reason* (Grand Rapids: Eerdmans, 1990); Elizabeth Spelke and Katherine D. Kinzler, "Core Knowledge," *Developmental Science* 11 (2007): 89-96; Kelly James Clark and Justin L. Barrett, "Reidian Religious Epistemology and the Cognitive Science of Religion," *Journal of the American Academy of Religion* 79.3 (2011): 639-75.

(4) النشوء مع التعديل هو المصطلح الذي استخدمه داروين للتعبير عن فكرة الأصل المشترك، وتعني التوريث الثابت المستمر للصفات المعدلة من الأصل المشترك إلى السلالة المنحدرة عبر الأجيال (المترجم)، انظر:
Kostas Kampourakis, Understanding Evolution (Cambridge University Press, 2014), p211.

يؤكد أن $E = mc^2$ إلا بعد إجراء بعض التجارب الفكرية thought experiments[5] والاستنباط الرياضي. وبالتأكيد، لا يعرف معظمنا (بما في ذلك معظم العلماء) الدليل الذي يدعم $E = mc^2$، وبالتالي فإن اعتقادنا العقلاني بأن $E = mc^2$ لا يعتمد على الأدلة العلمية ولكن على الشهادة.

إذن، تأتي المعتقدات العقلانية في شكلين: حدسي واستدلالي. وإذا قصرنا أنفسنا على المعتقدات الاستدلالية، فلن نتمكن من الاعتقاد بأي شيء. وإذا كان لدينا معتقدات عقلانية استدلالية، فيجب أن يكون لدينا أيضًا معتقدات عقلانية غير استدلالية[6]. ولذا فإن العقل لا يحررنا - ولا يمكن له أن يفعل ولا ينبغي له - من المعتقدات الحدسية.

ولا يخلو استدلال من أن ينتهي إلى حدوس مفترضة. ولا يظهر الاعتماد على الحدس غالبًا بسبب التعقيد الملحوظ للحجج الفلسفية. فخلف تلك الرموز والصور والقضايا المتداخلة ستجد مبدأ حدسيًا. ولابد في كل حجة فلسفية من وجود فرضية أساسية واحدة على الأقل لا يمكن الجدال بشأنها. ما عليك إلا أن تغلغل بعمق

---

(5) المقصود بالتجارب الفكرية التفكر في العواقب والنتائج المحتملة للنظرية موضع الدراسة بطريقة منظمة (المترجم).

(6) لست متجاهلا للتحيزات الحدسية، والتي تم توثيقها توثيقًا جيدا، انظر:
Daniel Kahneman, *Thinking Fast and Slow* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2011).
ولكن هناك أيضًا تحيزات استدلالية. على سبيل المثال، لدينا ميل إلى أن نكون متيقظين للأدلة أو الحجج التي تدعم معتقداتنا وغير متيقظين للأدلة أو الحجج التي تتعارض مع معتقداتنا. ليست كل المعتقدات الاستدلالية صادقة. لقد استنتج الناس معتقدات غير صادقة مثل: نظرية فلوجيستون Phlogiston theory، وأنه "يجب على المرأة أن تتطلع إلى أن تكون جميلة" (لأنها لا يمكن أن تكون عقلانية)، و أن "نيكسون سوف يكون رئيسًا عظيمًا". ويبدو أن العلماء أنفسهم قد استنتجوا ما أوقعهم في تناقض بين نظريتين علميتين هما الأكثر قبولًا ونجاحًا - ميكانيكا الكم والنسبية العامة. لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا. وأخيرًا، يواصل الفلاسفة، من بين أكثر المدافعين عن الجدل حماسة، امتلاك مجموعة متنوعة من المعتقدات المتضاربة. يؤمن بعض الفلاسفة بحماس بينما ينكر آخرون بقوة متساوية ما يلي وأكثر (استعير هنا بعض الامثلة من مجال الأخلاق؛ ويمكن استخلاص الأمثلة من كل مجال من مجالات الفلسفة): توجد حقائق أخلاقية مطلقة، وتوجد حقائق أخلاقية، وتوجد فضيلة إنسانية.

كاف وسترى نقطة البداية التي لا جدل عليها. إن نقطة البداية هذه التي لا يختلف عليها هي مبدأ حدسي: حكم مباشر غير استدلالي. ومثل هذه الحدوس قد تستنبط من القصص، وقد تدفعنا إليها الوقائع، وقد تنتقد بأمثلة مضادة، وقد ننشدها في النظريات = لكنها ليست مبرهنة ولا يمكن برهنتها. ولا يملك الإنسان إلا أن يأخذها كما هي (أو يتركها)[7].

يتطلب الاستدلال نفسه افتراضات حول طبيعة وقوة المنطق، على سبيل المثال، أو حول قابلية التطبيق ومعنى الاحتمال. كما يفترض الاستدلال الكيفية التي يبدو بها الواقع لنا (حدس) في كل مجال من مجالات التحقيق البشري. إن معتقداتنا العادية الفطرية تعتمد على حدسنا (الافتراضات غير الاستدلالية) بخصوص المكان والزمان، وموثوقية الإدراك الحسي، والاعتقاد بوجود الماضي، والاعتقاد بوجود العالم الخارجي. وتفترض الاستدلالات العلمية - دون لجوء إلى حجج - اطراد الطبيعة، والمبدأ الاستقرائي، وحقائق الرياضيات.

وعلى الرغم من أننا مضطرون إلى الاعتماد على حدوسنا، فإننا لسنا على درجة عالية من البراعة الميتافيزيقية التي تمكننا من إدراك الحدوس المتضمنة، على سبيل المثال، في حجة لإثبات (أو لنفي) وجود الله، أو حجة لمعيار أخلاقي مطلق وكلي، أو حجة لإثبات لامادية للواقع إدركا واضحًا لا يعتريه شك. قد تتضمن

---

(7) يحاجج بعض الفلاسفة أن الحدوس الفلسفية يمكن برهنتها بالدليل، بينما يرفض آخرون بشدة هذه المحاججة. انظر:

Herman Cappelen, *Philosophy without Intuitions* (Oxford: Oxford University Press, 2012).

توجد أدلة تجريبية متزايدة على أن الحدس يختلف وفقًا لعوامل مثل: الخلفية الثقافية، والوضع الاجتماعي والاقتصادي، والحالة العاطفية. انظر:

onathan M. Weinberg, Shaun Nichols, and Stephen Stich, "Normativity and Epistemic Intuitions," Philosophical Topics 29 (2001): 429-60; Shaun Nichols, Stephen Stich, and Jonathan M. Weinberg, "Metaskepticism: Meditations in Ethno-Epistemology," in *The Skeptics*, ed. Stephen Luper (Aldershot: Ashgate, 2003), 227-47; Edouard Machery et al., "Semantics, Cross-Cultural Style," Cognition 92.3 (2004): B1-B12; Shaun Nichols and Joshua Knobe, "Moral Responsibility and Determinism: The Cognitive Science of Folk Intuitions," *Nou* 41.4 (2007): 663-85; Stacey Swain, Joshua Alexander, and Jonathan M. Weinberg, "The Instability of Philosophical Intuitions: Running Hot and Cold on True Temp," *Philosophy and Phenomenological Research* 76.1 (2008): 138-55.

البديهيات المرتبطة بهذه المجالات إدعاءات بأن التسلسل اللانهائي للأسباب أمر باطل عقلا، وأن التقريرات الأخلاقية تتطلب أساسًا، وأن المظاهر الحسية يمكن تفسيرها تفسيرًا مناسبا دون الرجوع إلى العالم المادي. وتعتمد المناقشات في النظرية السياسية، والأخلاق، ومعنى الحياة، وطبيعة الإنسان، والحتمية، والإرادة الحرة على مقدمات جوهرية حدسية. وإذن، كل اعتقاد فلسفي جوهري عن الواقع يظهر التزام الفرد المخفي بالمعتقدات الأساسية الحدسية.

والآن لننتقل إلى الإيمان بالله. إن اعتقاد كل فرد، أو عدم اعتقاده، بالله، سواء كان ذلك استدلاليا أم لا، يرتكز في النهاية على الحدس[8]. وعند معظم المؤمنين فإن الاعتقاد بالله اعتقاد حدسي - أي أنه لا يتوقف على نظر واستدلال. وأما أولئك اكتسبوا اعتقادهم بالله عن طريق الاستدلال فهم يعتمدون على حجج ترتكز على الحدوس (مثل: مبدأ السبب الكافي، أو موضوعية الأخلاق)[9]. وأظن أن العديد من غير المؤمنين، وربما معظمهم، لم يلحدوا بسبب تقييمهم الدقيق للحجج التأليهية: بل هم متحيزون تحيز مسايرة أو للمكانة الاجتماعية، وقد يكون إلحادهم ناتج عن التوحد (من يدري؟). ماذا عن أولئك الذين أنكروا الإيمان بالله بطريق الاستدلال؟ حتى أولئك الملحدون مضطرون، كما أجادل، إلى الاعتماد على مبادئ ابستمولوجية حدسية (غير استدلالية) (ربما بافتراض أن الاعتقاد بالله يجب قبوله أو رفضه وفقًا لمنهج العقلانية العلمية) أو على مبادئ ميتافيزيقية (ربما برفض مبدأ السبب الكافي أو موضوعية الأخلاق).

ومن الممكن أن نتزود ببعض الفهم لدور الحدس في تكوين المعتقدات

---

(8) يجب علينا أيضًا أن نفترض (نسلم بـ) العديد من المبادئ المعرفية حول طبيعة الاعتقاد ومعياريته. على سبيل المثال: يجب على المرء أن يفترض (أو ينكر) (أ) أن الاعتقاد بالله يجب أن يقوم على الدليل، أو (ب) أن الخلاف مع الأقران المتساويين فكريًا يقوض عقلانية المرء. وإذا أكد الإنسان (أ)، فيجب عليه أيضًا وضع افتراضات حول طبيعة الحجة: هل هي استنباطية، أم احتمالية، أم تراكمية، أم استدلال لاستخراج أفضل تفسير.

(9) أترك للدليلي القوي، ملحدًا كان أم مؤمنًا، أمر الدفاع عن صحة حدوسهم الأساسية المتضمنة في الحجج على وجود الله؛ كما قد يخمن المرء من مناقشتي، أنا في شك من قدرتهم على ذلك.

الفلسفية من خلال المقارنة بين أفلاطون وأرسطو. كان أفلاطون متشككًا بشدة في الإدراك الحسي، راجيًا الهروب من هذا العالم الغامض المراوغ والمخادع إلى الحقيقة والخير. وعلى الرغم من تأثر أرسطو القوي بمعلمه، فإنه كان ميالًا على نحو متأصل إلى العبث والتلذذ ورؤية الواقع في هذا العالم المادي ذاته الذي احتقره أفلاطون. ففلسفة أرسطو تؤكد هذا العالم: الهيولي والجزئيات. وبينما دافع كلاهما عن وجهة نظره الخاصة عن العالم، فقد اعتمدوا اعتمادًا تأصيليًا على حدوس مختلفة. فكلاهما يمكن أن يفسر كل ما يختبره البشر تفسيرًا جيدًا. ومع ذلك، كان استدلالهم مدفوعًا بحدوسهم المختلفة حول تواجد الحقيقة في هذا الاتجاه أو ذاك. وفي حين أنه يمكن العثور أحيانًا على حدوسهم معبرًا عنها في الحجج، فإنه الحدس، وليس الاستدلال، هو الذي قاد تطوير وجهات نظرهم للعالم.

إن التفكير الفلسفي متأصل بعمق في الحدس على نحو لا يمكن التخلص منه. ويجادل الفيلسوف هيلاري كورنبليث[10] Hilary Kornblith بأنه لا يوجد سبب للاعتقاد بأن التفكير الفلسفي (الاستدلال) أفضل من التفكير غير التأملي (غير الاستدلالي)[11]. وتظهر الدراسات التجريبية أن النظر التأملي غالبًا ما يكون غير دقيق بسبب تحيز المسايرة وميلنا إلى العقلنة والتبرير (بعد وقوع الخطأ). وعند مواجهة أنفسنا ينتج التفكر تبريرات وإحساس زائف بأن لدينا أسبابًا جيدة لما نعتقد به. وإذن، لا يجعلنا التفكر في معتقداتنا أقرب إلى الحقيقة دائمًا.

نادرًا ما نكتسب المعتقدات نتيجة للانتباه العقلاني الهادئ والواضح والنزيه للحجج (على الرغم من تباهينا بقيامنا بذلك). وغالبًا ما تكون معتقداتنا وممارساتنا نتاج عمليات منتشرة على نطاق عالمي، وأحيانًا تكون تلك العمليات غير واعية (ضمنية) وتنشط تلقائيًا في ظل مجموعة متنوعة من الظروف. "وقد انبثق عن ربط علم النفس الاجتماعي بعلم النفس الإدراكي وعلم الأعصاب الإدراكي = علم جديد يَسمى الإدراك الاجتماعي الضمني (ISC). يركز هذا المجال على العمليات

---

(10) فليسوف أمريكي بارز في الابستمولوجيا ويشغل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة ماساتشوستس أمهيرست (المترجم).

(11) Hilary Kornblith, *On Reflection* (Oxford: Oxford University Press, 2012).

العقلية التي تؤثر على الأحكام الاجتماعية والتي تعمل دون وعي مدرك[12]. وتنشط هذه التحيزات المنتشرة لا إراديًا ودون وعي أو تحكم إرادي. فعلى سبيل المثال: تظهر الدراسات أنه بينما يتنصل غالبية الأمريكيين صراحة من العنصرية فإن لدى هذه الأغلبية في الواقع تحيزات معادية للسود تفرز اعتقادات وسلوكيات مختلفة. وأن معظم الأمريكيين منحازون لأمور تتعلق بالعمر والجنس ولون البشرة والعرق والجنسية والعرق والتوجه الجنسي والطبقة والوزن، وبالطبع، الدين. وتدفع مثل هذه التحيزات البعض منا إلى معتقدات وممارسات تعمل على الإضرار والإقصاء للسود أو النساء أو الأشخاص الذين يعانون من زيادة الوزن[13]. وحتى بعد التدريب المستمر، والفحص الذاتي الشامل، والرغبة الحقيقية في التغيير = تستمر هذه التحيزات وتظهر على السطح بطرق تضر من هم على الطرف المقابل. وتجري هذه العمليات العقلية اللاواعية في الخفاء وتوجه عمليات التفكير الإنساني.

عندما أتصدى لفهم تلك العمليات أو التحيزات الذهنية اللاواعية، فأنا أحيانًا أحكي لنفسي قصة، قصة تضفي المعنى على معتقداتي وأفعالي، قصة تبرر سلوكي (أكون فيها مفكرًا دقيقًا وعقلانيًا وشخصًا فاضلا). ومثل هذه القصص، التي يأتي دورها في الترتيب بعد أن اعتقد معتقداتي أو أقوم بأفعالي وتُقدم على الرغم من ذلك كأسباب صريحة لهما، ليست أكثر من تخيلات (هراء، باستخدام المصطلح العامي). أجعل من نفسي البطل العقلاني في هذه الدراما التي أصنعها. وأشعر بتحسن - كالشعور بأني أكثر عقلانية وأكثر قربًا من الفضيلة - بعد سماع قصتي والاهتمام بها. تجعلني هذه القصص في الواقع أكثر ثقة في معتقداتي، وأكثر فخرًا ببراعتي الفكرية، وأكثر تأكيدًا لفضائلي، وأحيانًا، أكثر بعدًا عن الحقيقة.

ينتقد كورنبليث إصرار الفيلسوف على اشتراط النظر العقلي لسببين: (1) بسبب ضرورة الحدوس لكل حجة فلسفية. و (2) بسبب ميلنا البشري المتأصل فينا

(12) Jerry Kang and Kristin Lane, "Seeing Through Colorblindness¤ Implicit Bias and the Law," *UCLA Law Review* 58.2 (2010): 467.

(13) Eldar Shafir, ed., *The Behavioral Foundations of Public Policy* (Princeton: Princeton University Press, 2012).

إلى تقديم تبريرات بهدف عقلنة وتبريرات معتقداتنا الحالية (التي اكتسبناها عن طريق الحدس). وغالبًا ما يكون الناس أكثر ثقة في معتقداتهم بعد تقديم مثل هذه التبريرات، وإن لم يكن لديهم دليل جيد. وعلى الرغم من أنهم يجدون مبرراتهم المزعومة لمعتقداتهم الأولية مقنعة، فإنها مجرد أسباب باطلة من حيث كونها لا تقدم أي دعم منطقي لمعتقداتهم الأولية. ومثلما يتأثر البشر في اكتسابهم للمعتقدات الحدسية أو المباشرة بمجموعة متنوعة من الطرق غير المفضية في الأصل إلى الحقيقة، فإنهم أيضًا عرضة للطرق غير المفضية في الأصل إلى الحقيقة لتبرير معتقداتهم. يقول كورنبليث: "وإذن، فالفكرة التي مفادها أن النظر في مصدر معتقداتنا يمكِّننا من إخضاعها لنوع من الفحص المناسب يؤدي بدوره إلى تحسين دقة المعتقدات الناتجة = هي فكرة مضللة. عندما نفكر بهذه الطريقة يتكون لدينا انطباع بأننا نقدم حقًا نوعًا من الفحص الإضافي لمعتقداتنا، ومن ثم يتكون لدينا انطباع قوي جدًا بأننا نقوم حقًا بفعل ما يضمن لنا وثوقية الطريقة التي اكتسبنا بها معتقداتنا. ولكننا في الواقع لا نقوم بذلك على الإطلاق"[14].

إن هذا السلوك - الذي يسميه كورنبليث مباركة الذات self-congratulation - لا يفعل سوى أنه يجعلنا نشعر بتحسن تجاه أنفسنا وتفوقنا على أولئك الذين نراهم مخطئين. وكما يشير كورنبليث، لدينا ميل قوي لتفضيل المعتقدات لمجرد أنها معتقداتنا. ولدينا ميل قوي نحو المحافظية الاعتقادية belief conservatism - أي محافظة أو صون معتقداتنا الراسخة بالفعل. فنحن نميل إلى ملاحظة وتفضيل الأدلة التي تدعم معتقداتنا الحالية وتجاهل أو استبعاد الأدلة التي تعارضها. ونتذكر بسهولة الأدلة الداعمة لمعتقداتنا، بينما ننسى بسهولة الأدلة التي تعارضها. ولذا لا عجب أننا في تلك المناسبات القليلة الثمينة التي نتوقف فيها "لنتفكر" في معتقداتنا الحالية نجد أنفسنا أمام معتقدات راسخة موثوق بها بإفراط.

ولأنَ الحجج الفلسفية تعتمد في أساسها على الحدس، فإن الاعتماد على الحجج أو على الحدس لا يفضل أحدهما الآخر من حيث اكتساب الحقيقة. وفي

---

(14) Kornblith, *On Reflection*, 24-25.

الواقع، قد يكون كلاهما سيئ بنفس القدر بخصوص اكتساب المعرفة الفلسفية. وعلى عكس العديد من المعتقدات الحدسية خارج النطاق الفلسفي، فإنه عندما يتعلق الأمر بالحدوس الفلسفية فلا يمكننا التحقق من الوقائع لمعرفة ما إذا كانت موثوقة؛ ليس لدينا وصول مستقل عن المعتقد إلى العالم الفلسفي.

إذن، فيما يتعلق بالمسائل الفلسفية (بما في ذلك الاعتقاد أو عدم الاعتقاد بالله) فإن الحدس والاستدلال يقعان على أرضية متساوية معرفيًا. وإذا كانت العقلانية هي بذل أقصى الجهد للتوصل إلى الحقيقة، فلا يملك أي من الحدس أو الاستدلال ميزة معرفية تفضل أحدهما على الآخر.

وبينما يرفع علماء الطبيعة وعلماء النفس والفلاسفة من شأن التفكير الاستدلالي على التفكير الحدسي، وبينما قد يرتبط التفكير الاستدلالي بمعدل الذكاء المرتفع = فإن البشر لا يمكنهم تجنب الاعتماد على الحدس. ويزداد أمر الاعتماد إلحاحًا في الأمور الفلسفية. قم بخدش أهل النظر والاستدلال وستجد حدسًا. وأنظر بعناية إلى حجة الفيلسوف وستجد في حجته مقدمة أساسية مسلم بها حدسيًا. وحتى بالنسبة إلى أشد الناس تحمسًا لمطلب الدليل، فإن تفكيرهم الجدلي يبدأ بالحدس[15].

قد يكون المعتقد الديني في أغلب أحواله غير استدلالي، ولكن المؤمنين الدينيين ليسوا معدومي الحس الدليلي. وقد يكون الملحدين أكثر استعمالا للاستدلال، لكن الحجج تفترض حدوسًا. فلا يتمتع أي منهما بميزة معرفية[16].

(15) من الصعب تخيل قصة تطورية (طبيعانية) معقولة يكون تطوير الحدس الفلسفي الموثوق به فيها ناجحًا تكاثريًا.

(16) لا يُظن أني أستخف بجميع الاستدلالات فإني لا أقصد ذلك. وبينما أعتقد أن الحجج الفلسفية واللاهوتية تنتهي في أساسها إلى حدس غير مشترك حول طبيعة الواقع، فإني لا أعني أن كل حجة في كل مجال هي كذلك. على سبيل المثال: أعتقد أن لدينا حدسًا مشتركًا على نطاق واسع يوجه التفكير في كل من الرياضيات والعلوم الطبيعية. لا أدعي أن العلم خالٍ من الحدس. فهو ليس كذلك. ولكن بما أن العلماء اليوم يتشاركون العديد من تلك الحدوس، فإن النقاشات العلمية يمكن حلها.

Bibliography

Abbey, Antonia. "Sex Differences in Attributions for Friendly Behavior: Do Males Misperceive Females' Friendliness?" *Journal of Personality and Social Psychology* 42 (1982): 830-38.

Alexander, Eben. *Proof of Heaven: A Neurosurgeon's Journey into the Afterlife*. New York: Simon and Schuster, 2012.

Alexander, Joshua, and Jonathan Weinberg. "Analytic Epistemology and Experimental Philosophy." *Philosophy Compass* 2 (2007): 56-80.

Alper, Matthew. *The God Part of the Brain*. Boulder: Rogue, 2000.

Alston, William. *Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience*. Ithaca: Cornell University Press, 1991.

—. *The Reliability of Sense Perception*. Ithaca: Cornell University Press, 1993.

American Psychiatric Association. *Diagnostic and Statistic Manual of Mental Disorders*. 5th ed.

Arlington: American Psychiatric Publishing, 2013.

Apperly, Ian. *Mindreaders: The Cognitive Basis of Theory of Mind*. Hove: Psychology Press, 2011.

Apperly, Ian, and Stephen A. Butterfill. "Do Humans Have Two Systems to Track Beliefs and Belief-like States?" *Psychological Review* 116.4 (2009): 953-70.

Argyle, Michael. *Psychology and Religion*. London: Routledge, 2000.

Aron, Arthur, Elizabeth Nancy Aron, and Danny Smollan. "Inclusion of Other in the Self Scale and the Structure of Interpersonal Closeness." *Journal of Personality and Social Psychology* 63.4 (1992): 596-612.

Asch, Solomon E. "Opinions and Social Pressure." *Scientific American* 193.5 (1955): 31-35.

—. "Studies of Independence and Conformity, I: A Minority of One against a Unanimous Majority." *Psychological Monographs: General and Applied* 70.9 (1956): 1-70.

Atran, Scott. *In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion*. Oxford: Oxford University Press, 2002.

Attwood, Tony. *The Complete Guide to Asperger's Syndrome*. London: Jessica Kingsley, 2007.

Audi, Robert. *Epistemology: A Contemporary Introduction to the Theory of Knowledge*. New York: Routledge, 2010.

Baron-Cohen, Simon. "Autism: The Empathizing-Systemizing (E-S) Theory." *Annals of the New York Academy of Sciences 1156.1 (2009): 68-80.*

—. "The Autistic Child's Theory of Mind-A Case of Specific Developmental Delay." *Journal of Child Psychology and Psychiatry and Allied Disciplines 30.2 (1989): 285-97.*

—. *Mindblindness: An Essay on Autism and Theory of Mind*. Cambridge, MA: MIT Press, 1995.

Baron-Cohen, Simon (principal author). *Mind Reading: The Interactive Guide to Emotions*. London: Jessica Kingsley Publisher, 2003.

Baron-Cohen, Simon, Rosa A. Hoekstra, Rebecca Knickmeyer, and Sally Wheelwright. "The Autism-Spectrum Quotient (AQ)-Adolescent Version." *Journal of Autism and Developmental* Disorders 36.3 (2006): 343-50.

Baron-Cohen, Simon, Therese Jolliffe, Catherine Mortimore, and Mary Robertson. "Another Advanced Test of Theory of Mind: Evidence from Very High Functioning Adults with Autism or Asperger Syndrome." *Journal of Child Psychology and Psychiatry and Allied Disciplines* 38.7 (1997): 813-22.

Baron-Cohen, Simon, Alan M. Leslie, and Uta Frith. "Does the Autistic Child Have a 'Theory of Mind'?" *Cognition* 21 (1985): 37-46.

Baron-Cohen, Simon, Jennifer Richler, Dheraj Bisarya, Nhishanth Gurunathan, and Sally Wheelwright. "The Systemizing Quotient: An Investigation of Adults with Asperger's Syndrome or High Functioning Autism, and Normal Sex Differences." *Philosophical Transactions of the Royal Society* 358 (2003): 361-74.

Baron-Cohen, Simon, Fiona J. Scott, Carrie Allisona, Joanna G. Williams, Patrick Bolton, Fiona Elaine Matthews, and Carol Brayne. "Prevalence of Autism-Spectrum Conditions: UK School-Based Population Study." *British Journal of Psychiatry* 194.6 (2009): 500-509.

Baron-Cohen, Simon, and Sally Wheelwright. "The Empathy Quotient: An Investigation of Adults with Asperger Syndrome or High Functioning Autism, and Normal Sex Differences." *Journal of Autism and Developmental Disorders 34.2 (2004): 163-75.*

Baron-Cohen, Simon, and Sally Wheelwright. "Obsessions in Children with Autism or Asperger Syndrome: A Content Analysis in Terms of Core Domains of Cognition." *British Journal of Psychiatry* 175 (1999): 484-90.

Baron-Cohen, Simon, Sally Wheelwright, Amy Burtenshaw, and Esther Hobson. "Mathematical Talent Is Linked to Autism." *Human Nature* 18 (2007): 125-31.

Baron-Cohen, Simon, Sally Wheelwright, Richard Skinner, Joanne Martin, and Emma Clubley. "The Autism-Spectrum Quotient (AQ): Evidence from Asperger Syndrome/High-Functioning Autism, Males and Females, Scientists and Mathematicians." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 31.1 (2001): 5-17.

Barrett, Justin L. *Born Believers: The Science of Children's Religious Belief*. New York: Simon and Schuster, 2012.

—. *Cognitive Science, Religion, and Theology: From Human Minds to Divine Minds*. West

Conshohocken, PA: Templeton, 2011.

—. "Theological Correctness: Cognitive Constraint and the Study of Religion." *Method and Theory in the Study of Religion* 11 (1999): 325-39.

—. *Why Would Anyone Believe in God?* Lanham: AltaMira, 2004.

Barrett, Justin L., and Frank C. Keil. "Conceptualizing a Nonnatural Entity: Anthropomorphism in God Concepts." *Cognitive Psychology* 31 (1996): 219-47.

Barrett Justin L., and Melanie Nyhof. "Spreading Non-Natural Concepts: The Role of Intuitive Conceptual Structures in Memory and Transmission of Cultural Materials." *Journal of Cognition and Culture* 1 (2001): 69-100.

Barrett, Justin L., and Rebekah A. Richert. "Anthropomorphism or Preparedness? Exploring Children's God Concepts." *Review of Religious Research* 44.3 (2003): 300-312.

Bartels, Daniel M., and David A. Pizarro. "The Mismeasure of Morals: Antisocial Personality Traits Predict Utilitarian Responses to Moral Dilemmas." *Cognition* 121.1 (2011): 154-61.

Bauminger, Nirit, and Connie Kasari. "Brief Report: Theory of Mind in High-Functioning Children with Autism." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 29.1 (1999): 81-86.

Bellini, Scott. "The Development of Social Anxiety in Adolescents with Autism Spectrum Disorders." *Focus on Autism and Other Developmental Disabilities* 21 (2006): 138-45.

—. "Social Skill Deficits and Anxiety in High-Functioning Adolescents with Autism Spectrum Disorders." *Focus on Autism and Other Developmental Disabilities* 19 (2004): 78-86.

Bergman, Michael. *Justification without Awareness*. Oxford: Oxford University Press, 2006.

Bering, Jesse M. *The Belief Instinct: The Psychology of Souls, Destiny, and the Meaning of Life*. New York: W. W. Norton, 2011.

—. "The Existential Theory of Mind." *Review of General Psychology* 6 (2002): 3-24.

—. "The Folk Psychology of Souls." *Behavioral and Brain Sciences* 29 (2006): 453-62.

—. *The God Instinct: The Psychology of Souls, Destiny, and the Meaning of Life*. London: Nicholas Brealey, 2011.

—. "Intuitive Conceptions of Dead Agents' Minds: The Natural Foundations of Afterlife Beliefs as Phenomenological Boundary." *Journal of Cognition and Culture* 2.4 (2002): 263-308.

Bering, Jesse M., and Dominic Johnson. " 'O Lord... You Perceive My Thoughts from Afar': Recursiveness and the Evolution of Supernatural Agency." *Journal of Cognition and Culture* 5 (2005): 118-42.

Bird, Geoff, and Richard Cook. "Mixed Emotions: The Contribution of Alexithymia to Emotional Symptoms of Autism." *Translational Psychiatry* 3 (2013): 1-8.
Bloom, Paul. *Descartes' Baby: How Child Development Explains What Makes Us Human*. London: William Heinemann, 2004.
—. "Is God an Accident?" *Atlantic Monthly*, December 2005.
—. "Religion Is Natural." *Developmental Science* 10 (2007): 147-51.
—. "Religious Belief as an Evolutionary Accident." In *The Believing Primate: Scientific,*
Philosophical, and Theological Reflections on the Origin of Religion, edited by Jeffrey Schloss and Michael Murray, 118-27. Oxford: Oxford University Press, 2009.
—. "Religious Thought and Behaviour as By-Products of Brain Function." *Trends in Cognitive Sciences* 7.3 (2003): 119-24.
Borjigin, Jimo, UnCheol Lee, Tiecheng Liu, Dinesh Pal, Sean Huff, Daniel Klarr, Jennifer Sloboda, Jason Hernandez, Michael M. Wang, and George A. Mashour. "Surge of Neurophysiological Coherence and Connectivity in the Dying Brain." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 110.35 (2013): 14432-37.
Boucher, Jill. "Memory and Generativity in Very High Functioning Autism: A Firsthand Account and an Interpretation." *Autism* 11 (2007): 255-64.
Bowler, D. M. "Theory of Mind in Aspergers Syndrome." *Journal of Child Psychology and Psychiatry and Allied Disciplines* 33.5 (1992): 877-93.
Boyer, Pascal. *The Naturalness of Religious Ideas: A Cognitive Theory of Religion*. Berkeley: University of California Press, 1994.
—. *Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought*. New York: Basic Books, 2001.
—. "Why Is Religion Natural?" *Skeptical Inquirer* 28.2 (March/April 2004).
Boyer, Pascal, and Pierre Lienard. "Whence Collective Rituals? A Cultural Selection Model of Ritualized Behavior." *American Anthropologist* 108 (2006): 814-28.
Braddock, Matthew. "An Evidential Argument for Theism from the Cognitive Science of Religion." In *New Developments in the Cognitive Science of Religion: The Rationality of Religious Belief*, edited by Hans van Eyghen, Rik Peels, and Gijsbert van den Brink. New York: Springer, 2018.
Brezis, Rachel S. "Autism as a Case for Neuroanthropology: Delineating the Role of Theory of Mind in Religious Development." In *The Encultured Brain: An Introduction to Neuroanthropology*, edited by Daniel H. Lende and Greg Downey, 291-314. Cambridge, MA: MIT Press, 2012.
Bulbulia, Joseph. "The Evolution of Religion." In *Oxford Handbook of Evolutionary Psychology*, edited by Robin Ian MacDonald Dunbar and Louise Barrett, 621-36. Oxford: Oxford University Press, 2007.
—. "Nature's Medicine: Religiosity as an Adaptation for Health and Cooperation." In *Where God and Science Meet: How Brain and Evolutionary Studies Alter Our Understanding of Religion*, 3 vols., edited by Patrick McNamara, 1:81-121. Westport: Praeger, 2006.
—. "Religious Costs as Adaptations That Signal Altruistic Intention." *Evolution and Cognition* 10 (2004): 19-38.
—, ed. *The Evolution of Religion: Studies, Theories, and Critiques*. Santa Margarita, CA: Collins Foundation, 2008.
Caldwell-Harris, Catherine L. "Understanding Atheism/Non-belief as an Expected Individual-Differences Variable." *Religion, Brain and Behavior* 2.1 (2012): 4-47.
Caldwell-Harris, Catherine L., Caitlin Fox Murphy, and Tessa Velazquez. "Religious Belief Systems of Persons with High Functioning Autism." In *Proceedings of the 33rd Annual Meeting of the Cognitive Science Society*, 3362-66. Austin: Cognitive Science Society, 2011.
Cappelen, Herman. *Philosophy without Intuitions*. Oxford: Oxford University Press, 2012.
Charlton, Bruce. "Clever Sillies: Why High IQ People Tend to Be Deficient in Common Sense." *Medical Hypotheses* 73.6 (2009): 867-70.
Choe, So Young, and Kyung-Hwan Min. "Who Makes Utilitarian Judgments? The Influences of Emotions on Utilitarian Judgments." *Judgment and Decision Making* 6 (2011): 580-92.
Chomsky, Noam. *The Essential Chomsky*. New York: New Press, 2008.
—. *Rules and Representations*. Oxford: Basil Blackwell, 1980.
Chung, Yu Sun, Deanna Barch, and Michael Strube. "A Meta-Analysis of Mentalizing Impairments in Adults with Schizophrenia and Autism Spectrum Disorder." *Schizophrenia Bulletin* 40.33 (2014): 602-16.

Cialdini, Robert B., and Noah J. Goldstein. "Social Influence: Compliance and Conformity." *Annual Review of Psychology* 55 (2004): 591-621.

Clark, Kelly James. "Atheism and Analytic Thinking." In *The Science and Religion Dialogue: Past and Future, edited by Michael Welker*, 245-56. New York: Peter Lang, 2014.

—. "Atheism, Inference, and Intuition." In *Advances in Religion, Cognitive Science, and Experimental Philosophy, edited by Helen De Cruz and Ryan Nichols*, 103-18. London: Bloomsbury Academic, 2017.

—. "How Real People Believe: Reason and Belief in God." In *Science and Religion in Dialogue*, 2 vols., edited by Melville Y. Stewart, 1:481-99. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2010.

—. "Is Theism a Scientific Hypothesis? Reply to Maarten Boudry." *Reports of the National*
Centre for Science Education 35.5, 5.2 (September-October 2015).

—. "Rappin' Religion's Solution to the Puzzle of Human Cooperation." *Huffington Post*, November 11, 2015.

—. "Reformed Epistemology and the Cognitive Science of Religion." In *Science and Religion in Dialogue*, 2 vols., edited by Melville Y. Stewart, 1:500-513. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2010.

—. *Return to Reason*. Grand Rapids: Eerdmans, 1990.

—. "Spirituality Wired: The Science of the Mind and the Rationality of Belief and Unbelief." *Revista Brasileira de Filosofia da Religião* 3.1 (2016): 9-35.

Clark, Kelly James, and Justin Barrett. "Reformed Epistemology and the Cognitive Science of Religion." *Faith and Philosophy* 27.2 (2010): 174-89.

—. "Reidian Religious Epistemology and the Cognitive Science of Religion." *Journal of the American Academy of Religion* 79.3 (2011): 639-75.

Clark, Kelly James, and Dani Rabinowitz. "Knowledge and the Cognitive Science of Religion." *European Journal of Philosophy of Religion* 3.1 (2011): 67-81.

Clark, Kelly J., and Ingela Visuri. "Autism and the Panoply of Religious Belief, Disbelief and Experience." In *The Neurology of Religion*, edited by A. Coles and J. Collicutt. Cambridge: Cambridge University Press, forthcoming.

Clifford, William K. *Lectures and Essays*, edited by Leslie Stephen and Frederick Pollock. London: Macmillan, 1886.

Conee, Earl, and Richard Feldman. "Evidentialism." *Philosophical Studies* 48 (1985): 15-34.

Crockett, Molly J., Luke Clark, Marc D. Hauser, and Trevor W. Robbins. "Serotonin Selectively Influences Moral Judgment and Behavior through Effects on Harm Aversion." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 107 (2010): 17433-38.

Darwin, Charles R. *The Descent of Man*. London: J. Murray, 1874.

Dawkins, Richard. *The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe without Design*. New York: W. W. Norton, 1986.

—. *A Devil's Chaplain: Reflections on Hope, Lies, Science, and Love*. Boston: Houghton Mifflin, 2003.

—. *The God Delusion*. Boston: Houghton Mifflin, 2006.

De Cruz, Helen. "Cognitive Science of Religion and the Study of Theological Concepts." *Topoi* 33.2 (2013): 487-97.

Deeley, Quinton. "Cognitive Style, Spirituality, and Religious Understanding: The Case of Autism." *Journal of Religion, Disability and Health* 13.1 (2009): 77-82.

Dennett, Daniel C. *Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon*. New York: Viking, 2006.

Dickson, Lisa. "Race and Gender Differences in College Major Choice." *Annals of the American Academy of Political and Social Sciences* 627.1 (2010): 108-24.

Dougherty, Trent, ed. *Evidentialism and Its Discontents*. Oxford: Oxford University Press, 2011.

Doyen, Stéphane, Olivier Klein, Cora-Lise Pichon, and Axel Cleeremans. "Behavioral Priming: It's All in the Mind, but Whose Mind?" *PLOS One* 7.1 (2012).

Dubin, Nick, and Janet E. Graetz. "Through a Different Lens: Spirituality in the Lives of Individuals with Asperger's Syndrome." *Journal of Religion, Disability and Health* 13.1 (2009): 29-39.

Elqayam, Shira, and Jonathan Evans. "Subtracting 'Ought' from 'Is': Descriptivism versus Normativism in the Study of Human Thinking." *Behavioral and Brain Sciences* 34 (2011): 233-90.

Evans, C. Stephen. *Natural Signs and Knowledge of God: A New Look at Theistic Arguments*. New York: Oxford University Press, 2012.

Feldman, Fred. *Epistemology*. Upper Saddle River, NJ: Pearson, 2002.

Frederick, Shane. "Cognitive Reflection and Decision Making." *Journal of Economic Perspectives* 19 (2005): 25-42.

Frith, Uta, John Morton, and Alan M. Leslie. "The Cognitive Basis of a Biological Disorder: Autism." *Trends in Neurosciences* 14 (1991): 433-38.

Fumerton, Richard. *Epistemology*. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2006.

Gervais, Will M., and Ara Norenzayan. "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief." *Science* 336 (2012): 493-96.

Ghiselin, Michael. *The Economy of Nature and the Evolution of Sex*. Berkeley: University of California Press, 1974.

Glenn, Andrea L., Koleva Spassena, Ravi Iyer, Jesse Graham, and Peter H. Ditto. "Moral Identity in Psychopathy." *Judgment and Decision Making* 5 (2010): 497-505.

Goldman, Samuel. "Why Isn't My Professor Conservative?" *American Conservative*, January 7, 2016, http://www.theamericanconservative.com/articles/why-isnt-my-professor-conservative/.

Gould, Stephen Jay, and Richard C. Lewontin, "The Spandrels of San Marco and the Panglossian Paradigm: A Critique of the Adaptationist Programme." *Proceedings of the Royal Society B: Biological Sciences* 205 (1979): 581-98.

Grandin, Temple. *Thinking in Pictures: My Life with Autism*. Expanded ed. New York: Vintage Books, 2006.

Granqvist, Pehr, Mats Fredrikson, Patrik Unge, Andrea Hagenfeldt, Sven Valind, Dan Larhammar, and Marcus Larsson. "Sensed Presence and Mystical Experiences Are Predicted by Suggestibility, Not by the Application of Transcranial Weak Complex Magnetic Fields." *Neuroscience Letters* 379.1 (2005): 1-6.

Greco, John. "How to Reid Moore." *Philosophical Quarterly* 52.209 (2002): 544-63.

—. *Putting Skeptics in Their Place: The Nature of Skeptical Arguments and Their Role in Philosophical Inquiry*. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

Griffiths, Paul E., and John S. Wilkins. "Evolutionary Debunking Arguments in Three Domains: Fact, Value, and Religion." In *A New Science of Religion*, edited by Greg Dawes and James Maclaurin, 133-46. New York: Routledge, 2012.

Guthrie, Stewart. "A Cognitive Theory of Religion." *Current Anthropology* 21.2 (1980): 181-203.

—. *Faces in the Clouds*. Oxford: Oxford University Press, 1993.

Haidt, Jonathan. *The Righteous Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion*. New York: Pantheon Books, 2012.

Hale, Frederick. "Religious Disbelief and Intelligence: The Failure of a Contemporary Attempt to Correlate National Mean IQs and Rates of Atheism." *Journal for the Study of Religion* 24.1 (2011): 37-53.

Hamer, Dean. *The God Gene: How Faith Is Hardwired into Our Genes*. New York: Doubleday, 2004.

Happé, Francesca G. E. "An Advanced Test of Theory of Mind: Understanding of Story Characters' Thoughts and Feelings by Able Autistic, Mentally Handicapped and Normal Children and Adults." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 24.2 (1994): 129-54.

—. "The Role of Age and Verbal-Ability in the Theory of Mind Task-Performance of Subjects with Autism." *Child Development* 66.3 (1995): 843-55.

Harris, Sam. "This Must Be Heaven." *The Blog*, October 12, 2012, http://www.samharris.org/blog/item/this-must-be-heaven.

Haselton, Martie G. "The Sexual Overperception Bias: Evidence of a Systematic Bias in Men from a Survey of Naturally Occurring Events." *Journal of Research in Personality* 37 (2003): 43-47.

Haselton, Martie G., and David Buss. "Error Management Theory: A New Perspective on Biases in Cross-Sex Mind Reading." *Journal of Personality and Social Psychology* 78 (2000): 81-91.

Haselton, Martie G., and Daniel Nettle. "The Paranoid Optimist: An Integrative Evolutionary Model of Cognitive Biases." *Personality and Social Psychology Review* 10 (2006): 47-66.

Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. *Encyclopaedia of the Philosophical Sciences*. 3rd ed. Translated by William Wallace. 1830.

Henrich, Joseph. "The Evolution of Costly Displays, Cooperation, and Religion: Credibility Enhancing Displays and Their Implications for Cultural Evolution." *Evolution and Human Behavior* 30 (2009): 244-60.

Henrich, Joseph, Steven J. Heine, and Ara Norenzayan. "The Weirdest People in the World?" *Behavioral and Brain Sciences* 33 (2010): 61-135.

Hercz, Robert. "The God Helmet." http://www.skeptic.ca/Persinger.htm.

Heywood, Bethany T. "Meant to Be: How Religious Beliefs, Cultural Religiosity, and Impaired Theory of Mind Affect the Implicit Bias to Think Teleologically." PhD diss., Queens University Belfast, 2010.

Heywood, Bethany T., and Jesse M. Bering. " 'Meant To Be': How Religious Beliefs and Cultural Religiosity Affect the Implicit Bias to Think Teleologically." *Religion, Brain and Behavior* 4 (2013): 183-201.

Hill, Elisabeth, Sylvie Berthoz, and Uta Frith. "Cognitive Processing of Own Emotions in Individuals with Autistic Spectrum Disorder and in Their Relatives." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 34 (2004): 229-35.

Hirschfeld, Lawrence A., and Susan A. Gelman, eds. *Mapping the Mind: Domain Specificity in Cognition and Culture*. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

Hodge, K. Mitch. "On Imagining the Afterlife." *Journal of Cognition and Culture* 11 (2011): 367-89.

Hodges, Sara D., Carissa A. Sharp, Nicholas J. S. Gibson, and Jessica M. Tipsord. "Nearer My God to Thee: Self-God Overlap and Believers' Relationships with God." *Self and Identity* 12.3 (2012): 1-20.

Hodson, Gordon, and Michael A. Busseri. "Bright Minds and Dark Attitudes: Lower Cognitive Ability Predicts Greater Prejudice through Right-Wing Ideology and Low Intergroup Contact." *Psychological Science* 23 (2012): 187-95.

Hurlburt, Russell T., Francesca G. Happé, and Uta Frith. "Sampling the Form of Inner Experience in Three Adults with Asperger Syndrome." *Psychological Medicine* 24 (1994): 385-95.

Izuma, Keise, Kenji Matsumoto, Colin F. Camerer, and Ralph Adolphs. "Insensitivity to Social Reputation in Autism." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 108.42 (2011): 17302-7.

James, William. *Pragmatism*. Indianapolis: Hackett, 1981.

—. *The Will to Believe and Other Essays in Popular Philosophy*. New York: Dover, 1956.

James, William, and Dominic Johnson. "God's Punishment and Public Goods." *Human Nature* 16.4 (2005): 410-46.

Johnson, Dominic, and Jesse Bering. "Hand of God, Mind of Man: Punishment and Cognition in the Evolution of Cooperation." In *The Believing Primate: Scientific, Philosophical, and Theological Reflections on the Origin of Religion*, edited by Michael J. Murray and Jeffrey Schloss, 26-44. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Johnson, Dominic, and Oliver Krüger. "The Good of Wrath: Supernatural Punishment and the Evolution of Cooperation." *Political Theology* 5.2 (2004): 157-73.

Jolliffe, Therese, and Simon Baron-Cohen. "The Strange Stories Test: A Replication with High-Functioning Adults with Autism or Asperger Syndrome." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 29.5 (1999): 395-406.

Jong, Jonathan. "Explaining Religion (Away?): Theism and the Cognitive Science of Religion." *Sophia* 52 (2012): 521-33.

—. "Implicit Measures in the Experimental Psychology of Religion." In *A New Science of Religion, edited by Gregory W. Dawes and James McClaurin*, 43-64. New York: Routledge, 2012.

Kahane, Guy. "Evolutionary Debunking Arguments." *Noûs* 45 (2011): 103-25.

Kahane, Guy, Jim A. C. Everett, Brian D. Earp, Miguel Farias, and Julian Savalescu. "'Utilitarian' Judgments in Sacrificial Moral Dilemmas Don't Reflect Impartial Concern for the Greater Good." *Cognition* 134 (2015): 193-209.

Kahneman, Daniel. *Thinking Fast and Slow*. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2011.

Kang, Jerry, and Kristin Lane. "Seeing through Colorblindness: Implicit Bias and the Law." *UCLA Law Review* 58.2 (2010): 465-520.

Kapogiannis, Dimitrios, Aron K. Barbey, Michael Su, Giovanna Zamboni, Frank Krueger, and Jordan Grafman. "Cognitive and Neural Foundations of Religious Belief." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 106.12 (2009): 4876-81.

Kelemen, Deborah. "Are Children 'Intuitive Theists'? Reasoning about Purpose and Design in Nature." *Psychological Science* 15.5 (2004): 295-301.

Kirkpatrick, Lee A. "Evolutionary Psychology as a Foundation for the Psychology of Religion." In *The Psychology of Religion: A Multidisciplinary Approach*, 2nd ed., edited by Raymond F. Paloutzian and Crystal L. Park, 118-37. New York: Guilford, 2013.

Koenigs, Michael, Michael Kruepke, Joshua Zeier, and Joseph P. Newman. "Utilitarian Moral Judgment in Psychopathy." *Social, Cognitive and Affective Neuroscience* 7.6 (2012): 708-14.

Kornblith, Hilary. *On Reflection*. Oxford: Oxford University Press, 2012.

Ladd, Kevin L., and Bernard Spilka. "Inward, Outward, and Upward: Cognitive Aspects of Prayer." *Journal for the Scientific Study of Religion* 41.3 (2002): 475-84.

Laird, Steven P., C. R. Snyder, Michael A. Rapoff, and Sam Green. "Measuring Private Prayer: Development, Validation, and Clinical Application of the Multidimensional Prayer Inventory." *International Journal for the Psychology of Religion* 14.4 (2004): 251-72.

Lawson, E. Thomas, and Robert N. McCauley. *Rethinking Religion: Connecting Cognition and Culture*. Cambridge: Cambridge University Press, 1990.

Libet, B., C. A. Gleason, E. W. Wright, and D. K. Pearl. "Time of Conscious Intention to Act in Relation to Onset of Cerebral Activity (Readiness-Potential): The Unconscious Initiation of a Freely Voluntary Act." *Brain* 106 (1983): 623-42.

Lind, Sophie E. "Memory and the Self in Autism Spectrum Disorder: A Review and Theoretical Framework." *Autism* 14 (2010): 430-56.

Lycan, William G. *Judgment and Justification*. Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

Lynn, Richard, John Harvey, and Helmuth Nyborg. "Average Intelligence Predicts Atheism Rates across 137 Nations." *Intelligence* 37 (2009): 11-15.

Machery, Edouard, Ron Mallon, Shaun Nichols, and Stephen P. Stich. "Semantics, Cross-Cultural Style." *Cognition* 92.3 (2004): B1-B12.

McCauley, Robert N. *Why Religion Is Natural and Science Is Not*. Oxford: Oxford University Press, 2011.

McGinn, Colin. *The Problems of Philosophy: The Limits of Inquiry*. Hoboken, NJ: Wiley-Blackwell, 1993.

McNamara, Patrick, and Paul M. Butler. "The Neuropsychology of Religious Experience." In *The Psychology of Religion: A Multidisciplinary Approach*, 2nd ed., edited by Raymond F. Paloutzian and Crystal L. Park, 215-33. New York: Guilford, 2013.

Mercier, Hugo, and Dan Sperber, "Why Do Humans Reason? Arguments for an Argumentative Theory." *Behavioral and Brain Sciences* 34.2 (2011): 57-74.

Mitchell, Jason P. "Activity in Right Temporo-parietal Junction Is Not Selective for Theory-of-Mind." *Cerebral Cortex* 18.2 (2008): 262-71.

Morewedge, Carey K., and Michael Clear. "Anthropomorphic God Concepts Engender Moral Judgment." *Social Cognition* 26.2 (2008): 182-89.

Murray, Michael J. "Scientific Explanations of Religion and the Justification of Religious Belief." In *The Believing Primate: Scientific, Philosophical, and Theological Reflections on the Origin of Religion, edited by Michael J. Murray and Jeffrey Schloss,* 168-78. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Murray, Michael J., and Andrew Goldberg. "Evolutionary Accounts of Religion: Explaining and Explaining." In *The Believing Primate: Scientific Philosophical and Theological Reflections on the Origin of Religion, edited by Michael J. Murray and Jeffrey Schloss,* 179-99. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Närhi, Jani. "Beautiful Reflections: The Cognitive and Evolutionary Foundations of Paradise Representations." *Method and Theory in the Study of Religion* 20 (2008): 339-65.

Nichols, Ryan, and Paul Draper. "Diagnosing Cognitive Biases in Philosophy of Religion." *The Monist* 96.3 (2013): 420-46.

Nichols, Shaun, and Joshua Knobe. "Moral Responsibility and Determinism: The Cognitive Science of Folk Intuitions." *Noûs* 41.4 (2007): 663-85.

Nichols, Shaun, Stephen Stich, and Jonathan M. Weinberg. "Metaskepticism: Meditations in Ethno-Epistemology." In *The Skeptics*, edited by Stephen Luper, 227-47. Aldershot: Ashgate, 2003.

Nickerson, Raymond. "Confirmation Bias: A Ubiquitous Phenomenon in Many Guises." *Review of General Psychology* 2 (1998): 175-220.

Nietzsche, Friedrich. *The Gay Science: With a Prelude in Rhymes and an Appendix of Songs*. New York: Vintage, 2010.

Norenzayan, Ara. *Big Gods: How Religion Transformed Cooperation and Conflict*. Princeton: Princeton University Press, 2013.

Norenzayan, Ara, and Will M. Gervais. "The Origins of Religious Disbelief." *Trends in Cognitive Sciences* 17.1 (2013): 20-25.

Norenzayan, Ara, Will M. Gervais, and Kali H. Trzesniewski. "Mentalizing Deficits Constrain Belief in a Personal God." PLOS One 7.5 (2012).

Norenzayan, Ara, and Azim F. Shariff. "The Origin and Evolution of Religious Prosociality." *Science* 322 (2008): 58-62.

Norenzayan, Ara, Azim F. Shariff, Will M. Gervais, Aiyana K. Willard, Rita A. McNamara, Edward Slingerland, and Joseph Henrich. "The Cultural Evolution of Prosocial Religions." *Behavioral and Brain Sciences* 39 (2014): 1-86.

Norris, Pippa, and Ronald Inglehart. *Sacred and Secular: Religion and Politics Worldwide*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.

O'Hare, Anne E., Lynne Bremner, Marysia Nash, Francesca Happé, and Luisa M. Pettigrew. "A Clinical Assessment Tool for Advanced Theory of Mind Performance in 5 to 12 Year Olds." *Journal of Autism and Developmental Disorders* 39.6 (2009): 916-28.

Ozonoff, Sally, Bruce F. Pennington, and Sally Rogers. "Executive Function Deficits in High-Functioning Autistic Children: Relationship to Theory of Mind." *Journal of Child Psychology and Psychiatry* 32 (1991): 1081-1106.

Ozonoff, Sally, Sally Rogers, and Bruce F. Pennington. "Asperger's Syndrome: Evidence of an Empirical Distinction from High-Functioning Autism." *Journal of Child Psychiatry and Psychology 32 (1991): 1107-22.*

Pennycock, Gordon, James Allan Cheyne, Paul Seli, Derek J. Koehler, and Jonathan A. Fugelsang. "Analytic Cognitive Style Predicts Religious and Paranormal Belief." *Cognition* 123.3 (2012): 335-46.

Perner, Josef, and Heinz Wimmer. " 'John Thinks That Mary Thinks That...': Attribution of Second-Order Beliefs by 5- to 10-year-old Children." *Journal of Experimental Child Psychology* 39 (1985): 437-71.

Piazza, Jared, Jesse M. Bering, and Gordon Ingram. " 'Princess Alice Is Watching You': Children's Belief in an Invisible Person Inhibits Cheating." *Journal of Experimental Child Psychology* 109.3 (2011): 311-20.

Plantinga, Alvin. *Warrant: The Current Debate*. Oxford: Oxford University Press, 1993.

—. *Warrant and Proper Function*. Oxford: Oxford University Press, 1993.

—. *Warranted Christian Belief*. Oxford: Oxford University Press, 2000.

Plantinga, Alvin, and Nicholas Wolterstorff, eds. *Faith and Rationality: Reason and Belief in God*. Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1984.

Poldrack, Russell A. "Can Cognitive Processes Be Inferred from Neuroimaging Data?" *Trends in Cognitive Sciences* 10.2 (2006): 59-63.

Premack, David, and Guy Woodruff. "Does the Chimpanzee Have a Theory of Mind?" *Behavioral and Brain Sciences* 4 (1978): 515-26.

Prinz, Jesse J. "Against Moral Nativism." In *Stich and His Critics*, edited by Michael Bishop and Dominic Murphy, 167-89. Malden, MA: Wiley-Blackwell, 2009.

Pyysiïinen, Ilkka. *Supernatural Agents: Why We Believe in Souls, Gods, and Buddhas*. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Quine, Willard Van Orman. *Ontological Relativity and Other Essays*. New York: Columbia University Press, 1969.

Raver, Anne. "Qualities of an Animal Scientist: Cow's Eye View and Autism." *New York Times*, August 5, 1997. https://www.nytimes.com/1997/08/05/science/qualities-of-an-animal-scientistcow-s-eye-view-and-autism.html.

Read, Max. "*Newsweek* Cover Story or Internet Posting about Drugs? A Quiz." *Gawker*, October 8, 2012. http://gawker.com/5949892/newsweek-cover-story-or-internet-posting-about-dugs-a-quiz.

Reddish, Paul, Penny Tok, and Radek Kundt. "Religious Cognition and Behaviour in Autism: The Role of Mentalizing." *International Journal for the Psychology of Religion* (2015): 95-112.

Reid, Thomas. *Essays on the Active Powers of the Human Mind.* 1788.
—. *Essays on the Intellectual Powers of Man.* 1785.
—. *An Inquiry into the Human Mind on the Principles of Common Sense.* 1764.
Richell, Rebecca A., Derek G. V. Mitchell, C. Newman, A. Leonard, Simon Baron-Cohen, and R. James R. Blair. "Theory of Mind and Psychopathy: Can Psychopathic Individuals Read the 'Language of the Eyes'?" *Neuropsychologia* 41.5 (2003): 523-26.
Rosenthal, Robert. *Experimenter Effects in Behavioral Research.* New York: Appleton-Century-Crofts, 1966.
Sacks, Oliver. "Seeing God in the Third Millennium." *Atlantic Monthly*, December 2012. https://www.theatlantic.com/health/archive/2012/12/seeing-god-in-the-third-millennium/266134/.
Sahraie, Arash, Paul B. Hibbard, Ceri T. Trevethan, Kay L. Ritchie, Lawrence Weiskrantz. "Consciousness of the First Order in Blindsight." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 49.107 (December 2010): 21217-22; DOI:10.1073/pnas.1015652107.
Samson, Dana, Ian A. Apperly, Jason J. Braithwaite, Benjamin J. Andrews, and Sarah E. Bodley Scott. "Seeing It Their Way: Evidence for Rapid and Involuntary Computation of What Other People See." *Journal of Experimental Psychology: Human Perception and Performance* 36 (2010): 1255-66.
Saxe, Rebecca, and Anna Wexler. "Making Sense of Another Mind: The Role of the Right Temporoparietal Junction." *Neuropsychologia* 43.10 (2005): 1391-99.
Schaap-Jonker, Hanneke, Bram Sizoo, Jannine van Schothorst-van Roekeld, and Jozef J. Corveleyn. "Autism Spectrum Disorders and the Image of God as a Core Aspect of Religiousness." *International Journal for the Psychology of Religion* 23.2 (2012): 145-60.
Schjoedt, Uffe, Hans Stdkilde-Jrgensen, Armin W. Geertz, and Andreas Roepstorff. "Highly Religious Participants Recruit Areas of Social Cognition in Personal Prayer." *Social Cognitive and Affective Neuroscience* 4.2 (2009): 199-207.
Shafir, Eldar, ed., *The Behavioral Foundations of Public Policy.* Princeton: Princeton University Press, 2012.
Shenhav, Amitai, David G. Rand, and Joshua D. Greene. "Divine Intuition: Cognitive Style Influences Belief in God." *Journal of Experimental Psychology: General* 141 (2012): 423-28.
Sherif, Muzafer. "An Experimental Approach to the Study of Attitudes." *Sociometry* 1.1 (1937): 90-98.
—. *The Psychology of Social Norms.* New York: Harper, 1936.
—. *A Study of Some Social Factors in Perception.* New York: Columbia University Press, 1935.
Simmons, Joseph P., Leif D. Nelson, and Uri Simonsohn. "False-Positive Psychology: Undisclosed Flexibility in Data Collection and Analysis Allows Presenting Anything as Significant." *Psychological Science* 22.11 (2011): 1359-66.
Smith, Adam. "The Empathy Imbalance Hypothesis of Autism: A Theoretical Approach to Cognitive and Emotional Empathy in Autistic Development." *Psychological Record* 59.3 (2009): 489-510.
Sosis, Richard. "The Adaptationist-Byproduct Debate on the Evolution of Religion: Five Misunderstandings of the Adaptationist Program." *Journal of Cognition and Culture* 9.3 (2009): 315-32.
—. "Does Religion Promote Trust? The Role of Signaling, Reputation, and Punishment." *Interdisciplinary Journal of Research on Religion* 1 (2005): 1-30.
—. "Religion and Intragroup Cooperation: Preliminary Results of a Comparative Analysis of Utopian Communities." *Cross-Cultural Research* 34 (2000): 70-87.
—. "Why Aren't We All Hutterites? Costly Signaling Theory and Religious Behavior." *Human Nature* 14 (2003): 91-127.
Spelke, Elizabeth, and Katherine D. Kinzler. "Core Knowledge." *Developmental Science* 11 (2007): 89-96.
Sperber, Dan. "Intuitive and Reflected Beliefs." *Mind and Language* 12.1 (1997): 67-83.
Sperber, Dan, Francesco Cara, and Vittorio Girotto. "Relevance Theory Explains the Selection Task." *Cognition* 57 (1995): 31-95.
Stark, Rodney. *What Americans Really Believe.* Waco, TX: Baylor University Press, 2005.
Stenger, Victor. "Not Dead Experiences (NDEs)." *Huffington Post*, October 11, 2012. https://www.huffingtonpost.com/victor-stenger/not-dead-expereirnces-nde_b_1957920.html.
Stoet, Gijsbert, and David C. Geary. "Sex Differences in Mathematics and Reading Achievement Are

Inversely Related: Within- and Across-Nation Assessment of 10 Years of PISA Data." *PLOS One* (2013).

Swain, Stacey, Joshua Alexander, and Jonathan M. Weinberg. "The Instability of Philosophical Intuitions: Running Hot and Cold on True Temp." *Philosophy and Phenomenological Research 76.1 (2008): 138-55.*

Swinburne, Richard. *Epistemic Justification.* Oxford: Oxford University Press, 2001.

—. *The Existence of God.* Oxford: Oxford University Press, 2004.

Szalavitz, Maia. "Q&A: An Interview with Oliver Sacks." *Time: Health & Family*, October 27, 2010. http://healthland.time.com/2010/10/27/mind-reading-an-interview-with-oliver-sacks.

Tager-Flusberg, Helen. "Language and Understanding Minds: Connections in Autism." In *Understanding Other Minds: Perspectives from Developmental Cognitive Neuroscience*, 2nd ed., edited by Simon Baron-Cohen, Helen Tager-Flusberg, and Donald J. Cohen, 124-49. Oxford: Oxford University Press, 2000.

Tager-Flusberg, Helen, and Robert M. Joseph. "How Language Facilitates the Acquisition of False Belief Understanding in Children with Autism." In *Why Language Matters in Theory of Mind*, edited by Janet Wilde Astington and Jodie A. Baird, 298-318. Oxford: Oxford University Press, 2005.

Tammet, Daniel. *Born on a Blue Day: Inside the Extraordinary Mind of an Autistic Savant.* New York: Free Press, 2007.

Thurow, Joshua. "Does Cognitive Science Show Belief in God to Be Irrational? The Epistemic Consequences of the Cognitive Science of Religion." *International Journal for Philosophy of Religion 74 (2013): 77-98.*

Tok, Penny. "Inner Speech Use in Autism." PhD diss., Victoria University of Wellington, New Zealand, 2013.

Tremlin, Todd. "Divergent Religion: A Dual-Process Model of Religious Thought, Behavior, and Morphology." In *Mind and Religion: Psychological and Cognitive Foundations of Religiosity*, edited by Harvey Whitehouse and Robert N. McCauley, 69-82. Walnut Creek, CA: AltaMira, 2005.

—. *Minds and Gods: The Cognitive Foundations of Religion.* New York: Oxford University Press, 2006.

Trigg, Roger, and Justin L. Barrett, eds. *The Roots of Religion: Exploring the Cognitive Science of Religion. Farnham, Surrey:* Ashgate, 2014.

Varga, Alexandra L., and Kai Hamburger. "Beyond Type 1 vs. Type 2 Processing: The Tri-Dimensional Way." *Frontiers in Psychology* 5 (2014): 993.

Visuri, Ingela. "Could Everyone Talk to God? A Case Study on Asperger's Syndrome, Religion and Spirituality." *Journal of Religion, Health and Disability* 16.4 (2012): 352-78.

Wechsler, David. *Wechsler Adult Intelligence Scale (WAIS-III).* 3rd ed. San Antonio: Psychological Corporation, 1997.

—. *Wechsler Intelligence Scale for Children (WISC-III).* 3rd ed. San Antonio: Psychological Corporation, 1991.

Weinberg, Jonathan M., Shaun Nichols, and Stephen Stich. "Normativity and Epistemic Intuitions." *Philosophical Topics* 29 (2001): 429-60.

White, Sarah, Elisabeth L. Hill, Francesca Happe, and Uta Frith. "Revisiting the Strange Stories: Revealing Mentalizing Impairments in Autism." *Child Development* 80.4 (2009): 1097-1117.

Whitehouse, Harvey. *Modes of Religiosity: A Cognitive Theory of Religious Transmission.* Walnut Creek, CA: AltaMira, 2004.

Whitehouse, Harvey, and Robert N. McCauley. *Mind and Religion: Psychological and Cognitive Foundations of Religiosity.* Walnut Creek, CA: AltaMira, 2005.

Whittington, B. L., and S. J. Scher. "Prayer and Subjective Well-Being: An Examination of Six Different Types of Prayer." *International Journal for the Psychology of Religion* 20.1 (2010): 59-68.

Wiech, Katje, Guy Kahane, Nicholas Shackel, Miguel Farias, Julian Savulescu, and Irene Tracey. "Cold or Calculating? Reduced Activity in the Subgenual Cingulate Reflects Decreased Aversion to Harming in Counterintuitive Utilitarian Judgment." *Cognition* 126 (2013): 364-72.

Wielenberg, Erik. "Evolutionary Debunking Arguments in Religion and Morality." In *Explanation in Ethics and Mathematics, edited by Uri Leibowitz and Neil Sinclair,* 83-102. Oxford: Oxford University Press, 2016.

Wigger, J. Bradley, Katrina Paxson, and Lacey Ryan. "What Do Invisible Friends Know? Imaginary

Companions, God, and Theory of Mind." *International Journal for the Psychology of Religion* 23 (2013): 2-14.

Williams, Donna. *Nobody Nowhere: The Extraordinary Autobiography of an Autistic.* New York: Times Books, 1992.

Williams, Michael. *Problems of Knowledge: A Critical Introduction to Epistemology.* Oxford: Oxford University Press, 2001.

Williamson, Timothy. *Knowledge and Its Limits.* Oxford: Oxford University Press, 2000.

Wimmer, Heinz, and Josef Perner. "Beliefs about Beliefs: Representation and Constraining Function of Wrong Beliefs in Young Children's Understanding of Deception." *Cognition* 13 (1983): 103-28.

Wolterstorff, Nicholas. *Reason within the Bounds of Religion.* 2nd ed. Grand Rapids: Eerdmans, 1984.

—. *Thomas Reid and the Story of Epistemology.* Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Wood, Jay. *Epistemology: Becoming Intellectually Virtuous.* Downers Grove, IL: InterVarsity, 1998.

Wykstra, Stephen J. "Toward a Sensible Evidentialism: On the Notion of 'Needing Evidence.' " In *Philosophy of Religion: Selected Readings*, 2nd ed., edited by William Rowe and William Wainwright, 426-37. San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1989.

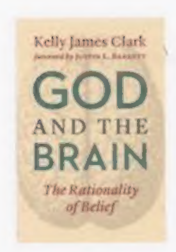
Xie, Yu, and Kimberlee A. Shauman. *Women in Science: Career Processes and Outcomes.*

Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003.

Zimmer, Carl. "Faith-Boosting Genes: A Search for the Genetic Basis of Spirituality." *Scientific American* 291.4 (October 2004).

Zinnbauer, Brian J., and Kenneth I. Pargament. "Religiousness and Spirituality." In *The Psychology of Religion: A Multidisciplinary Approach, edited by Raymond F. Paloutzian and Crystal L. Park, 21-42. New York: Guilford, 2005.*

Zuckerman, Phil. "Atheism: Contemporary Numbers and Patterns." In *The Cambridge Companion to Atheism, edited by Michael Martin,* 47-65. Cambridge: Cambridge University Press, 2006.



الله والدماغ

عقلانية الاعتقاد

يصف العديد من المتشككين المعتقد الديني بأنه عكاز نفسي ، أو شكل من أشكال تحقيق الأماني ، أو حتى تشنج في الدماغ. ولكن هل تشير التطورات الأخيرة في دراسة العقل إلى وجود منطق للإيمان؟ يربط كيلي جيمس كلارك في هذا الكتاب الفلسفة بالعلم لاستكشاف أسئلة معقدة حول طبيعة الإيمان والعقل: هل أثبت العلم، وتحديدًا علم الدين الإدراكي، أن الإيمان بالله وهم نتج عن خلل دماغي؟ هل الملحدين أذكى وأكثر عقلانية من المؤمنين؟ هل تحدد جيناتنا طبيعة ميولنا الدينية؟ هل يمكن تخليق التجربة الدينية معمليًا، وإذا أمكن ذلك فهل يدحض ذلك الأديان ويبطل مزاعم الشعور بالمتعالي؟

يقدم المؤلف تفسيرًا فلسفيًا معارضًا للتفسير الإلحادي لمعطيات علم الدين الإدراكي، يبطل فيه بحذر مدروس بعض المفاهيم المغلوطة عن الدين والخبرة الدينية، ويبين أن علم الدين الإدراكي في ذاته لا يبطل ولا يعادي الأديان، بل ربما أمكن استخدام معطياته لدعم وتأييد المعتقدات الدينية كتلك التي تقرر أن الإله الخالق قد فطر الناس على معرفته والتوجه إليه بالعبادة.

يمثل كتاب (الله والدماغ) مقدمة مناسبة للراغبين في دراسة أو التعرف على علم الدين الإدراكي والآثار الفلسفية الناجمة عن معطياته، وقد بذل فيه المؤلف مجهودًا كبيرًا لتبسيط الأفكار وشرحها وأكثر من الأمثلة التقريبية، وتحاشى قدر المستطاع اللغة الأكاديمية الصعبة التي قد تستعصي على غير أهل التخصص.

ابن النديم للنشر والتوزيع
51 شارع نهار بلعيد فويدر ـ وهران
هاتف: 03 76 20 661 213 +
فاكس: 88 97 25 41 213 +
ص.ب: 357 السانيا زرباني محمد
وهران ـ الجمهورية الجزائرية
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون
الحمراء ـ شارع ليون ـ برج ليون، ط6
ص.ب.113/6058
خلوي: 28 28 69 3 961 +
هاتف: 37 04 74 1 961 +
بيروت ـ لبنان
email: rw.culture@yahoo.com

